جمال البنا

كلا ثم كلا

كلا
لفقهاء التقليد كلا لأدعياء التنوير

محاكمة الفكر المصري

المحتويات

ها هو ذا مشروع الأجيال

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُـــــلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِـــــدَةٍ أَن تَقُومُــوا لِلــهِ مَثْنَى وَفُــرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَـاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَـذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَـدَيْ عَـذَابٍ شَدِيدٍ﴾

(سبأ 46)

إن الذي خلق الحقيقة علقمًا لم يُخّل من أهل الحقيقة جيلا

شوقي

والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

أثـارت الشـهادة الـتي أدلى بها فضـيلة الشـيخ محمد الغـزالي في قضـية مقتل الكاتب الصحفي فرج فودة يـوم 22/6/1993 عاصـفة من الاهتمـام واسـتحوذت على الرأي العام المصري وقتئذ، وأعادت إلى السطح مرة أخرى تلك القضية المُسْتَكِنة في القاع دون حسم – قضية الـردة الـتي نـرى أنها في حقيقة الحـال قضـية حرية الفكـر، وفجرت ما يحيط بها من مسائل...

والكتاب الذي بين يدينا يتخذ من هذه الواقعة – أي – شهادة الشيخ الغزالي، وما أثارته من تأييد أو تنديد نقطة انطلاقـــه، وهو لا يـــرى في هـــذا التأييد أو التنديد – إلا "انتطاح عنزين" يعني أنها قضـية ليس لها أصل حقيقي يـبرر النطـاح، وإنما هي ثمـرة "التقليد" من ناحية و"الادعاء" من ناحية أخرى؛ ففقهاء التقليد يتمسـكون بما جـاء في فقه الأسـلاف، ويرفضـون الاجتهـاد، بينما ينسـاق أدعيـاء "التنـوير" كما أطلقـوا على أنفسهم وراء شعارات وزيوف وظواهر لا أصل لها في الحقيقة.

ويبدأ الكتاب فيفند دعوى حد الـردة – ويـذهب إلى أنه "لا حـد.. لا.. اسـتتابة.. لا تعزيـر" ويضع - للـذين يسـتمعون القـول فيتبعـون أحسـنه – نهاية لهـذه القضـية بعد مناقشة مستفيضة لما جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية.. أما الذين في آذانهم وقر وأفئدتهم هواء، فإنك لا تسمع الصم الدعاء..

ثم ينـدار الكتـاب على أدعيـاء التنـوير ويسـقط الآلهة الزائفة الـتي يتعبـدونها: الاشتراكية – الحضارة الأوروبية – القومية العربية، ويتتبع تجربتَّي التنوير المزعومـتين: تجربة محمد علي، وتجربة عبد الناصر ويكشف حقيقتهمـا، ويتقصى الكتـاب في بـاب مستقل أزمة أدعياء التنوير، وهو يـرى أنها "إشـكالية الصـراع بين الـذات والموضـوع" والموضوع الذي يكون علينا جميعا أن نلتزم به هو "مصـر" الـتي يمثل الإيمـان بالـدين جـذر حضـارتها ومحـور مجتمعها وأصل وجـدانها، وأي دعـوة تتجاهل الـدين فـإن مصر تلفظهـا، ومن ثم فـإن دعـوات التنـوير المزعومة لا تجد قبـولًا – رغم أن كل أجهـزة الإعلام والتأثير في أيديهم.. وقد تجاهل أدعياء التنوير هـذا الأصل الأصـيل في المجتمع المصـــري.. بتـــأثير عوامل ذاتية هي الثقافة الأوروبية الـــتي أبعـــدتهم عن جـــذورهم، والانتمـاء السياسي الـذي ادعى الاشـتراكية حينًا من الـدهر، وتجهم للإسـلام.. وأخـيرًا فهناك قله مؤثرة من غير المسلمين – تأثرت بتصورات خاصة أو بتوجيه قيادات كنسية بحيث وضعت نفسـها في مواجهة الإسـلام؛ فما قد يـؤدي إلى كسب له يعـني خسـارة لها.. وقد عالج الفصل الخاص "بحـاجز الـدين" معالجة مستفيضة وضع الأقلية القبطية في مصر – وكيف يمكن أن تكون عنصرا بناءً في المجتمع المصري.

وكما بـدأ الكتـاب بفصل عن "عنـدما ينتطح العـنزان" فإنه يختم بفصل "عنـدما تتصافح اليدان" يدعو الفريقين إلى كلمة سـواء، وهو يضع مشـروعًا للأجيـال من عشر نقـاط لكل من فقهـاء التقليـد. وأدعيـاء التنـوير إذا أخذ كل منهما بـه، فعندئذ تتصـافح اليدان.

من هـذا يتضح أن الكتـاب يكـاد يكـون محاكمة لفكر المجتمع المصـري السـائد. الذي انطوى وتقوقع من ناحية وشط وانفلت من ناحية أخرى.

وقد أَلِفَ الناس أن من يؤيد اليمين.. يعارض اليسار، ومن يقول نعم للأول يقول لا للثاني، أما أن يعارض كـاتب الفـريقين معًـا، ويقـول كلا ثم كلا، فإنه يقطع الجسـور، ويوقد شمعته من طرفيها، ويوقف نفسه في طريق مسدود، فـالفكر الإسـلامي في يد فقهاء التقليد، وأجهزة الإعلام والصحافة في يد أدعياء التنوير.

ولكن ليس هذا هو المهم..

المهم هو "الحقيقة".

وعندما تكون الحقيقة بهذا الحجم، وعنـدما يتهـددها الخطـر، وتطلب من حماتها التضحية..

فلا تردد، ولا مجاملة، ولا خوف من لوم لائم.

﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾

القاهرة: شوال 1414هـ/ أبريل 1994م.

الباب الأول
كلا لفقهاء التقليد

الفصل الأول: عندما ينتطح العنزان.
الفصل الثاني: شهادة الشيخ الغزالي وتوابعها.
الفصل الثالث: دلالات الشهادة وتوابعها.
الفصل الرابع: لا حد، لا استتابة، لا تعزير.

الفصل الأول
عندما ينتطح العنزان

في الحديث النبوي الذي جـرى مجـرى الأمثـال " لا ينتطح فيها عـنزان" ومعـنى الحـديث – كما شـرحه صـاحب النهاية – "أي لا يلتقي اثنـان ضـعيفان، لأن النطـاح من شأن التيوس والكباش لا العنوز، وهو إشارة إلى قضية مخصومة لا يجري فيها خلف أو نزاع[1] ".

والقضية التي هي موضوع هذا الكتاب يمكن أن تكون قضية مخصـومة لا يجـري فيها خلف أو نزاع، لا ينتطح فيها عنزان، فضلا عن الكباش والـتيوس، ولكن – المفارقة – أنها كـادت تمـزق المجتمع المصـري وقد شـغلته وشـغلت ساسـته وصـحافته ردحًا طويلا، ولا تزال تنتظر الحل!

فمن ناحية نجد الشـيوخ والفقهـاء يحملـون بأيمـانهم ما خلفه لهم الأسـلاف من موروثـات فقه وأحكـام، وهم يحملـون هـذه الأسـفار من ألف عـام، منذ أن أغلق بـاب الاجتهاد وقد عكفوا عليها كما عكف آباؤهم، وكما عكف أجـدادهم رجوعًا القهقـرى إلى القرن الرابع الهجري، وقد درسـوها في الجامعـات سـواء منها الدينية أو "المدنيـة" ولا يملكون لها تغييرًا أو يستطيعون فيها تجديدًا؛ لأن هـذا سـيعرض للخطر الكيـان القـائم المسـتقر من ألف عـام ربما بما في ذلك أوضـاعهم نفسـها، وقد اكتسب هـذا الوضع قداسة الدين وجلال القدم وطرزته أسماء الأئمة العظام، فتغييره ليس بالأمر السـهل، وقد يكــون أصــعب ما في عملية التغيــير أنه ليس هنــاك بــديل، أو أن البــديل ليس بالوضوح والجلاء الذي يستحق الدخول في المعركة، لأنهم لم يعرفوا غير هـذا الـتراث فلا يسـتطيعون عنه فكاكًـا، ولأن غـيرهم لم يحكمـوا هـذا الـتراث، فلا يمكنهم معالجته نقدًا وتمحيصًا ولا جدال أن فيه الكثير الطيب على كل حال.

وفي الطـرف الآخر تقف مجموعـات تلقت دراسـاتها في جامعـات أوروبيـة، أو اسـتقتها من مراجع غربيــة، ونشــأت في حضن "البورجوازيــة" المدنية الــتي قطعت أصـولها بالقرية والتقاليـد، وانتمت إلى أحــزاب سياســية – ســواء بحكم الإيمــان أو المصالح والأوضاع – وارتبطت بنظام الحكم الذي لم يكن في فترة ما من تــاريخ مصر الحديث إسلاميًا – بوجه خاص – بل تأثر بـدعاوى بعيـدة عن الإسـلام.. فحملـوا دعـوى "التنــوير" الــذي عنــدما نحلل مفرداته – من كتابــاتهم – يتضح أنها الدولة العلمانية والفصل بين الدين والدولة.. والقول إن الدين مسألة خاصة بين الفرد والله، ولا علاقة له بالنظم السياسية – باختصار النموذج الأوروبي له... ولما كـان معظمهم حاذقًا وذكيًا وتعلم في مدرسة الانتهازية العظمى في العصر الحديث – أعني بها الشـيوعية – الـتي تصطنع الشـعارات وتسـبغ على نفسـها ما تريد من صـفات... إلخ؛ فإنها ربطت دعواها بالمشـروع الحضـاري المزعـوم الـذي عمل له محمد علي وجمـال عبد الناصر وقـام بفضل دعاة التنوير من رفاعة رافع الطهطاوي حتى طه حسين... إلخ.

وهم في التكييف الفكري لا يفضلون فقهـاء التقليـد.. ومن أجل هـذا قلنا أدعيـاء "التنوير"، ففقهاء التقليد يقلدون شيوخ الماضي، وأدعيـاء التنـوير يقلـدون "خواجـات" أوروبا، ولم يستطع لا هؤلاء ولا أولئك – أن يجهدوا فكرهم في التوصل إلى الحل الذي يتفق مع طبيعة هذه البلاد.. ويمكن أن ينتصر على تحديات العصر.

ومنذ أن جــاء نــابليون هــذه البلاد، ودك بمدافعه العــالم القــديم، وأدخل مصر قسـرًا.. العصر الحـديث! ولا تـزال قضـية الانتقـال قائمة لم تحـل، ولم تنتـه، ولم تكن مصر ســعيدة الحظ كاليابــان – مع أنها بــدأت قبلها – ولم تــرزق بــإمبراطور حكيم كـالإمبراطور "ميجي" يضع نصب عينيه المصـلحة العليا للبلاد وللشـعب والنهضة بهمـا، وإنما رزقت في أول الحقبة وآخرها بطـاغيتين عسـكريين – محمد علي وعبد الناصر –

---

[1] **النهاية لابن الأثير، ص 153 ، الجزء الرابع.**

استهدف كل واحد منهما إنشاء إمبراطورية تحمل اسمه ويكون هو محورها، فباء بالفشل وجر الخزي والخذلان على البلاد.

نعم، ظهر جمال الدين الأفغاني، وأمضى في هذه البلاد ثماني سنوات، وكان يمكن أن يؤدي عمله إلى التجديد الإسلامي المنشود، ولكن فشل الثورة العرابية أدى لأن تنزلق الدعوة الإسلامية من بين يديّ الشيخ محمد عبده – تلميذ الأفغاني الأثير – انزلاقة نوعية وليست كمية، فأخذت طابعًا إسلاميًا تساوميًا وليس ثوريًا كفاحيًا، ومهدت هذه الانزلاقة لانزلاقة أخرى على يَدَيّ سعد زغلول – تلميذ محمد عبده الأثير – الذي بدأ الليبرالية/ البورجوازية المصرية وأبعد الإسلام إلى ركن قصي من أركان المجتمع!

أما الهيئة التي تعلقت بها القلوب وبنيت عليها الآمال – الإخوان المسلمون – فإن استشهاد مرشدها أصابها بنكسة لم تقم منها بعد...

وخلال الانقلاب الناصري أعلنها عبد الناصر حربًا شعواء على الإسلام والدعوة الإسلامية، وبسط حكم الإرهاب الذي أخرس الأصوات حتى جاءت 1967 ودمرت كل ما أقامه تدميرًا!..

وجاء السادات وقد تعلم الدرس ووعاه، فطرد الخبراء الروس، وأفرج عن المسجونين وبدأ نوعًا من التعاطف مع الاتجاه الإسلامي، فكسب حرب رمضان، ولكنه احتفظ بحاشية السوء، وتستر على الأخطاء الفاحشة، وترك عددًا من كبار المجرمين يفلت من العقاب.

باختصار، لم يكن السادات مستعدًا للقيام بثورة تطهر البلاد من قاذورات العهد الناصري والمجموعة المنتفعة؛ لأنه هو نفسه كان من ضمنها، ولأنه أراد أن يبقى عليها كقوة يحقق بها نوعًا من التوازن مع القوى الأخرى.. ونتيجة لتردداته، فقد انقلب على حلفائه الإسلاميين، ومات ضحية لكلمته الممطوطة "لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين!".. وكان يجب على أدعياء العلمانية أن ينصبوا له تمثالا، لا أن يقذفوه بالطوب!

وجاء مبارك لينهي حكم ضباط 23 يوليو، ولكن الشلة هي الشلة، وبقايا المنتفعين من الناصرية تتصدر المناصب، فيرأس كبيرهم مجلس الشعب ويضرب بالحريات والضمانات وأحكام القضاء عرض الحائط، بينما يلي أحد ضباط صلاح نصر وزارة الإعلام، وتُعطي وزارة الثقافة لرسام مغمور يتخيل أن الصورة التي يرسمها تباع بسبعين ألفًا لعبقريته الخاصة، وليس لمنصبه الوزاري!..

خلال هذه الحقبة الطويلة (1800 – 1990) لم يعْنَ أي حاكم بمعالجة الأزمة الحضارية معالجة موضوعية.. محمد علي، وعبد الناصر.. وأتباعه عزفوا عن الإسلام وحاولوا مجاملته مرة وعداوته مرات أخرى.. أما المرحلة البورجوازية في تاريخ البلاد – من دستور 23 حتى انقلاب 1952 فكانت أيضًا عازفة عن الإسلام، وإن حدث هذا بطريقتها الخاصة التي تختلف عن الطرق العسكرية لمحمد علي وعبد الناصر.

وكانت الأخطاء تتراكم مع كل جيل، والمشكلة تتعقد مع كل إرجاء وتسويف حتى أصبحت تركة ثقيلة تحمل كل أوزار العهود الماضية، من إرهاب الحكومات، ومن الفساد والكسب الحرام، ومن تزييف إرادة الشعب (99.9%) وكفى! ناهيك بالوصمة الكبرى: الاعتقالات وممارسات التعذيب في السجن الحربي أيام عبد الناصر، وفي سجون أمن الدولة أيام السادات ومبارك، وقهر الشعب وإذلال كرامته..

***

ولكن الخلاف الإيديولوجي لم يأخذ طابع التقطب إلا في الفترة الأخيرة، لأن المجتمع المصري في المرحلة الليبرالية البورجوازية (من دستور 23 حتى انقلاب 1952) توصل إلى وسائل أرضت المؤسسة الدينية الرسمية بحيث سكتت على

ممارسات عديدة لهذا المجتمع مخالفة للشريعة كالتعامل بالربا في الحكومة والبنـوك، وتناول الخمور في المجال العامة، وإباحة البغاء والقمار.. إلخ. ولم يكن من الطــبيعي للمؤسسة الدينية وقد أغمضت العينين على هذه المخالفـات الصـارخة أن تثـير قضـية مثل قتل المرتد، أو على الأقل محاكمته؛ لأن هذه القضية لها حساسياتها؛ ولأنها تصدم أول ما تصدم الأساس الذي يقوم عليه المجتمع البورجوازي، وهو الحرية... لهـذا أمكن لأحد الكتاب (إسماعيل أدهم) أن يصدر كتابه "لماذا أنا ملحد؟"، وأمكن لسـلامة موسى أن يعالج نشأة فكرة الله، أو لمصـطفى محمـود في مرحلته الفكرية الأولى أن يصـدر كتابه عن الله والإنسان الذي يناقض الفكرة الإسلامية.. وعندما عورض كتـاب "من هنا نبـدأ" للشـيخ خالد محمد خالـد، فـإن هـذه المعارضة قـامت بدعاية للكتـاب يتمناها أي مؤلف وكانت خيرًا وبركة عليه.

أما الإخوان المسلمون الذين كان يمكن أن يثيروا هذه القضية، فقد اهتموا ببنـاء أنفسهم وتقديم الأهم على المهم، وكان الأستاذ البنا رحمه الله على أعظم جــانب من الفطنة والذكاء.. وعندما تعرض في مقدمة تفسيره لطه حسين وخلف الله، فإنه أشار إليهما في كياسة وذوق ونقد موضوعي خالص.

وخلال حكم عبد الناصر أخرس الإرهاب والتعـذيب كل صـور المعارضـة، وأعـدم سيد قطب الذي وضع بذرة الاتجاهات المتشـددة، فجعله شـهيدًا، وأضـفى على دعوته الإكليل الأحمر!..

وإنما أخذ الصراع شكل التقطب في عهد السادات كرد فعل للإرهـاب الناصـري وللممارسات التي مارسها زبانيته وزبانية عبد الحكيم عامر في السجن الحـربي، ووجد فرصته بمجرد الإفـراج عن المعتقلين وإيقـاف الإرهـاب الحكـومي، وما كـان السـادات ليستطيع أن يحكم بالإرهاب إلى الأبد!

وكــان رد الفعل بحجم وقــوة الفعــل، وقد يعجب الإنســان من أين جاءت كل هـذه الجماعـات الإسـلامية الـتي اتسـمت بـالعنف والتطـرف؟ والرد لدى صلاح نصر وشمس بدران وحمزة البسيوني، وما قـاموا به من المنكرات التي يندى لها جبين الإنسانية.

لقد وضــــعوا بــــذرتها في ســــجونهم، ثم نمتها ونفخت فيها الديكتاتورية والفساد..

ولم يسـتطع السـادات – خاصة في السـنوات الخمس الأخـيرة من حكمه – أن يتحرر من التركة الثقيلة لما أشرنا إليه من أسباب، وقامت وزارة الداخلية بــدور يماثل إلى حد ما الدور الذي كانت تقوم به المخابرات العسكرية.. وفي سجون "أمن الدولة" ترعرعت جماعات الجهاد، كما ترعرعت من قبلها جماعة التكفير والهجرة والقطــبيون في سجون عبد الناصر!..

وبصرف النظر عن الأعمال العنيفة لهذه الجماعـات، فإنها اسـتطاعت أن تنشئ رأيًا عامًا متشددًا ومنهجًا ضيقًا للإسلام – وهو الفهم الـذي عارضه كثـير من المفكـرين ومن الشيوخ، وعلى رأسهم الشيخ محمد الغزالي، دون أن يكسبوا كثيرًا؛ لأن حماقات العهد كانت أكـبر نصـير للمتطـرفين – كما أطلق عليهم -.. ففي الجو الـذي ينتشر فيه الفساد والكسب غير المشـروع وتـتراكم الـثروات بـالبلايين في أيـدي حفنة من "أبنـاء الأكابر" بالرشوة والمحسوبية والعمولات وفضائح الاستيراد والتصدير.. وفي مناخ كبت الحريات والحكم بقانون طـوارئ لأكـثر من اثـني عشـرة سـنة، واسـتمرار ممارسـات التعـذيب والإرهـاب البوليسـية.. وفي ظل سياسة خارجية تتسم بالاستسـلام والمهانة (خذ مثلا الموقف المخزي لحكومة مصر تجاه مأساة البوسـنة، وعجز الحكومة عن أي عمل، أو احتجاج أو حتى سـحب سـفير أو مقاطعة تجاريـة) في الـوقت الـذي تمـارس العنف في تفتيش البيوت واعتقـال المشـبوهين وسياسة "الضـرب في المليـان" **هذا السجل الأسود الطويل جعل من جنون بعض الجماعـات الإسـلامية الوجه**

الآخر لعملة واحـدة هي سياسة الحكومـة، ولا يمكن الحـديث عن هـذه إلا بالحديث عن تلك!..

***

في إحدى المقامرات، التي عرف بها السـادات، سـمحت الحكومة بوضع قـانون لمحاكمة المرتد...

ما قصة هذا القانون؟ كيف ظهر؟ ولماذا ؟ هل كان مجـرد (بـالون اختبـار؟) هل كان محاولة لاستقطاب المعسكر الإسلامي؟!..

هذه قضية ليس لدينا الكثير الذي نقوله عنها.. ولا يهمنا في الحقيقة لأننا لا نقدم تأريخًا أو نتـابع سياسة هـذه الحقبـة.. وما يعنينا هو أنه للمـرة الأولى في تـاريخ مصر الحديثة يوضع قانون إقامة حد للردة!..

وقد كـان هـذا القـانون سـببًا في أن عجلنا بإصـدار كتابنا "حرية الاعتقـاد في الإسلام" الذي نقد هذا القانون نقدًا مرًا.

ولما كان هذا الكتـاب – رغم أنه أعيد طبعه في بـيروت – لم يظفر بما يسـتحقه من الشهرة والذيوع.. فنحن ننقل هنا ما جاء به عن هذا القانون:

"... ولكن الصحف طلعت علينا – ونحن نكتب هـذا الفصل من كتابنا – بنبأ مثـــير هو موافقة مجلس الدولة على مشـــروع قـــانون بإقامة حد الـردة، ويقضي القـانون كما نشـرت الأهـرام (يـوم 6/8/1977) بإعـدام المرتد عن الإسـلام عمـدًا بقـول صـريح أو بفعل قطعي والسـجن عشر سـنوات لمن ارتد مـرة أخـرى [(1)]، وعقوبـات رادة إذ وقعت الـردة من قاصـر(!!) والـردة تثبت بـالإقرار مـرة واحـدة أو بشـهادة رجلين، ومنع المرتد من التصرف في أمواله.. وهـذه هي عنـاوين الخـبر، وقد تضـمنت التفاصيل أنه إذا كان الجاني – على حد تعبـير الأهـرام – قد أتم السـابعة ولم يتم العاشـرة فللقاضي أن يوبخه في الجلسة أو يـأمر بتسـليمه إلى أحد والديه أو إلى ولي نفسه أو بإيداعه إحـــــدى مؤسســــات الرعاية الاجتماعية الخاصة بالأحداث، وإذا كان قد أتم العاشـرة ولم يتم الخامسة عشرة يعاقب بضربه بعصا رفيعة من عشر إلى خمسين ضربة... إلخ"!

وينص مشـروع القـانون بـأن كل من حـرض غـيره على ارتكـاب ما يكون جريمة الردة يعاقب بالعقوبة المقـررة للشـريك إذا لم يـترتب على هــذا التحــريض أي أثر يعــاقب بنفس العقوبة على التحــريض المــبين بالقانون.

ولا تســـري على الجريمة الحدية الأحكـــام المقـــررة في قـــانون الإجـراءات الجنائية في شـأن سـقوط العقوبة بانقضـاء المـدة ولا يجـوز إبدال العقوبة الحدية ولا العفو عنها.

كما يحظر على المتهم بالردة التصـرف في أمواله أو إدارتهـا، وكل تصرف أو التزام يصدر منه خلال فترة اتهامه يكـون معلقًا على البت في أمره...

إن هذا القانون أمر لا يكاد يصدق!...

ما هذا أيها السادة...

هل أصـابتكم جنـة؟ أجماعة تكفـير جديـدة؟ هل تريـدون أن تنصـبوا محرقـة، أو أن تـدخلوا في الإسـلام السـمح محكمة بابوية يضع قضـاتها

---

1 **[(?)] أي إذا كان قد تاب وسقط عنه الحد، ثم عاد.**

العمائم؟! أتريدون أن تهدوا من أضل الله ؟! ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا..

إن هذا القانون ردة تشريعية حقيقية لعلاج ردة إسلامية وهمية...

ولو صدر فسيكون لحساب المغفلين والجهلة وأعداء الإسلام:

المغفلين الـذين يظنـون أنه يحقق خـيرًا في حين أنه شر مـاحق... وليس ما هو أدل على غفلتهم من هذا الظن.

والجهلة الــذين لم يعلمــوا تجربة التــاريخ في الحــديث والقــديم.. وكيف أن كل حَجْر على الفكر يؤخر البشـرية، ويـؤخر الفكـرة المطلـوب حمايتها، وأن أي قانون يوضع لـذلك إنما تسـتفيد منه السـلطة القائمـة، والأوضاع المقررة.

وأعـداء الإسـلام الـذين سـيقولون إن المسـلمين إنما يقــرون لله بالوحدانية ولمحمد بالرسالة.. تطبيقًا لقانون العقوبات.

وبعد كل هذا أفلم يخطر للذين وضـعوا هـذا المشـروع أنه قد يـأتي بعكس ما أريد منه.

إن الاتهـام يكسب المتهم عطف الجمـاهير فـإذا رفض هـذا المتهم (الاسـتتابة) المزعومة وفضل أن يقتل في سـبيل رأيه – كائنًا ما كـان – فـإن هـذا الوقـوف سـيجعله شـهيدًا من شـهداء حرية الـرأي وسـيطرز حواشي الإلحــاد بالبطولــة. الأمر الــذي حــدث بالفعل بالنســبة لضـحايا المحاكمات البابوية في المسيحية.

وإذا قبل المتهم الاستتابة جبنا فأي انتصار كسبته المحكمة؟

ولا يمكن للاســتتابة أن تصل إلى أبعد من هــذين، ما دامت صــادرة من السلطة.

إن الاستتابة للرجال هي كبيت الطاعة للنســاء، وفي الـوقت الـذي يتمــرد فيه النســاء – ولهن الحق – على بيت الطاعة يريد المشــروع أن يوجد بيت طاعة للرجال!..

وأخيرًا فهل يعلم الذين وضعوا مشـروع هـذا القـانون مـدى اتسـاع الباب الذي فتحوه بصرف النظر عن الاستغلال وتحكم السلطة.. إلخ.

أطووا هـذه الصـفحة قبل أن تتحـول إلى فضـيحة لم يسـمع بمثلها في تاريخ البلاد.. أو تاريخ التشريع!..

وتوبوا إلى باريكم.. فقد اقترفتم إثمًا عظيمًا وأوشـكتم أن توقعـوا البلاد في نكسة في التشريع لا تقل عن نكسة 1967 في السياسة!..

واقـرءوا القـرآن.. وتـدبروه.. واسـتعيدوا ما تعلمتمـوه في كليـات الحقوق!

وإذا أردتم تطبيق الشريعة الإسلامية حقًا وصدقًا، فأصدروا القانون الـذي يقطع أيـدي اللصـوص الكبـار والمختلسـين والـذين يـثرون على حساب لقمة عيش المواطن الفقير ويجعلون حياته عذابًا متصلا.

فإن هذا أجدى في الإصلاح، وأقرب إلى الله..." انتهى.

***

هذا هو ما قلناه سنة 1977م، عندما أريد إصدار قانون عن حد للمرتـد، أوردنـاه هنا ليعلم القراء أننا في سنة 1994م إنما نكـرر ما قلنـاه منذ خمسة عشر عامًا ولكن هيهات، ما من سميع، أو مجيب !!

الفصل الثاني
شهادة الشيخ محمد الغزالي وتوابعها

ودارت الأيام، أو قل: الأعوام..

وعند محاكمة قتلة الكاتب الصحفي فرج فودة في يونيو سنة 1993م طلب الدفاع أن يسمع شهادة الشيخ محمد الغزالي عن بعض ملابسات القضية، واستجابت المحكمة. وعندما حضر الشيخ الغزالي قدم إليه الدفاع عددًا من الأسئلة التي صيغت بمهارة وفنية، وبما يخدم وجهة نظره.. ورد الشيخ الغزالي بشجاعة وموضوعية.

وكان يمكن أن ينتهي الأمر هنا؛ ولا يظفر سوى بسطور في الصحف اليومية. ولكن رد الشيخ أثار أدعياء التنوير، وظفر بمساحة كبيرة من الصحافة وظل شغلها الشاغل لأكثر من شهر.. وقال خالد محيي الدين في صدر صحيفة الأهالي إنها أشد من مائة قنبلة..

الشهادة:

وفيما يلي شهادة الشيخ الغزالي نقلا عن جريدة الشعب. التي نشرتها تحت عنوان ([2]):

الرافض لتطبيق الشريعة الإسلامية "مرتد" والمستهزئ بها "كافر".

في تمام العاشرة صباحًا ثم إحضار المتهمين وأدخلوا قفص الاتهام وسط هتافات مدوية مرددين:

"إسلامية.. إسلامية" "شرع الله عز وجل.. الإسلام هو الحل" كما أنشدوا بعض الأناشيد الإسلامية.

وجلس المتهمون لتبدأ إجراءات الجلسة في العاشرة والنصف حيث أشار رئيس محكمة أمن الدولة العليا "طوارئ" إلى الحاجب لكي ينادي على الشاهد.

ووسط صمت وترقب دخل الداعية الإسلامي الكبير فضيلة الشيخ الغزالي.

س: رئيس المحكمة: اسمك وسنك ووظيفتك

ج : الشيخ الغزالي: محمد الغزالي أحمد السقا - 76 عامًا - عضو مجمع البحوث الإسلامية.

س: ما معلوماتك عن الحادث؟

ج : لا توجد لدي أية معلومات وقد حضرت بناء على طلب الدفاع.

وأشار رئيس المحكمة إلى هيئة الدفاع لكي توجه أسئلتها إلى الشاهد.

وبدأ د. عبد الحليم مندور المحامي ورئيس الهيئة في توجيه أسئلته للشيخ الغزالي.

---

[2] **نشرت الشهادة في كل الصحف. والنص الذي ننقله هو عن جريدة الشعب التي صدرت يوم الجمعة 25 يونيو سنة 1993 أما الشهادة نفسها فقد كانت يوم الثلاثاء 22 يونيو سنة 1993.**

الإسلام نظام شامل

س: هل الإسلام دين ودولة وما معنى هذه المقولة؟

ج: الإسلام عقيدة وشريعة وعبادات ومعاملات وإيمان ونظـام ودين ودولـة، ومعـنى هـذه المقولة ذكرته الآية الكريمة في قـول الله عز وجل:

- ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.
- ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلا﴾

الإســلام دين شــامل ومنذ أن بــدأت دعوته من 15 قرنًا وهو دين ودولة، لم تنفصل فيه السلطة الزمنية عن المعاني الروحية.

وقد جاءت النصوص متشابهة في أركان شتى مثل قوله تعالى:

- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ وقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾.
- وقوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾.

وفي الإسلام عبـادة شخصـية كالصـيام، وعبـادة جنائية كالقصـاص، وعبادة دولية كالجهاد. فالعبادة واحدة وإن اختلفت اتجاهاتها.

كما أن أطول آية في القرآن هي آية الدين وهو دين اقتصادي.

وبالإحصــاء والاســتقراء نجد أن الإســلام دين للفــرد وللمجتمع والدولة، وأنه ما ترك شيئًا إلا وتحدث فيه مادام هذا الشيء يتصل بنظام الحياة وشئون الناس.

س: هل تطبيق الشريعة الإسلامية واجب؟

ج: الإجابة من القرآن في قوله تعالى: ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُـونَ حَتَّى يُحَكِّمُـوكَ فِيمَا شَـجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِـدُوا فِي أَنْفُسِـهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

وقوله: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُـونَ وَمَنْ أَحْسَـنُ مِنَ اللـهِ حُكْمًا لِّقَـوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

ضياع الشريعة

س: ما حكم من يجاهر برفض تطبيق الشريعة الإسلامية استهزاء؟

ج : لقد كانت الشريعة الإسـلامية تحكم العـالم العـربي والإسـلامي كله حتى دخل الاستعمار العالم الصليبي – وكرهه للإسلام واضح – فـألغى أنـواع القصـاص وأحكـام الشـريعة الإسـلامية وأنـواع التعازير والحدود، وحكم الناس بالهوى فيما يشاءون.

وقد صحب الاستعمار العسكري استعمار ثقافي.. ومهمة الاستعمار الثقافي هي جعل الناس يطمئنون إلى ضياع تشريعاتهم وتعطيل أحكـام الله دون أن يتبرموا.

فالله تعالى يقول: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُـلَّ وَاحِـدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾.

وأشعر بغصة لأن الآية مشطوبة في المجتمـع، فالقـانون يقـول إذا اتفق شخصان بإرادة حرة على مواقعة هذه الجريمة فإنه في هذه الحالة لا تعتبر جريمة وتسمى حبًا أو عشقًا.

وبـذلك فـإن نص الشـريعة قد عطل وأزهقت روحهـا، وكيف يقبل المسلم هذا الكلام أو يستريح لهذا الوضع.

وبالتـالي كيف يسـتهزأ بي إذا قلت يجب تطـبيق الشـريعة؟ وهنـاك أناس كثيرون يريدون تعطيل الشريعة، ويجادلون في صلاحيتها، ويثبتون حكم الإعدام الذي أصدرته الحكومـات الأجنبية والاسـتعمار العـالمي على

هذه الشريعة التي شرفنا الله بها، ويستهزئون بنا عندما نقول: لابد أن يحكم شرع الله..

والاعتراض على تطبيق الشريعة والاستهزاء بها كفر.

س: ما حكم من يجاهر برفض تطبيق الشريعة كفرًا أو استهزاءً؟

ج : إنه ليس بمؤمن مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ وفي آية ثانية "الظالمون" وفي ثالثة "الفاسقون".

خارج عن الملة

س: ما حكم من يدعو إلى استبدال حكم الله بشريعة وضعية تحل الحرام وتحرم الحلال؟

ج : يقول الله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾.

إنه ليس بمؤمن يقينًا ويقول الله تعالى في أمثال هؤلاء: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾.

س: هل يعتبر هذا العمل عملا كفريًا يخرج صاحبه من الملة؟

ج : لقد رفض الحكم بما أنزل الله جهرًا واستهزاء وهو بلا شك يخرج من الملة.

س: ما حكم المسلم أو مدعي الإسلام إذا أتى هذا الفعل الكفري وقد علم بما فيه ومراميه؟

ج : أنا أدحض الشبهات وأقدم الأدلة التي تؤيدني في قولي وأبين الحق، هذه هي مهمتي كداعية، وليس تلمس العيوب لأنني لا أفرح بإيداع أقدام الناس في الشباك، وإنما أنا طبيب أعالج المرض وأريد إنقاذهم من الجراثيم التي تكاد تفتك بهم، فإذا كان الإنسان عنيدًا ويرفض كل ما أقوله ويأبى إلا تكذيب الله ورسوله فلا أستطيع أن أقول إنه مؤمن.

س: هل يجوز أن ينطق الإنسان بالشهادتين، وفي نفس الوقت يجهر برفض تطبيق الشريعة ويدعو إلى استبدال شرع الله بشرائع الطواغيت من البشر؟

ج : إن الله عز وجل يقول في هذا الصنف من الناس: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾

بل إن بعض الناس كان يحلف أنه مؤمن ولكن جبنه وتقاعسه عن الدفاع عن الإسلام نفى الدين عنه.

إن الإيمان باتفاق العلماء قول وعقيدة وعمل، إن ديننا اسمه الإسلام أي الخضوع لله.

س: هل من يأتي هذه الأعمال يعتبر مفارقًا للجماعة، ومرتدًا عن الإسلام؟

ج : نعم يعتبر مرتدًا عن الإسلام.

س: ما حكم هذا المرتد شرعًا؟

ج : أن يستتاب، وإذا لم يرجع يقتل، وهذا هو الحكم العام بإجماع كثير من الفقهاء.. وأما أنا فأرى أنه يجوز للحاكم إيداعه في سجن مؤبد.

كما لو أن مرتدًا هرب فلا يجري البحث عنه ويبرأ المجتمع منه لأن في بقائه خطرًا على الأمة.

س: من الذي يملك إقامة الحد على المرتد الذي يجب قتله؟

ج : المفـروض أن جهـاز القضـاء هو الـذي يقـوم بهـذه المهمـة، وتطـبيق الحـدود والتعـازير والأخذ بالقصـاص هي أمـور من اختصاصه وليس لآحاد الناس حتى لا تتحول الأمور إلى فوضى.

س: مـاذا لو كـان القـانون لا يعـاقب على الـردة والقضـاء لا ينفذ حكمها؟

ج : يكون القانون معيبًا وتكون هناك فوضى في المجتمع.

س: هل يبقى الحد على أصله من وجوب إقامته؟

ج : حكم الله لا يلغيه أحد، والحد واجب الإيقاع.

س: ماذا لو أوقعه فرد من آحاد الناس؟

ج : يعتبر مفتئتًا على السلطة، وأدى ما ينبغي أن تقوم به السلطة.

س: هل يعتبر مفتئتًا على السلطة إذا كانت لا تطبق هذا الحكم؟

ج : نعم يعتبر مفتئتًا.

س: هل هناك عقوبة للافتئات على السلطة؟

ج : لا أذكر أية عقوبة في الإسلام.

وعقب إدلاء الداعية الإسلامي الكبير الشيخ الغزالي بشهادته، سأل رئيس المحكمة أعضـاء نيابة أمن الدولة إذا كـانوا يريـدون توجيه أسـئلة للشاهد فأجابوا بالنفي.

وفي نهاية الجلسة طلب الـدفاع سـماع شـهادة د. محمـود مزروعة الأستاذ بجامعة الأزهـر، ووعد الـدفاع بتقـديم تقرير شـرعي للشـيخ عبد العزيز بن بـاز مفـتي الـديار السـعودية عن كتب فـرج فـوده، وقـررت المحكمة التأجيل لجلسة 3 يوليو القادم.

***

وخلال الفترة من 18/7 حتى 5/8 وقد تناول الكاتب الصحفي الأسـتاذ صـلاح منتصر موضوع الشهادة في عموده اليومي بجريدة الأهرام بأسئلة قدمها إلى الشيخ الغزالي، الـذي أجـاب عليها ثم أفسح الأسـتاذ منتصر المجـال لبعض تعليقـات القـراء فضلا عن تعقيبه هو.

وسنورد هذه الأسئلة.. والإجابات والتعليقات لأنها تلقى ضـوءًا على الشـهادة، وعلى تلقي الجمهور لها.

ففي يوم 18/7، وفي عموده اليومي "مجرد رأي" كتب الأستاذ صـلاح منتصر تحت عنوان:

أسئلة إلى الغزالي

فضـيلة الشـيخ محمد الغـزالي له منا كل احـترام وتقـدير بالإضـافة إلى ما نعرفه عن علمه وجهده الكبير للقيام بدور الداعية الذي يتمنى قوة المسـلمين وخروجهم من مرحلة الضعف والهوان التي يمرون بها اليوم.

ولقد كانت لفضيلة الشيخ الغزالي شهادة أمام المحكمة الـتي يمثل أمامها المتهمـون باغتيـال الـدكتور فـرج فـودة، وحسـنا تم نشر هـذه الشهادة بالنص حـتى نعـرف على وجه الدقة ما قاله فضـيلة الشـيخ وإن كان أحد الـزملاء (الأسـتاذ فهمي هويـدي أهـرام 6/7) قد وجد أن حـديث الشيخ أمام المحكمة يحتاج إلى إيضاح للعامة، فكتب يحـاول هـذا الشـرح تحت عنوان "حاشية على شـهادة الغـزالي"، ولكن يبـدو أن الحاشـية في حاجة إلى حاشـية.. وليس في الـدين حـرج كما تعلمنـا.. كما أن الـدين كدستور للحياة لابد أن يصل إلى النـاس ببسـاطة حـتى وإن كـان معقـدًا في بعض التفاصـيل لكن مهمة الداعية أن يسـهل لا يصـعب، وهو ما يجعلني أرجو فضيلة الشيخ الغزالي بعد أن قرأت شهادته، وبعد أن قرأت

الحاشية التابعة لشهادته، أن يجيب عن هذه الأسئلة التي أتصور أن ملايين مثلي قد سألوها وينتظرون من فضيلة الشيخ إجابة عنها.

إن أسئلتي يا فضيلة الشيخ هي:

1. **أي الدرجات أعلى في المعصية: الكافر أم المرتد؟**
2. **متى يكون الفرد كافرًا ومتى يكون مرتدًا؟**
3. **من الذي يملك تكفير فرد ومن الذي يملك الحكم عليه بالردة؟**
4. **هل يحتاج الأمر السابق إلى فقهاء ودعاة دارسين وبطريقة علنية وواضحة.. أم يستطيعه أي فرد أو جماعة وبطريقة سرية ومغلقة؟**
5. **هناك من الدارسين من يشكك في حد الردة ويقول إن حد الردة ليس موجودًا صراحة في القرآن الكريم.. فهل هذا صحيح؟**
6. **هل يتعارض ما ورد في القرآن الكريم عن حرية العقيدة واعتبار الحكم على إسلام الفرد من اختصاص الحق سبحانه وتعالى، مع القول بحق أي فرد أو جماعة في تكفير فرد أو الحكم بأنه مرتد؟**

وفي 20/7 نشر الأستاذ صلاح منتصر تحت عنوان:

"رد من الغزالي"

أبدأ أولا وأشكر فضيلة الشيخ محمد الغزالي على سرعة استجابته بالرد على ما وجهته إلى فضيلته من أسئلة "أهرام" الأحد 18/7، وقد أرسلها لي مكتوبة بخط اليد مع مقدمة بأمل نشرها كاملة دون تلخيص "فإني قمت عنكم بمهمة الإيجاز وأحسب أن أي نقص في العبارة يفسد الرد وهذا مالا يرضيكم" وهأنذا أنشر نص الرد كاملا:

1- أي الدرجتين أعلى في المعصية: الكافر أو المرتد؟

جواب: الكافر أقل سوءًا من المرتد! فإنني قد أشترك في عمل تجاري مثلا مع كافر بالإسلام يهوديًا كان أو نصرانيًا، وقد أتزوج يهودية أو نصرانية وفي كلتا الحالتين يجب علي البر بهم وبذل الود لهم، أما المرتد فهو كخائن الوطن منبوذ مكروه، وقد استعمر الأوروبيون أرضنا ومحوا شرائعنا وشعائرنا فمن انضم إليهم في حربنا وسخر من ديننا وتراثنا فقد انضم إليهم في عداوتهم فكيف نصادقه؟

2- متى يكون الفرد كافرًا ومتى يكون مرتدًا؟

جواب: الكافر امرؤ خالي البال من تعاليم الإسلام. لعلها لم تبلغه أو بلغته ولم يقتنع بها، ولا سبيل لنا عليه إلا إذا اعتدى علينا، أما المرتد فهو رجل كان منا وعرف ما نحن عليه ثم رأى لمأرب خاص أن ينضم إلى خصومنا، وأن يؤيدهم بما يستطيع. أي أنه خائن غادر، أما إن كانت لديه شبهة عقلية فلابد من إزالة شبهته ومحو ما يتعلق به من أوهام ولو ظل سنين على قيد الحياة.

3- من الذي يملك تكفير فرد أو الحكم عليه بالردة؟

جواب: أهل الذكر وحدهم – أعني الراسخين في العلم – فإن اتهام فرد بالكفر جريمة، والإسلام دين مضبوط التعاليم؛ فمن استباح الخمر مثلا وسخر من حرمتها، أو من ترك الصلاة جاحدًا واستهزأ

بشـريعتها فليس بمسـلم، بل هو نـاقض للمجتمـع، ومنكر للـوحي وخارج عن الأمة.

وسلطة الاتهام بالكفر محددة وليست كلا مباحًا لأي إنسان.

4- هل يحتاج الأمر السابق إلى فقهاء ودعـاة دارسـين وبطريقة علنية واضحة أم يستطيعه أي فرد أو جماعة وبطريقة سرية مغلقة؟

جواب: قلنا إن الفقهاء الثقات وحدهم هم مصدر الفتوى، ورأيهم يكــون واضـحًا ومعلنًـا، إلا إذا كـان الإسـلام مضـطهدًا وحرية العمل به مصادرة.. إن جو الحرية الرحب هو الذي يستطاع الأخذ والـرد فيـه، ولن تكــون الحرية لطــرف واحد بداهــة، بل تضــمن الحرية لجميع الأطراف يقولون ما لديهم في أمان.

وبقيت أربعة أسئلة أخرى سبق أن وجهتها إلى فضيلة الشيخ أكمل بإذن الله غدًا رده عليها.

وتابع يوم 21/7 نشر بقية الردود تحت عنوان:

"بقية رد الغزالي"

في عمـود أمس نشـرت النص الكامل لما تضـمنته رسـالة فضـيلة الشيخ محمد الغزالي ردًا على أربعة أسئلة سـبق أن وجهتها إليـه، وفيما يلي بقية إجاباته عن أربعة أسـئلة أخـرى أنشـرها بـالنص دون انتقـاص حرف واحد حتى علامات التعجب، فهي كما وردت في رسالة فضيلته:

1- هنـاك بعض الدارسـين الـذين يشـككون في حد الـردة ويقولـون إنه ليس موجودًا صراحة في القرآن الكريم فهل هذا صحيح؟

جـواب: نعم لم يـرد في القـرآن الكـريم قتل المرتد وإنما وردت بـذلك السنن الصحاح. وعنـدي أن جريمة الـردة متفاوتة السـوء والخطـر، وقد تستحق القتل إذا ساوت ما نسميه الآن الخيانة العظمى، أو ما نسميه الخروج المسلح على الدولة، وقد تكون شبهة عارضة يكتفي فيها بالتوبة النصوح، وأمام القضاء تعرف الحقيقة ويتحـدد العقـاب العدل ويوزن خطأ كل فرد!!

2- هل يتعـارض ما ورد في القـرآن الكـريم واعتبـار الحكم على إسـلام الفرد من اختصاص الحق سبحانه وتعالى، مع القول بحق أي فـرد أو جماعة في تكفير فرد أو الحكم بأنه مرتد؟

جـواب: إن قلـوب النـاس توكل إلى الله بيقين. ولكن لمسـالكهم حـدودًا وضـوابط من وضع الله ذاته وإلا سـرت الفوضى بين النـاس. فمن يـدعو إلى تـرك العلاقـات الجنسـية حـرة، ويمـاري في جريمة الزنا وعقوبتها لا يمكن اعتبــاره مســلمًا لأنه مخاصم لحكم الله وخــارج عليه. ولذلك قال في ضرورة الطاعة التامـة: ﴿ فَـإِن تَـابُوا وَأَقَـامُوا الصَّـلاَةَ وَآتَـوُا الزَّكَـاةَ فَـإِخْوَانُكُمْ فِي الـدِّينِ﴾. فما العمل إذا لم يتب ويقم الصلاة ويؤت الزكاة؟ حكم الله واضح.

3- اشتركت في مناظرة مع فرج فوده لأني كنت طامعًا – إذا شرحت له الحق، وبسطت أدلته – أن أعـود بالرجل إلى الإيمـان، ولكـني وجدته يكره الإسلام ونظامه، وينكر صلاحية أحكامه للبقاء. أي أنه يؤيد حكم

الإعدام الذي أصدره الاستعمار على شريعتنا وينحاز إلى أعدائنا بصراحة!!

جواب: هذا وقد أصدر نفر من علماء الأزهر كتابًا تضمن ما نسب إلى فرج فوده من خروج على الإسلام واستهزاء بتعاليمه ويستطيع الأستاذ صلاح منتصر أن يقرأ هذا الكتاب.. ذلك وأقول أخيرًا أنني رجل من الدعاة إلى الله، لا أتمنى إلا الحرية لي ولخصومي على السواء، وأكره العدوان والمشاكسة، ولكني أشكو من أن ديني يجار عليه وينتقص منه ويحرم أهله ما يسمى في عصرنا بحقوق الإنسان، وإن المنتمين إلى هذا الدين في طور سيئ من تاريخه، وتكاد تذهب كراماتهم الخاصة والعامة في مهب الرياح..

محمد الغزالي

ثم يبقى سؤال أظن من حقنا على فضيلة الشيخ أن يجيب عنه وهو: ماذا إذا قتل إنسان إنسانًا آخر بحجة أنه كفر أو ارتد. ما هي عقوبته؟ هل يقتل قصاصًا أم تعزيرًا أم نقول - كما قد فهم البعض من شهادتكم أمام المحكمة - بأنه لا عقوبة عليه؟

وفي يوم 26/7 - وفي العمود نفسه "مجرد رأي" نشر الأستاذ صلاح منتصر تحت عنوان:

"الافتئات على السلطة"

عبارة "الافتئات على السلطة" من العبارات التي ذكرها فضيلة الشيخ محمد الغزالي في شهادته أمام المحكمة التي تحاكم المتهمين باغتيال فرج فودة، وقد أثارت تعليقات كثيرة لأنه ذكر أن حكم الله بالنسبة للمرتد لا يلغيه أحد، وأن الحد واجب إقامته فإذا أوقعه فرد من آحاد الناس يعتبر مفتئتًا على السلطة وأدى ما ينبغي أن تقوم به السلطة، وليس هناك عقوبة يذكرها في الإسلام للافتئات على السلطة.

وفي رده على سؤال ماذا إذا قتل إنسان آخر بحجة أنه كفر أو ارتد فإنه قال: "ليس للجمهور إقامة الحدود، أو إيقاع العقوبات من قصاص وتعزير فذلك للقضاء، ومن فعل شيئًا من ذلك فقد افتأت على السلطة" وهنا يقوم القضاء بتعزيره، وإذا كان الجديد ينسخ القديم فالواضح أن فضيلة الشيخ الغزالي لم يشر في رده المكتوب إلى أن الافتئات على السلطة ليس عليها عقوبة في الإسلام.

وحتى يكون الحوار موضوعيًا وقانونيًا فلابد أن نسأل أولا ما هو المقصود "بالسلطة".. ومن هي السلطة التي افتأت عليها فرد أو مجموعة من الناس إذا قتل أو قتلت شخصًا بحجة أنه ارتد؟

إن "السلطة" في معناها القانوني هي الجهة صاحبة الحق، وفي قضية التكفير أو الردة فإن هناك ثلاث سلطات خاصة بها: سلطة اتهام وأصحابها كما ذكر فضيلة الشيخ الغزالي أهل الذكر والفقهاء الثقاة وحدهم، وسلطة المحاكمة وجهتها كما قال الشيخ الغزالي القضاء، ثم سلطة تنفيذ العقوبة التي يصدرها القضاء والمختص بتنفيذها الدولة.

فإذا قيل إن فردًا أو مجموعة قامت بقتل إنسان بحجة تكفيره أو اعتباره مرتدًا، وقيل بعد ذلك إن هذا الفرد أو هذه الجماعة افتاتت على

السلطة، فأي سلطة افتاتت عليها؟ هل افتاتت على سلطة الاتهام أم على سلطة القضاء أم على سلطة الدولة في تنفيذ العقوبة؟

المفهوم الضيق هو تصور أنه افتئات على سلطة الدولة، وهذا مفهوم يمثل قمة الخطأ، لأنه لم يكن هناك أصلا اتهام وجهته سلطة مختصة، وقضاء انعقدت أمامه المحاكمة، وعقوبة صدرت بعد ذلك حتى يقال بعد ذلك إن الدولة أهملت أو تراخت في تنفيذها؛ لأن حد الله لا يلغيه أحد.. نعم حد الله لا يلغيه أحد، لكن كل حد له شروطه، وقبل تنفيذ عقوبة الحد يجب التأكد أولا من وجود هذه الشروط، ولهذا إذا كان صحيحًا القول بأن الإسلام لم يتضمن عقوبة على الافتئات على سلطة الدولة، فالصحيح عقلا ومنطقًا أن هذا الافتئات الذي لا عقوبة عليه إنما هو على سلطة الدولة إذا أهملت في تنفيذ عقوبة حكم بها على شخص لخروجه على حد الله.. هنا يمكن القول إن الإسلام لم يتضمن عقوبة.. لكن أمام واقعة لم ينعقد فيها اتهام أو محاكمة أو صدور عقوبة فلا أظن أن أحدًا يستطيع القول أننا مازلنا في إطار الافتئات على السلطة التي لا عقوبة عليها في الإسلام؟

وفي يوم 27/7 – نشر الأستاذ صلاح منتصر تحت عنوان:

"رسالة من المفتي"

من فضيلة المفتي الدكتور محمد سيد طنطاوي تلقيت الرسالة التالية: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. قرأت – بعناية – الأسئلة التي وجهتموها إلى فضيلة أستاذنا الشيخ محمد الغزالي، بمناسبة شهادته أمام المحكمة التي يمثل أمامها المتهمون باغتيال الدكتور فرج فودة، كما قرأت – بعناية أيضًا – إجابة فضيلته على أسئلتكم، وإن تعليقي على كل ذلك يتلخص فيما يلي:

1- أؤيد فضيلته في أن المرتد الذي يحارب الإسلام – كذبًا وزورًا – أشد سوءًا من الكافر الذي لا يتعرض لعقيدتي ولا أتعرض لعقيدته، ولا أجادله ولا يجادلني إلا بالتي هي أحسن؛ لأن العقائد لا تباع ولا تشترى، والمرتد بإصراره ومجاهرته بالسخرية بأحكام الإسلام بدون دليل أو برهان، هو أشد الناس عداوة للإسلام والمسلمين.

2- أؤيد فضيلته في أن الكافر إنسان لم يسبق له الدخول في الإسلام، ولا سبيل لنا عليه إلا إذا اعتدى علينا، ولا نستطيع إكراهه على الدخول في الإسلام لأنه لا إكراه في الدين، أما المرتد فهو إنسان كان مسلمًا، ثم خرج عن الإسلام وأساء إليه وإلى أهله عن سوء نية، وسخر من أحكامه وآدابه وتشريعاته دون دليل أو برهان، والذي يملك الحكم على إنسان ما بأنه مرتد، هم الفقهاء المشهود لهم بالرسوخ في العلم، بعد مناقشته وسماع شهادته، وبعد التأكد من إصراره على نبذ ما ثبت من الدين بالضرورة؛ كإنكاره للفرائض، واستباحته لما حرمه الله – تعالى – كالزنا وشرب الخمر، واستخفافه بالآداب الإسلامية..

3- أؤيد فضيلته في أن جريمة الردة متفاوتة السوء والخطر، وأسوأ وأخطر أصناف المرتدين هم أولئك الذين يجاهرون بذلك، ويلصقون التهم الباطلة عن عمد وإصرار بأحكام الإسلام، والقضاء العادل هو

الـذي يـنزل العقوبة الرادعة بكل إنسـان على حسب حجم جريمتـه، وقد تصل هذه العقوبة إلى القتل.

4- أؤيد فضـيلته في أن القضـاء وحـده هو الـذي يبت في مصـير المرتد وفق شريعة الله – تعالى – وأنه ليس للجمهور إقامة الحدود أو إيقاع العقوبـات من قصـاص أو تعزير فـذلك للقضـاء وحـده، لأننا لو فتحنا هـذا البـاب لعامة النـاس لعمت الفوضى ولقتل فلان فلانًا بتهمة أنه مرتد، وإذا حدث أن اعتدى شخص على آخر بحجة أن هذا الآخر مرتد، وجبت محاكمة هـذا المعتـدي أمـام القضـاء ليـنزل به العقوبة الـتي يراها مناسبة.

وعما قريب – بإذن الله – سأكتب بحثًا مفصلا حـول هـذا الموضـوع، ومن الله – تعالى- وحده، نستمد العون والتوفيق.

محمد سـيد طنطاوي

مفتي الديار المصرية

وابتداء من يوم 28/7 بدأ الأستاذ صلاح منتصر في نشر بعض الآراء التي وصـلته تعليقًا على كلام الشيخ الغزالي، فنشر تحت عنوان:

"ليس بينها الردة"

ردًا على ما أثاره الشـيخ الغـزالي حـول الـردة وقتل المرتد نتوقف أمام بعض الحقائق الهامة التي أوجزها كما يلي:

1- جـاءت آيـات القـرآن واضـحة وصـريحة في أن من يرتد عن دينه بل وأكـثر من مـرة ويـزداد كفـرًا حـتى يمـوت على الكفر لا تقـام عليه عقوبة لمجرد ردته مصداقًا لقوله تعـالى – على سـبيل المثـال- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا ثُمَّ كَفَـرُوا ثُمَّ آمَنُـوا ثُمَّ كَفَـرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْـرًا لَّمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلا﴾.. ولهذا قال الفقهاء بقتل المرتد إذا كان محاربًا ومقاتلا للإسلام والمسلمين.

2- اختلف القـانون بحد الـردة حـول العقوبـة، فقـال بعض الفقهـاء باستتابة المرتد لفترة ثم قتله. على حين قال آخرون باستتابته أبـدًا وعـدم قتله على الإطلاق.. وقد ورد هـذا الخلاف في العديد من كتب الفقه مثل كتاب (فقه السنة) للشيخ سيد سابق..

وقد وقع الشـيخ الغـزالي في تنـاقض حينما أجـاز في فتـواه قتل المرتد على حين ذكر أن له رأيًا شخصيًا بأن يسـجن المرتد سـجنًا مؤبـدًا، وألا يجري البحث عنه إذا ما هـرب.. وهـذه الخلافـات في حد ذاتها تقطع بعدم وجود حد للردة حيث يعرف الفقهـاء الحد بأنه عقوبة ثابتة ومحـددة لا تقبل الزيادة أو النقصان أو التبديل أو التغيـير.. ولهـذا ورد في كتـاب الفقه على المـذاهب الأربعة أن الحـدود المتفق عليها هي ثلاثة فقط وهي (حد السرقة والزنا والقذف) ليس من بينها حد الردة.

3- اعتمد القائلون بهذا الحد على الحديث المنسـوب إلى سـيدنا رسـول الله ﷺ (من بـدل دينه فـاقتلوه).. وقد رد بعض الفقهـاء بـأن هـذا الحديث يتعارض مع النصوص القرآنية الـتي تحـدد أن العقوبة للمرتد عقوبة يتكفل بها المولى عز وجل في الـدنيا والآخـرة، وليس هنـاك أي عقـاب يوقع على المرتد في الـدنيا لمجـرد ردته طالما لم يكن

محاربًا.. كما قال كثير من الفقهاء أن هذا الحديث من أحاديث الآحاد التي لا يؤخذ بها في الحدود الشرعية.. وقد أورد ذلك الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر السابق في كتابه (الإسلام عقيدة وشريعة).. كما قال آخرون أنه لا يمكن الأخذ بهذا الحديث على إطلاقه لأنه يعني قتل من ينتقل من دين إلى دين من غير المسلمين كمن ينتقل من النصرانية إلى اليهودية على سبيل المثال فيجب قتله؛ ولذلك فقد أنكر الكثير من الفقهاء الاستناد على هذا الحديث كدليل على قتل المرتد.

دكتور حامد حسان
أخصائي الأذن والأنف والحنجرة

وواصل الأستاذ صلاح نصر ما بدأه من تعليقات ففي يوم 31/7 نشر تحت عنوان:

"إثبات جريمة الردة"

عن كتاب المسئولية الجنائية في الفقه الإسلامي الذي أرسله لي مؤلفه الدكتور أحمد فتحي بهنسي أنقل ما يلي خاصًا بجريمة الردة.

1- **المرتد هو الذي يكفر بعد إسلامه، والردة في اللغة تعني الرجوع عن الشيء إلى غيره، أي أنها بالمعنى الديني الخروج عن الإسلام إلى غيره.**

2- **أصل هذه الجريمة ما ورد في القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (سورة البقرة)، وفي آية أخرى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَّرْتَدَّ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (سورة المائدة)، وقوله ﷺ: "من بدل دينه فاقتلوه".**

3- **في تثبت جريمة الردة لابد من توافر ثلاثة أركان: فعل مادي، وشروط خاصة في المرتد، ثم القصد الجنائي.**

4- **أما الفعل المادي فإنه في جريمة الردة الخروج عن الدين الإسلامي إلى أي دين آخر كتابي أو غير كتابي، أو إلى غير دين، وقد يكون ذلك بالقول كما قد يكون بالفعل.**

أما عن شروط المرتد فهي: أن يكون مسلما (إذ أن أحكام هذه الجريمة لا تتعلق إلا بالنسبة للمسلمين) وأن يكون بالغًا عاقلا (فالصبي والمجنون لا تعتبر ردتهما) وأن يكون مختارًا (فالمكره لا تصح ردته لقوله تعالى: ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾).

أما عن القصد الجنائي فإن القصد المطلوب في هذه الجريمة هو قصد خاص؛ أي لا يكفي القصد الجنائي العام اللازم في أغلب الجرائم، وهو إتيان الفعل مع العلم به، بل لابد أن المرتد يقصد الكفر. فمن يحرق القرآن لأجل شفاء مريض كما يفعل المشعوذون لا يكون مرتدًا، ومن يأتي بسخيف القول غير قاصد للكفر لا يعتبر مرتدًا، ومن ينطق بالكفر تحت تأثير العذاب ولم يقصده لا يكون مرتدًا.

1- **من أول آثار جريمة الردة وجوب العقوبة؛ فإذا ثبتت جريمة الردة يحبس المرتد ثلاثة أيام بلياليها يستتاب فيها (في ذلك قول عمر**

وعلي وعطـاء ومالك والثـوري والأوزاعي وإسـحق وأصـحاب الـرأي وأحد قـولين للشـافعي). وقد اختلفت الأقـوال في كيفية الاسـتتابة فقـــال البعض: يطلب منه التوبة إلى الله في كل يـــوم من الأيـــام الثلاثة مرة واحدة كل يوم.

2- **الإثبات في جريمة الردة: تثبت هـذه الجريمة بطـريقين، حكمها حكم باقي الجرائم: بـالإقرار وبشـهادة الشـهود. ورأي كتب الشـافعية أن الـردة تثبت بالبينـة، ولا يجب تفصـيل الشـهادة بهـا، أما رأي بـاقي الفقهـاء فهو أنه يلـزم تفصـيل الشـهادة فيهـا. فلا يكتفي القاضي بقول الشاهد أن المرتد كفر، بل لابد أن يبين ما كفر به بيانًا واضحًا لا إجمـال فيـه. بـأن يقـول الشـاهد كفر بقوله كـذا أو بفعله كـذا لاحتمال أن يكون الشـاهد يعتقد أن ما وقع منه كفر وهو في الواقع ليس كذلك.**

وفي يوم 1/8/1993 نشر الأستاذ صلاح منتصر في عموده تحت عنوان:

"أسئلة وتعليقات"

هذا هو العمود رقم 11 في سلسلة القضايا التي فتحنا الحوار فيها مع فضيلة الشيخ محمد الغزالي، ومازال الحوار مستمرًا ولن أنشر رسالة واحدة فيها خروج على الموضوعية.. ومن يسأل عن الهدف أقول إنه أكثر من هدف؛ أهمها في رأيي أن يتعلم الشباب ألا يعرف قضايا الدين من مجرد كتاب قرأه أو رأي سمعه، وإن عظمة الإسلام في تحريض الإنسان على استخدام العقل الذي ميزه الله به..

وأختار من عديد الرسائل هذه الفقرات:

**** هناك إجماع بين الفقهاء أكد عليه فضيلة الشيخ الغزالي وهو أن حد الردة لم يرد به نص قرآني وإنما ورد في حديث آحاد (رأي رواه واحد عن واحد حتى رسول الله ص) وهو الحديث الذي يقول: "من بدل دينه فاقتلوه"..**

وقد أصدرت لجنة الفتوى بالأزهر الشريف بتاريخ 1/2/1990 فتوى معناها (أن حديث الآحاد لا يفيد اليقين، ولا فرق في ذلك بين أحاديث الصحيحين وغيرها، وأن أحاديث الآحاد – لذلك – لا تستقل بإثبات الإيجاب والتحريم). وقد وافق فضيلة الشيخ الغزالي على هذه الفتوى بدليل أنه أوردها في كتابه "تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل" ص 176، فإذا كانت أحاديث الآحاد لا تستقل بإثبات الإيجاب والتحريم، فهل يجوز أن تستقل بإثبات الحدود؟

لواء محمد شبل
دبلوم دراسات إسلامية

**** رغم اعتراف فضيلة الشيخ الغزالي بأن القرآن الكريم لم يذكر عقوبة للمرتد وأن العقوبة التي ذكرها هي اجتهاد شخصي منه، إلا أن فضيلته يقول إن المرتد، يرفع أمره إلى القضاء ليبت في مصيره وفق حكم الله" فإذا كان هناك حكم لله يحكم به القضاء – كما يقول فضيلته – فلماذا إذن الاجتهاد الشخصي من فضيلته؟**

دكتور عادل رشاد غزال
أستاذ مساعد بطب قناة السويس

نفس الشيء أحيل سؤالك إلى فضيلة الشيخ الغزالي..

**** أرى أن عدم ذكر حد للردة في القرآن الكريم هو أعظم تحد من العلي القدير برسوخ هذا الدين المعجزة، فالمرتد أتفه من أن يشكل قيمة للإسلام، وإلا هل أنت تنتقص من البحر شيئًا إذا ملأت منه كوبًا؟**

المعتز بالله الشربيني
محاسب

**** عند مناقشة أي اتهام يوجه لفرج فودة أرجو مراعاة التفرقة بين ما إذا كان الرأي الذي قاله فوده قصد به التهجم على الشريعة أم على رجال الشريعة؛ ذلك أن لكل منهما حكمًا يختلف عن الآخر، فهجومه على الشريعة شيء وعلى رجال الشريعة شيء آخر.**

د. علي نصير

ومازال الحوار مستمرًا.

وفي يوم 2/8 واصل الأستاذ صلاح منتصر نشر التعليقات فجاء تحت عنوان:

"من يملك الاستتابة؟"

أوضـحت التعليقـات الـتي نشـرتموها تعقيبًا على شـهادة فضـيلة الشـيخ محمد الغـزالي خلو الآيـات القرآنية من نص يقضي بقتل المرتـد، وأن المرجع الوحيد هو الحــديث "من بــدل دينه فــاقتلوه" رغم معارضة كثـير من الفقهـاء لهـذا الحـديث لتناقضه مع القـرآن من جهة ولأنه من أحاديث الآحاد الـتي لا يؤخذ بها في مسـائل الحـدود من جهة أخـرى.. إلا أنه على الجانب الآخر هناك عشرات الروايات المتفقة مع القرآن والــتي تقطع بعـدم قتل المرتد ومنهـا: ما رواه البخـاري جــ4 ص 96 ومســلم بشرح النووي ج9 ص 455 من أن أعرابيًا بايع الرسول ثم جـاءه قـائلا: يا محمد أقلني من بيعـتي "فـأبى الرسـول وكررها الأعـرابي ثلاثًا ثم خـرج من المدينـة"، فقـال الرسـول: "إنما المدينة كـالكير تنفي خبثها وينضج طيبها"، ويذكر الحافظ بن حجر والإمام النـووي نقلا عن القاضي عيـاض وشرح النووي على مسلم: "أنه رغم كونها حالة ردة ظاهرة ومع ذلك لم يعاقبه الرسول ولا أمر بعقابه بل تركه يخرج من المدينة دون أن يعــرض له أحـد". وقـال الشـوكاني في (نيل الأوطـار): لم يثبت أن رسـول الله عـاقب على الــردة بالقتــل. كما روى عن البخـاري جــ4 ص 246 كتـاب الشعب:" إن رجلا نصرانيًا أسـلم ثم ارتد نصـرانيًا مـرة أخـرى فأماته الله فـدفنوه، ولم يعاقبه الرسـول على ردتـه". وهنـاك العديد من الروايـات الــتي تنسب إلى سـيدنا عمر بن الخطــاب وعمر بن عبد العزيز وغيرهما مفادها أنهم لم يحكموا بقتل المرتدين.

والنقطة الثانية الـــتي أريد أن أعلق عليها هي نقطة "الاســـتتابة" فقد ذكر فضـيلة الشـيخ الغـزالي في شـهادته أن المرتد يجب اسـتتابته قبل معاقبته وهو ما ليس له أسـاس في الــدين أو الشــرع، حيث توضح الآيات العديدة أن الله تعالى هو وحده المختص بقبول التوبة أو رفضــها. ذلك أن مناط التوبة هو قلب الإنسان، ولا يطلع على القلوب إلا خالقهـا. ولأنه لا أساس لزعم الاستتابة في الدين أو الشرع فقد اختلف القـائلون به. فمنهم من قال يسـتتاب أيامًا ومنهم من قـال شـهورًا والبعض قـال يستتاب طوال حياة المرتد، بل إننا سمعنا مؤخرًا من شاهد في المحكمة بأنه "لا ترجى توبته" ومنهم من قـال: (يقتل وإن تـاب) ! ولعل السـؤال إلى كل هؤلاء الـذين يـدعون إلى اسـتتابة المرتد هـو: إذا منح إنسـان ما نفسه الحق في أن يسـتتيب غـيره من النـاس، فهل يملك أيضًـا ضـمان قبول هذه التوبة في حين يقول الحق تبارك وتعـالى: ﴿ وَهُـوَ الَّذِي يَقْبَـلُ التَّوْبَـةَ عَنْ عِبَـادِهِ﴾ وإذا كـان هنـاك من يقـول بحقهم في عقـاب المرتد بقتله فهل يملكون في المقابل مكافأة من يؤمن بأن يضــمنوا له دخــول الجنة على أساس أن الذي يملك هذه لابد أن يملك أيضًا تلــك؟ أليس ذلك مشاركة لله تعالى في أخص خصوصـيات الألوهية وهي قبــول التوبة من عباده ورفضها؟.

لواء متقاعـد
حسام سـويلم

وفي يوم 3/8 نشر الأستاذ صلاح منتصر تحت عنوان:

"تعليق من الغزالي"

الأحـاديث النبوية أنـواع: أشـهرها الأحـاديث المتـواترة، والأحاديـة، والحسنة، والضعيفة.

والأحـاديث المتـواترة هي الـتي سـمعها عن الرسـول - عليه أفضل الصـلاة - جمع من النـاس ونقلوها إلى جمع أكـبر، وهـؤلاء قـاموا بنقلها إلى جمع آخر وهكـذا.. وهــذه الأحــاديث المتــواترة محــدودة ومعــدودة، وصحتها جميعًا مؤكدة، أما أحاديث الآحـاد فهي الـتي نقلها عن الرسـول واحد أو اثنان ثم رواها واحد إلى آخر وهكذا.. فإذا كان هؤلاء الــرواة من الثقاة المشهود لهم بالأمانة والصدق اعتبرت الأحـاديث صـحيحة، وتتغـير درجة الأحاديث من الحسنة إلى الضعيفة بحسب الرواة.

وتعقيبًا على ما قيل حول حد الردة تلقيت الـرد التـالي من فضـيلة الشيخ محمد الغزالي أنشره بعلامات التعجب التي وردت فيه.

(إن القول بأن حد الردة لم يجئ إلا عن طريق أحاديث الآحـاد قـول فيه مجازفة وبعد عن الصــواب! كيف وقد تــواتر تاريخيًا أن المســلمين جميعًا قاتلوا وراء أبي بكر رضي الله عنه المرتدين ومانعي الزكـاة معًـا؟ وقد ظلت الحرب قرابة سنتين؟ أين مكان حديث الآحاد في هذا الإجماع؟ والذي نراه أن جريمة الردة لها مـراتب، أو تطلق على أنـواع متفاوتة من النكوص على الأعقاب:

1- **فهناك من يكفر في نفسه أو في بيته، وهذا لن نشق عن صـدره ولا نقتحم له بيتًا، وليبق على حاله حـتى يمـوت، فـإذا تـرك دار الإسـلام إلى أرض أخرى فلن نسعى إلى استعادته ولا رده إلى الله.**

2- **وهنـــاك من يفـــارق الجماعة بـــإعلان حـــرب على النص، فيعـــالن [ملحوظة من عندي أي يجاهر علنا] بترك الصلاة ومنع الزكاة، وإباحة الخمر والزنا وتعطيل الشرائع.**

ولما كان الإسلام عقيدة وشريعة فـإن نقض المعـاملات والعبـادات سواء في الخـروج منه ومخاصـمة أمتـه، وهـذا هو الـذي يقـدم للمحاكمة ويستتاب. فإن بقي على مروقه قتل وألا ترك.

3- **وقد استطاع الاستعمار تجنيد أفراد يعملون معه على ضرب الإسـلام وهـدم أوامـره ونواهيـه، وبلغ هـؤلاء حـدًا هـائلا في النكاية بالـدين والنيل من تعاليمه المقررة، إنها ردة جديـدة تشـبه ما وقع أيـام أبي بكر والسكوت عليها إيذان بالإتيان على الإسـلام من القواعد ولـذلك قررنا التصدي لها حتى تنتهي).**

محمد الغزالي

وبدأ الأستاذ صلاح منتصر في نشر رأيه الخاص يوم 4/8/1993 فتحت عنوان:

" أختلف مع الشيخ"

ليسمح لي فضيلة الشيخ محمد الغزالي وقد أمضينا نحو أسبوعين في مناقشة هادئة وموضوعية لقضية أثارتها أقواله – ولا أقول شهادته – أمام المحكمة، أن أختلف معه في بعض الآراء والأحكام دون أن يفسد هذا الخلاف ما بيننا من ود وتقدير..

أما الرأي فهو الخاص بإشارته إلى المرتد وقول فضيلته "أما المرتد فهو رجل كان منا وعرف ما نحن عليه ثم رأى لمأرب خاص أن ينضم إلى خصومنا وأن يؤيدهم بما يستطيع.." وعبارة "كان منا وعرف ما نحن عليه" توحي بأن المسلمين مجموعة خاصة لهم طقوس سرية لا يعرفها غيرهم، أو أن هناك أحوالا أو نقاطًا معينة نخفيها عن خصومنا ولا نكشفها لهم، وقد خاننا أحد المسلمين. وعرف بها وانضم إلى هؤلاء الخصوم وحاربنا بما عرف عنا من نقاط ضعف كانوا يجهلونها..

وقد لا يكون هذا هو المعنى الذي قصده فضيلة الشيخ الغزالي، والأغلب أنه أراد أن يبسط فهم جريمة المرتد ويقربها من خيانة الوطن، إلا أن الكلمات التي استخدمها فضيلته أوصلتنا إلى معنى آخر لا يتفق أبدًا مع الواقع.. فلسنا نحن المسلمين جمعية خاصة لها طقوس سرية ولا فينا من نقاط الضعف ما نحاول أن نخفيه، ولا بيننا من يدبر المؤامرات التي في حاجة إلى أن يفشي بها من كان منا وعرف ما نحن عليه.. فأركان العبادة في الإسلام لا تجري سرًا بل لعل أبرز ما فيها العلانية، الصلاة في المساجد وفي الميادين، والحج شعائره ينقلها التليفزيون على الهواء، والصيام أمره معروف للكافة، وخطباء المساجد تنقل الميكروفونات خطبهم أيام الجمع والمناسبات.. فلا سر نخفيه ولا نقاط ضعف نخشاها من الإسلام، ولو كانت هناك هذه النقاط لكانت في المسلمين وليس في الإسلام..

الحكم الذي أختلف فيه مع فضيلة الشيخ هو حكمه على فرج فودة، وقد ذكر فيما كتبه لي ونشرته هنا [أهرام 21/7] "لقد اشتركت مع فرج فوده في مناظرة لأني كنت طامعًا إذا شرحت له الحق وبسطت أدلته أن أعود بالرجل إلى الإيمان ولكني وجدته يكره الإسلام ونظامه وينكر صلاحية أحكامه للبقاء، أي أنه يؤيد حكم الإعدام الذي أصدره الاستعمار على شريعتنا وينحاز إلى أعدائنا بصراحة"، والكلمات كما هو واضح بالغة القسوة من رجل فاضل نكن له كل التقدير والاحترام، وقد يكون هذا هو رأي الشيخ في رجل أصبح في رحاب ربه الذي ليس بعد عدله عدل، ولكن هل هذا هو رأي الشرع؟

إن حكم الشيخ جاء محددًا عندما ذكر أنه ذهب لمناظرة معه لأنه كان طامعًا أن يعود بالرجل إلى الإيمان "ولكني وجدته بيكره الإسلام ونظامه وينكر صلاحية أحكامه للبقاء".. وهذا يعني أن فرج فودة في هذه المناظر قال ما يعكس كراهيته للإسلام وأنكر صلاحية أحكامه للبقاء.. فماذا قال؟

وفي اليوم التالي 5/8 استكمل الأستاذ صلاح منتصر ما كان بدأه في اليوم السابق، فنشر تحت عنوان:

"هذه هي أقواله"

لفضيلة الأستاذ محمد الغـزالي عبـارات رائعة جميلة منها قوله "إذا كان الحوار الهادئ الواعي واجبًا مع غـير المسـلمين فهو مع المسـلمين أوجب"، وأيضًا قوله: "أذكر رأيك وأيده بالدليل الـذي تملكه وانتظر بعدئذ أن أتجاوب معك فإذا لم يكن لديك دليل مقنع فلا سبيل لك علي".

ودليلي يا فضـيلة الشـيخ في خلافي معكم بالنسـبة لحكمكم على فـرج فـوده هو ما قاله في المنـاظرة الـتي اشـتركت معه فيهـا، والـتي ذكـرت بعـدها أنه تأكد لك فيها أنه يكـره الإسـلام ونظامه وينكر صـلاحية أحكامه للبقاء.

وما جــرى في هــذه المنــاظرة يا فضــيلة الشــيخ مســجل وموثق بالصوت والصورة. وأنا هنا أنقل على لسانه ما قاله قرب ختام المناظرة وكان نصه ما يلي: "هنـاك شـيء سـمعته وأرجو أن تكـون أذني أخطأتـه. ففي بداية حـديث الأسـتاذ الجليل الـدكتور محمد عمـارة قـال إن بـديل الدولة الدينية دولة لا دينية وهو ما يعـني رفضه الدولة المدنيـة.. سـيادة المستشار الجليل الأستاذ مأمون الهضيبي قـال بعد ذلك إنه يقبل الدولة المدنية على أن يحكم فيها بشرع الله. والله كـدت أن أقـوم لأقبله فهـذا ما نريد. ثم يبقى شيء وهو مسائل الحدود ومسائل الشـريعة، وهـذه لنا فيها رأي ومن خلال جــوهر الإســلام. ولـذا أنا قلت إن الحــوار هو الحل فأرجو أن تتاح فرص للحوار؛ لأن الكلمة أقوى من السيف دائمًا، القــرآن بدأ باقرأ وسنظل نتحاور حتى نوقف نزيف الدم ونصل إلى كلمة ســواء. وأنا أؤكد لكم أن ما يقال ليس خلافًا بين أنصار الإسلام وأعداء الإسـلام، وإنما هو خلاف رؤى. رؤى لا تتنــاقض مع الإســلام. لكن الفريق الــذي أنتمي إليه لم يــرد أبــدًا أن الإســلام هو دين العنــف. أبــدًا الإسـلام دين القول بالتي هي أحسن؛ ولذلك نحن ندين الإرهاب لأنه قول وفعل بالتي هي أسوأ. الإسـلام عنـدما يفهم ويجتهد فيه تختلف الصـورة. إن التـاريخ نقل إلينا في عصر العباسيين حوار أبي حنيفة مع ملحـد.. والتـاريخ نقل إلينا كتابــات الملحــدين داخل الدولة الإســلامية عنــدما كــانت الدولة الإسلامية في قمة حضـارتها. لم يرتفع الإسـلام بالسـيف. كـان الحـديث بالحروف وليس بالكلاشنكوف. أدعو الله للجميع أن يهتدوا بهدي الإسلام وهو دين الرحمة وأن يهـديهم الله لأن يضـعوا الإسـلام في مكانه العزيز بعيدًا عن الاختلاف وعن الفرقة وعن الإرهاب وعن الـدم وعن المطـامح وعن المطامع".

هــذا بعض ما قاله فــرج فــوده في المنــاظرة، فهل يفهم أحد من كلامه أنه يكره الإسلام وينكر صلاحية أحكامه للبقاء؟. وربما كان لفضيلة الشيخ الغزالي أو غيره رأيهم الشخصي في نوايا الرجـل، ولكن هل نحن نحاكم نواياه أم أقواله وأفعاله؟ إن دليلنا عليه أقواله، أما نواياه فحسابه عنها أمــام خالقه وحـــده وليس فينا على وجه الأرض من يســـتطيع أن يقول إنه شق صدره!

وكانت جريدة الأهرام قد تنـاولت الموضـوع في عـددها الأسـبوعي يـوم الجمعة 16/7 (ص 24) وتحت عناوين:

"حتى لا تستغل أحاديث الردة في تشويه العقيدة"
حرية الاعتقاد الديني كفلها الإسلام وعقوباته للمرتدين مسئولية ولي الأمر

نشرت رأي أستاذين دون أن تلحظ أن الرأيين يناقضان عناوينها!!

وجاء في كلمة الأهرام:

حسـمت لجنة الفتـوى بـالأزهر الشـرف في بيانها الـذي نشر في الأسـبوع الماضي العديد من النقـاط بالنسـبة لقضـية الـردة والمرتـدين وقـدمت المنهج الإسـلامي الصـحيح والمتكامل في التعامل مع هـذه القضـية بما تسـتوجبه من علم وتـدقيق وشـمول وبما يتفق مع النظـرة الحضـارية للإسـلام وبما يتسق مع مبادئه العظيمة الـتي رسـخت قيمة العلم والعقل في الإيمان.

وقد أكدت الفتوى نقطة بالغة الأهمية صـيانة للإسـلام والمسـلمين من الفتن والقلاقل وحماية للمجتمعـات الإسـلامية من الفوضـى؛ حيث ركزت على أن مسئولية التعامل مع هذه القضية هي مسئولية ولي الأمر وليست مسئولية الآحـاد من النـاس، وأنه لا يحق لفـرد أن يتهم الآخـرين بـالكفر أو ينعتهم بالمرتـدين بحكم أن تلك مسـئولية ولي الأمر ومن يفوضهم من المسئولين المختصين.

وفي ظل الهجمة الشرسة على الإسـلام الـتي تسـعى إلى تشـويه حقائقه وقواعده الراسخة التي كـرمت الإنسـان وأحـاطت حريته بسـياج منيع من الضمانات لا تجعل من إطلاق تهمة الكفر أو الـردة أمـرًا سـهلا، بل وتلزم ولي الأمر باستتابة المرتد وإبراء ذمته إذا رجع عن ردته.. فـإن إيضاح حقيقة الموقف الإسلامي من هـذا الأمر يصـبح مسـئولية المجتمع الإسلامي أمام الغير حفاظًا على صورة الإسلام.

ومن الغـريب أن بعض وسـائل الإعلام الغـربي الـتي تشن حملة ضـارية على الإسـلام وتتهمه بالاعتـداء على حرية العقيـدة هي نفسـها الـتي تخفف من المأسـاة الدامية للمسـلمين في البوسـنة والهرسـك، وتتجاهل حقوقهم الدينية والإنسانية مما يـدل على أن الحضـارة الغربية قد بلغت قمة التراجع والتخلف والهمجية، وهذا لايبرر على الإطلاق خلط الأوراق وتحميل الإسـلام بغـير ما يحتمل والتصـميم على إثـارة قضـايا قديمة حسمها الإسـلام ومـازال الغـرب عـاجزًا عن فهمها بـدليل موقفه في البوسنة والهرسك.

البداية كانت مع الدكتور أحمد حمد أحمد أستاذ الشـريعة الإسـلامية بجامعة قطر الذي قال إن هنـاك مجموعة من الحقـائق لابد من طرحهـا، وأولى هذه الحقائق هي أن محـور الحيـاة بما تتطلبه من ألـوان النشـاط في مختلف المجـالات السياسـية والاجتماعية والاقتصـادية و غيرها هو الإنسان الذي كرمه الله – جل علاه – وفضله على كثير ممن خلق وسـخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا، أما الثانية والتي تقترن بهذه الحقيقة فهي أن الإنسان في أمس الحاجة وهو يخوض غمار هذه الحياة ويكـدح فيها إلى منهج حكيم يجنبه الضـلال وينقـذه من المخـاطر والأهوال. والحقيقة الثالثة التي هي قوام هاتين الحقيقتين هي أن هـذا المنهج الحكيم لن يكون إلا من عند الله العلي القدير الذي صنع الإنسـان وصنع الكون الـذي سـخره لـه؛ فـإن الصـانع هو الـذي يعـرف كل صـغيرة وكبـيرة وكل دقيقة وجليلة فيما صـنع: ألا يعلم من خلق وهو اللطيف

الخبير؟ فإذا كان الإنسان الذي هو محور ألوان النشاط في هذا الملكوت من صنع الله، وإذا كان هذا الملكوت المسخر له من صنع اللـه. فلمـاذا لا يكون المنهج الإسلامي هو الذي يسير عليه وهو يمارس ألوان نشاطه؟..

كيف يمكن أن تنعكس هـــذه الحقـــائق الثلاث على قضـــية حرية العقيدة؟

في إجابته أوضح محدثنا أن المتأمل لرحلة الفكر الوضعي ولاسـيما الفكر الغربي مع قضية الحرية عمومًا لابد وأن يلمس قصـوره عن إدراك المفهــوم الصــحيح للحريــة؛ فهو يحــاول فهم الحرية من خلال نظرته الحبيسة في نطاق ضيق، فقد قام بتضـييق رحـاب الحيـاة الواسـعة على نفسه ثم انبرى يصرخ من هذا الضـيق ويحـاول الخلاص منه دون جـدوى، وسـبب ذلك هو نظرته الحبيسة في نطـاق المادية الـتي أفقدته النظـرة الصائبة.

إذا كــان الإنســان قد فقد أو ضل طريقه لمفهــوم الحرية فما هي الحرية الحقيقية من منظور الفكر الإسلامي؟

أجــاب محــدثنا قــائلا إن مفهــوم الحرية لابد أن يتسق مع التكــوين الفكــري لكل إنســان ســليم الفطــرة، ومن ثم فالحرية هي تعظيم الله ورفض أي شيء يعلو عليه، أو هي العبودية لله لا لشيء سواه.

ولكن ما هي أوجه الاختلاف بين موقف الشريعة الإسـلامية والنظم الوضعية من حرية العقيدة؟

أكد د. أحمد رشاد طاحون بجامعة الزقازيق الحاصل على الـدكتوراه في موضــوع حرية العقيــدة الدينية في الشــريعة الإســلامية. إن حرية العقيــدة في الشــريعة الإســلامية قد تقــررت منذ فجر البعثة المحمدية مصداق ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْــدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ وإذا كانت حرية العقيدة في النظم الوضـعية تقتضي فصل الـدين عن الدولة والأخذ بمبدأ العلمانية فإن تقرير حرية العقيـدة في الإسـلام، ذلك النظام الشامل لشتى منـاحي الحيـاة ودون حاجة لفصل الـدين عن الدولة. أيضًا ترى النظم الوضعية في تقريرها لحرية العقيــدة بعين حرية الإنسان في الاعتقاد بدين معين وحريته في الإلحاد والدعوى إليه. ولكن الشريعة الإسلامية لا تقر الإلحاد لتنافيه مع الفطرة الإنسانية ولما أجمع عليه البشر منذ وجد الإنسان على هذه الأرض.

هنا تثور قضية الردة، خاصة أن أعداء الإسـلام يلوحـون بـأن موقف الإسـلام من المرتـدين هو اعتـداء على حرية الإنسـان في الاعتقـاد مما يدعو إلى طرح الأسباب التي دعت إلى تجريم الإسلام للردة عنه.

أوضح محــدثنا في رده علينــا، أن أســاس الإيمــان في الإســلام هو الاقتنــاع القلــبي والتحــرر الوجــداني من كل زيغ وضــلال والتحــرر من التقليد الأعمى ومن ســلطان الهــوى. لــذلك كــان الإيمــان المقبــول هو الناشئ عن رضا واختيار واقتناع بالدليل.

وإذا ما ارتد مثل هذا الإنسان عن الإسلام فذلك يعني أنه إما عــابث بالدين وبكيــان المجتمع وإما هــادم لنظامه الاجتمــاعي؛ فالإســلام نظــام شــامل متكامل ينظم ســائر فــروع الحيــاة حيث ينظم العلاقة بين العبد وربه كما ينظم العلاقة بين أفراد المجتمع وبينهم وبين سلطات الدولــة، وينظم سلطات الدولة على أســاس ما جــاءت به الشــريعة من قيم ومثل متمثلة في مصــادرها الشــرعية، والمرتد يعلن خروجه على هــذا النظــام

الاجتماعي والقانوني والاقتصاد والسياسي فضلا عن إنكاره لقضية الإيمان من أساسها.

إذن فهذا المرتد لم يؤمن عن اقتناع إنما كان إيمانه بقصد إفساد أمر هذه الأمة كما حدث من اليهود في المرحلة المدنية عندما كانوا يأمرون قومهم بالإيمان أول النهار والكفر آخره، ومن شأن هذا وهم أهل كتاب أن يتشكك المسلمون في أمر دينهم؛ وذلك كما جاء في القرآن الكريم حيث يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وقد ذكر ابن كثير في تفسيره أن هذه مكيدة أرادها اليهود ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وحتى يقول الجهلة من الناس إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين؛ ولهذا قالوا لعلهم يرجعون.

ولكن قد يكون الارتداد بسبب ما ثار في نفس المسلم من شبهات أو عدم اقتناع بأمر من أمور الإسلام، وليس بدافع العبث؟

أوضح محدثنا أنه في هذه الحالة يجب على ولي الأمر أن يزيل عنه هذه الشبهة ويساعده على التخلص مما يساوره من شكوك وهواجس حتى يقتنع اقتناعًا كاملا بالإسلام، أما إذا أصر على موقفه فيجب توقيع العقوبة عليه؛ لأنه يعلم أن دخول الإسلام يقتضي الاقتناع الكامل والإيمان الصادق. والإسلام في ذلك ليس بدعة؛ فأي نظام وضعي يقرر عقوبة الإعدام لمن يرتكب جريمة هدم البنيان الاجتماعي للدولة أو الخروج عن النظام العام للدولة.

وكلام الأستاذين مثال "نمطي" لتطويع المبادئ لما تهوى الأنفس وما استقر في الأذهان من مفاهيم سابقة، وأثر الطبيعة المزاجية والنفسية على إصدار الأحكام، ويتفق مع ما أجمعوا عليه من أن الغرض من الردة هو العبث بالإسلام والكيد له والتآمر عليه، دون أن يخطر له خاطرة عن حرية اعتقاد أو فكر.

***

وقد أثار الموضوع اهتمام كل الصحف تقريبًا، وكتب معظم المفكرين الإسلاميين، بما فيهم بالطبع الأستاذ فهمي هويدي الذي كتب في جريدة الأهرام في مقاله الأسبوعي يدافع عن الشيخ الغزالي ويلفت النظر لنقطة في غاية الأهمية؛ تلك هي أنه كان يجيب على أسئلة محددة تعمدها الدفاع لتبرئة موكليه. ولم يكن أمامه مناص من الرد، ومثل هذا الرد لا يعد فتوى أو رأيًا علميًا مجردًا. وسترد إشارات عديدة إلى هذا المقال الهام..

ونشرت جريدة الحياة تحقيقًا صحفيًا جاءها من مراسليها إبراهيم قاعود وضياء عبد الحميد. بالقاهرة – في العدد الصادر في 18/7/1993- تحت عنوان:

"شهادة الغزالي في قضية فرج فوده"

جاء فيه:

لا تزال شهادة الداعية الإسلامي الشيخ محمد الغزالي أمام محكمة أمن الدولة المصرية العليا الشهر الماضي تثير عاصفة من الانتقادات والجدل المحتدم بين جمهور المثقفين المصريين وعلماء الدين، في ما

يتعلق بتوقيتها وفحواها، ولأنها في جانب منها تنتزع من الدولة ولايتها على الأفراد وحقها في القصاص، كما أنها كانت مفاجأة للشارع المصري الذي يعرف عن الغزالي اعتداله. وشهدت صفحات الجرائد والمجلات المصرية جدلا بين مؤيدي شهادة الغزالي ومعارضيها، ويرى الجانب الأخير أن فتوى الغزالي تفتح مجالا واسعًا للمزيد من عمليات الإرهاب" ضد صاحب أي فكر واجتهاد، واعتباره مرتدًا يجب قتله تطبيقًا لحد الردة.

ومما زاد من اشتعال الجدل واحتدامه دخول الأزهر على الخط بإصدار لجنة الفتوى التابعة له بيانًا جاء فيه: "من يبادل من تلقاء نفسه بقتل شخص مرتد لابد أن يعاقب، فالعقوبة منوطة بحكم من القضاء وليست متروكة للأفراد". ومازالت القضية تتفاعل والجدل يزداد سخونة واحتدامًا.

واستطلعت "الحياة" آراء بعض العلماء والمفكرين الإسلاميين حول هذه القضية "الردة.. ومن يملك حق الحكم بارتداد مسلم عن دينه؟".

وكانت محكمة أمن الدولة العليا المصرية التي تنظر في قضية اغتيال الكاتب الدكتور فرج فوده استدعت - بناء على طلب الدفاع - الشيخ محمد الغزالي كشاهد، ودار بينه وبين الدفاع حوار حول حكم الردة. وقال الشيخ أن حكم المرتد القتل.

وأضاف الغزالي: "إن حكم الله لا يلغيه أحد ولو نفذه أحد الناس فإنه يكون مفتئتًا على السلطة". وعندما سأله ممثل الدفاع إذا كانت هناك عقوبة على الافتئات على السلطة إسلاميًا، قال الغزالي: لا أنكر أن لها عقوبة".

هذه الشهادة أثارت نوعًا من الارتياح لدى الجماعات الإسلامية التي طالما هاجمت الشيخ الغزالي بسبب كتاباته حتى أنها كانت تتهمه بأنه من علماء الحكومة.

وأعرب أحد أبرز قيادات هذه الجماعة وهو صفوت عبد الغني الذي يحاكم في قضيتي اغتيال فرج فوده ورفعت المحجوب عن اعتزازه بشهادة الغزالي وأنه حتى في حال صدور أحكام بإعدام ضد المتهمين في قضية اغتيال فوده فإنه تكفيهم هذه الشهادة.

وهاجمت بعض الصحف المصرية بخاصة "روز اليوسف" شهادة الغزالي واعتبرتها "فتوى تصب في مصلحة التطرف والمتطرفين" واتهمت الرجل بأنه "مفتي التطرف الجديد" والمفتي القديم هو الشيخ عمر عبد الرحمن الذي يثير الجدل حول إقامته في الولايات المتحدة، ولكن الصحف المعبرة عن التيار الإسلامي مثل "الشعب" و"الأحرار" انحازت إلى جانب شهادة الغزالي، وثار جدل طويل في الشارع المصري حول هذه الشهادة ومدى سلامتها، خصوصًا مع استمرار أعمال العنف التي ترتكبها الجماعات المتطرفة ضد أجهزة الأمن ورموز السلطة.

وفي محاولة لحسم الخلاف حول الشهادة صدر بيان شرعي (فتوى) من لجنة الفتوى في الأزهر "من دون طلب من أحد" كما يقول رئيسها الشيخ عطية صقر، وصدر البيان بإجماع آراء وأعضاء اللجنة وهم: الشيوخ محمود عبد المتجلي وعبد الجليل شلبي وأحمد مسلم وعبد العظيم الحموي وصالح حتحوت.

وجاء في بيان لجنة الفتوى الصادر في 8 تموز (يوليو) الماضي في تحديد معنى الردة ومن هو المرتد: "إن ردة الفرد تحصل بإنكــاره ما عُلم من الدين بالضرورة؛ كالعقائد وأركان الإسـلام الأساسـية أو بالاسـتهزاء بها والطعن في صلاحيتها لتقديم الفكر والسلوك".

وفي عقـاب المرتد قـال بيـان اللجنـة: "قـرر العلمـاء أن يسـتتاب المرتد لمدة، اختلفت فيها آراء العلماء، فإذا رجع المرتد فقد أبـرأ ذمتـه، وأن لم يرجع وجبت عقوبته".

وفي تحديد العقوبة أوردت اللجنة قـول الرسـول ﷺ: "من بـدل دينه فاقتلوه". مع أنه لا يمكن أن تتم العقوبة إلا بتوافر أمرين:

التأكد من ثبوت الجريمة واستقصاء كل ملابساتها والاطمئنـــان إلى عـدم وجـود أية شـبهة فيها وذلك بنـاء على قـول رسـول الله ﷺ: "ادرأوا الحدود بالشبهات" وهذا التأكد لا يكون إلا بمعرفة المسئولين المختصـين الـذين يملكـون من الوسـائل ما يمكنهم من التحقق من أركـان الجريمة ونفي الشبهات عنها.

الأمر الثاني: إن العقوبة، إذا وجبت، لا يجوز تنفيذها إلا بمعرفة من قـاموا بتحقيق أسـبابها، أما من يوقع عقوبة حدية من دون إذن من ولي الأمر فإنه بذلك يكون ارتكب إثمًا عظيمًا له عقوبته الشديدة في الآخـرة، ويجوز لولي الأمر أن يعاقبه عقوبة تعزيرية منعًا للفوضى وإقرارًا للأمن والنظـام، وأكد بيـان اللجنة أن الإسـلام حـرم على المسـلم الارتـداد عن دينه مصداقًا لقـول الله تعـالى: ﴿ وَمَن يَرْتَـدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِـهِ فَيَمُتْ وَهُـوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ومن جهتها احتجت المنظمة المصرية لحقوق الإنسان على شــهادة الشيخ الغـزالي ورفضـتها وأعلنت أنها ضد حقـوق الإنسـان وتسـيء إلى الإسلام.

لا أحكم على فرج فوده

يقول الدكتور الحسـيني أبو فرحـة، رئيس قسم التفسـير في كلية البنـات – جامعة الأزهـر: "إن الـردة بمفهومها في الإسـلام تعـني رجـوع المسـلم عن الإسـلام وخروجه منه بعد دخوله فيـه، والـردة كفر وزيـادة؛ لأن المرتد كفر بخروجه من الإســــلام، أما الزيـــــادة فهي أنه تلاعب بالإسلام والمسلمين".

وأضاف أن اليهود في عهد النبي، ﷺ كانوا يـدخلون في الإسـلام في أول النهــار ويرجعــون عنه في آخــره، واتفقــوا على ذلك في ما بينهم وهدفهم كما صـرحوا به هو أن يرتد المسـلمون عن الإسـلام، وقـال الله تعـالى في القـرآن الكـريم مشـيرًا إلى ذلـك: ﴿ وَقَـالَت طَّائِفَـةٌ مِّنْ أَهْـلِ الْكِتَـابِ آمِنُـوا بِالَّذِي أُنْـزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُـوا وَجْـهَ النَّهَـارِ وَاكْفُـرُوا آخِـرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

ويضـيف أبو فرحـة: "تأسيسًـا على ذلك فـإن المرتد كـافر وإذا دعا إلى كفره وأعلن الحرب على الإسلام فتلك جريمة أخرى، وهذه ما نطلق عليها الزيـادة؛ فهنـاك من يرتد فقط وهنـاك من يرتد ويشـتغل بالـدعوة إلى الردة، وبهذا تبين لنا أن المرتد إذا دعا غيره إلى الـردة يكـون ارتكب ثلاث جرائم:

أولا: الكفر.

ثانيًا: محاولة بلبلة غيره من المسلمين.

ثالثًا: دعوته إلى الردة وإعلانه الحرب على الإسلام.

والإسلام جعل عقوبة المرتد استتابته، فإن تاب عفي عنــه، وإن لم يتب قتل كفرًا وليس حدًا كما يظن البعض، ولا يغسل ولا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين.

وأضاف: "بالنسبة إلى الكـاتب فـرج فـوده فـإنني لم أقـرأ له كلمة ولم أسمع منه كلمـة، كنت فقط أسـمع من الـزملاء أنه يهـاجم الإسـلام، فأجنب نفسي قراءة ما يؤذي نفسي، وبالتالي لا أستطيع الحكم عليه".

وقال عن فتوى الشيخ الغزالي: "أرى أنه أشــار إلى أن المرتد أشد كفرًا من الكافر نفسـه، لأنه رجع عن الإسـلام بعد دخوله فيـه، وأزيد هنا أن المرتد إذا كان داعيًا إلى ردته فتلك جريمة ثالثة خصوصًــا في الــوقت الــذي نجد فيه أن المقدســات الإســلامية تنتهك قدســيتها، ولا تجد من يحرص عليها".

استتابة المرتد

أما الشيخ منصـور الرفـاعي عبيـد، مـدير عـام المسـاجد في وزارة الأوقاف المصرية، فيقـول: "مفهـوم الـردة في الإسـلام هو أن المـؤمن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ونعرفه أيضًــا من علاقته بــالمجتمع المســلم الــذي يعيش فيــه، ثم نجــده فجــأة يبــدأ بالاســتهزاء والسخرية بالقيم الدينية وبالمبــادئ الإسـلامية، ويـأتي بأفعـال تـبين أنه غير مؤمن، وغير معترف بالأديان، أي أنه ارتد عن دينه، ولم يقبل العمل والسير على نهجه، ويستهزئ بالقيم التي رسمها دينه، وإلى هذا أشارت الآية الكريمة" ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَـرُوا ثُمَّ آمَنُـوا ثُمَّ كَفَـرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾.

وأضاف: "إن الإسلام ينظر إلى هذا الساخر نظرة احتقار لأنه خــرج على ما تعارف عليه القـوم الـذين نشأ بينهم، وعلى العلمـاء أن ينبهـوه، فــإن تــاب ورجع وأعلن أنه نــدم على ما فــات ثم ســار على نهج القيم الدينية فإنه عندئذ يكــون مؤمنًا صــادقًا، وعلى الحــاكم أيضًــا أن يحــذره ويحبسه ويمنع عنه كل ملذات الحياة حـتى يتـوب فـإن تـاب ورجـع، يفك سجنه وإن تمسك بآرائه فإنه يقتل تنفيذًا للحكم الشرعي".

ولكن هل تترك عملية تنفيذ القتل إلى عامة النـاس أم أنه لابد وأن توكل إلى ولي الأمر حــتى لا تعم الفوضــى، بخاصة أن فتــوى الشــيخ الغــزالي أبــاحت قتل المرتد على يد أي كــان من المســلمين من دون الرجوع إلى الحاكم، ومن دون عقاب له بعد ذلك؟

قال الشيخ عبيد: "إن فتوى الشيخ الغزالي في قضية الدكتور فــرج فوده صـحيحة، وما أدلى به من آراء سـليم، لأن الشـيخ الغـزالي له علمه ومكانته ومعرفتــه، وما أدلى به بنــاء على ما لديه من علم ومعرفــة، وما مر به من تجارب وخبرة؛ لأنه مارس العمل الميداني في الدعوة إلى الله قرابة 50 عامًا فهو في رأيه الــذي أسسه على ما لديه من علم، صــادق تمامًا"!

وأضاف أن الشيخ الغزالي أكد في فتواه أنه يجب أن تـترك للحـاكم مسـئولية تنفيذ حكم الإعـدام في المرتـد، فـإن نفذ الحكم أحد من عامة

المسلمين فقد افتأت على السلطة، والأمر هنا متروك لولي الأمر في عقابه، فله حق التعزير الذي يصل إلى حد القتل حسبما يراه من حجم الجريمة التي وقعت، بيد أن الشرع لم يوجب قتل من قتل المرتد، ولكنه ترك الأمر لولي الأمر، إن الإسلام أوكل إلى الحاكم أن ينظم المجتمع بقوانين وقواعد يراها تحقق الانضباط داخل المجتمع، أخذًا من قول الله وهدى نبيه، وعلى هذا فإن الإسلام أوجب قتل من قتل بغير حق؛ لأن عملية تنفيذ الحكم متروكة إلى ولي الأمر حتى لا تعم الفوضى والاضطرابات التي نخشى على المجتمع منها، فتكون الخلخلة الاجتماعية.

لذا فإن الشيخ الغزالي على حق، ولكن حديثه يحتاج إلى شرح، فنحن نؤيده في ما ذهب إليه، ونوكل الأمر في النهاية إلى الحاكم ولا نفتئت عليه، وإنما نضع الأمور في نصابها ليكون الأمن والاستقرار.

شهادة خاطئة:

ويقول الكاتب والباحث الإسلامي الدكتور أحمد شوقي الفنجري: "الواقع أن هناك من حاول الدفاع عن هذه الشهادة التي صدرت من الشيخ محمد الغزالي فهي شهادة قيلت في محكمة وليست فتوى، وهناك من قال إنها فتوى وليست شهادة. وأعتبر أن ما صدر من شيخ كبير له قدره ومكانته الدينية خطأ كبير، وكنا نتمنى أن يرد الغزالي ويصحح المفاهيم، كما أن المحامي ورطه في أشياء لم تكن على باله، وكونه عالمًا لا يمنعه من الخطأ، كان علماء المسلمين يفتون ويتراجعون عن فتواهم، ونتمنى من الشيخ الغزالي أن يرد على التساؤلات وعلامات الاستفهام التي فهمت أنها تدعو إلى نشر المذابح والقتل بين المسلمين، وهذا لا نريده، لذلك نطلب منه تصحيح الخطأ حتى ولو اضطر إلى التراجع عن أقواله. وعليه أن يرد على كل التساؤلات في مقال واضح. أما عن الشهادة ذاتها فهي تضمنت خطأين: الأول: يتعلق بتوصيف المرتد ومن هو؟ الحديث الشريف يقول: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فإذا قالوها فقد عصموا دماؤهم وأموالهم وحسابهم بعد ذلك على الله"، معنى هذا أن من يقول لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله مهما قال من آراء بعد ذلك في تطبيق الشريعة لا يعتبر مرتدًا، فالحكم في ارتداد أي فرد يجب أن يصدر من لجنة قضائية من أهل الذكر والفتوى وأن يسأل الشخص في شهادته بالإسلام ويناقش في آرائه فإذا لم يكن في هذه الآراء ما ينفي الشهادتين فلا يمكن اعتباره مرتدًا وألا اعتبرنا جميع المسلمين الذين يفكرون في صالح الإسلام متهمين بالردة.

ثانيًا: بالنسبة إلى تطبيق العقوبة لا يجوز لأي فرد أو جماعة خارج سلطات الدولة أن تنفذ العقوبة. وينبغي أن تنفذها لجنة مكونة من هؤلاء الذين حاكموا المتهم بالردة، ويكون من خلال السلطة.

بقي سؤال تثيره الجماعات المتطرفة وهو: إذا كانت الدولة لم تحاكم هذا الشخص المشتبه بارتداده ولم تقم بتنفيذ أي حكم للردة فإن هذا أيضًا لا يجيز لأي فرد أو جماعة أن يتطوع بالمحاكمة ولا بالتنفيذ، ولكن عليهم من خلال القنوات الشرعية أن يطالبوا الدولة بإجراء هذه المحاكمة.

توقيت قاتل:

وعقب الكاتب الإسلامي حامد سليمان على شهادة الغـزالي قـائلا: "هناك قصة معروفة في صدر الإسـلام: عنـدما نهر الرسـول ﷺ أحد قادته بعد أن قتل أحد المحـاربين من صـفوف الأعـداء فقـال قولته الشـهيرة: "هلا شـققت عن قلبـه" ورأيي أن الحكم بارتـداد أي إنسـان ليس في يد أي إنسان عادي، فمن يشهد بالشهادتين فهو معصوم من القتـل، ومصر ليست دولة تطبق الشـريعة الإســلامية كي نطـالب القاضي بتطــبيق الحـدود. كيف نطـالب قاضـيًا بتطـبيق قـانون غـير معمـول به أصـلا. لابد للصـفوة المنتخبة من الأمة أن تتفق حـول هـذه المسـألة، وليس لفـرد الحق في تنفيذ ذلــك. وأعتــبر أن ما قاله الشــيخ الغــزالي مجــرد رأي شخصي وليس فتوى، فالفتوى لابد أن تكون جماعية وليست فردية، كما أن تـوقيت ما قاله الشـيخ الغـزالي سـيئ للغايـة، فهنـاك من أبـاح قتل الناس في الشوارع. والشيخ الغـزالي معـروف باعتداله وسـماحته فكيف يصب الزيت على النار في مثل هذا التوقيت؟

أخالف الشيخ الغزالي:

أما أحمد صبحي منصور، الأستاذ السابق في جامعة الأزهر فله رأي مختلف تمامًا في هذه القضية، واسـتدل على ذلك بـآراء الشـيخ الغـزالي نفسه خصوصًــا ما جــاء منها في كتابه "الســنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحــديث" فيقــول: يمكننا أن نتعــرف إلى رأي الشــيخ الغــزالي الحقيقي من خلال ما أورده في هـذا الكتـاب بالنسـبة إلى حد الـردة، إذ يقول: "إنني أحصـيت أكـثر من مئـتي آية في القـرآن الكـريم تؤكد على حرية الاعتقاد في الإسلام، وأنه لا إكراه في الدين".

وأضاف منصور أن الشيخ الغزالي اعـترف في الكتـاب المشـار إليه بأن أحاديث الآحاد لا ينبغي أن يؤخذ منها أمور العقائد, وأمـور التشـريع، خصوصًا ما يخص في التشريع عمليات سفك الدماء والأموال؛ لأنه معلوم أن أحــاديث الآحــاد تشـكل أكـثر من 99 في المئة من الأحـاديث، ومنها الصـحيح ومنها الضـعيف، وسـواء كـان حد الـردة معتمـدًا على أحـاديث صــحيحة عند بعضــهم، أو أحــاديث ضـعيفة عند آخر فإنها ليست لقيــام تشــريع على أساسه تقتل النفس، خصوصًــا وأن الشــيخ الغــزالي في الكتاب نفسه يهاجم الذين يأخذون بتلك الأحاديث".

واعتبر أن الشيخ الغزالي في هذا الكتـاب كـان ضد حد الـردة ولكنه في حقيقة الأمر نسي نفسه ونسي ما كتبه، بسبب خصـامه مع الـدكتور فرج فوده، والسب معروف.

أما الدكتور أحمد عمر هاشم نـائب رئيس جامعة الأزهر فـامتنع عن ذكر رأيه في هـــذه القضـــية، واكتفى بأنه "لا يصح أن نهـــدم علماءنا الأجلاء، ولا يصح أن نناقض بعضنا بعضًا لأن الشيخ الغـزالي عـالم فاضل ووجهة نظره في هـذه القضـية صـحيحة، إلا أن الـدفاع لم يمهله الـوقت الكافي لشرح وجهة نظره، فقد سـأله أسـئلة مختصـرة، وبالتـالي كـانت شـهادته مختصـرة، ولم يكن يقصد بها ذلـك، والعملية تحتـاج إلى شـرح وتفسير".

***

قد يُظَّن أن ما قدمناه من استشهادات وأقوال يكفي، ولكن الحقيقة أن القضـية تســـتحق المزيد خاصة وأن الصـــحافة لم تقصر – ما بين تأييد وتنديد – في معالجتها وقام بهذا كتاب ومفكرون لهم وزنهم، لهذا فسنضـيف إلى ما قـدمنا مقـالين: أحـدهما بقلم فضـيلة المفـتي الشـيخ طنطـاوي ونشـره في أهـرام 10/8/1993 في سلسـلة

مقالاته عن "الإفتاء" وجاء تحت عنوان "كلمة عن الردة والمرتدين" تحدث فيها فضيلة الشيخ طـويلا عن حرية الاعتقـاد في الإسـلام وسـماحته – وأنه لا يكفر إلا المصر على الكفر، واستطرد فقال:

الحقيقة السابعة: أن الردة يقصد بها في اصطلاح الفقهـاء: رجـوع المسلم العاقل البالغ عن الإسـلام باختيـاره دون إكـراه، إذ الإكـراه على التلفظ بكلمة الكفـر، لا يخـرج المسـلم عن إسـلامه مـادام قلبه مطمئنًا بالإيمان.

قـال تعـالى: ﴿ مَن كَفَـرَ بِاللـهِ مِن بَعْـدِ إِيمَانِـهِ إِلاَّ مَنْ أُكْـرِهَ وَقَلْبُـهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَـانِ وَلَكِن مَّن شَـرَحَ بِـالْكُفْرِ صَـدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَـبٌ مِّنَ اللـهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة النحل: الآية 106].

والمسلم لا يعد مرتدًا إلا إذا أنكر أمرًا معلومًا من الدين بالضــرورة، كإنكـاره لوحدانية الله – تعـالى- ولنبـوة محمد - ﷺ - وأن القـرآن من عند الله، وكاستهزائه بشعائر الإسلام وأركانه وآدابه وأحكامه.

وكاستحلاله لما حرم الله – تعالى – كشرب الخمـر، وتعـاطي الربـا. وقتل النفس...

والـــذي يملك الحكم بارتـــداده هم أهل العلم الـــذين يوثق بفقههم وأمانتهم، بعد مناقشتهم لـه، ومحـاولتهم إزالة الشـبهات الـتي انحـرفت بتفكيره إلى الباطـل، وبعد اسـتتابته لفـترة قد تكـون ثلاثة أيـام أو أكـثر مادام هنـاك أمل في إقناعه وفي إزالة شـبهاته، وبعد تحـذيره من سـوء عاقبة ارتداده في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُـوَ كَـافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـالُهُمْ فِي الـدُّنْيَا وَالآخِـرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [سورة البقرة: 217].

ولا يصح رمي المســـلم بـــالردة إلا إذا حكم الراســـخون في العلم بذلك، لقد نسب إلى الإمام مالك أنه قال: "من صدر عنه ما يحتمل الكفر من تسـعة وتسـعين وجهًـا، ويحتمل الإسـلام من وجه واحـد، حمل أمـره على الإسلام".

الحقيقة الثامنة: أن المرتد إذا أصر على ردته عن الإسـلام، وجـاهر بـــذلك، وأســـاء إلى الإســـلام والمسـلمين، وحكم بـــذلك الراســخون في علمهم وفقههم، رفع أمره إلى الهيئات القضـائية المختصة بالفصل في مثل هذه الأمور، لكي تصدر حكمها العادل المسـتمد من أحكـام الشـريعة الإســـلامية، وهـــذا الحكم قد يصل إلى القتل أو إلى ما هو أقل من ذلك كالسـجن، إذ أمـام القضـاء العـادل المختص تعـرف الحقيقـة، ويتحـدد العقاب، المناسب، ويوزن خطأ كل فرد بميزان العدالة الدقيق.

ومبلغ علمي أن قانون العقوبات المصري، قد وردت عليه تعـديلات، تتضمن عقوبات رادعة، لكل من يهاجمون العقائد الدينية، ويشككون في صحة أحكام الشريعة الإسلامية، ويسخرون منها...

الحقيقة التاسـعة: إن تحديد العقوبة على المرتد وتنفيـذها من حق ولي الأمر أو نائبه كالهيئـات القضـائية والتنفيذيـة، ولا يصح للأفـراد أن يقومـوا بهـذه المهمة الـتي هي من اختصـاص ولي الأمر أو نائبـه، وذلك لأن من شـــأن الأمة المنتظمة أن يكـــون لها راع يرعاهـــا، ويفصل في أمورهـا، ويعينه على ذلك أهل الحل والعقـد، وأربـاب المشـورة والـرأي، وأصحاب القدرة على المسـاعدة والمعونـة، ولأن الأمة تتكـون من أفـراد تتعـدد مصـالحهم، وتختلف مشـاربهم وأفكـارهم وآراؤهم تبعًا لمـؤثرات

متنوعة، ولو ترك لكل فرد يفعل ما يريد على حسب هواه، لصارت الأمور فوضى في الأمة، ولسادها الاضطراب والفساد..

قال القرطبي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ج2 ص 244.

"لا خلاف في أن القصاص في القتل لا يقيمه إلا أولو الأمر، فرض عليهم النهوض به، وإقامة الحدود، وغير ذلك، لأن الله – تعالى – خاطب جميع المؤمنين بالقصاص، ثم لا يتهيأ للمؤمنين جميعًا أن يجتمعوا على القصاص، فأقاموا السلطان مقام أنفسهم في إقامة القصاص وغيره من الحدود".

وهكذا نرى أن هناك إجماعًا من الفقهاء على أن تنفيذ الحدود، وتحديد العقوبات على الجرائم، من واجب ولي الأمر أو نائبه، كالهيئات القضائية والتنفيذية، حماية لأمن الأمة، وصيانة لها من الاضطراب والفساد.

الحقيقة العاشرة: إن أي فرد أو جماعة تقوم بقتل شخص أو الاعتداء عليه بحجة أنه مرتد، وبغير إذن ولي الأمر أو نائبه، يكون هذا الفرد أو تلك الجماعة قد تجاوزت حدودها واعتدت على حق غيرها، ويجب محاكمة ذلك الفرد أو تلك الجماعة أمام الهيئات القضائية المختصة التي تزن الأمور بميزان العدل، وتحكم بالعقوبة التي تراها مناسبة.

وهذا – أيضًا – مما أجمع عليه العلماء، وقررته شريعة الإسلام التي تقوم على العدالة والنظام الدقيق، وإعطاء كل ذي حق حقه دون إفراط أو تفريط.

هذا، وإن دين الإسلام واضح في عقائده وعبادته وتشريعاته وأحكامه وآدابه... ومن دخله عن اقتناع ويقين فمرحبًا به، ومن خرج منه فيما بينه وبين نفسه؛ لأن أحكامه لا تتفق مع هواه وشهواته وأطماعه ورذائله... فإلى حيث ألقت، والله – تعالى يقول: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ أما الذي يجاهر بالخروج من الإسلام، ثم يسخر من أحكامه، ويهاجم تشريعاته وآدابه. ويقذف نبيه - ﷺ - وأتباعه بكل نقيصة، كذبًا وزورًا وبحثًا عن المال أو الشهرة الزائفة، فنحن له بالمرصاد، ويجب أن تنزل به الهيئات القضائية ما يستحق من عقاب، لا من أجل ردته فحسب، وإنما من أجل كذبه وفجوره وقذفه للأطهار، وتعمده الإساءة إلى الحق وأهله ومحاربته لله ولرسوله، وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

والمقال الثاني هو ما نشرته مجلة "أخبار الأدب" [العدد الثاني – 1/8/1993 – ص 12] بقلم المحامي النابه الدكتور محمد عصفور تحت عنوان: "الشيخ الغزالي المفترى عليه" استعرض فيه أقوال الشيخ الغزالي وتعليقات خصومه وأنصاره جاء فيه:

إن اغتيال أصحاب الأقلام (مهما كانت درجة الاستفزاز أو الاستجابة لآرائهم) ظاهرة من أخطر الظواهر التي تصاب بها الدول النامية أو المتخلفة! لأنها تعني تعطيل لغة الحوار – لغة العقل – وإطلاق الانفعالات الطائشة وتفجير مشاعر الكراهية والتعصب.. على نحو ما يظهر في تعطيل الحوار والمناقشة والجدل وإحلال العنف وإطلاق

الرصاص.. ومحاولات الاغتيال، ومع الأسف الشديد أن تقترن هذه الظاهرة دائمًا بعقيدة ما: سواء كانت الوطنية أو "الدينية" ولكنها تنتهي دائمًا إلى "الاغتيال" واللافت للنظر إن مصر الحديثة قد شهدت صورتين من هذه الظاهرة؛ مرة في عهد الاحتلال البريطاني وحكم وهيمنة السفارة البريطانية بالتعاون مع السراي.. وتشهده الآن في ظل الأحكام العرفية الممتدة منذ اثني عشر عامًا.. وهو ما يدعو كثيرين من المحللين إلى الربط بين جرائم الاغتيال السياسي وبين نظام الحكم القاهر أو الاستثنائي. فهل يعني ذلك أن التخوين (اتهام الضحية بالعمالة للاحتلال) والتكفير (اتهام الضحية بالردة) لهما مصدر واحد، وينتهيان إلى نتيجة واحدة؟ إن جرائم الاغتيال السياسي الشهيرة في مصر الحديثة (ابتداء من اغتيال بطرس غالي مرورًا باغتيال أمين عثمان ثم أحمد ماهر) قد انصبت على رموز السلطة، أما الجرائم الحديثة باستثناء اغتيال السادات فإنها قد استهدفت بعض أصحاب الأقلام (محاولة اغتيال مكرم محمد أحمد، ثم اغتيال د. فرج فوده) وقد أكد الكثيرون أن ثمت بواعث دينية وراء هذه الاغتيالات بما فيها اغتيال السادات. غير أن ما يجب التنبيه إليه أن صرف الاغتيال عن رموز السلطة وتوجيهه إلى حملة الأقلام يمثل ظاهرة غاية في الخطورة، ليس فقط لأنه تهديد عنيف لغير الضحايا بأن يكفوا عن التفكير أو التجديد، وإنما كذلك لأنه يظهر للرأي العام عجز خصوم الضحية عن إقناعه بسلامة ما يدعون إليه أو ما ينادون به! وبالنسبة لاغتيال د. فرج فوده بالذات صور د. أحمد صبحي منصور (الأهالي 6/7) إن الخلاف بين الشيخ الغزالي وبين د. فرج فوده كان يدور حول موضوع الإسلام والحكم، وهل هو دين ودولة. وإن د. فرج فوده في مناظرتين قد انتصر على دعاة الدولة الدينية مطالبًا بإبعاد الإسلام عن أهواء السياسة وأطماع المزايدين، مستعرضًا الأدلة العلمية والتاريخية المؤيدة لوجهة نظره متحديًا خصومه أن يقدموا برنامجًا للحكم طالما يطالبونه بالحكم.. ويتطرف د. منصور في هذا التصوير فيدعي أنه شق على خصوم د. فرج فوده أن ينهزموا أمامه مرتين، وأنهم لن يستطيعوا الوقوف أمامه، فأصدروا عليه حكم الإعدام، وأن الذين دبروا المؤامرة عندما عجزوا عن مواجهة د. فرج فوده بالكلمة أطلقوا عليه الرشاش من خلف! بل إن د. منصور يدعي أن للتطرف جناحين؛ أحدهما مدني والآخر عسكري! وأن الجناح المدني يدعي الاستنارة والاعتدال بينما ينثر في كلامه أحاديث التطرف والتعصب، قد نجح في التلاعب بالنصوص واستجداء المشاعر بعد التلاعب بعقول الشباب والعدالة، حتى إذا تقدم فارس شجاع مثل فرج فودة ليظهرهم على حقيقتهم انقلب حقدهم عليه فتاوى تدعو لقتله.. ثم قام الجناح العسكري للتطرف بتنفيذ الجريمة..!! وعندما أدلى الشيخ الغزالي بشهادته بعد استدعاء الدفاع له في المحكمة قامت الدنيا ولم تقعد حسب تعبير فهمي هويدي.

الضحية:

والواقع أن شهادة الشيخ محمد الغزالي في محاكمة المتهمين باغتيال د. فرج فودة كانت مثار تعليقات غاضبة من جانب المدافعين عن أفكار وتصورات د. فرج فودة.. وإذا كان الشيخ مصطفى عاصي (الأهالي 6/7) اكتفى بالتعليق بعنوان (المستنيرون هل يفتحون باب التكفير) تطرق د. أحمد صبحي منصور في اتهاماته فزعم أنه (بعد أن رحل فرج فوده، خلا الجو للشيخ الغزالي كي يتهمه بالكفر والردة وهو واثق أن خصمه قد ذهب إلى الدار الآخرة، ولن يستطيع أن يفحمه كما

كان يفعل.. فتطاول على عقيدة فـرج فـوده بعد موته وبعد رحيلـه.. ولو كان يعتقد أن فرج فـوده مرتد أو كـافر فما الـذي منعه أن يعلن ذلك في المناظرة أمام فرج فودة والنـاس أجمعين، إنه عجز عن ذلك في حضـور فرج فـودة، لأن فـرج كـان حريصًـا على تأكيد هويته الإسـلامية معليًا من شأن الإسـلام.. معتـبرًا نفسه مـدافعًا عن صـحيح الإسـلام، وقـال إنه مع الدستور القائم على مبادئ الشريعة، وأنه مع تطبيق الشريعة بشـرط أن يقوم الفقهاء باجتهاد مستنير فيها.. غير أن د. منصور يـدعي أن مهـارة د. فرج في المنـاظرة وثقته في نفسـه، وتضـاؤل خصـومه أمامه زادهم عليه حقدًا، واعتبروه متطاولا على الشيخ الغزالي حين انتصر عليـه، وأن الشيخ الغزالي (في غمـرة حقـده قد كشف عن هويته الحقيقية وانتمائه للجناح المـدني المتطـرف)! وإن هـذا ما تكشف في محاكمة الإرهـابيين. بالإشارة إلى حد الردة المزعوم.

ولقد حرصت أن أسجل (بقـدر ما تسـمح به المسـاحة) وجهة النظر المنددة.. بإثارة موضوع الردة أمـام القضـاء الجنـائي (سـواء في شـهادة الشيخ محمد الغزالي أو في شهادة د. محمود مزروعـة) لكي أنبه إلى أن المحاكمة في جريمة اغتيال د. فرج فودة تفجر مشكلات كثيرة تثار أمـام القضاء الجنائي الذي تنحصر مهمته في تطبيق القـانون بالنسـبة لجريمة اغتيـال عادية ليس من شـأن السـمات الممـيزة لشخصـية الضـحية أو ما اتهم به من ردة ليس من شـــأن ذلك كله أن ينفي حقيقة هامة وهي أن كاتبًا قد اغتيل بـــــدوافع دينية محضــــة.. وهو أمر له دلالاته بل ونتائجه الخطيرة حيث يعبر عن ظاهرة حديثة على الأقل في مصر.

الفارق كبير بين الرأي والتحقير أو الاستهـزاء

أرجو أن ألفت النظر إلى أن ظاهرة "التكفير" ليست ظاهرة جديدة في مصر الحديثـــة، وإنما الجديد فيها العنف المصـــاحب لها والـــذي يبلغ أحيانًا حد الاغتيال، فلقد تعرض د. طه حسين، والشيخ علي عبد الـرازق، وقاسم أمين، وأحمد لطفي السـّــيد، ود. زكي نجيب محمـــود.. إلخ إلخ. تعرض هؤلاء جميعًا وغيرهم لهجـوم شـديد من جـانب الأوسـاط الدينيـة. وقد بلغ ذروته بالنسبة لطه حسين وكتابه في الشعر الجاهلي، في تبليغ النيابة العامة وإجراء التحقيق وفصل الدكتور طه من الجامعـة.. غـير أنه لم يحدث أي اعتداء مادي عليه أو أي ممن اعتـبروا دعـاة العلمانيـة.. فما الذي جرى حتى تتم محاولة اغتيال صحفي وترتكب جريمة اغتيال كاتب؟ كيف يمكن تفسير هذه الظاهرة الخطيرة؟!

وبماذا تفسر هـذا الجو المعـادي لأي تصـوير قصصي يعتـبر مناهضا للعقيدة أو أي بحث أكاديمي يعتبر انتقادًا متطاولا على الدين؟!

فلقد قـامت ضـجة صـحيفة بعد الحكم بـالحبس على علاء حامد عن قصص نشـرها اعتـبرت متعرضة للـدين.. وقـامت ضـجة صـحفية أخـرى بالنسـبة للـدكتور أبو زيد عن بعض دراســاته أو أبحاثه الــتي تقــدم بها للترقية إلى وظيفة أســتاذ، حيث حجبت عنه الترقية اســتنادًا إلى تقرير كتبه رئيس اللجنة العلمية اتهم فيه الـدكتور أبو زيد بـالكفر.. ولئن كـان هذا القـرار موضـوع طعن بالإلغـاء أمـام محكمة القضـاء الإداري (مجلس الدولة)، فـإن المثـير للعجب حقًا أن يعلن أن رئيس جامعة القـاهرة بعث يستفتي الأزهر فيما قدمه ونشـره الـدكتور أبو زيـد.. وما هو أشد إثـارة الـدعوى الـتي رفعها بعض الأشـخاص (وعلى رأسـهم مستشـار سـابق بمجلس الدولـة) أمـام دائـرة من دوائر محكمة الأحـوال الشخصـية بطلب

التفريق بين الدكتور أبو زيد وزوجته (وهي أيضًا أستاذة مساعدة) استنادًا إلى كفر الزوج أو ردته، ورغم عنف هذه الإجراءات إلا أنها أخف بكثير من اغتيال الدكتور فرج فودة.. وهو وإن كان أمرًا لا سابقة له في تاريخ مصر.. إلا أنه يبدو أنه قد تأثر بالفتوى الخمينية باعتبار اغتيال سلمان رشدي (بسبب روايته آيات شيطانية) واجبًا دينيًا يكافأ بمكافأة مالية ضخمة!

المشكلات التي تفجرها قضية اغتيال د. فرج فودة

ولعل قضية اغتيال د. فرج فودة تحمل نموذجًا مثاليًا لجريمة الإرهاب الفكري التي أصبحت للأسف الظاهرة المميزة للحضارة المعاصرة: فالإرهاب الفكري تمارسه الدولة الحديثة من خلال الهيمنة الإعلامية الأيديولوجية، وفي المقابل تمارس التيارات الأصولية المتطرفة في عنفها وعدوانها وإرهابها الفكري هي الأخرى باغتيال من تعتبرهم أعداء العقيدة أو الدين، وتكون المشكلات الواجب مواجهتها من الكثرة والتعقيد بحيث يحار المعلق بأيها يبدأ؟!

- هل كان د. فرج فودة ضحية ممارسته لحريتي الفكر والرأي.
- وهل تم الاغتيال نتيجة تحريض بعض علماء الدين الذين أفتوا بردته أو كفره.
- وهل تمثل محاكمة مغتالي د. فرج فودة وقد طرح موضوع الردة محاكمة لعقيدة المجني عليه؟!
- وهل يمكن أن تجد جريمة الاغتيال تبريرًا لها الإفتاء بأن قتل المرتد يمكن أن يقوم به آحاد الناس؟

إن هذه المشكلات كلها لابد وأن تواجه بصراحة وأمانة، وقد تكون القضية المطروحة على القضاء، الفرصة الهامة لمعالجة أخطر أزمة أو مشكلة تواجه التيارات الإسلامية والتي يعد أقوى اتهام لها هو الاتهام بالإرهاب الدموي لأي فكر مستنير!

حرية الفكر أو الرأي لا تتسع لحريتي الإهانة والتطاول والاستفزاز

أول ما يجب تأكيده أن أية حرية ليست حرية مطلقة وإنما هي دائمًا مقيدة بألا يشكل التعبير عنها عدوانًا على الآخرين، فحرية الرأي لا تعني القذف أو التطاول – وحرية الفكر أو حرية الاعتقاد تعتبر من الحريات اللصيقة بشخص الإنسان والتي لا يتصور تقييدها ما دامت محصورة في عقل صاحبها، أما إذا خرجت إلى العالم الخارجي بالتعبير عنها فإنها عندئذ تخضع للقيد الجوهري وهو ألا تؤذي الآخرين وحتى بالنسبة للمعتقدات الدينية فإن دستور 23 قد أخضع ممارسة شعائرها وطقوسها لقيد جوهري هو عدم إخلالها بالنظام العام أو الآداب.

ولذلك فإن، ما يتصوره البعض – حرية فكر أو رأي مطلقة تصور خاطئ، فما يسمى بحق أو حرية الإبداع يستحيل أن يؤدي إلى التهجم أو التطاول على معتقدات الجماعة أو قيمها الدينية.. وهذا قيد أساسي جوهري، لابد أن يوضع في الاعتبار عند تناول شهادة علماء الدين بالنسبة لما نشره د. فرج فودة، واعتبره البعض إفصاحًا عن الردة.. أو تهجمًا على الإسلام والعلماء.

واعتقادي أن ما يدور اليوم من مجادلات حادة حول حريات العقيدة والفكر والرأي، سوف تظل مجادلات عبثية ولا طائل من ورائها، ما دمنا لم نلتزم بالضوابط الشرعية والدستورية والمنطقية في شأن ما يعتبر ومالا يعتبر كفرًا وردة، وما يعتبر رأيًا جديرًا بالحماية أو إهانة واجبة الردع.. أو تطاولاً أو استفزازًا لمشاعر أية طائفة من الناس. فهذا فهمي هويدي ينقل ما أكده الشيخ الغزالي باحترام حرية الرأي والحوار.. أما ما يجاوز ذلك من استفزاز وإهانة، فإنه أمر يستوجب الزجر. إن الشيخ مصطفى عاصي ينسب إلى الشيخ الغزالي تكفيره للمخالف لرأيه ويتساءل ما هو نموذج الحكم الديني الذي يراد تطبيقه والذي يعتبر معارضه كافرًا: هل ما كان مطبقًا في عصر الراشدين والذي لم يزد عمره على أربعين عامًا فقط، أم ما تلا ذلك من عصور تالية تنسب نفسها زورًا إلى الإسلام؟

والواقع أن الشيخ الغزالي لم يتطرق إلى هذا الموضوع تحديدًا وإنما كانت شهادته مركزة في العدوان الاستفزازي على مشاعر المسلمين وعقيدتهم، وهو ما عبر عنه فهمي هويدي في الأهرام 6/7 بقوله: "إن الشيخ الغزالي دعا إلى ضرورة التفرقة بين الحوار في الشأن الإسلامي وبين الشتم والسب السخرية. فالأول مطلوب إلى أبعد مدى، حيث الاختلاف بين الناس في الرأي – كما في الجنس والملة – هو سنة من سنن الله، وخطاب الإسلام لم يزجر الذين خالفوا الإسلام وانتقدوا أصوله وتعاليمه، طالما كان في الأمر حوار، فمقام الحوار مقدر ومحترم، حتى ولو تعرض بالنقد للشريعة ذاتها.. ولكن الأمر يختلف حين يتدنى الخطاب ويسب الإسلام ويشهر به من جانب بعض المسلمين بصورة فجة تعبر عن كراهة للدين وازدراء به وخيانة له، في هذه الحالة، فإذا كانت خيانة الوطن تعد جريمة عظمى تستجلب لصاحبها أقصى العقوبات فإن خيانة الدين ليست دونها خطرًا، ولا أقل من أن تعامل بالمثل". فما هو هذا الأمر الذي جعل شهادة الشيخ الغزالي موضوع مثار هجوم شديد إلى ما نسب زورًا إلى الشيخ الغزالي، وقبل أن نتناول هذه الشهادة بالتعليق نرى من الضروري أن نشير بوجه خاص إلى أن الشيخ الغزالي ليس فقط من المفكرين الإسلاميين المستنيرين، ولكنه كذلك من كبار أهل العلم ورموزه الشامخة؛ ولذلك فإن خصومه (في كافة المعسكرات) انتهزوا هذه الفرصة حسبما وصف ذلك فهمي هويدي (الأهرام 6 يوليو) واستخدموا شحنات مكثفة من العبارات والأوصاف المسمومة والجارحة، وحرفوا شهادته لإثبات أن الكل إرهابيون ومتطرفون.

* وندد آخرون بالشهادة باعتبارها تصريحًا باغتيال المخالفين للرأي في شأن العنف أو الطبيعة السياسية للإسلام وأنه دين ودولة.

وقال آخرون إن فكرة إجازة نيابة الأفراد عن الدولة في قتل المرتد، أمر يعرض أي مجتمع للدمار، والتحكم من جانب من يرون في الرأي المعارض ارتدادًا أو كفرًا، وقد استنكرت منظمة حقوق الإنسان ما تصورته رأيًا للشيخ الغزالي لا يعاقب مغتصب سلطة العقاب من الأفراد.

والحقيقة أن معظم الأسئلة التي وجهت إلى الشيخ الغزالي أسئلة إيحائية صيغت بطريقة ذكية تؤدي إلى إجابات تساند الدفاع في موقفه حتى لو كان هذا الموقف مناهضًا لجوهر الشهادة وحقيقتها.

وليس صحيحًا ما نسب إلى الشيخ الغزالي من إقراره فكرة نيابة الأفراد عن السلطة في إنفاذ الأحكام دون عقوبة مقررة لهم في

الإسلام؛ لأن في هذا المنطق مدعاة للفوضى وتخريب المجتمع. ومردود بموقف أبي بكر في حربه ضد المرتدين الممتنعين عن دفع الزكاة.

والحقيقة كما ذكرها فهمي هويدي أن الشيخ الغزالي اعتبر الفرد الذي يفرض نفسه نائبًا عن السلطة في إقامة الحد الذي عطلته هذه السلطة – اعتبر الشيخ هذا الفرد طبقًا للمصطلح الأصولي، مفتئتًا على السلطة، والافتئات هو تجاوز الحدود، والتعدي واغتصاب السلطة جريمة لا يتصور أن تمر بغير عقاب، وإلا عمت الفوضى المجتمع ووقعت مفاسد وشرور عدة. وعندما سئل عن عقوبة الافتئات على السلطة قال إنه لا يذكر أن الإسلام قرر عقوبة على ذلك. وهذا صحيح فليس في الإسلام والقرآن والسنة عقوبة "حدية" أو معينة مثل تلك العقوبات المقررة على السرقة والزنا وشرب الخمر والحرابة. والإجماع منعقد مع ذلك على أن لهذه الجريمة عقوبة تقديرية يحددها النظام القانوني القائم.

الشيخ الغزالي المفترى عليه:

واعتقادي الخاص أن عالمًا جليلا لم يظلم كما ظلم الشيخ محمد الغزالي بسبب شهادته التي أدلى بها في قضية اغتيال د. فرج فودة حيث جرى تلوين الكلام والخروج به من جوهره: فهو قد ظُلم إذ استدعي للشهادة في قضية اغتيال صورتها الصحف الرسمية على أنها اغتيال بسبب رأي معارض عبر به كاتب حر عن فهم متحضر للدولة الحديثة أي الدولة غير الدينية.. وأيًا كان الرأي في صواب أو عدم صواب خطة الدفاع في محاكمة عقيدة أو فكر رجل ميت ربما قد يوحي بأن دوافع الجريمة دوافع دينية متعصبة، فإن اتساع صدر القضاء لسماع شهادات علماء الإسلام في شأن "الردة" وطبيعتها، وما إذا كان موضوع الصلة بين الدين والدولة يدخل في نطاق العقيدة فيعتبر المنكر له كافرًا أو مرتدًا.. كل ذلك يزيد مشكلة الإسلام السياسي تعقيدًا، ويضع العلماء الشهود في حرج ولاسيما بالنسبة لاغتيال إنسان – أيًا كان رأي القاتل فيه - ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ والقرآن الكريم نتيجة لتأكيد هذا المبدأ يفرض القصاص – قصاص الدولة – مطلبًا إلهيا لا استثناء منه. وليست فكرة الطبيعة العقائدية للإسلام السياسي بالمعارضة مع الطبيعة المدنية للحكم هي مصدر الخلاف الوحيد في القضية المطروحة وإنما أيضًا التكفير الذي ينسب إلى من يجهر بالطبيعة المدنية للحكم. من الذي يملك توجيه هذا الاتهام؟! هل يمكن أن ينوب أحد الأفراد أو جماعة من الجماعات محل الدولة في هذا الشأن ؟! وحتى إذا جاز ذلك، فإن الدولة نفسها إذا هي أخذت هذا الأمر بين يديها، فلابد وأن يكون ذلك من خلال القضاء بإجراءاته وضماناته، بينما في حالة قيام آحاد الناس باغتصاب سلطة الدولة تتوحد كافة السلطات فيهم، فهم موجهو الاتهام، وهم القضاة الذين يدينون، وهم في النهاية ينفذون الحكم الذي يصدر في غيبة التهمة! وهي نتائج مرعبة حذر منها الشيخ الغزالي في شهادته عندما سئل عمن يملك إقامة الحد على المرتد: فقال أن تلك وظيفة السلطة وليست لآحاد الناس وإلا تحولت الأمور إلى فوضى.

وموضوع الردة موضوع دقيق وهو فضلا عن ذلك محل خلاف سواء بالنسبة لإثباته أو بالنسبة للجهة المخولة شرعًا توقيعه.

وبينما يذهب البعض إلى أن الردة ليست من بين الجرائم التي تدخل في نطاق الحدود بل لا تدخل في باب التعزير!! استنادًا إلى أنه لم

يرد نص في القـرآن على وضع عقـاب الـردة ضـمن الحـدود، وأن المرتد يترك وشأنه إلى قيام السـاعة، وإن تركه وشـأنه قد يـدفع به مع الـزمن إلى التوبة، وعند ذلك يغفر الله له. ويعتبر الـدكتور محمد أحمد خلف الله أن القـرآن وهو المصـدر الأول للتشـريع تكـون لأحكامه الأولوية على ما عداها من أحاديث أو إجماع أو اجتهاد. (الأهالي 7/7).

بينما يـذهب آخـرون إلى أن جمهـور العلمـاء يعتـبرون قتل المرتد فرضًا على الأمة كافة وأن تسعى إلى تنفيذه، وإذا لم يقتل أثمت الأمـة. (شهادة الدكتور مزروعة – الشعب 6/7).

ظلموا الشيخ الغزالي:

وبالنسبة للجهة المخولة شرعًا توقيع العقاب على المرتد – المجمع عليه حـتى ممن يوجبـون قتل المرتد – أن ولي الأمر هو وحـده المنـوط بتوقيع العقوبة وتنفيذها، فالـدكتور محمـود مزروعة يقـرر في شـهادته: (أن المنوط به إيقاع حد الردة – كشـأن الحـدود كلها – هو ولي الأمر عن طريق النظم القضائية الموجـودة، ويلـزم الأمة أن تنصح له وتوجهه وأن تطلب وتلح أن ينفذ حكم الله كما أمر وإلا أثمت الأمة كلها، ويتحمل ولي الأمر وزر ما يحـدث من فوضى وفسـاد وضـلال في المجتمع كله إذا لم يقم الحدود).

غير أن الدفاع ضغط على الشاهد بتذكيره بأن إجمـاع الأئمة الأربعة على جواز قيام آحاد الأمة بإيقاع الحد على الحاكم، ولـذلك طلب الـدفاع من المحكمة توجيه هذا السؤال إلى الشاهد على أساس أنه إذا كـان من الجـائز قيـام آحـاد الأمة بإيقـاع الحد على الحـاكم الجـائر فيكـون الأولى جواز ذلك بالنسبة لمن هو أدنى من الحاكم. وقد كانت إجابة الشاهد غير قاطعة فهو يقول: (إذا ترك الحـاكم تطـبيق الحكم على المرتد فسـنظل ننصح الحـاكم أن ينفذ حد الله ونـترك إقامة الحد لـه! أما إذا كـان الـذي تركه الحـاكم ولم يقم عليه الحد مثـار فتنة ومنشأ ضـلال للآخـرين وجب على الأمة أن تنتخب منها أو تنتخب بعض أفرادها لإراحة النـاس من هـذا الشر وإقامة الحد عليـه؛ لأن الإبقـاء عليه إبقـاء على نـار مشـتعلة في المجتمع، لأنه إذا كان داعية ضلال، وإذاعة فساد، ونذر حياته للإساءة إلى الإسلام والدعوة إلى الضلال، فإنه بذلك يمهد السبيل لغيره للارتـداد عن دين الله).

غير أن الشيخ الغزالي قد ظلم لأنه قد نسب إليه البعض أنه استباح دم المعارضين بالمجان!! وفضلا عن عدم صحة هذا الاتهـام، فـإن فهمي هويدي قد سجل اندهاشه إزاء حفـاوة بعض الصـحف المعـبرة عن الحالة الإسلامية بما التبس من كلام الشيخ الغـزالي، فقد أبـرزت الشـعب عـدد 26/6 في عناوين عرضًا لشهادته أن (تطبيق الأفراد لحد الردة.. لا عقاب عليـه!) بينما نشـرت (النـور) عـدد 30/6 عنـاوين بـارزة للموضـوع ادعى أحدها أنه "لا عقاب على قاتل المرتد"! والشيخ بريء من هذه الأقوال!

فهل صحيح أن شهادة الشيخ الغزالي وإجاباته سوف يؤولها الدفاع ويسـتنتج من مجملها أن المجـني عليه (كـان خارجًا على الملة ودمه مباح)؟ وبالتالي فالجناة لم يرتكبـوا إثمًا وإنما نفـذوا شـرعًا، وهنا مكمن الخطر إذ يظل بـاب الشر مفتوحًا أمـام الاغتيـالات السياسـية لكل المخالفين في الرأي (الشيخ مصطفى عاصي الأهالي 7/7/1993).

ويتناقض هذا القول مع تحذير الشيخ الغزالي حين سئل عمن يملك إقامة الحد على المرتد، فقال إن تلك وظيفة السلطة، وليس لآحاد الناس، وإلا تحولت الأمور إلى فوضى.

يضاف إلى ذلك أن من هاجموا الشيخ ومن انحرفوا بأقواله خلطوا بين صفتين: صفة الشاهد (الذي أحيطت الأسئلة به لمكانته) وبين صفة الفقيه أو المفتي الذي يستشار بدون إحاطة بالكمائن! وفي تعبير فهمي هويدي: (إن الشيخ الغزالي كان في مقام الشهادة ولم يكن في مقام الفتوى. وفي مقام الشهادة لا يكون عليه أكثر من أن يعرض ما هو ثابت من نصوص شرعية في الموضوع، أو ما هو مقرر من أحكام عامة في الفقه الإسلامي، أما في مقام الفتوى فإنه يقوم بتنزيل تلك النصوص والأحكام على الواقع ومن ثم يقدر مختلف ظروف اللحظة التاريخية من اجتماعية وسياسية وثقافية. ثم يوازن بين المصالح والمفاسد. ويصدر بعد ذلك فتواه في الموضوع. ومن قبيل ذلك فتوى ابن تيمية بالتغاضي عن تناول الخمر من التتار الذين دخلوا حديثًا الإسلام استنادًا إلى أن الله حرم الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء تصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال) وهكذا رأي ابن تيمية أن مفسدة شرب الخمر أقل ضررًا من مفسدة ترويع المسلمين ونهب أموالهم، غير أنه يضاف إلى ذلك أن الدفاع صمم أسئلته بحيث تخدم أغراضًا محددة ابتغاها لكي يدافع عن موكليه، وبعض تلك الأسئلة لم تكن تترك مجالًا للمجيب لكي يذهب إلى المسار الذي رسمه المحامي. ومن هذا القبيل السؤال عن حكم من يجاهر برفض تطبيق الشريعة كفرًا أو استهزاء، واستبعد أن يكون الرفض ناشئًا عن قلة العلم أو عن الالتباس في الفهم أو التخوف من نشوء احتمالات سلبية معينة؛ ومن قبيلها الكلام عن السلطة الدينية أو التعددية أو وضع الأقليات أو غير ذلك. فالأسئلة التي طرحها الدفاع استجوابات لانتزاع إجابات بذاتها لا خيار فيها! تطرح سؤالا عن حكم الشرع فيمن يجهر برفض تطبيق الشريعة مجاهرًا بالكفر أو الاستهزاء بها، وسؤال آخر عمن يدافع عن إبدال الشرع بقانون وضعي لا يصدر عن أهل العدل والرشد وليس عن الطواغيت من البشر، والتي تحل الحرام وتحرم الحلال!! وكانت الإجابة بالإدانة حتمًا!

ويبدو أن مطالعة ما دار في جلسة مناقشة د. محمود مزروعة أنه سئل صراحة هل الإسلام دين ودولة؟! فأجاب أن جوهر الإسلام أنه لا يوجد فيه ما يسمى دين فقط وما يسمى دولة. لأنه لا فصل في الإسلام بين الدين والدولة. وإن كلمة دين تعني الحكم، وأن من يدعو إلى تعطيل الحكم بالشريعة خارج عن الملة؛ لأنه عطل دين الله. والذي يفضل عليه تشريعًا آخر أدخل في باب الكفر؛ لأنه فضل الخلق على الخالق.. (الشعب 6/7).

بينما سئل الشيخ الغزالي عن حكم الإسلام فيمن يجهر برفض تطبيق الشريعة واستبدالها بشرائع الطواغيت من البشر، التي تدعو إلى تحليل الحرام وتحريم الحلال. فالسؤال يركز كما قال فهمي هويدي – على مواصفات معينة وليس عن عموم الشرائع الوضعية التي قد لا تحل الحرام أو تحرم الحلال وقد تكون صادرة عن أهل العدل والرشد وليس عن الطواغيت. وكان رد الشيخ أن أمر هذا الشخص ليس مجرد رفض تطبيق الشريعة ولكنه داع إلى هدمها والسخرية منها إنكارًا وكفرًا فهو

إذن مرتد، وليس مجرد منافق يقتصر على التحفظ على تطبيق الشـريعة أو بعض أحكامها خوفًا أو جهلا بضماناتها ومقاصدها، وإنما يصبح صــاحب شبهة تزول بالحوار والمناقشة. فإذا لم تزل فإنه في أسوأ الأحــوال يعد منافقًا لا يعاقب على موقفـه، وقد كـان في عهد رسـول الله منـافقون أشـارت إليهم آيـات قرآنية عديـدة، لكن لم يعـرف أن أحـدًا منهم تعـرض للعقاب. (الأحد 6/7) وبينما كانت إجابات الشيخ الغـزالي بعيـدة كل البعد عن تكفـــير من يـــدعو إلى الفصل بين الـــدين والدولة في الإســـلام لاعتبارات هامة. فإن د. مزروعة كان قاطعًا في اتهام العلمانيين بالكفر.

الفصل الثالث
دلالات الشهادة وتوابعها

من هذا العرض الشامل للشهادة وتوابعها – تتضح الدلالات التالية:

(1) أن المؤسسة الدينية المشـيخية.. كـانت متفقة الـرأي تقريبًـا؛ لأنها رجعت إلى المراجع الفقهية السلفية القديمة التي وضعت منذ ألف عـام – في منـاخ وبتـأثير عوامل وملابســات مختلفة تمامًــا، ولم يســتطع أي واحد منها أن يتحــرر من أحكامها، أو يكيف القضية التكييف الأصولي والموضـوعي، ولهـذا فلم يختلف أحد منهم في تكفـير المرتـد، أو أن الحد هو المـوت.. واختلف بعضـهم في الاسـتتابة (وهذا الخلاف موجود في المراجع الفقهية) وظن بعضـهم أنهم توصـلوا إلى الحل وخلصوا من المأزق بالتأكيد على أن توقيع الحد هو من اختصاص السلطة – وكأن القضية قد سويت، وما علموا أن البلاء كل البلاء هو في السلطة! وأن إيكال هــذا الأمر إليها هو كإعطاء القط مفتاح الكرار كما يقولون.

وبـالطبع، فيبـدو أن التركـيز على هـذه النقطة كـان للتخلص من الحـرج ورمي الكـرة في يد الحكم.. ولكن أين يـذهبون من الله إذا كـانوا قد نجـوا من الحـاكم، وهل يقبلون أن يكونوا كرجال الكنيسة الذين كـانوا يسـلمون "الهراطقـة" للسـلطة المدنية لتوقيع العقاب.. دون أن يسفك دمه! لأن الكنيسة تمقت الدماء! وكـان معـنى هـذا أن يحرق حيًا!!

(2) كشفت الشهادة عن مدى ما تتمتع به "المؤسسة الدينية" من نفـوذ وقـوة، وهـذا أمر طبيعي في هذا البلد المؤمن.. ولكن النقطة الـتي يمكن أن تشذ عن النطـاق هي أن القضــية ليست من مسـلمات الإسـلام، بل هي تعــارض صـريح القــرآن والآيات المتكررة فيه. مع هـذا فقد سـلم معظم الكتـاب "المـدنيين" بما جـاء في الشهادة.. ونهج بعض الكتاب منهج الفقهاء، باختلاف بسـيط هو أن الكتـاب حولـوا الأمر إلى الفقهــاء باعتبــارهم أهل الاختصــاص.. وليس هــذا هو شــأن الكتــاب المفكرين وإنما هو شأن الكتبة و"المستوظفين" الذين يكـون أقـرب تصـرف لهم للتخلص هو التأشير "يحول إلى...".

وقد تكون هناك عوامل أخرى جعلت هؤلاء الكتاب في النهاية يؤثرون العافية!

وفي ضوء ذلك يمكن أن نفهم ما جـاء في كلمة الأسـتاذ أحمد بهجت في أهـرام يوم 28/7/1993(ص2):

إن الحرية الدينية مكفولة في الإسـلام، وحق الإنسـان في اختيـار عقيدته لا نقـاش فيـه، ودخـول الإنسـان في الإسـلام لا يكلفه أكـثر من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول اللـه، وخروجه من الإسـلام لا يكلفه إلا عــدم القناعة بهــذه الشــهادة.. أو إنكــار معلــوم من الــدين بالضــرورة.. ويخلو القــرآن من نص يعــاقب المرتد عن الإسـلام عقابًا دنيويًـا.. يقـول الله تعـالى﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا مَن يَرْتَـدَّ مِنْكُمْ عَن دِينِـهِ فَسَوْفَ يَـأْتِي اللـهُ بِقَـوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَـهُ﴾.. وهـذا نص لا يتضـمن عقوبة دنيويـة، ورغم ذلك فقد جعل الفقه عقوبة على المرتـد.. وينبغي هنا أن نفرق بين أمرين: أن يكون المرتد قد خـرج على الإسـلام كموقف عقلي بحت، بمعـنى أنه لم يعد يـؤمن بالله ولا برسـوله، ولكنه تـرك المسـلمين في حـالهم فلم يرفع يـده أو لسـانه لإيـذائهم أو حـربهم، وهنا لا عقـاب عليه؛ لقوله تعالى ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَـاءَ فَلْيَكْفُـرْ﴾.. أما إذا خـرج المرتد على الإسلام وبـدأ يحـارب المسـلمين ويسـخر من دينهم ويحـاول

هــدم مجتمعهم، فحكمه هنا هو حكم من يتجسس لمصــلحة العــدو.. إنه يحــاكم بتهمة الخيانة العظمى، ولا مجــال هنا للحــديث عن الحريــة؛ لأن الإنســان حر في موقفه العقلي وقناعاته الفكريــة، ولكنه ليس حــرًا في هدم النظام العام أو مقدسات مجتمعه.

واستسلم للفقهاء قطب الناصريين ضياء الدين داود عنـدما سـأله منـدوب مجلة الأهالي (4 أغسطس 1993 ص7) عن رأيه فقال:

إذا كــان في رجل مرتد يســتتاب بكل الطــرق الشــرعية، وإذا أصر على ارتداده، ففي هــذه الحالة فنحن أمامنا شـخص في نظر الشـرع أنه مرتد، وحكم الله لا يختلف عليه أحد...

الإسـلام فيه حرية فكر لغـير المسـلمين، ابتـداء من "لا إكـراه في الـدين" ولكن المـرء مـتى دخل الإسـلام فهو يحاسـبه ويخضـعه لحكمـه، وهناك قضية أخرى وهي اختلاف الدين مـانع للمـيراث، فالمحـاكم انتهت على أن من ثبت ارتداده فهو في حكم الميت. والقضـية الرئيسـية الـتي لم أتثبت فيها هي ما قاله الشـيخ الغـزالي أنه إذا جــاء في نفسك وأنت تجلس معي الآن أنني ارتــدت بحكم ما أعلنه من أفكـار وآراء.. هل تحكم على أنني مرتد وكفرت وتنفذ علي الحكم لمجرد أن الدولة لم تنفذه؟ أنا لا أعتقد أن الشيخ الغزالي يقول هذا وإلا أصبحت المسألة فوضى، ولابد أن هنــاك سـلطة ما من شــأنها أن تراجع ما قاله هــذا الشــخص بعد أن يستتاب وإذا أصر في المرة الثالثة أصبح مرتدًا.

أما من ينفذ الحكم، فحــتى في التعزير كــان ذلك متروكًا في بعض المراحل للقاضـي، ورُؤِيَ بعد اجتهــاد الفقهــاء أن تراجع سـلطة التعزير إلى الحاكم حتى لا يحدث تباين شديد في الأحكام...

أما القطب الناصــري الآخــر، فريد عبد الكــريم، الــذي وجهت إليه المجلة في التحقيق نفسه السؤال عن فتوى الشيخ الغزالي فإنه قال:

"إذا عدنا للفتوى التي تقصدها، فأنا لا أسـتطيع أبـدًا أن أدعي فهم أو معرفة نصف أو عشر ما يعرفه الغـزالي في الإسـلام، فهو قد عـرض وجهة نظر الفقهــاء في دفع المنكر باليــد، وحــدد الرجل أن دفع المنكر باليد أساسًا من مسئولية الحاكم.

وهذا صحيح، وهكذا فإنني لا أسـتطيع إلا أن أسـلم بـأن ما قاله هو الصحيح، ومن الذي يدعي على الغـزالي عـدم معرفته بقواعد الإسـلام لا أحد يستطيع أن يقول هذا!".

نحن لا نسـتغرب أن يقف أقطـاب الناصـرية هـذا الموقـف، لأنهم ورثة الإرهـاب والتعــذيب، وإن كــانت المجلة الــتي حققت معهم مدعية حرية الفكر هي وريثة ما هو أسوأ من الناصرية نفسها، فالشيوعية لا تستتيب "المرتد" ولكنها تعبث بفكره.

وتستخدم وسائل التكييف السيكولوجي وغسيل المخ والقضاء على الإرادة حـتى يعترف على نفسه بأنه مجرم!

ولما كان أدعياء التنوير هم عادة ما بين ناصري أو شيوعي أو "عـروبي"، فـإنهم – رغم ثــوريتهم العنيفة على الشــهادة – لم يعــالجوا القضــية معالجة موضــوعية، وســوابقهم التاريخية نحو المخــالفين أســوأ مما ذهب إليه الشــيوخ على ما أشــرنا، وانساقوا في دعاويهم عن "أسلمة" المجتمع والإرهاب والخومينية إلى آخر هذا الهراء، مما أفقد معارضتهم مصداقيتها الموضوعية.

(3) وكشفت "الشهادة وتوابعها" عن قدر من الخلط في المفاهيم..

فهناك المرتد الذي يرتد بنـاء على فكـره الخـاص أو دراسة أو محوطاتـه... إلخ. فيرتد ويجلس في بيته ولا يجاهر بردته.

وهناك المرتد الذي يكتب كتابًا أو ينشر مقالا عن آرائه وأسباب ردتـه.. مما يفهم أنه معارضة للإسلام أو دعوة – ولو ضمنية – للفكر الذي آمن به.

وهناك بعض الكتاب وجد أن من ارتد دون مجاهرة لا سبيل عليه ولعله اسـتأنس بالحديث "الناس كلهم معافون إلا المجاهرين".

وعلى كل حـال، فـإن هـذا الموقف من الكتـاب المشـهورين الـذين يلحظـون اعتبـارات عديـدة ويـؤثرون العافية لم يكن شـأن بعض الـذين أرسـلوا بتعليقـاتهم إلى الأستاذ صلاح منتصر فإنهم – مع أنهم لم يكونوا من الفقهـاء المتخصصـين، ولا الكتـاب المشهورين. وربما لهذين السببين – بالذات – رفضوا موقف الاستسلام وأثاروا وجهات نظر غفل عنها الفقهاء المشهورون – وبرهنوا بـذلك على أن فكـرة أن المختصـين هم وحدهم الجهة التي يتوفر لها الرد السليم، فكرة لا تستقيم في مجال الفكر الـديني ولا يمكن القياس فيها على مجال الطب والهندسـة، وأن الآية الـتي يستشـهد بها الفقهـاء ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ لا يجوز أن تؤخذ بما يفسرونه!

(4) كشـفت "الشـهادة وتوابعهـا" عن أنه ليس في هـذا البلد إيمـان عميـق، حقيقي، مقدس بالحرية – كما يجب أن يكون الإيمـان، وكما تسـتحق الحريـة،.. إن مجـرد إثـارة موضـوع الـردة والأخذ والـرد فيـه، دليل على هـذا، وقد آن لنا أن نفهم أن نقص الحرية هي أصل كل بلاوينا، خاصة من 1952 حتى الآن، وأن الـذين ينـادون بالحرية هم مجرد ببغاوات إذا تصـوروا أنها تُقَـدَّم بالتقسـيط، أو بصـفة جزئيـة، أو بعضـها دون بعض، أو تقـدم على مراحـل.. الحرية كل لا يتجـزأ.. والـذين يقولـون ويكررون أن الإسلام يقرر الحريـة، ثم يعـودون فيسـتثنون منها أكـثر مما يبقـون، ليسـوا من الحريـة، ولا من الإسـلام في شـيء. ومن أسـخف ما يسـاق في هـذا الصدد الادعاء أن الإسلام يكفل الحرية لغـير المسـلم، فله أن يكفـر، وأن يـؤمن، ولكنه لا يكفل الحرية للمسلم! لله أبوهم! كيف يستقيم هـذا أصلا ومنطقًـا.. وهل الكافر أكرم عند الله من المسلم؟ أو لا يـدخل في ولايتـه.. وهل الإسـلام إلا دين الحرية أصلا وفرعًا للناس كافة؛ مسلمين وغير مسلمين؟؟ في رسـالتنا المـوجزة ﴿ لَسْـتَ عَلَيْهِم بِمُسَـيْطِرٍ﴾: "قضـية الحرية في الإسـلام" قلنا إن الحرية تنبع أصلا في الإسلام من الحق، ولكن هناك حرية واحـدة لا يمكن أن يكـون عليها سـلطان أو قيد حتى من الحق نفسه – هي حرية الفكر – لأنها هي التي تـؤدي إلى الحــق، وهي الــتي تعــرف الإنســان بــالحق، وهي الــتي تحمي الحق من أن تلتصق به الأباطيل والزيوف. فلا يمكن أن يكون الحق وصيًا عليها أو معرفًا بها، والإسـلام لا يخشى مثل هـذه الحرية على العكس، إنه يـرى أنها هي الـتي تقـود إليه أولا، ثم تحفظ الإيمان ثانيًا.. فهي الـتي تكشف عن الإسـلام واسـتحقاقه الإيمـان، ثم هي التي تحفظ للإيمان نضارته وأصـالته وحيويتـه؛ لأن الحرية هـواء متجـدد، والانغلاق مستنقع راكد!

وحاول أحد الكتاب أن يميز بين حرية الاعتقاد والفكر، وبين حرية التعبير.. ورأى أن الأولى مكفولة بحكم القــانون، أما الثانية – حق التعبــير – "فإنها تخضع لضــمانات وقيود، فإذا كانت حرية الفكر ترتبط بمفهوم مطلق، فإن حرية التعبـير ترتبط بمفهـوم نسبي، يتأثر بطبيعة النظام السياسي السائد والمناخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، لـذلك فقد حـددت بعض نظم الحكم دوائر تمثل منـاطق مقيـدة لحرية التعبـير، ومنها على سـبيل المثـال بعض قضـايا الأمن القـومي كشـئون القـوات المسـلحة والنشـاط العسـكري للدولة وأسـرارها الاسـتراتيجية، كـذلك بعض المسـائل المتعلقة بالعقائد الدينية التي تعبر عن وجدان الإنسان، ولا تخضع غالبًا للجدل العقلي، ويعتـبر المسـاس بها تجريحًا لأصحابها، ويتصل بهذه القضايا أيضًـا بعض الأمـور الخاصة بالوحـدة الوطنية

وأوضاع الأقليات وكل ما يعتبر تحريضًا على الفتنة الطائفية.. وهكذا نجد أن الإعلان عن الأفكار يختلف عن عملية الفكر ذاتها[3]...

فالكاتب هنا يفرق بين "الإعلان عن الأفكار" وبين "عملية التفكير ذاتها" ولكنه في المقال نفسه يقول – وله كل الحق في ذلك – "فلا حرية لفكر في ظل القهر السياسي، ولا استمرار لفلسفة في ظل القيد الاقتصادي، ولا سلامة لمفكر في ظل الكبت الاجتماعي".

نقول إن هذه كلها: القهر السياسي، والقيد الاقتصادي، والكبت الاجتماعي.. إنما تنشأ للقيود على الإعلان عن الأفكار، ومن هنا نعود من حيث بدأنا، بمعنى أن التفرقة ليست ذات طبيعة أصولية؛ ولكنها تفرقة لما تفرضه النظم الحاكمة للعمل لمصلحتها هي.. حتى وإن ادعت مصلحة المجتمع، وإلا فإن حرية الإعلان عن الفكر لا تفترق عن حرية التفكير نفسها، ولا تكتمل حرية التفكير إلا بها ولا يمكن تقبل أية قيود على حرية الفكر، إلا على أساس الاستثناء الذي لا يكون منه مفر، والضرورة التي تقدر بقدرها، ولا يعد هذا بعد ذلك كله أمرًا حسنًا، ولكن ضرورة سيئة علينا أن نخلص منها بقدر الطاقة.

(5) (5) كشفت " الشهادة وتوابعها" عن الحالة النفسية التي تسيطر على الفقهاء والشيوخ بصفة خاصة، وإنلم تقتصر عليهم، وتكون مفرداتها: عدم تقدير الحرية حق قدرها، أو حتى بعض قدرها، والتمسك بالقديم المألوف والضيق بالجديد، والنزعة الانطوائية التي ترفض الانفتاح وتعزف عن كل جديد أو مخالف، وتظن فيه نوعًا من العداء أو العبث. وقد جعل مشاعرهم حادة، وعواطفهم مرهفة أن كثيرًا من الذين يدعون إلى حرية الفكر يشنون الغارات على الدعوات الإسلامية، وقد يسف بعضهم إسفافًا ملحوظًا، كما قد يكون من بينهم من يدعون للتحلل الخلقي ويعملون لإشاعة الفحشاء.

وقد يصور ذلك كله الكلمة التي نشرتها جريدة الشعب للشيخ محمد الغزالي في (17/8/1993 / 28 صفر 1314هـ):

هذا ديننا

لم يضع الاستعمار أوقاته سدى عندما وطنت أقدامه دار الإسلام، لقد شرع لفوره يغيّر التشريع والتعليم والتربية والتقاليد جوًا يلائمه، ومستقبلا يطمئن إليه، وها قد نضجت الأشواك التي بذرها، ورأينا ناسًا يفكرون بعقله ويضربون بيده ويحاولون تغيير الأخلاق والعقائد وفق مشيئته.. والناظر عن قرب أو بعد يرى المثقفين قسمين: قسمًا لم يتغير للإسلام ولاؤه ولا انتماؤه، وقسما آخر يعالن بكراهيته لشعائر الدين وشرائعه، ورغبته في إسقاط ما بقي من رايات الإسلام في بلاده!! كانوا قديمًا شيوعيين، ثم صاروا علمانيين.. وتتغير الشارات التي يبدون فيها، وتبقى ضغائنهم على الإسلام وأمته ثابتة لا تزيدها الأيام إلا ضراوة وغلوًا. وهم مع ضيقهم بالإسلام ومعالمه حراص على البقاء في دائرته! لماذا؟ حتى يؤدوا وظائفهم في تخريبه من الداخل؛ إن دودة "البلهارسيا" تريد أن تبقى داخل الجسم لتعوق نموه، وتنمي علله، وتجره إلى الموت جرًا، ولذلك رأينا هؤلاء المرتدين عن الإسلام يرفضون المعالنة بتركه، ويحرصون على البقاء فيه!! لكنهم في الوقت نفسه لا يقيمون صلاة ولا يؤتون زكاة، ولا يقرون لله بسمع أو طاعة! إنهم يعرفون إسلامًا بلا نصوص ولا أركان، ويحاربون كل دعوة إلى الاحتكام إليه أو إحياء ما أمات الاستعمار من أمره..!! وقد سقطت الشيوعية في

---

[3] (?) **الأستاذ الدكتور مصطفى الفقي في جريدة الأهرام (18/8/1993 ص 17) تحت عنوان (هل لدينا أزمة فكر)...**

كل مكان نجدهم يملكـون أزمة التوجيـه، ويفرضـون إلحـادهم صـراحة أو التــواء، ويحــاربون رمــوز الإســلام بكل ما لــديهم من طاقــة! لقد بلغت الأمــور مرحلة لا تتحمل هــذا النفــاق، ونحن نــأبى كل الإبــاء أن يضــرب الإسلام بأيد إسـلامية، لا مكـان بعد اليـوم للبس أو نفـاق، إما أن تكونـوا أيها الناس مع الإسـلام باطنًا وظـاهرًا، وإما أن تـتركوه علانية وتكشـفوا كفركم به! ويعجبني قول المثقب من شعراء الأقدمين.

فإما أن تكون أخي بصـــدق فأعرف منك غثى من سميني

وإما فاطرحني، واتخـــذني عدوا أتقـــــيك وتتقيني!

لا مكـان بيننا اليـوم لمرتد يكـره الكتـاب والسـنة، ويصـدم جمـاهير المؤمـنين، ثم يـزعم نفاقًا أنه مسـلم! مسـلم يحـارب الله ورسـوله! يا للعجب.

وقد كرر الشيخ الغزالي المعاني التي تضمنتها كلمته تلك في عدد من الكلمــات التي نشرت في جريدة الشعب تباعًا وغيرها، مما يوضح أنها معان ثابتـة، مسـتقرة في نفسه.. وأن يكون هؤلاء لا يصلون، فهذا ما يقع إثمه عليهم، ولئن لم يصلوا اليـوم، فقد يصـلون غـدًا، وفي التوبة متسع حـتى "الغرغـرة" ولسـنا نحن على كل حـال بالـذين نحاسبهم على هذا، والقول أنهم "إما أن تكونوا أيها الناس مع الإسـلام، باطنًا وظـاهرًا، وإما أن تتركوه علانية وتكشـفوا كفـركم لـه" هو ما يوضح الطبيعة النفسـية والمزاجية الــتي تسـيطر على الإســلاميين، فنحن لم نــؤمر بــالتنقيب عن البــاطن، ولا أن نعين الشـيطان عليهم، وإنما نـدعو الله لهم بالهدايـة، وأن نقــول لهم – كما قــال الرسـول العظيم – "اللهم أهد قـومي، فـإنهم لا يعلمـون" وفي الـوقت نفسه نـرد عليهم الحجة بالحجة، والبرهان بالبرهان، وقد كان المنافقون يعيشون في المدينة ويكيدون للإسلام، ويـأتي إلى الرسـول من يطلب قتلهم، فـيرفض، وموقفه من كـبيرهم عبد الله بن أبي معروف، وكان صلى الله عليه وسلم آية في سـلوك مسـلك الداعية إلى اللـه..، وكـان العربي الجافي المشرك يأتيه فيقول له: "أسلم" فيقول "أجـدني كارهًـا" فلا يزيد على أن يقول: "أسلم، وإن كنت كارهًا".. فهذه هي المواقف التي يكون علينا أن نستضـيء بها ونهتدي بهديها.

وفي كل كلمات الفقهاء التي أوردناها افتراض سابق ومؤكد عن عداوة يُضمرها كل من يعالج الموضـوع معالجة حـرة، وأن أي اختلاف جـوهري فيما يـرون أنه معلـوم من الدين بالضرورة ناهيك بالردة نفسها لابد وأن يقود إلى شرٍ أو غباء، ولهــذا فإما أن يُفَهم أو يُقَوَّم، أما احتمال أن يكـون حسن النيـة، طالبًا الحقيقـة، فـأمر مسـتبعد وغـير متصور؛ ولهذا تأتي أحكامهم بالكفر والمروق. وكان خيرًا لهم أن يـردوا عليهم بالـدليل والبرهان والمنطق، والإسلام دين العقل والفكر والحوار.. وهذا الأسلوب بعد، هو الذي يفحم خصومهم، ويجردهم من سلاحهم ويلقمهم حجرًا.

ولكن يحول دون أن يقوم الفقهاء بذلك أمران:

الأول: أنهم لا يجـــدون قنـــوات الإعلام من صـــحافة أو إذاعة تمكنهم من ذلك وتوصل آراءهم للنـاس، ومع أن الدولة هي المسـئولة عن هـذا الوضع عنـدما أسـلمت أجهزة الإعلام إلى فئات بعينها، وأورثتها هذه المناصب من أيام الناصـرية، حـتى أصـبح ذلك أشبه بتقليد.. نقول، مع هذا، فإن الإسـلاميين مسـئولون أيضًـا، فلم يكن يعجـزهم إصدار الصحف والتغلب على العقبات لو كانت لديهم العزيمة، وإيثار الدعوة إلى اللــه، على الاستحواذ على متاع الـدنيا، أو تـأمين المسـتقبل المـادي لهم ولأسـرهم، وقد آثر كثير من كبار الـدعاة الإسـلاميين أن يسـتثمروا أمـوالهم في "الريـان" وغـيره دون أن يفكروا في فتح صحف ودور نشر إسلامية – مع أن هذا هو الجهـاد الحق الآن، ونشـاط اليساريين في هذا أضعاف نشاط الإسلاميين!

والثـاني: وهو مرتبط بـالأول، أن الإسـلاميين - حـتى لو تـوفرت لهم الصـحف – فإنهم لا يستطيعون إدارتها أو تـدبيجها لعـدم تـوافر المهـارات الصـحفية ولأن مسـتوى ونوعية ثقافاتهم مما لا يتلاءم مع طبيعة الصحيفة، ولو وجـدوا الصـحف لملئوها بالغثـاء والاجترار والنقول من كتب الـتراث، ولجعلوها – على أفضل الأحـوال – كتابًـا.. وهنـاك فـرق بين الكتـاب والصـحيفة.. وهـذه الحقيقة المؤسـفة تعـود إلى أنهم أغلقـوا على أنفسهم منافذ الثقافة والمعرفـة، وجهلـوا اللغـات، وحـتى الـذين سـافروا إلى الخـارج وألموا باللغات (وقد رأس مشيخة الأزهر من تعلم في السوربون) فإنهم ذهبوا، وعادوا "كصفوان عليه تـراب أصـابه وابل فتركه صـلدًا".. فلم يسـتفيدوا من علمهم الأوروبي شيئًا، ومن ثم فما كان يمكن أن يفيدوا به آخرين، فما أبعـدهم عما أراد الإسـلام وعما أراد الرسول، "اطلبـوا العلم ولو في الصـين".. "الحكمة ضـالة المـؤمن"... ولو ألمـوا بالثقافـات الحديثة لوجـدوا فيها ما يـدعم مـوقفهم، وما يفحم خصـومهم، فـإن أذكى الأوروبـيين وأفضل من يعـني منهم بالـدرس يـؤمن بالإسـلام، ولكنهم أسـرى المـزاج النفسي والرواسب الثقافية الأزهرية السلفية المغلقة، فلا يستطيعون تحـررًا منهـا، بل لو قام غيرهم بالدفاع عن الإسلام بغير طريقتهم (وربما أيضًا بطريقتهم) لقـاوموه لأنه يستخدم أدوات وطرائق مختلفة، أو لأنه، بكل بساطة – لا يضع عمامة على رأسـه، فلا يكون من أهل الذكر...

الفصل الرابع
لا حد.. لا استتابه.. لا تعزير

على كل حال...

فنحن نقول، بأعلى أصواتنا: كلا ثم كلا...

ونحن نـرفض رفضًـا باتًـا، قلبًا وقالبًـا، كل فكـرة عن تكفـير مرتـد، أو إقامة حد عليه، أو تعزير، بل نحن نرفض مبدأ التكفير أصلا من باب عـدم الاختصـاص، ونـرى أن الادعـاءات عن حد للمرتد لا تقـوم على قـرآن أو سـنة ولكنها من وضع الفقهـاء، طبقًا لاجتهاداتهم، وفي ضوء ظروف معينة تحكمت فيهم!

ولن يتسع المجـال هنا لمعالجة موضـوعية مفصـلة، خاصة وأننا عالجنا هـذه القضـية في عـدد من كتبنا مثل "حرية الاعتقـاد في الإسـلام" و"قضـية الحرية في الإسلام" و"العودة إلى القرآن".. ولهذا فسوف نشـير إلى رءوس الموضـوعات، وعلى من يرد الاستزادة أن يرجع إلى الكتب السابقة([4]).

وسندنا...

أ- من القرآن

(1) إن القرآن الكريم – على كـثرة إشـاراته إلى الـردة صـراحة، وتكرارها المـرة بعد الأخرى – لم يرتب عقوبة دنيوية عليها، وإنما توعد المرتـدين بغضب الله وسـخطه وعقوبته في الآخرة.

وهذا سند واضح وصريح أن القرآن لم يرتب عقوبة دنيوية على الردة، ويكون له قيمته من ناحية أن الحدود هي حق الشارع،.. والشارع هو الله تعالى.

(2) إن القرآن الكريم يقـرر حرية الاعتقـاد وبصـورة مطلقة ليس عليها حـد، أو وراءها مزيد، وآيات ذلك قد تزيد على المائتين، كل واحدة تصدع الحجر، وتُنْطِق البقر!

وهذا دليل إيجابي – بالإضافة إلى الدليل السلبي السابق – يجعل الذين يهتـدون بهـدي القرآن، يعزفون عن أن يضعوا حدًا يعارض المبدأ العام الذي سـنه القـرآن وكـرره تكريرًا وأكده تأكيدًا إيجابًا وسلبًا.

(3) يريد القرآن أن يقطع الطريق على كل تحايل أو تأويل، فيقرر في عشرات الآيات، وبصـريح العبـارات أن الفصل فيما يختلف فيه النـاس من أمر العقيـدة إنما مـرده إلى الله وحده، يوم القيامة وحده...

ففكرة التكفير أصلا مجافية لـروح القـرآن، ولنص الآيـات الـتي قصـرت الفصل في ذلك على الله تعـالى، ولم يكفر الرسـول أحـدًا، بل نهى عن تكفـير المنـافقين وصـلى على كبيرهم!

وفي كتابنا: "رسالة إلى الـدعوات الإسـلامية من دعـوة العمل الإسـلامي" قلنـا: **إن دعــوة العمل الإســلامي لا تكفر أحــدًا، حــتى الــذي يقر على نفسه بالفكر – على أساس عدم الاختصاص وحسم شأفة ذلك الباب**.

(4) إن القرآن الكـريم إنما كـان يعـبر في هـذا عن السـنن الـتي وضـعها الله للمجتمع الإنساني، وأنزل بها الكتاب، فقضية الإيمان والكفر هي قضية قلب ونية، ولا وجـود لقلب مطمئن، أو نية راضية إلا في مناخ من الحرية التامـة، فـإذا وجد أي نـوع من القسر فإنه سـيكون على حسـاب صـفاء النية وخلوصـها، **فـإذا كـان المجتمع**

---

4 (?) **قامت بنشر هذه الكتب "دار الفكر الإسلامي".**

الإسلامي هو مجتمع العقيدة، فإنه بالضرورة والتبعية مجتمع الحرية، فلا عقيدة بدون حرية.

ومن هذه السنن أن الهدى والضلال قسمة وأنها تعود إلى طبائع النفوس أكثر مما تعود إلى العقل والمنطق، وهناك من أضله الله على علم، وهناك من لا يزيدهم القرآن إلا خسارًا، وهناك من يقولون "قلوبنا غلف وفي آذاننا وقر". وسواء عليهم أأنذرتهم أو لم تنذرهم، ولا فائدة من أي قسر على هؤلاء، فلن يزيدهم إلا عنادًا، وقد يجعلهم أبطالا في عيون الآخرين! يستوي في هذا الكافرون أصلا والمرتدون؛ لأن القرآن لم يفصل.

(5) من السنن التي وضعها الله وعبر عنها القرآن أن الرأي المخالف له دور، ولهذا سمح بوجوده، وهذا الدور هو إثارة الهمم للدفاع ودراسة ما قد يثيره هذا الرأي المخالف من نقاط ضعف، وبدون ذلك تصبح الحياة الفكرية أشبه ببركة آسنة تفوح منها الروائح الكريهة، وقد تتطرق إليها الأخطار دون أن يكشف عنها أحد حتى تتضخم وتتفاقم ويصعب علاجها!

بل يمكن أن تذهب بهذا العامل إلى أبعد مدى.. فإن الله تعالى إنما أنظر إبليس إلى يوم القيامة، وسمح له باستخدام خيله ورجله... إلخ، لأنه تعالى يريد اختبار المؤمنين، ولا يريد لهم حياة آسنة يكون الإيمان فيها وراثة وعادة دون فكر أو ابتلاء.

(6) إن القرآن الكريم وضح تمامًا طريق الدعوة إلى الله وأنها تقوم على الحجة والبرهان والحكمة والموعظة الحسنة.. ومن يقرأ القرآن يؤمن أن الأنبياء هم أعظم المعلمين، وهم أول من سن طريقة الحوار وعُني القرآن الكريم بأن يؤكد أن الرسول ليس حفيظًا، ولا جبارًا، ولا حتى وكيلا، وأنه ليس عليه هداهم وإنما عليه البلاغ.. وقد أورد دون حرج كل دعاوى المشركين وأقوالهم على الله والرسول ورد عليها بالحجة والبرهان.

وإنه لمن أعظم الأمور دلالة أن يقول القرآن الكريم للرسول المكلف بالدعوة والتبليغ: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ ..﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.. ويوجهه ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ..﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى﴾ ..﴿مَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ ..﴿ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ

* وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ* لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[5].. وينفي عن الرسول أن يكون على الناس حفيظًا أو وكيلا.. فبأي حق، وبأي سلطة يجعل بعض الناس أنفسهم أوصياء على الناس؟.. وبأي حق يفرضون هدايتهم فرضًا تحت إرهاب السيف، (لأنه ما لم يتوبوا، فسيقتلون!!)

اللهم إن هذا افتيات على الله، وعلى رسوله.

القرآن الكريم إذن:

- يذكر الردة مرارًا ثم لا يرتب عليها عقوبة دنيوية...
- يقرر حرية الاعتقاد كاملة غير منقوصة "من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر".
- يؤكد أن الله تعالى وحده هو الذي يفصل يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.
- يؤمن بأن الهدى والضلال قسمة لها أسباب عديدة...
- يؤمن أن الرأي المخالف له دور...
- جعل السبيل إلى الدعوة الحكمة والموعظة الحسنة، ورفض أن يكون الرسول جبارًا، أو حفيظًا، أو حتى وكيلا، وحدد له دوره بالبلاغ المبين.

---

[5] (?) **سورة الكافرون التي كان الرسول ﷺ يصلي بها عادة رغيبة الفجر حتى أيامه الأخيرة، فلا يقال نسخت. فإذا قيل إنها عن الكافرين فنقول إنها، من باب أولى؛ تنطبق على المرتدين....**

بناء على هذه الحيثيات لا يكون هناك أي نوع من المحاسبة الدنيوية على حرية الاعتقاد، إيمانًا وكفرًا، وتكون قضية تكفير فرد ما مستبعدة على أساس عدم الاختصاص، فليس من حقنا أن نقول: إن هذا مؤمن وهذا كافر، هذا سيدخل الجنة وهذا سيدخل النار!!. فإن هذا تألٍ على الله وافتيات على ما اختص به نفسه دون الناس.

***

ب- من السنة:

نأتي إلى السنة، والأحاديث التي أقام عليها بعض الفقهاء حكمهم فنقول بادئ ذي بدء إن السنة تكون أصلا للتبليغ وإيضاح المبهم والمجمل مما جاء به القرآن، كإيضاح طرق الصلاة، ومقادير الزكاة، وشعائر الحج.. فقد وردت الصلاة والزكاة والحج في القرآن مجملة، وقامت السنة بتحديد تفاصيلها، والفقهاء يقولون عن هذا "تفصيل مجمله وتقييد مطلقه، وتخصيص عامه"!

ومن المسلم به أن الشارع هو الله تعالى، وأن طاعة الرسول إنما تكون لأن الله تعالى أمر بها، فهي من طاعة الله، ومن ثم فقد اختلف العلماء فيما إذا كانت السنة تستقل بتشريع أو تأت بحكم جديد غير مؤكد لما في القرآن، ولا مبين له، وهي نقطة عالجتها كل كتب "أصول الفقه" وكمثال على ذلك ما جاء في كتاب "أصول التشريع الإسلامي" للشيخ على حسب الله:

النوع الثالث:

ما كان مشتملا على حكم جديد غير مؤكد لما في القرآن، ولا مبين له، وقد اختلف العلماء في هذا:

(1) فقال بعضهم: قد تأتي السنة بما ليس في الكتاب، ولذلك أمر الله بطاعة رسوله مع الأمر بطاعته في كثير من الآيات، وأقر الرسول معاذًا على الرجوع إلى السنة إذا لم يجد في الكتاب ما يريد، وذم من يترك سنته ويتمسك بالكتاب وحده فيما روى المقدام بن معد يكرب عنه ﷺ: (ألا وإني قد أوتيت الكتاب ومثله معه... إلخ)،، وجاءت السنة بأحكام لم ترد في الكتاب: كتحريم الحمر الأهلية، وكل ذي ناب من السباع، وتحريم نكاح المرأة على عمتها أو خالتها.

والرسول لا يأتي – في هذا الباب – بما يناقض القرآن، لأنه أعرف الخلق بما يبلغ عن ربه، وأخبرهم بمقاصد الشريعة، لعناية الله تعالى به، وعصمته من الزيغ، وتوفيقه إلى الحق، وتسديده إلى الصواب.

(2) وقيل: إن السنة لا تأتي إلا بما له أصل في الكتاب، فإذا كانت مفصلة لمجمله، أو مقيدة لمطلقه، أو مخصصه لعامه – فهي موضحة للمراد منه؛ وإذا جاءت بغير ذلك فالمقصود منها إما إلحاق فرع بأصله الذي خفي إلحاقه به، وإما إلحاقه بأحد أصلين واضحين يتجاذبانه.

فمن الأول ما ورد في السنة من تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها فإنه في الحقيقة قياس على ما نص عليه من تحريم الجمع بين الأختين.. ولذلك تعرض الحديث لبيان المصلحة المترتبة على الحكم إذ قال بعد النهي عن الجمع بين الاثنتين: (فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم).

ومنه أيضًا أن الله تعالى ذكر الفرائض مقدرة، ولم يذكر من ميراث العصبات إلا ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾، وهو يقتضي أن العاصب من غير الأولاد والأخوة ليس له فرض مقدر، بل يأخذ ما يبقى بعد أداء الفرائض، ولكنه قياس قد يخفى، فبينه الرسول ﷺ بقوله:

(ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقى فهو لأولي رجل ذكر)

ومن الثاني أن الله تعالى أحل الطيبات وحرم الخبائث، فمن الأشياء ما اتضح إلحاقه بأحد الأصلين، ومنها ما اشتبه بالحمر الأهلية وذي الناب والمخلب، فنصت السنة على ما يرفع الشبهة، ويرجح أحد الجانبين المشتبهين، بالنهي عن أكل الحمر الأهلية، وكل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير، وإباحة أكل الضب والأرنب وما شابههما.

ومنه أيضًا أن الله تعالى أحل شرب ما لا يسكر كاللبن والعسل، وحرم المسكر وهو الخمر، فاشتبه بالأصلين ما ليس بمسكر، ولكنه يخشى أن يسكر، وهو نبيذ الدباء والمزقت والمقير ونحوها، فبينت السنة أن هذا ملحق بالمسكر سدًا للذريعة[6].

وهكذا لا تأتي السنة بحكم إلا وله في الكتاب أصل يرجع. فهي خادمة له بتبيين مقاصده، والإعانة على تطبيق أصوله وقواعده[7] " انتهى.

يؤكد هذا المعنى أن لجنة الفتوى بالأزهر عندما سئلت هل من أنكر استقلال السنة بإثبات الإيجاب والتحريم يعد كافرًا أم لا. لما ردت بفتوى قالت: إن من أنكر استقلال السنة بإثبات الإيجاب والتحريم منكر لشيء اختلف فيه الأئمة ولا يعد مما علم من الدين بالضرورة، فلا يعد كافرًا. ونورد هنا نص هذه الفتوى لأهميتها فيما نحن بصدده.

---

6 **(?) قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ وسألوه في حديث لهم عن الأشربة، وكان الناس يكثرون من الانتباذ في أوعية الحنتم والدباء والنقير والمزفت والمقير. فنهاهم عن الانتباذ فيها، لقرب العهد بشرب المسكر، واستعمال هذه الأواني لحفظه، فكان ما ينبذ فيها يتأثر بما ينضج فيه منه، فيكون الشارب منه معرضًا للسكر من حيث لا يريد، وأباح لهم الشرب في ظروف الأدم دون سواها.**

فلما ألف الناس اجتناب المسكر، وتخلصت تلك الأواني من آثاره.. زال سبب النهي، فعاد بهم إلى الإباحة الأصلية: روى عبد الله بن بريدة عن أبيه: أن الرسول ﷺ قال: (كنت نهيتكم عن الأشربة ألا تشربوا إلا في ظروف الأدم، ألا فاشربوا في كل وعاء غير ألا تشربوا مسكرًا) (راجع ص 178 ج2: تيسير الوصول).

والحنتم (بفتح الحاء والتاء بينهما نون ساكنة): جرة كان يحمل إليهم فيها الخمر.

والدباء (بتشديد الدال مضمومة والباء مفتوحة): القرع اليابس.. كانوا يخرطون فيه العنب ثم يدفنونه حتى يهدر ثم يموت.

والنقير: وعاء يتخذ من أصل النخلة بالنقر، وكانوا ينبذون فيه الرطب واليسر ويدعونه حتى يهدر ثم يموت.

والمزفت والمقيّر:.. ما طلى بالزفت أو القار من الأوعية...

7 **(?) أصول التشريع الإسلامي للشيخ علي حسب الله ص 48 – 49 الطبعة السادسة 1982**

الفتوى
بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين وبعد. تنقسم الأحكام عند الجمهور إلى خمسة أقسام:

1- الواجب: وهو ما يثبت طلبه من المكلف بنص صريح قطعي الثبوت وقطعي الدلالة، بمعنى أن له معنى واحدًا فلا يختلف في معناه المجتهدون من كتاب الله أو سنة رسوله المتواترة.
2- الحرام: هو ما طلب الشارع من المكلف تركه بدليل قطعي الثبوت وقطعي الدلالة من كتاب الله أو سنة رسوله المتواترة.
3- المندوب: ما طلب الشارع فعله طلبًا غير حتم ولا جازم يثاب على فعله ولا يعاقب على تركه.
4- المكروه: ما طلب الشارع تركه طلبًا غير حتم ويثاب على تركه ولا يعاقب على فعله.
5- المباح: ما خير المكلف بين فعله وتركه، أو لم يرد دليل فيه بالتحريم.

وتنقسم السنة إلى متواترة وأحادية:

فالمتواترة: ما رواها جمع يستحيل أو يبعد أن يتفقوا على الكذب، قال الحازمي في شروط الأئمة الخمسة ص 37: وإثبات التواتر في الحديث عسير جدًا، وقال الشاطبي في الجزء الأول من الاعتصام ص 135: أعوز أن يوجد حديث متواتر، واختلاف علماء السنة على ثبوته وعدده: يرى الجمهور أن من أنكر استقلال السنة المتواترة بإثبات واجب أو محرم فقد كفر، أقول أغلب السنن العملية متواترة.

والسنة الآحادية: هي ما رواه عدد دون التواتر عن النبي ، وقد اختلف العلماء في استقلال السنة الآحادية بإثبات واجب أو محرم، فذهب الشافعية ومن تبعهم إلى أن من أنكر ذلك في الأحكام العملية كالصلاة والصوم والحج والزكاة فهو كافر، ومن أنكر ذلك في الأحكام العلمية كالإلهيات والرسالات وأخبار الآخرة والغيبيات فهو غير كافر؛ لأن الأحكام العلمية لا تثبت إلا بدليل قطعي من كتاب أو سنة رسوله المتواترة.

وذهب الحنفية ومن تبعهم إلى أن السنة الآحادية لا تستقل بإثبات واجب أو محرم سواء كان الواجب علميًا أو عمليًا وعليه فلا يكفر منكرها، وإلى هذا ذهب علماء أصول الفقه الحنفية فقال البروذي: دعوى علم اليقين بحديث الآحاد باطلة؛ لأن خبر الآحاد محتمل لا محالة، ولا يقين مع احتمال، ومن أنكر ذلك فقد سفه وآل عقله.. وبهذا أخذ الشيخ محمد عبده والشيخ أبو دقيقة وغيرهما، يقول المرحوم الإمام محمد عبده: القرآن الكريم هو الدليل الوحيد الذي يعتمد عليه الإسلام في دعوته أما ما عداه مما ورد في الأحاديث سواء صح سندها أو اشتهر أو ضعف فليس مما يوجب القطع، كما ذكر الشيخ شلتوت في كتابه: "الإسلام عقيدة وشريعة" قوله: إن الظن يلحق السنة من جهة الورود (السند) ومن جهة الدلالة (المعنى) كالشبهة في اتصاله والاحتمال في دلالته.

ويرى الإمام الشاطبي في كتابه "الموافقات" أن السنة لا تستقل بإثبات الواجب والمحرم لأن وظيفتها فقط تخصيص عام القرآن وتقييد مطلقه وتفسير مجمله ويجب أن يكون ذلك بالأحاديث المتواتره لا الآحادية.

ويؤيد آراء من سبق ذكرهم ما جاء في صحيح البخاري، باب الوصية، وصية الرسول قبل وفاته عن طليحة بن مصرف قال: "سأل عبد الله بن أبي أوفى: أوصى رسول الله ؟ قال: لا,, قلت: كيف وقد كتب الوصية على الناس أو أمروا بها ولم يوص، فقال أوصى بكتاب الله. قال ابن حجر في شرح الحديث: أي التمسك به والعمل بمقتضاه إشارة إلى قوله : تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله. واقتصر على الوصية بكتاب الله لكونه فيه تبيان كل شيء إما بطريق النص أو بطريق الاستنباط، فإذا اتبع الناس ما في الكتاب عملوا بكل ما أمرهم به.

وحديث سلمان الفارسي: الحلال ما أحله الله في كتابه والحرام ما حرمه الله في كتابه وما سكت عنه فهو عفو لكم.

وأجاب الشاطبي عما أورده الجمهور عليه من قوله تعالى: أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأولِي الأمْرِ مِنْكُمْ (النساء 59) بأن المراد من وجوب طاعة الرسول إنما هو تخصيصه للعام وتقييده للمطلق وتفسيره للمجمل وذلك بالحديث المتواتر، وأن كل ما جاء به النبي يجب أن يكون من القرآن لقول عائشة رضي الله عنها عن النبي : "كان خلقه القرآن" وأن معنى قوله تعالى: وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ (النحل: 89) إن السنة داخلة فيه في الجملة، وأكد الشاطبي ذلك بقوله تعالى: مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ (الأنعام 38) وقد رد على ما استدل به الجمهور مما روي عن النبي قوله (يوشك أحدكم أن يقول هذا كتاب الله ما كان من حلال فيه أحللناه وما كان من حرام حرمناه ألا من بلغه مني حديث فكذب به فقد كذب الله ورسوله) بأن من بين رواة هذا الحديث زيد بن الحباب وهو كثير الخطأ؛ ولذلك لم يرو عنه الشيخان حديثًا واحدًا.

وجاء بمسلم الثبوت والتحرير: "خبر الواحد لا يفيد اليقين لا فرق في ذلك بين أحاديث الصحيحين وغيرهما".

ومما سبق يتضح أن الإيجاب والتحريم لا يثبتان إلا بالدليل اليقيني القطعي الثبوت والدلالة، وهذا بالنسبة للسنة لا يتحقق إلا بالأحاديث المتواترة، وحيث إنها تكاد تكون غير معلومة لعدم اتفاق العلماء عليها فإن السنة لا تستقل بإثبات الإيجاب والتحريم إلا أن تكون فعلية أو تنضاف إلى القرآن الكريم.

وعلى هذا فمن أنكر استقلال السنة بإثبات الإيجاب والتحريم فهو منكر لشيء اختلف فيه الأئمة ولا يعد مما علم من الدين بالضرورة فلا يعد كافرًا[8] ".

وواضح من هذا الكلام أنه لا يرد في السنة شيء يصادم ويعارض القرآن؛ فإذا جاءت أحاديث تضاد حرية الاعتقاد أو تفرض الإيمان قسرًا، فإن هذا يجب أن يخضع للتمحيص الذي قد ينتهي إلى عدم مصادمته للنص، لأنه قد لا يكون منصبًا على حرية الاعتقاد كما قد يظن، ولكن على تفريق الأمة أو التمرد عليها، كما هو الحال في

---

8 (?) نشرت الفتوى بكتاب الشيخ محمد الغزالي: تراثنا الفكري ص 175 – 179 ومجلة الأحرار بتاريخ 5/8/93 وكتاب حد الردة، د. أحمد صبحي منصور.

معظم الأحاديث التي نص فيها على حد لتارك دينه "المفارق للجماعة" وكانت الردة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالثورة على الإسلام، وعلى دولته الناشئة، أو بالرغبة في التحلل من صلاحية الدولة برفض دفع الزكاة، فهذه كانت عناصر الردة التي قاومها أبو بكر، كما سيلي.

***

ويعجب الإنسان عندما يرى أن قضية الردة لا تستند في السنة على ما يتناسب مع وزنها، سواء جاء هذا الوزن من طبيعتها – أي الردة عن الإسلام – أو من عقوبتها وهي القتل.. إذ لا يجد المرء سوى ثلاثة أحاديث، أو أربعة يدور عليها النقاش هي:

أولا: حديث العُرنيين: الذين قدموا على رسول الله فبايعوه على الإسلام ولكنهم استوخموا الأرض فشكوا ذلك إلى رسول الله فقال أفلا تخرجون مع راعينا في إبله فتصيبون من ألبانها وأبوالها.. قالوا بلى.. فخرجوا، فشربوا، من ألبانها وأبوالها فصحوا، فقتلوا الراعي وطردوا النعم، فأرسل رسول الله في أثرهم من قبض عليهم وقتلهم.

الحديث رواه البخاري ومسلم وبقية كتب الحديث، وليس فيه ما ينم عن حد الردة، بل ليس في أغلب الروايات ما يشير صراحة إلى ردتهم، ومعروف أن القتل عقوبته القتل، فضلا عن عقوقهم واستياقهم الإبل، فلو لم يرتدوا لاستحقوا القتل.. وقد أورد مسلم الحديث في "باب المحاربين والمرتدين"، وأورده الشوكاني في باب "المحاربين وقطاع الطرق".

فلا يمكن أن يستند إليه في أن القتل عقوبة الردة.. وهو ما دفع ابن تيمية للقول "**هؤلاء قتلوا – مع الردة وأخذوا الأموال فصاروا قطاع طرق محاربين الله ورسوله".. وتابعه ابن القيم في زاد المعاد والطبري تفسيره.**

ثانيًا: الحديث الثاني: هو الذي قرر فيه الرسول أنه لا يجوز قتل مسلم إلا في حالة من ثلاث: قتل نفس، وزنا بعد إحصان، والمارق عن الدين المفارق للجماعة.. وهناك روايات عديدة للحديث تقرن معظمها – كروايات عبد الله بن مسعود – الردة بمفارقة الجماعة، بل إن رواية عائشة: " لا يحل قتل مسلم إلا في إحدى ثلاث خصال: زان محصن فيرجم، ورجل قتل مسلمًا متعمدًا، ورجل يخرج من الإسلام فيحارب الله عز وجل ورسوله فيقتل أو يصلب أو ينفى من الأرض".

وحتى لو أخذنا بظاهر الحديث، فإن المفارق للجماعة كان يعني التحول للجماعة المناوئة للإسلام.

ورأى ابن تيمية أن رواية عائشة تفسر ما جاء في حديث ابن مسعود وغيره عن المارق عن الدين، المفارق للجماعة.. وأن "فراق الجماعة إنما يكون بالمحاربة".

وانتقد كاتب معاصر هذا الرأي لابن تيمية، ورأى أنه: "رأي فردي لم يتابعه عليه أحد[9] " وأن ابن تيمية اجتهد في تأويل الحديث فجانبه الصواب من جهتين: إحداهما أن صياغة الحديث نفسه واضحة لا تحتاج إلى تأويل، لأن مثل هذا النص غني عن التأويل، وعلماء الأمة متفقون على أن النص الواضح الذي لا يمنع من العمل بظاهره مانع شرعي أو عقلي يجب بقاؤه على ظاهره ولا يجوز صرفه عن ظاهره أبدًا".

---

9 [(?)] **عقوبة الارتداد عن الدين بين الأدلة الشرعية وشبهات المنكرين، تأليف د/ عبد العظيم إبراهيم المطعني. ص 39 (مكتبة وهبة).**

وقد قلنا أن ظاهر "المفارق للجماعة" يفسح مجال الاحتمال، فليس هناك افتيات أو حذف للظاهر. وما جاز فيه الاحتمال بطل به الاستدلال...

ويستطرد الكاتب:

"والجهة الثانية التي جانب ابن تيمية فيها الصواب أن علماء الأمة من قبله ومن بعده يوردون حديث ابن مسعود: "التارك لدينه، المفارق للجماعة" دليلا ثانيًا بعد حديث: "من بدل دينه فاقتلوه" على وجوب قتل المرتد عن الإسلام إذا لم يتب.. وحاشا لله أن يكون الفقهاء قد اجتمعوا على ضلالة أو باطل... إلخ".

وقد كان يستطيع أن يقول إن كتب الأحاديث تضمنت روايات يقتصر فيها الحديث على الردة دون الإشارة إلى مفارقة الجماعة، فقد جاء في سنن النسائي روايتان لحديث عن عثمان بن عفان لا يتضمنان المفارقة اقتصر فيهما الحديث على من "ارتد بعد إسلامه" في رواية ابن عمر عن عثمان أو "يكفر بعد إسلامه فيقتل" في رواية يسر بن سعيد عن عثمان. وتضمن مسند الإمام أحمد رواية عن عائشة بدون ذكر مفارقة أو محاربة. ولكن الموقف لا يتغير مع هذه الأحاديث بعد ورود أحاديث ابن مسعود وعائشة وغيرهما التي تضمنت المفارقة والمحاربة.. مما يحسن معه التوقف لاحتمال أن يكون رواة حديث عثمان وعائشة عند الإمام أحمد لم يروا الحديث بالكامل، أو من الأخذ بالأحوط في مثل هذا الحد الجسيم، وهو المسلك الذي يتفق مع روح الشريعة.

ثالثًا: الحديث الثالث، والذي يعتبرونه أقوى ما في الباب هو ما جاء بنص: "من بدل دينه فاقتلوه".

والحديث في البخاري وأبي داود في سننه ومالك في الموطأ والنسائي في السنن.

قال صاحب نصب الراية: قلت روي من حديث ابن عباس، ومن حديث معاوية بن حيدة ومن حديث عائشة.

أما حديث ابن عباس فأخرجه البخاري في كتاب الجهاد في استتابة المرتدين عن عكرمة أن عليًا أُتي بزنادقة فأحرقهم، فبلغ ذلك ابن عباس فقال: لو كنت أنا لم أحرقهم لنهي رسول الله ﷺ: لا تعذبوا بعذاب الله، ولقتلتهم لقوله عليه السلام: "من بدل دينه فاقتلوه". ووهم الحاكم في المستدرك فرواه في كتاب الفضائل، وقال على شرط البخاري ولم يخرجاه، ورواه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق في مصنفيهما بدون القصة.. حدثنا ابن عيينة عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (من بدل دينه فاقتلوه) انتهى.

وأما حديث معاوية بن حيدة فأخرجه الطبراني في معجمه الكبير عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده معاوية بن حيدة.. قال: قال رسول الله ﷺ: "من بدل دينه فاقتلوه.. إن الله لا يقبل توبة عبد كفر بعد إسلامه".

وأما حديث عائشة فأخرجه الطبراني في معجمه الوسيط عن أبي بكر الهذلي عن الحسن وشهر بن حوشب عن عائشة مرفوعًا نحوه، سواء ([10]).

ولنا عن هذا الحديث كلام بالنسبة للسند والمتن معًا...

أما السند، فإن الروايات المتكررة له تنتهي إلى عكرمة عن ابن عباس، ومع أن عكرمة من أفضل رواة ابن عباس، فقد استبعده مسلم ولم يخرج له إلا حديثًا واحدًا في الحج مقرونًا بسعيد بن جبير، "وإنما تركه لطعن طائفة من العلماء فيه بأنه كذاب

---

[10] (?) نصب الراية لأحاديث الهداية للزيلعي، الجزء الثالث ص 456.

وبأنه كان يرى رأي الخوارج وبأنه كان يقبل جوائز الأمراء" كما قال مؤلف "الحديث والمحدثون" الشيخ محمد أبو زهو وهو من أكثر الفقهاء ورعا.. وقد خصص الذهبي في ترجمته في ميزان الاعتدال قرابة صفحتين كبيرتين أورد فيهما مختلف الآراء فيه ما بين أنه بحر من البحور وأنه كذاب لا يحتج بحديثه.

والرواية الثانية عن بهز بن حكيم عن معاوية بن حيدة وقد وثق بهز جماعة بينما اختلف فيه آخرون وتوقفوا في الاحتجاج به "ميزان الاعتدال ج1 ص 165).

كما أن راوي الرواية الثالثة شهر بن حوشب وإن كان من الرواة المشهورين فقد اختلف فيه وقال بعضهم لا يحتج به أو تركوه.

ومع أن المحدثين عادة لا يردون أحاديث لمثل ما أوردناه من شبهات أو أقاويل عن الرواة، وأنهم لا يرون أن ما قيل فيهم يوقف الاحتجاج بهم، فقد يجوز لنا أن نتوقف إذا كان الأمر يتعلق بالقتل.. وأي حرج في أن نقف مثل موقف الإمام مسلم من عكرمة؟؟.

أما المتن: هناك أيضًا شيء يحيك في النفس بالنسبة للمتن، فقد جاء الحديث – رواية عكرمة في سياق حكاية أوردناها آنفًا.. فكلمة "زنادقة" التي لو استقصينا تاريخها لأظهر هذا التقصي أنها لم تشتهر في أيام الخلافة الراشدة.. كذلك تحريق علي - كرم الله وجهه - لهم مع نهي الرسول واستبعاد أن يجهل علي ما علمه ابن عباس، ثم ورود التعبير على إطلاقه مما يسمح بانطباقه على من يبدل دينه إلى الإسلام، أو من يبدله من مسيحية إلى يهودية، أو من يهودية إلى مسيحية (وهو ما ذهب إليه بعض الأئمة) وهو يناقض ما قرره الرسول: "من كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يرد عنها ([11])". وفي الحديث رواية معاوية بن حيدة" إن الله لا يقبل توبة عبد كفر بعد إسلامه" وهو يخالف العديد من الآيات، بل إنه يخالف أحاديث جاءت عن ردة البعض ثم ندموا فأرسلوا من يسأل هل من توبة لهم.. فنزلت آيات سورة آل عمران: ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * ﴾..

فرجعوا إلى الإسلام وحسن إسلامهم، وهذا هو ما يتفق مع روح الإسلام ورشد التشريع ولم يذكروا أن الرسول طلبهم ليقتلهم أو يستتيبهم، كما كان يفترض لو كان هناك حد مقرر للردة...

ولو أخذ بنص رواية ابن حيدة، لما كان للفقهاء إن يقرروا الاستتابة التي هي في شبه إجماع بينهم.

رابعًا: واستدلوا أيضًا بما وقع في حديث معاذ "أن النبي ﷺ لما أرسله إلى اليمن قال له:أيما رجل ارتد عن الإسلام فادعه فإن عاد، وإلا فاضرب عنقه، وأيما امرأة ارتدت عن الإسلام فادعها فإن عادت، وإلا فاضرب عنقها".

وجاء في فتح الباري: قال الحافظ وسنده حسن، وهو نص في موضوع النزاع فيجب المصير إليه"... وجاء الحديث في نصب الراية في صيغة مختلفة: أيما رجل ارتد عن الإسلام فادعه، فإن تاب فاقبل منه وإن لم يتب فاضرب عنقه، وأيما امرأة ارتدت عن الإسلام فادعها، فإن تابت فاقبل منها وإن أبت فاستتبها.. وأورده مصنفو جامع الأحاديث للجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير للإمام السيوطي (حديث رقم 9562 ص 431 ج3).. وعلقوا في الهامش (وردت "فاسبها" في مراجع أخرى).

[11] (?) رسالة الرسول ﷺ إلى ملوك حمير – أنظر سيرة ابن هشام ص 236 ج 4.

ومن هنا يتضح أنه لا يمكن "المصير إليه" كما ذهب الحافظ، فضلا عما شاب سنده؛ إذ هو من رواية محمد بن عبد الله العرزمي وهو "متروك من السادسة" كما قال صاحب تقريب التهذيب (ص 330).

وقد استعرض صاحب نصب الراية الأحاديث التي جاء فيها إشارة إلى قتل المرتدة، والأحاديث المعارضة، إذ اكتنف التجريح رواة الأحاديث الأولى، خاصة ما جاء فيها عن أن النبي قتل امرأة لردتها (نصب الراية ص 456 ج3) وهو أيضًا ما فعله الشوكاني في نيل الأوطار (ج7).

ويخالف الحكم بالقتل الأثر الذي جاء عن عمر بن الخطاب وأورده صاحب نصب الراية والشوكاني في نيل الأوطار عن الشافعي.. أن عمر قال لوفد قدموا عليه من بني ثور: هل من مغربة (بكسر الراء وفتحها) خبر قالوا: نعم أخذنا رجلاً من العرب كفر بعد إسلامه فقدمناه فضربنا عنقه. فقال: هلا أدخلتموه جوف بيت فألقيتم إليه كل يوم رغيفًا ثلاثة أيام واستتبتموه لعله يتوب أو يراجع أمر الله اللهم إني لم أشهد، ولم آمر ولم أرض إذ بلغني".

وفي رواية أوردها الشوكاني، ورواها البيهقي من حديث أنس قال لما نزلنا على تستر فذكر الحديث وفيه "فقدمت على عمر رضي الله عنه فقال: يا أنس ما فعل الستة رهط من بكر بن وائل الذين ارتدوا عن الإسلام فلحقوا بالمشركين. قلت: يا أمير المؤمنين قتلوا بالمعركة. فاسترجع ثم قلت: وهل كان سبيلهم إلا القتل. قال: نعم كنت أعرض عليهم الإسلام.. فإن أبوا أودعتهم السجن" 7/160. فهذا نص بجعل العقوبة السجن لا القتل.. وليس هناك ما هو أشد من استنكار عمر: "اللهم إني لم أشهد ولم آمر، ولم أرض إذ بلغني".

***

وقد يذكر هنا توعد عمر بن الخطاب جبلة بن الأيهم القتل إن ارتد. وجبلة بن الأيهم هو آخر الملوك العرب الغساسنة الذين تحالفوا مع الروم، وقد اشترك معهم ضد المسلمين في معركة اليرموك الفاصلة. فلما انهزم الروم أعلن جبلة بن الأيهم إسلامه وزار المدينة. وخلال طوافه بالبيت وطيء أحد الأعراب إزاره فلطمه لطمة أصابت عينيه. فاشتكى العربي إلى عمر بن الخطاب الذي أحضر جبلة وأمره باسترضاء الأعرابي أو القصاص فقال له: "تقص مني وأنا ملك وهو سوقه" فقال له: إن الإسلام سوى بينكما.. فطلب مهلة للتفكير انسل خلالها عائدًا إلى الروم وارتد. وعاد إلى النصرانية.

ومن الواضح أن حالة جبلة حاله خاصة من ناحيتين: أولا أنه قائد عسكري قاتل المسلمين قبل أن يعلن إسلامه بعد الهزيمة. ويغلب أن يقاتل المسلمين إذا ارتد خاصة والحرب سجال ورحاها دائرة، فهذا عنصر بعيد عن الردة بمعنى حرية الفكر.. والثانية أنه رفض تطبيق قانون الدولة الذي يوجب المساواة. وهذا أيضًا عنصر جديد بعيد أيضًا عن الردة بمعناها المجرد. ولو كان جبلة بن الأيهم رجلا عاديًا لنفذ فيه القصاص فورًا، أو لسجنه – إذا ارتد – كما رأى ذلك في الحالة السابقة. ولكن جبلة بن الأيهم كان قائدًا عسكريًا.. تمرد على تنفيذ قوانين الدولة وهذه كلها عناصر تجعل القضية لا تنطوي تحت قضية الردة المجردة وعمر بن الخطاب هو صاحب الصيحة: اللهم إني لم أشهد، ولم آمره ولم أرض إذ بلغني".

وأهم من هذا كله أن رسول الله لم يقتل أحدًا لا رجلا ولا امرأة للردة وحدها. وقد رفض أن يجيب أحد الأعراب عندما قال له: " يا محمد أقلني من بيعتي" ولكنه لم يلحق به أذى. ولا نعرف ملابسات الموضوع. وقد انتقد مؤلف "عقوبة الارتداد عن الدين بين الأدلة الشرعية وشبهات المنكرين" الذين ذهبوا إلى أن النبي لم يقتل أحدًا بتهمة الردة وعاب عليهم عدم الرجوع إلى المصادر الوثيقة... إلخ... ثم قال:

"وفي عام الفتح أمر بقتل ابن خطل وكان مسلمًا ثم ارتد ورجع إلى مكة.. ولما علم بقدوم موكب الفتح بقيادة صاحب الدعوة هرع إلى المسجد الحرام وتعلق بأستار الكعبة، ورغم هذه الحيلة أمر النبي بقتله فقتل حدًا للارتداد بالدين".... [12].

فما هي قصة ابن خطل؟

قال ابن إسحاق: وعبد الله بن خطل رجل من بني قسم بن غالب وإنما أمر بقتله أنه كان مسلمًا فبعثه رسول الله مُصدِّقًا.. (أي جامعًا للصدقات وهي الزكاة) وبعث معه رجلا من الأنصار وكان معه مولى له يخدمه.. وكان مسلمًا فنزل منزلا، وأمر المولى أن يذبح تيسًا له فيصنع له طعامًا فنام فاستيقظ ولم يصنع له شيئًا فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركًا وكان له قينتان تتغنيان بهجاء الرسول".

فهذا التقصي التاريخي يوضح أن للرجل ماضيًا جنائيًا يستحق عليه القتل خلاف الردة.

وذكر مؤلف "عقوبة الارتداد" في مكان آخر من كتابه عن امرأة ارتدت يقال لها أم مروان، أن الرسول أمر أن يعرض عليها الإسلام فإن تابت وإلا قتلت "وأحال في الهامش على مرجعه نيل الأوطار" للشوكاني 7/217 وكان من الأمانة أن يذكر ما أورده الحافظ عن ضعف إسناد الحديث. وقد أورد الحديث الزيلعي في نصب الراية عن معمر بن بكار السعدي ثنا إبراهيم بن سعد عن الزهري عن محمد بن المنكدر عن جابر، وقال ومعمر بن بكار في حديثه وهم، وألحقه بحديث عن الدارقطني أيضًا عن محمد بن عبد الملك الأنصاري عن الزهري عن عائشة، وقال: ومحمد بن عبد الملك هذا قال أحمد وغيره يضع الحديث. وأورد الزيلعي حديث الدارقطني رواية عبد الله بن أذينة عن هشام بن الغاز عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: ارتدت امرأة عن الإسلام فأمر رسول الله أن يعرضوا عليها الإسلام فإن أسلمت وإلا قتلت فعرض عليها فأبت أن تسلم فقتلت. وقال: "وعبد الله بن أذينة جرحه ابن حبان وقال لا يجوز الاحتجاج به بحال، وقال الدارقطني في المؤتلف والمختلف متروك، ورواه ابن عدي في الكامل وقال عبد الله بن عطارد بن أذينة منكر الحديث ولم أر للمتقدمين فيه كلامًا" (458 نصب الراية ج3).

وقد فصل ابن تيمية في هذه القضية إذ ذكر أن النبي قبل توبة جماعة من المرتدين، وأمر بقتل جماعة آخرين ضموا إلى الردة أمورًا أخرى تتضمن الأذى والضرر للإسلام والمسلمين. مثل أمره بقتل قيس بن حبابة يوم الفتح لما ضم إلى ردته قتل المسلم وأخذ المال، ولم يتب قبل القدرة عليه، وأمر بقتل العرنيين لما ضموا إلى ردتهم نحوًا من ذلك، وكذلك أمر بقتل ابن خطل لما ضم إلى ردته السب وقتل المسلم – وأمر بقتل ابن أبي السرح لما ضم إلى ردته الطعن عليه والافتراء. وفرق ابن تيمية بين النوعين أن الردة المجردة تقبل فيها التوبة، والردة التي فيها محاربة لله ورسوله والسعي في الأرض فسادًا لا تقبل فيها التوبة قبل القدرة[13] ".

فإذا أصر بعض الناس على صحة وقوة حديث "من بدل دينه فاقتلوه" فيصار إلى أنه للجواز وليس للوجوب، وما يصرفه عن الوجوب هو ما سبق من الشواهد التي تثبت أن الرسول لم يقتل مرتدًا لمجرد أنه "بدل دينه" ولكنه جمع إلى ذلك أفعالا من المحاربة التي تستحق القتل، وما جاء من آثار عن عمر في ذلك أيضًا وأشرنا إليها. وعندئذ تحكمه ضوابط الجواز.

****

---

12 (?) **المرجع السابق ص 58.**

13 (?) **الصارم المسلول لابن تيمية ص 368 مطبعة السعادة.**

وهكذا يتضح من إستعراض الأحاديث السابقة أن الردة كانت تقترن بمحاربة الإسلام والانضمام إلى أعدائه.. وأن هذا الجزء الأخير هو الذي أوجب قتالهم كمحاربين أو قتلهم عند القبض عليهم، وقد كان هذا الجزاء هو ما تطلبته ظروف الدعوة الناشئة.

وقد يذكرون في هذا الصدد حروب الرده التي قام بأمرها أبو بكر الصديق ويحتجون بها على قتال من ارتد. ولكن هذه الردة كانت في جوهرها ردة عسكرية أكثر من كونها ردة دينية. فقد كان من هؤلاء المرتدين من يؤدي الصلوات وأرسلوا الوفود إلى أبي بكر ليصالحهم على أساس أداء الصلاة والامتناع عن الزكاة فرفض أبو بكر – رضي الله عنه - لأن الزكاة هي قوام الدولة الإسلامية، ولم يقبل حتى من تأول منهم أن لهم بعض الحق في عدم دفع الزكاة لأبي بكر على أساس أن الآية تقول ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ**﴾ فقالوا لسنا ندفع زكاتنا إلا إلى من كانت صلاته سكن لنا. وقال شاعرهم:

أطعنا رسول الله إذ كا بيننا فيا لعباد الله ما لأبي بكر

والحق أن كل شيء كان ينبئ أنها ثورة كما نقول – وقد بدأت بالأسود العنسي ومسيلمة في الأيام الأخيرة للرسول. فما انقبض الرسول حتى ثار الأسود العنسي واستحوذ على صنعاء، وطرد عمال الرسول.. وأخذ مسيلمة يجمع الجموع، وتمردت عبس وذبيان وبنو أسد بعد أن تنبأ طلحة، وأخذوا يتأهبون للغارة على المدينة بعد أن علموا بسفر جيش أسامة، ولكن أبا بكر استعد لهذا فجعل على أنقاب المدينة حرسًا يسهر طول الليل ليدفع الهجوم، وحدثت الغارة أكثر من مرة حتى انتصر عليهم المسلمون.

فالقضية واضحة كالشمس، فهذه القبائل تصورت أنها يمكن أن تتحرر من تبعية الدولة الإسلامية. بل وأن تهاجمها وترثها، فهي ثورة عسكرية تقنعت برداء ديني. ولم يكن هناك من طريقة للتصرف فيها غير القوة.

وكان أبو بكر رضي الله عنه موفقًا غاية التوفيق وسلك مسلك "رجل الدولة" القومي الأمين. ولا يمكن مطلقًا الاحتجاج بحروب الردة كما أطلق عليها فيما نحن بصدده، لأن حرية الفكر المجردة من العداوة وحرب الإسلام لم يعرفها المجتمع الإسلامي الأول. ولهذا لم يرد بشأنها نص خاص، وينطبق عليها عموم حرية الاعتقاد التي فتحها القرآن على مصراعيها، وبصورة مؤكدة ومقررة لا يتطرق إليها إثارة شك...

د- إضافة الفقهاء:

توسع الفقهاء في أمر الردة وجاءوا بإضافتين ليستا في كتاب أو سنة.. وإنما هما مجرد اجتهاد محض منهم.

الإضافة الأولى، هي الصيغة المشهورة التي تمثل أصدق تمثيل الصناعة الفقهية، صيغة "من جحد معلومًا من الدين بالضرورة".

وقال صاحب "جوهرة التوحيد"...:

ومن لمعلوم ضرورة جحد من ديننا يقتل كفرًا ليس حد
ومثل هذا من نفي ما أجمع أو استباح كالزنا فلتسمع!

مع أن الأحاديث النبوية تقصر الإيمان على الشهادتين وتقنع بها وترفض تقصي ما وراء ذلك من علم أو جهل.. إقرار أو جحد؛ لأن السنة لا تريد لهذا الباب أن يتسع، وتريد أن تحصره في أضيق نطاق، فإن الفقهاء جاءوا ففتحوا الباب على مصراعيه وعلقوه على أمر اعتباري، ويمكن لأي فقيه أن يعتبر أمرًا ما "من المعلوم من الدين بالضرورة" وأن من يجحده فهو كافر، حلال الدم... إلخ. وقد اعتبرت المحكمة

السودانية التي حكمت على محمود محمد طه بالردة، والموت، أن من أسباب ردته أنه جحد "الحجاب" وهو معلوم من الدين بالضرورة...

وجاء في أحد الكتب تحت عنوان "الكلمات تكون كفرًا" ولو قال إن الصلاة لا توافقني، أو قال داري مثل السماء والطارق، أو قيل له هذا حكم الله فيقول لا أعرف حكم الله، أو يقول أنا أعلم الغيب، أو يقول الرجل لامرأته أحل الله أربعة نسوة فتقول له أنا لا أرضى بهذا.. ولو قال ليت الزنا والقتل والغصب كان مباحًا يكفر إلخ...[14]".

وقد يعرض الفقهاء تصورهم للردة بتعبير آخر خلاف "من جحد معلومًا من الدين بالضرورة" هو "قول كفر أو اعتقاد كفر أو فعل كفر" وهو ما لا يقل تعميمًا أو شمولا من صيغة "من جحد معلومًا من الدين بالضرورة".. على أن الشيخ جاد الحق علي جاد الحق أصدر فتوى نشرت خلال شهر رمضان في جريدة الوفد (عدد 23/2/1993) تصور العلاقة بين الاعتقاد والعمل جاء فيها:

"أجمع المسلمون على أن من أنكر ما ثبتت فرضيته كالصلاة أو الصوم، أو حرمته كالقتل والزنا بنص شرعي قطعي في ثبوته عن الله تعالى وفي دلالته على الحكم وتناقله جميع المسلمين كان خارجًا عن ربقة الإسلام لا تجري عليه أحكامه، ولا يعتبر من أهله. قال ابن تيمية في مختصر فتاواه: "من جحد وجوب بعض الواجبات الظاهرة المتواترة كالصلاة أو جحد تحريم المحرمات الظاهرة كالفواحش والظلم والخمر، والزنا والربا أو جحد حل بعض المباحات المتواترة كالخبز واللحم والنكاح فهو كافر"، لما كان ذلك، وكان الشاب الذي أفطر في نهار رمضان عمدًا من غير عذر شرعي. إذا كان جاحدًا لفريضة الصوم، منكرًا كان مرتدًا عن الإسلام. أما إذا أفطر في شهر رمضان عمدًا دون عذر شرعي معتقدًا عدم جواز ذلك كان مسلمًا عاصيًا فاسقًا يستحق العقاب شرعًا ولا يخرج بذلك عن ربقة الإسلام"!!.

ولا جدال أن هذا يمثل منزلقًا خطيرًا في التشريع إذ هو يعطي الفقهاء سلطة كبيرة، سلطة يصغر أمامها تحذير القرآن، ﴿ وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ ؛ لأن هذه السلطة لا تحكم على الأشياء ولكن على الأشخاص.. كما أن هذا التكييف "مفتوح" غير محدد، يمكن أن يدخل فيه من يشاء ما يشاء! وهو أمر يخالف قواعد التشريع التي تشترط التحديد وتميل للتقليل لا للتكثير.. وهي – أي هذه السلطة – تمثل خطرًا ماحقًا على حرية الفكر، بل يمكن القول إنه لا تكون هناك حرية فكر مع وجود مثل هذه السلطة.

***

الإضافة الثانية: الاستتابة.. وهذه أيضًا مما لا نجدها في كتاب أو سنة فعلى كثرة ما يحث القرآن والرسول المؤمنين على التوبة، فإنه لا يمارس أبدًا (الاستتابة) كالتي قررها الفقهاء.. ولعل الرسول لم يستتب أحدًا إلا ما روي عن أنه قال لمن طبق عليه حد السرقة: "قل تبت إلى الله" فلما قالها، قال له الرسول "تاب الله عليك"[15].

والاستتابة بالطريقة التي فصلها الفقهاء تفقد جوهرها، فما دام هناك إرهاب وسيف وراءها فيغلب أن لا تكون نابعة عن رضا، واقتناع وإيمان، ولكن تعوذا من القتل وتخلصا من العقوبة، فهي في الحقيقة إرهاب فكري وإذلال نفسي.

---

14 (?) كتاب مفيد العلوم ومبيد الهموم للشيخ جمال الدين أبو بكر الخوارزمي – ص 52.
15 (?) وقد جاء لها ذكر عند عمر بن الخطاب، ولكننا هنا نتحدث عن الله والرسول.

وهاتان الإضافتان، فقهيتان قلبا وقالبًا، معنى ومبنى، ولا نجد لهما ذكرًا في قرآن أو سنة، بل إنهما يجافيان تمامًا روح الإسـلام ويرفضـهما كل من لديه "حس" إسـلامي أصيل تكوّن في النفس ثمرة لقراءة القرآن ومطالعة السـيرة، والشـيء الوحيد الـذي أقحمها في كتب الفقه هو "فنية الحرفة الفقهيـــة" ورغبة الفقهـــاء أن يكـــون فقههم شاملا، كاملا، لا يفلت صغيرة ولا كبيرة والوصـول بما أرسـوه من أصـول ومبـادئ إلى غايتها.

***

فإذا لم يكن هناك حد، ولا استتابة، فلا يكون هناك تعزير؛ لأن الأمر كله أمر فكر، وإيمان واعتقاد...

****

الاستفزاز...

ولكن، هل معنى هذا أن كل واحد يستطيع أن يقول ما يشاء.. ويمكن لكل كاتب أن يسوّد من الصفحات ما يشاء؟ ويقذف بها في وجوه الآخرين؟

إنه لمن البداهة أنه لا يجـــــــوز لأحد – بحجة الحرية – أن يسب ويلعن أو يهين ويقذف.. فحرية السب والشتم هي مما لا توجد بين الحريـات، ولا أحد يـدافع عنهـا، أو يطـالب بهـا.. لأن هـذا يعـني الإسـفاف والـنزول بلغة الحـوار إلى مسـتوى القـذف والمهاترات.. لا الحجة والبرهان.. وبصرف النظر عن أن هذا لن يـؤدي إلى حقيقـة، أو يكشف عن فكـر، فإنه بـالطبع يهبط بالمسـتوى الخلقي، والتهـذيب، والحفـاظ على الكرامات...

وهـذا كله لا علاقة له بحرية الفكـر، وإنما يـدخل في بـاب القـذف والإهانـة... والإسلام – بالذات – حريص كل الحرص على كرامات الأفراد.. وقد سن عقوبة قاسـية ورادعة للقذف...

والفـرق بين الفكـر، والقـذف.. أن الفكر ينصب على الموضـوع والمقولـة، وأن القـذف ينصب على الشـخص والقائـل.. وأن الصـفات الـتي يطلقها الفكر تـدور حـول الخطأ والصواب في الموضـوع، طبقًا لمعـايير منطقيـة، بينما يتنـاول القـذف شخصـية المقذوف وسلوكه، وخاصة أمره وتصرفاته دون أن يكون لها علاقة بالموضوع!

وما بين المعالجة الموضوعية التي يحميها حرية الفكر، وبين القذف الذي يـدخل في إطار المحرمـات، يمكن أن توجد حالة بعيـدة عن الأولى، قريبة من الثانيـة، إن لم تكن بالصراحة التي توقعها تحت طائلة قانون القذف.

وهذه الدرجة التي تخـرج عن دائـرة الحريـة، دون أن تـدخل في شـرك القـذف يمكن أن تدور ما بين الإسفاف والاستفزاز وسنطلق عليها هنا "الاستفزاز".

وقد تكون الآثار السيئة للاستفزاز أفدح من آثار القذف، لأنها وهي تتفادى طائلة القـانون، تتنـاول الموضـوع لا بالصـورة الموضـوعية، ولكن بصـورة تتضـمن قـدرًا من الإساءة، ولما كـانت تخلص من مسئولية القـذف فيمكن أن تمضي قـدمًا ويـزداد الأثر السيئ لها.. وتعد البديل الذي لا يعاب عليه القانون للقذف.

وأشار أحد كتاب جريدة الأهرام إلى صور من الاسـتفزاز يلجأ إليها بعض الكتـاب والآثار السيئة.. فقال:

"أريد أن أقولها صريحة.. للوطن، وللإسـلام.. أنه إذا كـان التطـرف الديني برميلا للبارود فإن التطرف الفكري كثيرًا ما يكون شواظًا من نار تلقى على البرميل فينفجر!

إن التعـريض السـاخر برمـوز إسـلامية تسـتحوذ على حب النـاس، ينطوي على استفزاز للمشاعر...

وإن السرد العمدي لأخطاء الدول الإسلامية عبر التـاريخ الإسـلامي دون غيرها من المزايـا.. ينطـوي على اسـتفزاز للمشـاعر، وإن التهكم على شخصيات إسلامية لها مكانتها المرموقة في التاريخ الإسلامي وفي نفوس المسلمين ينطوي على استفزاز للمشاعر.. وإن محاكمة الإسـلام بأخطـاء المسـلمين لتجـريح الإسـلام نفسه ينطـوي على اسـتفزاز للمشاعر...

إن هـذا الاسـتفزاز، هو نفسه أحد دوافع الإرهـاب، وهو نفسه أحد أسباب التطرف الديني...

إن "التطرف المستفز" يلعب الآن في كثير من الصحف، دور النافخ في النيران وكأنه يريد لها ألا تنطفئ، ويريد أن يتسع أوارها فتأكل الأخضر واليـابس!!.. ولا عجب، ربما، كان ذلك لأن النافخين في النار لهم نفس أهـداف الإرهـابيين وهي الوصـول إلى السلطة عن طريق الفوضى والخراب.

ومن المثـير للألم والحـزن، أن هـذا "التطـرف المسـتفز" لا يفجر التطرف الديني ولا الإرهاب فحسب، بل هو دعوة لكل (المعتدلين) ولكل (المحايدين) لاتخاذ موقف!!

وأيًا كـان هـذا الموقف الـذي (يسـتحثه) المتطرفـون المسـتفزون، فإن نتيجته الحتمية، هي اتساع مـدى الصـدام بإضـافة أعـداد أخـرى على طرفي الجدل الساخن" (انتهى)([16]).

ونعتقد أن مثل هذا الاستفزاز موجود، وأنه قد جاء وقت أعطى بعض الأفراد من السـلطات والنفـوذ ما لا يتفق مع حجمهم ومـواهبهم وأنهم سـخروا هـذه السـلطات لإشباع مشاعرهم الخاصة على حساب القيم والمثل والرموز الإسلامية.

والأمثلة عديدة وسأجتزئ ببعضها:

جاء في مقال الأستاذ فهمي هويدي في مقاله الأسـبوعي بجريـدة الأهـرام يـوم 13/7/1993 تحت العنوان الفرعي "أصبحنا الجدار المائل":

بقيت ملاحظة أخـــيرة في الموضـــوع وهي أن حالة الاجـــتراء والتطاول في كتابات العلمـانيين مقصـورة على الرمـوز الإسـلامية دون غيرها وبين يدي نصَّان لاثنين من الكتـاب العلمـانيين في مصـر، أحـدهما مسـلم خـاطب شـيخ الأزهر والثـاني قبطي خـاطب البطريـرك، سـأورد فقـرات من النصـين لمجـرد إدراك الفـرق وسـأترك التعقيب والتفسـير للقارئ.

"في عام 1988 كنت قد نشرت سلسلة من المقالات في الـرد على عـدة كتب ظهرت آنذاك شـنت حملة شـديدة على الشـريعة الإسـلامية وتسـاءلت في ختامها عن الجهة التي تقف وراء إصدار أمثال تلك الكتب أو الـتي يمثلها أولئك الكـاتبون. وقتـذاك بعث إلي شيخ الأزهر خطابًا أيدني فيما ذهبت إليه وردد تساؤلاتي قـائلا: تـرى من وراء هذا المخطط الذي تبنته بعض الصحف والمجلات في مصـر، وهـذه المطبوعـات الـتي تظهر بين الحين والحين لتصد عن سبيل اللـه.. ثم قـال إنهم بهـذا المخطط يناهضـون طلب الإصلاح بالإسلام.

---

16 (?) الأهرام، الدكتور محمد إسماعيل علي "الشعب هو المنتصر" يوم 31/7/1993 ص 8.

حين نشرت رسالة الإمام الأكبر انبرى أحد الكتاب العلمـانيين ونشر في جريدة "الأهالي" في عدد يوم 22/3/1988 تعليقًا تحت عنوان "لشيخ الأزهر أن يحمد الله" اتهمه فيه بارتكاب "جريمة" القـذف بحق الآخـرين، واستهله بقوله: لشيخ الأزهر أن يحمد الله كثيرًا على أن الشريعة ليست مطبقة في مصر، لأنها لو طبقت لاستحق أن يجلد تعزيرًا بتهمة القـذف، وأغلب الظن أن ذلك كـان سـيحدث على ملأ، وأن جسـده الرهيف كـان سيعجز عن تحمل قسوة الجلاد. وبينما وصف جسد الإمام الأكبر بأنه ذاق حلاوة السـمن البلـدي وطـراوة الزبد الهولنـدي فإنه ملأ مقاله بـالهمز واللمز والتبكيت والتحقير مستخدمًا تشـبيهات بذيئة للغايـة، وختم مقاله قائلا: أصمت نصمت، وكف نكف لأنك إن عدت عدنا، وإن قلت زدنا.

في مقابل ذلك نجد نصًا جـديرًا بـالاحترام والتقـدير نشـره الـدكتور ميلاد حنا وهو من العلمانيين الأقحاح، تعقيبًا على خبر نشرته مجلة "روز اليوسف" أشار إلى أن الدكتور حنا يقود الاتجـاه العلمـاني الـداعي لرفع يد البابا عن شئون الأقباط في مصر.

في عدد 5/7/1993، نشرت المجلة التعقيب الذي قال فيه الـدكتور ميلاد حنا ما نصه: أما أن أدعو لرفع يد البابا عن شئون الأقبـاط فلتقطع يد من يقول ذلك والذي سـمح لنفسه بتفـوه هـذه الجملـة، ومن ذا الـذي يسـتطيع أن يفكر في أن ترفع يد البابا عن شـئون الأقبـاط وهي شـغله الشاغل صباح مساء وعلى مر الأيام، وله في قلب كل قبطي، بل أقــول في قلب كل مصــري، مكانة رفيعة غــير متكــررة في تــاريخ البطاركة الأقباط".

***

3 - والمثال الثاني يعود إلى عام 1983، ففي أحد أيام رمضان المبـارك فوجئ قراء الأهرام بكاريكـاتير صـلاح جـاهين وهو يمثل شخصًـا "عُتُلا" يحمل في يـده اليمــنى زجاجة شــراب تتســاقط النقط منهــا، وفي فمه ســيجارة مشــتعلة، ووراءه الشمس سـاطعة متوهجـة.. وهـذا العُتُل يقـول: (أيـوه أنا اسـمي رمضـان.. فيه حاجة لمؤاخذة!).

"أنظر صفحة 86".

والرسم تحد وقح لمشاعر كل المسلمين الذين يصومون هذا الشـهر، ولا معـنى له إلا الوقاحة والاجـتراء والبعد عن آداب السـلوك، وقد كـان جـديرًا بمن رسـمه وهو يـدعي (العصـرية) أن يعلم أن الـدول الأوربية تحـرّم التـدخين في كل الأمـاكن العامة والمواصلات[17].

---

17 (?) **عندما وقع نظري على هذا الرسم، غلى الـدم في عـروقي، وأرسـلت برقية إلى رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الشورى جاء فيها:**
"كاريكـاتير الأهـرام اليـوم الخميس مثـال صـارخ لتحـدي مشـاعر الشـعب وطعن أقـدس مقدساته وسيحسب على الحكومة والصحافة القومية.. حرية المعارضة شـيء، والجليطة والاستهانة بمشاعر الناس شيء آخر!!"
كما كتبت إلى الأستاذ عبد الله عبد الباري والأستاذ إبراهيم نافع.
"الكاريكـاتير الـذي نشـره الأهـرام اليـوم (الخميس) (23/6/1983) مثل صـارخ للفجاجة والجليطة والوقاحة. وإذا كان في رسامكم عـرق ينبض بالفسـوق والشـهوات يحـاول أن يدسه في رسومه – أو إذا كان قد أفلس ولم يعد لديه إلا سقط المتاع – كما تشهد بــذلك رسـومه الهابطة والسـاقطة فـواجب الأهـرام ورئيس تحرير الأهـرام أن يجنب الأهـرام وقراءه هذا الإسفاف.
وقد سمعنا عن رسام بحزب العمال يرسم في جريدة حزب المحافظين ولا تقيد حريته – لكننا لم نسـمع أبـدًا عن رسـام يتطـوع بتحـدي مشـاعر القـراء جميعًا وطعن أقـدس ما يعتزون به بدون أي داع. وبتجرد كامل من الذوق والذكاء..

3- نشرت مجلة الشعب (الجمعة 24/9/1993 – 7 من ربيع الآخر 1414) كلمة تحت عنوان "علماء الأزهر يدينون التطاول على الشيخ جاد الحق" جاء فيها أن الكاتب عبد العظيم رمضان نشر في مجلة أكتوبر (العدد الصادر في يـوم 19 سـبتمبر 1993) مقالا بعنوان "لا يا فضيلة الشيخ" ردًا على ما أدلى به فضيلة الإمام الأكبر شـيخ الأزهر في لقائه مع رجال القضاء والنيابة العامة بالإسكندرية مؤخرًا من أن فوائد البنــوك من الربا المحرم. وقد تضمن المقال تطاولا صريحًا على فضيلة الإمـام ووصـفه بما لا يليق بمركزه كأكبر شخصية دينية في العـالم الإسـلامي، كما اشـتمل المقـال على عبـارات نابية لا تصـــدر إلا من جاهل أو حاقد على الإســـلام وأئمة المســـلمين مثل (أدار فيه أسطوانته المشروخة التي يردد فيها أن فوائد البنوك حرام، اختار أسوأ الأوقـات ليـدير فيها هذه الأسطوانة البالية، إن هـذا الـرأي تعارضه آراء أخـرى لفقهـاء إسـلاميين ربما كانوا أكثر من فضيلته فقها وعلمًا.. ثم ألم يكن هذا الرأي نفسه هو الذي خـرب بيـوت المسـلمين، فقد كـان هو الـذي اسـتند إليه النصـابون في تأسـيس شـركات توظيف الأموال للضحك على ذقون المسلمين والاستيلاء على أموالهم.. إلخ).

وقد كان الكـاتب في غـنى أن يشـار إليه كجاهل – وهو فعلا جاهل بأبعـاد قضـية الربا – لو أنه أورد آراء العلمـاء الـذين قد يكونــون أكـثر من فضـيلته فقهًا وعلمًا كما زعم.. وما الــداعي لاســتخدام هــذه اللغة المبتذلة والأســلوب الســوقي وهو يحمل "دكتوراه" ويتحدث في موضـوع فـني ويخـاطب شخصـية لها احترامها وتقـديرها بحكم صفتها، لا داعي، إلا التجريح!".

***

فإذا كان الذين يلجئـون إلى الاسـتفزاز أو التطـاول أو سـاقط القـول وينتهكـون المقدسات، ويتهجمون على الرمـوز يمكن أن يخلصـوا من ولاية القضـاء، ويمكن أيضًـا أن يحـال بين من يـرد عليهم والنشـر، لأن الصـحف عـادة تخضع لمجموعـات معينة مجافية للاتجاه الإسلامي فهناك وسيلة أخرى يمكن الأخذ بها...

أذكر أني قـرأت عن جـنرال نمسـاوي أرسـلته النمسا ليخمد إحـدى القوميـات الشعبية بالمجر، وكانت النمسا وقتئذ (قبل الحرب العالمية الأولى) تحكمها.. واستخدم هذا الجنرال وسائل قاسية في الزج بكل من اشتبه فيهم في السجون، وقيل إنه قبض على إحدى السيدات وجلدها في السجن.. وقدر لهـذا الجـنرال أن يـزور لنـدن.. وبينما كـان يسـير في أحد ميادينها تعـرفت عليه سـيدة مجرية كـانت قد علمت بأفعالــه..

لقد مــزقت الأهــرام علنًا في الأتــوبيس هــذا الصــباح عنــدما وقعت عينــاي على هــذا الكاريكاتير وأعتقد أن على الأهرام أن يعتذر بسـرعة لقرائه ويتخذ إجـراء مع المسـئول.. قبل أن يسقطه القراء من حسابهم.
تدعي أنك رجل مسلم مؤمن فأين حميتك يا رجل؟" جمال البنا



فرفعت يدها وصفعته على وجهه بكل قوتهـا! وأقـام الجـنرال قضـية عليها في محكمة "أولد بيلي" المشهورة.. وما إن سمع القاضي مبررات السيدة حـتى حكم لها بـالبراءة فورًا.

وما أكثر ما كنت أسائل نفسي: ألا نجد رجلا مصريًا له شجاعة هـذه السيدة ليصفع بأقوى ما يستطيع نذلا من أنذال التعذيب يكون قد عذبه؟

وكتبت إلى مجلة الشعب إثر ما كانت تنشره من أوصـاف لممارسـات التعـذيب تقشعر لها الجلـود كلمة مـوجزة بهـذا المعـنى بعنـوان "**كيف لا يجد من يصفعه**؟" ولكن المجلة لم تنشرها!

وأعتقد أن من عبقرية السنة، ومن دلائل إعجاز النبوة الحديث الذي أوجب تغيير المنكر على من يـراه بيـده، فـإن لم يسـتطع فبلسـانه، فـإن لم يسـتطع فبقلبه وهـذا أضعف الإيمان، وأرى أن من الحق المشـروع لكل واحد تتعـرض كرامته لإهانة أن يـرد هـذه الإهانة باليد إن اسـتطاع لأنها أكـثر الطـرق مباشـرة وتـأثيرًا في مثل أصـحاب العواطف الميتة والضمائر المتحجرة!

إن شائنة سـلمان رشـدي (آيـات شـيطانية) لا يمكن أن تعد قطعة من الأدب أو الفن في شيء.. فهي رواية رديئة هابطة حافلة بالشتائم والتعبيرات القـذرة، وبالتـالي فإنها لا تستحق نقدًا فنيًا أو حماسة فكرية، وإنما تدخل في باب القذف والألفـاظ الـتي تعف عن اسـتخدامها حـتى صـحف الإثـارة في بريطانيا وما كـان مثل هـذا الإسـفاف ليستحق فتوى الإمام الخوميني؛ لأن أي رجل مسلم لو قابله وصـفعه ثم قـدم للقضـاء لبرئ([18]).. وهذا هو كل ما كان يستحقه!

إن مثل هذا التصرف المباشر هو أكثر صور التصـرفات حكمة من كل الجـوانب؛ لأنه يعيد الكرامة لمن امتهنت كرامته، وهـذا حقـه، وهو أولى بـأن يباشـره، وإذا كـانت القوانين قد نظمت مباشرة العقوبات ووكلتها إلى أجهزة الحكومة، فإنما قـامت بـذلك على أساس تنظيمي، وبفكـرة أن الدولة تنـوب عن المـواطن، فـإذا اختلت المقـاييس وتعقــدت الأسس التنظيمية وأغلقت قنــوات الاتصــال والانتصــاف المنهجيــة.. فمن الطبيعي أن يكون الأصيل أولى من الوكيل ولا عـدوان والقضـية بعد لا تتضـمن عـدوانًا على طرف ثالث فهي بين مظلوم وظالم، مجني عليـه، وجـان، ولا يجـوز لولاية الدولة أن تـنزع من الشـعب حقوقه الأصـلية أو تـرتهن كرامته وإرادته وتضـعها تحت رحمة بيروقراطيتها.

وعلى كل حـال فـإن تـدخل الدولة سـيحدث، وسـيعرض الأمر على القضـاء، فالخلاف هو في أولويات التسوية وتطبيقها بصورة لا تحرم الفرد من حقه وفي الوقت نفسه لا تجرد الدولة من التدخل لمباشرة تحقيق العدالة.

وما من دولة تسمح بامتهان كرامة الأفراد، إن كل النظم يجب أن تكون لحساب حماية حقوق أفراد الشعب ورعاية كرامتهم وتنمية شخصياتهم، وإقامة الحقوق وتغيـير المنكرات.

وما ظل الموضوع في الحدود التي ذكرناهـا، فليس هنـاك أي خطـورة ولكن قد توجد المخاطر عندما يساء فهم المبدأ، أو يطبق في غير الحالة التي ذكرناها على وجه التعيين.. فلا يمكن تطبيقًا للأمر بـالمعروف أو النهي عن المنكـر، حـرق محل فيـديو أو مهاجمة راقصة أو تخريب حانة.. فهذه حـالات مختلفة تمامًا عن الحالة الـتي ذكرناهـا، وحبـذنا فيها التـدخل باليـد، وهـذه الممارسـات الأخـيرة نـوع من المراهقة الفكرية أو التشنج المذهبي!

---

[18] (?) **يحمي القانون البريطاني الديانة المسيحية من القـذف. ولكن هـذه الحماية لا تمتد إلى الإسلام!!**

كما لا يجـوز أن يصل الأمر إلى القتـل؛ لأن الإسـلام قـدس الحيـاة وجعل القتل مثيلا للشـرك، والخـير دائمًا أن يوكل للدولة حـتى يمكن التثبت من الضـمانات اللازمة قبل توقيع عقوبة لا يمكن الرجــوع فيهــا، حــتى وإن كــان القــرآن قد أعطى للــولي ســلطات؛ لأن الممارسة الســليمة لهــذه الســلطات تتطلب تــدخل الدولة للتثبت من الضمانات!

***

وبعد كتابة الفقرات السابقة طالعتنا مجلة الأهالي في صدر صــفحتها الأولى من العدد الصادر يوم 15/9/1993 بخبر يقول:

" محافظ أسيوط يدعو لمواجهة الإرهاب بالثأر"

جاء فيه:

"دعا اللواء محمد سـميح السـعيد محافظ أسـيوط عـائلات ضـحايا الإرهـاب إلى الأخذ بثأرهم دون انتظـار ملاحقة الشـرطة للجنـاة، وأعـرب المحافظ عن دهشـته من تمسك العـائلات بعـادات الثـأر في الجـرائم العادية وتجنبها عنـدما ترتكبها الجماعـات الإرهابية!؟.

ودعا المحافظ – أمام مؤتمر للتعليم يوم الأربعـاء الماضـي: لا يجب أن تتعلل عائلات الضحايا بعـدم معـرفتهم للجنـاة؛ لأن الجميع يعرفـونهم جيدًا خاصة في القرى التي لا يخفى عنها شيء..."[19].

وهكــذا (قطعت جهــيرة قــول كل خطيب).. فــأن يطــالب المحافظ وهو رجل السلطة والمسئول عن الأمن الناس بأن يأخذوا بثـأرهم، هو ما يوضح لنا أنه قد أصــبح هناك حاجة إلى مثل هذا النوع من الممارسة.. ولو طالب بـذلك أحد الكتـاب لاعتـبروه تعديًا على حق السلطة، ولكن السلطة الآن تنـادي بـه، ولآخر مـدى.. القتـل! في حين أننا فيما عرضناه استثنينا – تمامًا – القتل، وأنه لا يجوز!

وخلال إعداد الكتاب للطبع قرأنا عَرَضًا خلال تصفحنا كتـاب "عقوبة الارتـداد عن الدين بين الأدلة الشـرعية وشـبهات المنكـرين" أربعة سـطور جـاءت في آخر الكتـاب تضـمن أحـدها إشـارة إلى من وصف القـرآن الكـريم بأنه "كتـاب متخلـف" وتضـمنت السطور الباقية "وكانت ثالثة الأثافي أن وصف كاره آخر لما أنـزل الله في هـذا العـام 1993 كتاب الله العزيز بأنه كتاب "جبان" كبرت كلمة تخرج من أفـواههم إن يقولـون إلا كذبًا" (ص 97).

وعجبي لا ينقضي من المؤلف الـذي لم يعرفنا باسم هـذا السـفيه، كما لم يـذكر لنا مـاذا فعل هو وهو كـاتب مسـلم، ولا السـبب الـذي يجعله يتسـتر عليه ويكتفي بـأن يقول "كوفئ الذي وصف القرآن الكريم بأنه كتاب جبان من الدولة في عيد الإعلاميين 27/5/1993 فمنحوه وسام تقدير بعد شهر واحد من نشره هذا الكفر". ونحن لا يعنينا كفره في شيء، فكفـره على نفسـه، وإنما يعنينا أنه أهاننا جميعًـا، وأن كلمته تلك إنما هي صفعة مدوية على وجوهنا، وكان يجب أن يقـدم للقضـاء بتهمة القـذف والمسـاس بأقـدس مقدسـات المسـلمين ولا يماثل عجـبي من جرأته سـوى عجـبي من اسـتخذاء الكتاب المسلمين وانعدام نخوتهم، فإن أي قضية "حسبة" ترفع ضد هـذا الأفـاك الأثيم كانت ستلقنه درسًا في الأدب والذوق؛ لأن وصف القــرآن العظيم بأنه جبـان – إذا صح وصف المؤلف – لا يمكن أن يــدخل في حرية فكــر، ولا يمكن لأي قــاضٍ أن يتقبله أو يسمح به. نحن وإن كنا نقدس حرية الفكر، إلا أننا أيضًا نقدس الذوق والأدب والتهذيب ولا نسمح "**بجليطة**" أو "**فجاجة**" أو قذف.

---

[19] (?) **وكرر هذه الدعوة مرة أخرى كما جاء في العدد التالي لمجلة الأهالي (22/9/1993)!!**

ملاحظات ختامية:

إن استعراض ما جاء في هذا الباب بأسره يثير هـذه الملاحظـات الـتي نختم بها الباب:

أولا: إن الفقهاء قد انحازوا تمامًا، وبالكامل، للخط الفقهي السلفي المقرر دون أن يحاولوا الاجتهاد، حتى الشيخ محمد الغزالي الذي عبر في كتبه عن ضـيقه بـالتزمت واتباع بعض الأحاديث دون تحقيـق، وتحـدث – فيما يتعلق بـالردة – عن السـجن وليس القتل في شهادته فإنه في كتاباته اللاحقة التي أوردناها، سار مع الخط المقرر.

ثانيًـا: إن الفقهــاء لم يفرقــوا بين حرية الفكر وبين أمــرين آخــرين تكــررا في كتاباتهم أولهمـا: السـخرية والاسـتهزاء بالـدين والتطـاول عليـه، وثانيهمـا: العمل على حرب الإسلام وهدم دعائمه. واعتقدوا أن الردة تصطحب ضرورة بالأمرين.

وعذرهم أن هذين الأمـرين صـاحبا الـردة في الأيـام الأولى للإسـلام، وقد أشـار القرآن إلى تظاهر بعض أهل الكتاب بالإسـلام أول النهـار والكفر به آخـره لتـوهين ثقة المسـلمين بعقيـدتهم كما أن محـاولات وأسـاليب الاسـتفزاز والتطـاول لا تنقص بعض الكتابات المعاصرة..

ولكن هذا لا ينهض عذرًا قويًا؛ لأنه أقرب إلى الشبهة.

ثالثًـا: كـان يمكن للفقهـاء لو أنهم أجهـدوا فكـرهم قليلا ولم يحصـروه فيما كتب الأسـلاف – أن يعـالجوا القضـية من منظـور جديد لا تـتركز المعارضة فيه حــول ردة العقيدة التي أوضح القـرآن أن حسـابها إلى الله يـوم القيامـة، ولكن على ما يمكن أن تؤدي إليه الـردة – أو الأسـلوب الـذي تأخـذه – من آثـار على سـلامة المجتمع لأن الله تعالى غني – بداهة – عن العالمين، وما يمكن أن يتخذ من إجراء تجاه الردة إنما يكون لمصلحة الناس والمجتمع – دون أن يحيف هذا على حرية الفكر المقدسة، وكان يمكن عندئذ أن يقفـوا جنبًا إلى جنب فلاسـفة دعـاة الفكـر. وفي الـوقت نفسه – يطبقـون توجيه القرآن المتكرر عن حرية الفكر والعقيدة والضمير.

رابعًا: لم يكن ليصعب عليهم أن يبرزوا أن الإسلام كما هو عقيدة تتمحـور حـول الله تعالى ووحدانيته واليوم الآخر والبعث والحساب ورسالة سـيدنا محمـد، فإنه أيضًـا مبـادئ اجتماعية وسياسـية واقتصـادية وردت في القــرآن صــراحةٍ عن تحـريم للربا وإيجاب للزكاة وتنديد بالظلم والطغيـان.. إلخ.. وأن هـذه المبـادئ تكّون في مجموعها "النظام العام" الذي تحميه القوانين في أكثر الدول ديمقراطية: ومن هنا يجب تكـييف موقف المرتد من هذا "النظام العام". إنه لمن المفهوم أن تضيق الـدول الديمقراطية بأية دعوة لنبذ الديمقراطية وإطراحها، وإحلال الفاشـية أو السـوفيتية محلهـا، والعكس بالعكس، أي أن الدولة الاشتراكية أو الفاشية لا تسمح بـدعوة لإطـراح نظامها وإحلال الديمقراطية، ومن المشكوك فيه أن يُسمح بقيام حـزب يـدعو لتـأميم وسـائل الإنتـاج (على الطريقة السوفيتية) في الولايـات المتحـدة. وقد عارضت السـلطات في فرنسا وبريطانيا ارتداء طالبات مسلمات الحجاب على أساس أنه يخالف العرف الأوروبي..

لو أنهم سـلكوا هـذا المسـلك فـأدانوا السـخرية والتطـاول والإهانة والاسـتفزاز. ودعوا لدراسة آثار الردة على النظام العام وما تأخذ به الـدول الديمقراطية من حماية للنظام العام ومقاومة من يعارضه لكسبوا الرأي العـام ووضـعوا خصـومهم في مـأزق بـدلا من اسـتلهام فهم فقهي ضـيق واسـتخدام صـيغ وأسـاليب منفـرة – متخلفة عما يفهمه الناس.

كـان يمكن لهم أن يحققـوا هـذا كله لو أنهم فكـروا بعقـولهم – لكنهم آثـروا أن يفكروا بعقول الأسلاف. فكانوا كأهل الكهف الذين أرادوا أن يتعاملوا بعملة منقرضة لا تستخدم في الأسواق وإنما توضع في المتاحف.

الباب الثاني
كلا لأدعياء التنوير

الفصل الأول: التنوير والآلهة الزائفة
الفصل الثـــاني: التجـــارب الثلاث للتنـــوير في مصر (محمد علي – البرجوازية – عبد الناصر)
الفصل الثالث: أزمة أدعياء التنوير "الصراع بين الذات والموضوع".

الفصل الأول
التنوير والآلهة الزائفة[20]

لو أن القضـية قضـية تنـوير – كما يـدعون – لرحبنا بهـا، ولقلنا إنها قضـيتنا.. فالإسلام في الأصل تنوير، وإنما جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وهي "آيـة" متكـررة في القـرآن... وقد أطلق الله سبحانه وتعـالى على القـرآن الكـريم نفسه "النور" ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ (التغابن 8) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (النساء 174)... والنور كذلك اسم من أسماء الله تعالى، والله ﴿ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (النور 35).

فالتنوير هدف أصيل من أهداف الإسـلام – وقد حققه عنـدما كـانت له السـيادة، وأي مقارنة بين العهد الإسلامي في إسبانيا والعراق ومصر، وما كـان يشـعه من أنـوار باهرة، بما كان يسود المجتمعات الأوروبية نفسها من ظلمات وجهـالات في – القـرون المظلمة – تؤكد هذه الحقيقة.

المشـكلة أن هنـاك فئة تخصصت في السـطو على الألفـاظ والاسـتحواذ عليهـا، وادعائها لنفسـها خاصة من دون النـاس، فالاشـتراكية الـتي آمنـوا بها هي الاشـتراكية "العلمية" والاشـتراكيات الأخـرى "طوبويـة" أو خياليـة، ونظامها "ديمقراطية شـعبية"! وليس هناك ما هو أبعد عن االديمقراطية والشعبية منـه، ولا تحمر وجـوههم خجلا وهي تدعي الحرية! ولم تُبْل الحرية بمن هو أعدى منهم لهـا، وقد كـانوا هم الـذين أبـدعوا – قبل النازي والفاشست – نظم ومعسكرات الاعتقال والتعذيب والحكم الفردي... إلخ.

وهذه الفئة ترفع اليوم لافتة "التنوير" وهم لا يقولـون لنا ما هو هـذا التنـوير؟ ما هي مقوماته أو أصوله؟ أو أين يباع أو يشترى؟ وتتردد على ألسنتهم كلمات معينة مثل "العلمانيـة" و"المشـروع الحضـاري" و"الفصل بين الـدين والدولـة".. ويشـنون حملة ضارية على "الإسلام السياسي".. وشعار "الإسـلام هو الحـل" هو الثـوب الأحمر الـذي يثـير الثـور ويطلقه من عقالـه.. وقد ركبـوا موجة تلك الظـاهرة الـتي أطلق عليها "الإرهـاب" واسـتغلوا ذعر وجهل السـلطات، فملئـوا آفـاق المجتمع المصـري بغثـائهم وثغائهم.

ويفهم من كتابات هؤلاء أنهم يؤمنون بثلاثة آلهة، ويبشرون بعبادتها.. ويرون فيها التنوير المنشود.. وهذه الآلهة هي: الحضارة الأوروبية، والاشتراكية، والقومية العربية.

ففي كل كتابات التنـوير المزعـوم نجد الـدعوة لأحد هـذه الآلهـة، أو لها جميعًا – وليس هنـاك تنـاقض – فالاشـتراكية هي إحـدى ثمـرات التطـور الاقتصـادي في أوروبا والقومية العربية هي مثيلة القوميات التي سبقت ظهور الحضارة الأوروبية.

1- الحضارة الأوروبية:

القضية الهامة في الحضـارة الأوروبية الـتي يجب أن تكـون نصب أعيننـا، والـتي سـيتوقف عليها الحكم، هي مـدى ملاءمة هـذه الحضـارة للشـعب المصـري بأفكـاره وتقاليده وموروثاته وتطلعاته.. إن الحضـارات لا يمكن أن تنقل من مكـان إلى آخر كما تنقل قطع الأحجار، ولا يمكن أن تنسخ كما لو كانت "أصلا" يؤخذ منه صـورة كربونيـة..

20 (?) انتقد أحد قراء الأهرام في رسالة إلى بريد القراء (6/11/1993 ص 9) تعبـير "التنـوير" لأنه على وزن "تقوير" و"تكدير" واقترح القارئ الاستعاضة عنه بتعبير "الاسـتنارة" الـتي توحي بالمنارة. وكان يمكنه أن يقـول إن كلمة تنـوير تـوحي كما لو إن التنـوير مفـروض، وأن الاستنارة مطلوبة، ومع هذا سنحتفظ بتعبـير "تنـوير" لأنه أصـبح يطلق على حركة أو اتجاه معين...

فالحضارة تتمحور حول الإنسان سواء كان فردًا أو مجتمعًا. وهـذا الإنسـان يعيش على أرض معينـة، ويرتبط بتـاريخ معين، ويعيش مع مجموعـات لها ثقافة ولغـة، وعـادات واحدة.. وعندما يراد اقتباس أوضـاع حضـارية، فـإن هـذه الأوضـاع لابد أن تتجـاوب مع العوامل الحية في المجتمـع، وألا فقد يرفضـها المجتمع كما يـرفض الجسم الحي أي عناصر غريبة عنه تقحم عليـه، وقد يحـاول أن يأخذ جانبًـا، ويـدع جانبًا ويكـون عليه أن يوفق في عملية انتقائية تلفيقية صـعبة.. وقد لا ينجح رغم ما بـذل من جهـد.. كل هـذه اعتبارات لابد أن نعلمها جيدًا وأن نضعها نصب أعيننـا، ولابد أن نعلم أن الحب والهـوى من ناحيتنا، أو الجمال والرونق من ناحية الحضارة لا تكفي لاصـطناع أوضـاع حضـارية؛ فقد نعجب بثـوب مـا، ولكننا نعلم أننا لا نسـتطيع أن نلبسه لعـدم ملاءمته للمقـاس أو عدم صلاحيته للمناخ... إلخ.

والأمر في الحضـارة أصـعب، لأن الحضـارة أشـبه بشـجرة جـذورها غـائرة في أعماق التربة تمسكها أن تحيد بها الرياح وتمدها بعناصر الغذاء.. وهذه الجـذور الـتي لا نراها هي الـتي تحـول دون أن تقتلع الشـجرة، أو تحـول دون إعـادة زرعها بنجـاح لو اقتلعناها...

وقد قـامت الحضـارة الأوروبية على أسس نفسـية وتاريخية تختلف عن الأسس التي قامت عليها حضارة هذه البلاد منذ أقـدم العصـور؛ فالحضـارة الأوروبية وثنية تعبد الإنسان وتجعله الإله؛ ولم يقم الأنبياء والرسل فيها بـأي دور ملحـوظ وقـام الفلاسـفة بدورهم.. وعندما أتاح الله لها المسيحية مسـختها إلى ديانة أقـرب إلى الوثنية الهيلينية الرومانية القديمة، منها إلى مسيحية نبي الناصرة، ويكاد يكون الصراع العدواني طبيعة فيها. وكان هذا العدوان هو السبب في انطلاقها الاسـتعماري من الإسـكندر المقـدوني حتى الفترة الاستعمارية التي أقامت ثراءها وتراكمها بالسلب والنهب واستغلال ثروات آسيا وأفريقيا، وعندما استراحت من عداوة الاتحاد السـوفييتي أخـيرًا بـدأت تبحث عن "عدو" جديـد، وليس في هـذا مفارقة أو مبالغـة، لأن من عناصر هـذه الحضـارة القـوة والصـراع. فلابد أن يكـون هنـاك عـدو ما تمـارس فيه الحضـارة فعالياتهـا، وهم اليـوم يتصورون أن الإسلام هو العدو الجديد للحضارة الأوروبية!

ورغم الإنجازات الباهرة للحضارة الأوروبية، فإن الثمن الذي يدفع لهذه الحضارة باهـظ، والحقيقة أن ما تتضـمنه الحضـارة الأوروبية من سـوءات كـان يمكن أن يقضي عليها لـولا أنها توصـلت إلى درجة كبـيرة من العلم والمعرفة مكنتها من معالجة هـذه السـوءات أولا بـأول، فـإذا نقلنا أوضـاعها دون أن ننقل معارفها فلا ريب في أن يـؤدي هذا إلى سقوط وشيك.. لأن الحضارة الأوروبية نفسها تهـدم بيد ما تبنيه باليد الأخـرى، ويغلب في مثل هذا المسار أن يتغلب الهدم ويصبح عليها أن تدفع ثمن عربدتها.

ولا يتسع المجـــال لمعالجة موضـــوع الحضـــارة الأوروبية معالجة مسهبة ويكفي فحسب أن نعلم أن الأصـول الـتي قـامت عليها الحضـارة الأوروبية تختلف أو تتناقض مع الأصول التي قامت عليها حضـارة مصـر. وأن من الضـــروري تـــوفر درجة كبـــيرة من التقـــدم العلمي لإصـــلاح ســـوءاتها.. وهـــذا وذاك يحـــولان دون اعتبارها المثل الأعلى أو محاولة الأخذ بها فضلا عن أننا عنـــدما ننصب مـــوازين التقـــييم الموضـــوعي لها فإنها لن تكون الأفضل.

والموقف الأمثل لنا إزاء الحضــــارة الأوروبية هو الــــتزود بكل ما تقدمه من علم ومعرفة، والاسـتفادة من تجاربها وخبراتها دون أن نفتن أمام إغراء كثير من الجـوانب البراقة واللامعة فيهـا، فنتقي ما تحفل به من صراعات وتوترات ولوثات كان يمكن أن تودي تمامًا بـأي حضـارة من

الحضـارات القديمـة، لـولا أن الحضـارة الأوروبية وجـدت في "العلم" ما يعالج السوءات التي تكشف عنها (الحرية) أولا بأول – على ما أشرنا آنفًا – ولكن تظل الحضــارة الأوروبية مهــددة بــأن تــدفع ثمن عربــدتها في النهاية.

وأخيرًا، فإن القيم المعنويـة، وفكـرة الـواجب والحقـوق الأساسـية للإنسان، وهي ما تفخر به الحضارة الأوروبية، تقوم على أساس نســبي، وأن النســبية فيها قد تصل إلى النقيض. وموقف المجتمع الأوروبي من جـرائم الصـرب – وبالـذات الاغتصـاب – مثـال يصـور ذلـك، فقد أقـرت الأغلبية الكاســحة لقــوى المجتمع الأوروبي، وعلى رأســها الساســة، والصــحافة، ورجــال المــال والأعمــال وقــادة الأحــزاب... إلخ سياسة الاستسلام أمام نذالات الصرب، بل شجعتها عندما سكتت عليها وحـرمت في الوقت نفسه على المسلمين تسليح أنفسهم، بدعوى أن هذا يفـاقم القتال! وهي قطعة نموذجية من نفاق هذا المجتمع؛ وفي الـوقت نفسه فـإن حسـنات الحضـارة الأوروبيـة، ونحن لا ننكر أبـدًا أن فيها حسـنات عديـدة، سـمحت بـأن يسـتقيل عـدد من الـوزراء احتجاجًا على سياسـات حكوماتهم المشـينة.. كما هبت بعض الجمعيـات، وتطـوع أفـراد عديـدون لمسـاعدة المسـلمين، وانتقد بعض القـراء، وبعض الكتـاب في الصـحف الأوروبية مواقف حكومــاتهم، ولكن هــذا الجــانب الطيب في الحضــارة الأوروبية يمثل استثناء لا يكاد يسـمع ولا يسـتطيع أن يوقف سـير التيـار المجنون.

هذه المعادلات كلها يجب أن نضعها في الحسبان عندما نُقيِّم الحضـارة الأوروبية ونحدد مواقفنا تجاهها، فنقبل الحسن الطيب، ونرفض السيئ الخـبيث ويكـون المعيـار هو المعيار الموضوعي البعيد عن التأثر بالعواطف أو المشاعر فلا ننـدفع في الـرفض، والعداء ولا "نندلق" في الإعجاب والانبهار.

2- الاشتراكية:

قلنا في مناسبات عديدة سابقة إن الاشتراكية مثلت الضـمير الأوروبي ردحًا من الـزمن، عنـدما تنكـرت الكنيسة والنظم الاقتصـادية والسياسـية للجمـاهير، وناصـرت الرأسـمالية الطليقـة، وقلنا إن الحركة ضـمت عـددًا كبـيرًا بعشـرات الألـوف من أنبل النفوس، كتابًا وشـعراء ونقـابيين إلخ.. وبعضـهم من الأكلـيروس المسـتنير، حـتى جـاء مـاركس فسجـن الاشـتراكية في إطـار محكم وغـرس فيها بـذرة التعصب الأعمى، ثم جاء لينين فصلبها بمسامير السلطة على صليب دكتاتورية البلوريتاريا المزعومة. ونحن مع هذا لا ننكر أن ماركس كان مفكرًا عبقريًا، وأن لينين رجل دولة وباني إمبراطورية.

وقلنا إن الاشتراكية ثمرة أوروبية خالصـة، وقد نشـأت مع نشـوء الدولة القومية التي أقامها التجـار وحطمـوا أسـوار المقاطعـات والطوائف ليظهر "السـوق" القـومي ولتتهيأ الظروف لظهور الثورة الصناعية والرأسـمالية.. إلخ، وأن اشـتراكية في إقامتها لتنظيرها اعتمــدت على أسس أوربية خالصة ســواء من الفكر أو الواقــع، وأن هــذا لا يمكن أن يصدق – بالضرورة – على غير أوروبا.

واعترفنا بـأن الاشـتراكية – حسـنة أو سـيئة – كشـفت عن جـانب من جـوانب التطور، وأبرزت قوة العامل المـادي مما تسـتحق عليه الشـكر، وتنـال به الريـادة في المجتمع الأوروبي بالنسبة لهذا العامل.

ولكن ليس معنى هذا أن الاشتراكية "علمية" كما يروق للماركسيين الادعاء، وأن ما يخالفها "طوبوية" فالحقيقة أن الاشتراكية الماركسية – ككل النظريات – صبت كل الثقل على عامل واحد هو العامل المادي وأغفلت بقية العوامل وأنها في نقدها للرأسمالية وعيوبها جهلت عيوب ونقص الاقتصاد الاشتراكي، وفي عداوتها للملكية الفردية وأثرها المدمر نست السلطة وأثرها الأكثر تدميرًا والذي كان في أصل كل أخطائها، أي الدكتاتورية والتخطيط المركزي والبيروقراطية، وهي الموبقات التي قضت عليها في النهاية.

أضف إلى هذا جهلها بالدين ودوره، وما يمكن أن يقدمه في إثراء الحياة، وأنه يمثل "الكلمة" بجانب "الرغيف" الذي تمثله، وأن العناية بالعامل المادي لا يعني إغفال الجانب الروحي.

ولا جدال في أن ماركس يتحمل جزءًا كبيرًا من مسئولية خطايا النظرية التي أبدعها.. ولكن المسئولية العظمى تقع على لينين الذي حولته السلطة من منظر، وداعية، وقائد جماهيري ومحارب لأجهزة القمع في الدولة، إلى أكبر ديكتاتور في العصور الحديثة. وأنه لكي يقيم إمبراطوريته، مارس أساليب جنكيز خان وإيفان الرهيب وبطرس الأكبر، ووضع أساس أكبر جهاز مخابرات إرهابي في الدولة الحديثة، وتسبب في مقتل الملايين لإصراره على فكره الخاص، وتمسكه بتطبيق "المركزية الديمقراطية" رغم معارضة العناصر النابهة والأمينة في الحركة العمالية، وفرض الحزب على كل أجهزة الدولة، وكل المنظمات الجماهيرية.. وقد كانت هذه في أصل تحلل النظام الذي لم يبك عليه أحد؛ لأن سوءاته – وأبرزها القضاء على الحريات لم تدع له صديقًا...

وقد جربنا الاشتراكية في منطقتنا، ففي عدن التي كانوا يطلقون عليها- لا أدري لماذا – قلعة الصمود والتحدي !! وجد مجموعة من الشيوعيين "أكثر ملكية من الملك!" جعلوا من "عدن" جحيمًا وأذاقوا أهلها لباس الذل والجوع، وتحكموا في لقمة العيش، وبسطوا حكم الإرهاب، ثم استدار بعضهم على بعض فمزقوا أنفسهم شر ممزق!

وفي السودان حكموا لمدة يومين فقط خضبوا فيهما الأرض بدماء الضباط والجنود!

أما في العراق فقد أصبح "السحل" هو الممارسة السياسية والإضافة التي جاء بها الشيوعيون خلال حكمهم في إحدى فترات الديكتاتور المجنون عبد الكريم قاسم، بينما تآمرت العناصر اليسارية مع حزب البعث في سوريا والعراق.. ووصلت إلى الحكم على أسنة الرماح، وبسطوا حكم الإرهاب النصيري أو التكريتي.. في سوريا والعراق!

وبالنسبة لمصر، فلم يكن عبثًا أن يشرف على الموجتين الشيوعيتين في العشرينات والأربعينيات يهوديان هما روزنتال وكوريل، ولم يستطيعا – رغم مواهبهما وإمكاناتهما ومساندة الاتحاد السوفيتي أن يكتسبا إلا عددًا محدودًا جدًا معظمهم من الأجانب أو المتمصرين، وحتى في الحركة النقابية فإنها لم تكتسب جمهورًا يعتد به، أو تقيم قواعد ثابتة، وإن كانت وراء عدد قليل من الاضطرابات، واستمت الشيوعية في مصر - رغم ضآلتها – بالانقسامات الحزبية والنظرية، وقد نجح المثقفون الماركسيون في نشر المفاهيم الاشتراكية عن طريق الصحافة والإذاعة والكتب، ولكن الرأي العام المصري لم يتقبلها على علاتها، ويحتمل أنه استفاد منها.. وقد جاءت فرصتها مع إفلاس الناصرية وحاجتها إلى غطاء أيديولوجي، وتعاونت الماركسية المصرية مع

الفاشية العسكرية بلا حياء أو خجل! وبرر الماركسيون كل موبقاتها، وكان لابد لهم من ذلك وهم يتقلدون مراكز الصدارة في التوجيه الفكري في الصحافة والأعلام.

ومع أن الناصرية قد أَفَلَتْ، فقد استطاع الكثيرون من الماركسيين المصريين الاحتفاظ بمناصبهم لعدد كبير من الأسباب، قد لا يكون أبرزها الكفاءة أو الأيمان.

وقد تهاوت المنظومة الاشتراكية في العالم كله، ودمرت تماثيل آلهتها المعبودة، ولكن قصر نظر الرأسمالية وأنانيتها يمكن أن يصنع من السوءات ما يفسح المجال مرة أخرى لدعوة اشتراكية في روسيا، كما أفسح المجال لنازية جديدة في ألمانيا!

وفكرة العدالة كهدف، والعامل المادي كمقوم رئيسي هما من الأفكار التي يتضمنها الإسلام، ومن ثم فإن الاشتراكية الماركسية لا تقدم جديدًا إلى الإسلام سوى شنشنتها المعروفة التي لا قيمة لها، ومن الخير أن يحتفظ الماركسيون بها لأنفسهم.

3- القومية العربية:

القومية العربية أكثر الآلهة الزائفة هزالا وزيفًا، ولا يمكن أن تقارن بالحضارة الأوروبية أو الحركة الاشتراكية، وهي مع هذا – وربما لهذا – أعلاها صوتًا، وأكثرها ضجيجًا حتى لقد ظهر من دعاتها من يقول "القومية العربية بالنسبة لنا نحن القوميين العرب، دين له جنته وناره، ولكن في هذه الدنيا" وقد تكون القومية العربية هي ديانة المسيخ الدجال، ولاشك أن لها جنتها ونارها في الدنيا – كما قال داعيها: فخزائن عبد الناصر وحزب البعث تقدم الجنة، كما أن سجونهما وتعذيبهما هو الجحيم!

وقد ظهرت القومية العربية – كتكتل سياسي منظم في المنطقة عندما بدأت حكومة الاتحاد والترقي في تركيا في العقد الأول للقرن العشرين في اضطهاد العناصر غير التركية وبوجه خاص العناصر العربية؛ لأن الحركة كانت قومية، وفلسفتها كانت "عنصرية" تنسب للأتراك فضائل ومزايا كالتي نسبها هتلر للألمان، وموسوليني للطليان... وكان ذلك يجعلها تحصر المناصب الكبرى في أيدي الأتراك دون العناصر الأخرى المكونة للسلطنة، وبالذات العنصر العربي الذي كان أقوى العناصر في الفترة التي قام "الاتحاد والترقي" بانقلابه وسيطرته على الحكم. كما كانت هذه الفلسفة تعزف عن المقوم الإسلامي، فالرسول لم يكن تركيًا والقرآن لم ينزل بالتركية وليس في أصول الجنس التركي ما يربط بينه وبين الجنس العربي. فضلا عن أن المقوم الإسلامي يتناقض مع فكرة العنصرية، فنشأ عزوف وكراهية للعنصر العربي الذي كان بعد الأتراك – مباشرة – أهم عنصر في الدولة، إذ أن العناصر الأخرى – كاليونانيين والبلغار والصرب كانت قد ظفرت باستقلالها، ولم يبق إلا العنصر العربي يستأثر بكثير من المناصب في الدولة. وكان هناك عامل مبدئي وأيديولوجي. كما كان هناك دافع مادي ونفعي لاضطهاد ومحاولة استبعاد العناصر العربية من السياسة التركية.

وكان الضباط العرب في الجيش العثماني، والنواب العرب في مجلس "المبعوثان" ينظرون إلى تركيا باعتبارها دار الخلافة، والدولة العثمانية التي حمت الإسلام ورفعت ألويته، وأن هذا "الإسلام" يجمع ما بين العنصرين التركي والعربي، ويحسم الحساسية، خاصة وإن الإسلام يجعل المؤمنين به أبعد الناس عن "الأثرة العنصرية".

وعندما استشعرت عدوان حكومة الاتحاد والترقي لم تبادلها عداوة بعداوة، ولكنها حاولت أن تجمع بين سيادة تركيا.. وحقوق العرب. وكانت فكرة أكبر هؤلاء الضباط رتبة، وأكثرهم شعبية وأرسخهم قدمًا في الجيش التركي "عزيز المصري"، هو أن تأخذ الدولة شكلا فيدراليًا تظفر فيه "الولايات العربية" باستقلالها الذاتي دون أن يؤثر هذا على تبعيتها وارتباطها بالدولة "العلية" أو الخلافة العثمانية. وعلى هذا

الأساس أقام عزيز المصري جمعية "العربية الفتاة" ثم حزب "العهد"، كما أسس المدنيون حزب اللامركزية في مصر، وكان من أقطابه رشيد رضا، وعبد الحميد الزهراوي ورفيق العظم، ومعظم مثقفي سوريا والعراق.

ومع أن هذا كان يحل مشكلة تركيا حلا مثاليًا، ويعينها في فترة محنتها. إلا أن العقلية الضيقة لضباط الاتحاد والترقي الذين هيمنوا على السياسة التركية من سنة 1906 رفضت هذا واعتبرته خيانة، ووصل التوتر إلى قمته عندما علق جمال باشا - قطب الاتحاد والترقي ووالي سوريا - أحرار العرب على المشانق في محاكمات "عاليه" وغيرها[21].

فكان هذا إيذانًا بقطع الجسور... ودخول القضية إلى طريق مسدود.

وعندئذ ظهرت – ولأول مرة – القومية العربية...

وتقصي ملابسات القومية الأولى "القومية التركية" التي ظهرت على مشارف المنطقة، وتأثرت بها القومية العربية – لأنها كانت رد فعل لها – كما سيتضح ذلك مما سيلي – يبرز الخصائص التالية:

1- إن القومية التركية المزعومة ظهرت على أسنة الرماح وبفضل انقلاب عسكري قاده لفيف من الضباط.

2- إن شكوكًا كثيفة تكتنف بعض أسباب قيام الانقلاب وانتماء القائمين عليه. فقد كان أنور ابنًا لبولندي مسلم. كما كان طلعت من أسرة مجرية الأصل. أما جاويد فقد كان من أبرز يهود سلانيك ومن أقطاب الماسونية العالمية.

وضمت الحركة عناصر يهودية وماسونية عديدة، وهناك أقاويل كثيرة حول دوافع الحركة.

3- اقترن عهد القومية الانقلابية – العسكرية بالشؤم والعقم فخسرت الدولة خلال الثلاثين شهرًا الأخيرة من حكمهم أكثر مما خسرت خلال الثلاثين سنة التي سبقتها..

ثم ورطت تركيا في الحرب العالمية الأولى، ودفعت بها إلى جانب ألمانيا ضد الخلفاء، أي في صف المهزومين ضد المنتصرين، وكان عليها أن تدفع الثمن باهظًا في معاهدة سيفر المهينة.

وهذه الخصائص هي ما نجدها إلى حد كبير في حركات القومية العربية إما للفقر الأصولي في "القومية" كدعوة، أو لأن القومية العربية كانت نقيضًا جدليًا للقومية التركية على ما أشرنا، أو رد فعل لها يتساوى ويتماثل معها.

فنحن نرى ضباط حزب البعث... وضباط عبد الناصر يحملون دعوة القومية العربية على أسنة الرماح إلى السلطة في سوريا والعراق ومصر، ثم نرى الشكوك التي أحاطت بحقيقة الدوافع والبواعث التي أدت إلى انقلاب الاتحاد والترقي في تركيا. وقد تحولت إلى حقائق تاريخية لا يمكن دفعها، كما سنرى القومية العربية تقوم لدواعي استعمارية بحتة، مما سيرد فيما يلي.

وأخيرًا نجد العقم والشؤم يرافقانها فتتعدد الانقلابات العسكرية التي تصل من الفاقة والعري درجة لا يمكن معها أن تجد اسمًا لها، فتحمل تاريخ وقوعها كذا آذار... وكذا تموز!! إلخ. ثم تخسر هذه القومية العربية الجولان من سوريا.. وتزج القومية العربية العراقية بالعراق في حرب إيران... ثم يخسر بطل القومية العربية الأكبر جمال عبد الناصر – حرب 67، ويوقع بالمنطقة كلها أسوأ هزيمة في تاريخها الحديث.

---

21 (?) **كان هناك بالفعل عدد محدود من الذين حوكموا، وأعدموا قام باتصالات مع فرنسا يمكن أن تعد "خيانة عظمى" وكانوا من المارونيين، ولكن الأغلبية العظمى كانت من الوطنيين الأطهار الحريصين على تركيا حرصهم على العرب.**

وقد يتطلب الأمر تحقيقًا أصـوليًا موضـوعيًا لإظهـار سـبب هـذا العقم والشـؤم، فالقومية بصــفة عامــة، وليست القومية العربية خاصــة، إنما هي في الحقيقة بتعبــير مــاركس وأنجلز (الأنانية بالجملــة). وكــان الــذي أظهرها – وأورثها خليقتها –هو التــاجر عندما هدم الأسوار التي كانت تفصل المـدن بعضـها عن بعض في أواخر عهد الإقطـاع ليوجد سـوقًا عامًا على مسـتوى الدولة – سـوقًا قوميًـا. وقد ورثت شـيئًا من خصـائص "التــاجر" فالقومية لا يمكن أن تكــون ذات "قيم" ومبــادئ موضــوعية، وقد رفضــتها المســيحية والإســلام، كما رفضــتها الاشــتراكية وكما ترفضــها كل الــدعوات العالمية والإنســانية؛ لأنها تقــوم على الأثــرة والأنانية والمصــلحة الخاصــة، وإنما توجد القيم والمبادئ في الأديان وعندما فرطت الدول العربية في إسلامها. باعتبــاره الأصل الــذي تتلاقى عليه – فإنها فقدت أصل القيم. ولم تعد أي صيحة معنوية أو أدبية تتطلب إيثــارًا يمكن أن تلقى تجاوبًا من ساسة القومية العربية. وهـذا أيضًـا هو السر في أن الجامعة العربية المنكودة لم تستطع أن تصدر قرارًا مصيريًا لأن هـذا القـرار يتطلب الإجمـاع – والإجماع يتطلب بالضرورة إعلاء المصلحة العامة على المصلحة الخاصة وهذا يتعارض مع منطق القومية، وهو كذلك السبب في أن أي معالجة لقضـية فلسـطين إنما جـاءت من وجهة نظر كل دولة عربية ودون النظر إلى فلسطين نفسها ومصلحتها.

***

وقف بنا السياق عند الوصول إلى الطريق المسدود ما بين العرب والترك.. مما هيأ المجال لظهور تحرك عربي يحمل اسم القومية العربية ونستأنف السياق.

في هذا الوقت برز على الساحة عامل جديد هو القوى الأوروبية وبالذات فرنسا وإنجلترا.

فرنسا التي اتخذت من المارونيين ذريعة للتسلل في لبنان وموطأ قـدم للتـدخل في شئون الدولة العثمانية، والتي كانت تضمر عداوة للإسـلام ولاسـيما لسـوريا ومصر الإسـلاميتين، فهي لم تنس أسر "القــديس" لــويس التاسع في المنصــورة، ولا هزيمة حطين المدوية – وأخيرًا فشل الحملة الفرنسية بقيادة نابليون على مصر..

أما بريطانيا فعـداوتها التقليدية لتركيا ومصر والإسـلام من أيـام ريتشـارد "قلب الأسد" والعداوة المريرة التي تملكت "بلمرستون" وجعلته يحطم أمل محمد علي في إقامة دولة في المنطقـة، ويقضي على فتوحاته ويـدمر الأسـطول المصـري – الـتركي في نفـارين، ثم إحسـاس بريطانيا بأهمية مصر بعد شق قنـاة السـويس واحتلالها غـير المشروع لها.

وكــان العامل المباشر في تحــرك هــاتين الــدولتين. بالإضـافة إلى هـذه الـدوافع التقليدية القديمــة، هو أن تركيا انحــازت إلى ألمانيا في الحــرب العالمية ضــدها فحل دمها ودم المنطقة التي تتبعها وقررتا الاستحواذ على هذه المنـاطق (وكـان المفـروض أن تستحوذ روسيا على القسطنطينية) في اتفاق سـري آخر – ولكنهما كانا من الفطنة بحيث لا يعلنان ذلك. فاتفقا سرًا على تقسيم المنطقة العربية في اتفاقية "سـايكس – بيكـو" الـذي تـؤول بموجبه سـوريا ولبنـان إلى فرنسـا... والعـراق إلى بريطانيـا، أما فلسطين فكانت بريطانيا قد قدمتها للصهيونية بمقتضى "وعد بلفور".

ولم تكن المشكلة في تحقيق هذا المشروع هي المشكلة العسـكرية؛ لأن الغلبة العسكرية على الترك كانت مكفولة تقريبًا، ولكن كانت المشكلة في السـكان – فهـذه منــاطق مأهولة بســكان لهم شــوكة ولغة وحضــارة – وليس من الطــبيعي مطلقًا أن يستسلموا أمام هذه القسمة التي تسلم بلادهم لقمة سائغة لفرنسا وبريطانيا.

ومن هنا كان لابد من خداع شعوب المنطقة، لابد من تقديم "غطاء" أيـديولوجي يمكن تحته الوصول إلى الأرض العربية والسيطرة عليهـا. وهـذا ما تكفلت به الأجهـزة

المعنية في الدولتين – فقامت الأجهزة الفرنسية بالاتصال بالمارونيين وضمنت تأييدهم لفرنسا "الأم الحنـــون" بينما كتب المعتمد البريطـــاني في مصر "مكمـــاهون" إلى الشريف حسين أمير مكة يوعز إليه بإعلان "ثورة عربية" على تركيا، ويمنيه بأن يكـون له حكم المنطقة العربية بأسـرها (الشـام – فلسـطين – لبنـان – العـراق) إذا أعلنها وحررها بمساعدة جيوش الحلفاء من السيطرة التركية.

وهكذا قدمت بريطانيا الفكر الـذي ليس فحسب يـبرر الثـورة، بل يجعلها قضـية "قومية عربيــة" كما قـدمت المـال والإغــراءات الماضـية، وقـدمت أخـيرًا الكولونيل لورنس، ومجموعة الجواسيس.

ونجحت الخطة تمامًا ووصـلت جيـوش اللنـبي البريطـاني المنطقة العربية دون مقاومة، بفضل التأييد والمساندة الـتي قـدمها "فيصـل" بن الملك حسـين والمجموعة العربية.

وعندما جاء وقت التسوية الحقيقة" استولى الجنرال غـورو على سـوريا، وطـرد فيصل شر طردة، وأقام "لبنان الكبير" بأجزاء اقتطعها من سوريا – ووضع بـذلك بـذرة الـنزاع السـوري – اللبنـاني الـذي لم يهـدأ حـتى الآن. وقد لا يهـدأ ما ظلت أيديولوجية القومية العربية هي الحاكمة.

بينما سيطر البريطانيون على العراق – وجعلوا من فيصل ملكًا ترضية له وتعمية لاستعمارهم – بينما كونت على عجل إمارة شرق الأردن لإرضاء الأمير عبد الله، ثـالث أبناء الملك حسين وثاني المتورطين منهم في العملية[22].

وهـذه هي الثـورة العربية الكـبرى الـتي يجعلها حـزب البعث رأس انطلاقته... ويفخر بها... وكـان جـديرًا به أن يخجل منهـا... وينـأى عنهـا، وهذه هي قصة ظهور "القومية العربية"!!

***

ونـأتي الآن إلى مناقشة السـلامة الموضـوعية لفكـرة القومية العربيـة، ومـدى نجاحها كأيديولوجية تقوم عليها أمة أو مجموعة دول...

إن عناصر القومية معروفة فهي الأرض والجنس والتاريخ والدين واللغة... إلخ.

فهل تعني القومية العربية جنسًا بعينه يحمل دمًا مميزًا؟

إذا كـان هـذا يصـدق منذ خمسة عشر قرنًا عنـدما ظهر الإسـلام في الجزيـرة العربيـة، فإنه لا يصـدق في كثـير أو قليل بعـده، حـتى بالنسـبة لسـكان شـبه الجزيـرة العربية نفسها. فما إن بدأت الفتـوح الإسـلامية حـتى قـامت أكـبر حركة هجـرة داخلية وخارجية عرفتها المنطقة فانهالت على الجزيـرة العربية عشـرات الألـوف من السـبى إثر على كل انتصـار للجيش الإسـلامي، وكـان عمر بن الخطـاب يسـتعيذ من سـبى "جلولاء".

واعتنق هؤلاء الإسـلام وسـكنوا الحجـاز وأصـبحوا من أهلها وظهر منهم العلمـاء والفقهاء. وعلى مدار التاريخ كانت أفواج المهاجرين تفد إلى الحجاز، ولعل آخرهم كان ضحايا آخر ثـورات القفقـاس الإسـلامية في مواجهة الغـزو الروسي بعد هزيمة الإمـام شامل بحيث أصبح الحجاز بوتقة لأجناس العالم المسلمة.

---

22 (?) **وهـذا لا ينفي وجـود عـدد كبـير من الأفـراد (ضـباط وكتـاب ودعـاة) خُـدِعوا إما بالدعاية الإنجليزية – الفرنسية، وإما بسراب "الدولة العربية"، فكانوا مخلصين، ولكن مخدوعين.**

وفي الـوقت نفسه فـإن الجيـوش العربية اسـتقرت في مصر وسـوريا والعـراق والشمال الأفـريقي والقبائل الـتي هـاجرت إليها مـرة بعد أخـرى. واختلطـوا بالسـكان الأصليين الذين أسلموا وتزاوجوا وتصاهروا ولم يعد من فرق بينهم.

فـدعوى الـدم العـربي لا أسـاس لها من الصـحة، ولم يوجد من بين الخلفـاء العباسيين من هو من دم عربي خـالص إلا "الأمين" الـذي لم يطل به العهـد، وحـتى لو صدقت ووجد الدم العربي النقي لكان يجب أن نرفضه، فدعوى الـدم هي قـوام أسـوأ القوميات عنصرية: الإسرائيلية، الآرية، التورانية (التركية) جنوب أفريقيا.

هل القومية العربية تـاريخ؟ إن التـاريخ من أكـبر العوامل الـتي تُكَـوّن الأمم – وفكرة أن الأمة تتكون تاريخيًا لا تخلو من وجاهة، فما هو التاريخ عند القومية العربية؟

بالنسبة لشبه الجزيرة العربية، لم يكن هناك تاريخ كأمة، ولكن كان هنـاك تـاريخ لقبائل تمزقها صراعات وحروب إما تلبية لنزعات ونزوات – مثل حرب داحس والغبراء والبسوس – وإما لدواعي تقليدية قبلية.

وأحيانًا نكرُ على أخينا   إذا ما لم نجد إلا أخانا!

ولم يظهر لهذه المنطقة – كأمة – تـاريخ إلا عنـدما وَحَّد محمد هـذه القبائل كلها وصهرها في بوتقة الإسلام وأعطاها الكتاب والمـيزان وعندئذ أصـبح تاريخها جـزءًا من تاريخ الإسلام، واكتسبت مجد الإسلام.

وأما بالنسبة للدول التي "عربها" الفتح الإسـلامي فقد كـان لبعضـها تـاريخ مجيد سابق. وحضارات أصيلة – كالحضارة المصرية القديمة، والحضارة الأشورية والبابليـة.. ولكن عندما دخلت الجيوش العربية كانت هـذه المنطقة كلها في أسر الإمبراطوريـتين الكبيرتين الرومان... والفرس.

وكانت حضارات هذه الأمم حضارة طبقية، فجاء الفتح العربي فحرر هذه الدول، ومن هـذا التحرير أخـذت بـدايتها التاريخية الحيـة، أما ما وراء ذلك من تـاريخ وحضـارة فقد أصبح في منطقة "اللاشعور التاريخي" لها، أما تاريخها الـواعي الحر فإنه يبـدأ من التحرير الإسـلامي لهـا. وهـذا التحرير بالإضـافة إلى الإيمـان الإسـلامي، جعلا تـاريخ المنطقة هو تاريخ الإسلام وأبطالها هم محمد وخلفاؤه وقادتـه، ومن ظهر بعـدهم ممن حملوا اسم الإسلام.

وقد لا نجد دولة كمصر لها تاريخ عريق، ضارب في أعماق التـاريخ، وله شـواهد من الآثار التي لا تزال قائمة، وتصـارع القـرون، ويمكن أن تعد أول دولة "قوميـة" في التاريخ حـافظت على قوميتها وحـدودها منذ أن وحد مينا الوجه القبلي والوجه البحـري لتظهر مصر منذ سبعة آلاف سنة.

هذه الدولة لا تفخر اليوم بأمجاد رمسيس وتحتمس.. الخ، قدر فخرها بعمـرو بن العاص أو الزبير بن العوام أو عبادة بن الصامت... وقد أسـهم في تاريخها الحـديث كل الجنسيات التي جاءت من أقصى الأرض، وكان جواز مرورها الوحيد هو "الإسـلام" من "جوهر الصقلي" باني القاهرة حتى "جمـال الأفغـاني" بـاعث الفكر الحـديث.. وصـلاح الدين الأيوبي الكـردي قائد حطين، وبيـبرس وقطز اللـذين جـاءا من القفقـاس ليقـودا عين جالوت.

وماذا بالله يمكن أن تفخر به سوريا قبل الإسـلام، وقد كـانت إما ملحقة بمصـر، أو ملحقة بروما... ثم جاء الإسلام وجعلها لأول مرة ولآخر مرة قاعدة "الإمبراطوريـة" وخلافة عظيمة – هي الخلافة الأموية التي تعد جزءًا من صميم التاريخ الإسلامي، وبـأي صـلة كـان معاوية بن أبي سـفيان أو عبد الملك بن مـروان يمتـان إلى سـوريا

والسوريين؟ إن الإسلام وحده هو الذي جعل من سوريا "قوة" عالمية وعاصمة لإمبراطورية، وعندما تنكرت له عادت مرة أخرى دولة صغيرة شكسة...

إذن لا يعد التاريخ مقومًا من مقومات القومية العربية؛ لأنه ليس تاريخًا لها.. ولكنه تاريخ الإسلام... ومواقعه هي المواقع الإسلامية وقادته هم القادة المسلمون الذين جاءوا من كل أجناس العالم الإسلامي.

هل القومية العربية تمثل تشريعًا.. أو اقتصادًا.. أو فنًا.. أو أدبًا..؟

إن هذا كله لا يمت إلى القومية العربية بشيء، وإنما جاء به الإسلام فالشريعة هي محور القانون. مدنيا وجنائيا. منذ أن ظهر الإسلام حتى جاء الاستعمار، وكانت لبعض فروع الشريعة آثارها في المجتمع الإسلامي، كتحريم الخمر والقمار والربا. حتى وإن أسيء تطبيقها، كما كان لوجهة النظر الإسلامية في الفنون والآداب – الأثر الأكبر – فلم يعد الفن المصري هو الفن الذي يصنع التماثيل أو ينقش على الأحجار الصلبة صور الآلهة.. ولم تواصل الموسيقى والغناء مسيرتها المتحررة المنطلقة التي كانت عليها – فقد ترك الإسلام بصمته عليها تمامًا حتى وإن أسيء فهمه.

بقي مقوم واحد من مقومات "القومية" يدعيه أنصار القومية العربية هو "اللغة". واللغة فعلا أوثق روابط المجتمع، وهي أكثر من أي مقوم آخر يكّون الأمة، هذا صحيح، وقد أعلنه من قبل سيد العرب جميعًا – محمد بن عبد الله – عندما قال: "العربية اللسان".

ولكن فات دعاة القومية العربية أن اللغة العربية على وجه التحديد تختلف عن اللغات الأخرى، لارتباطها القوى بالإسلام عبر القرآن.

فالقرآن هو الولادة الثانية والبارزة للغة العربية، وقد كانت قبله سجعًا ورجزًا وشعرًا جاهليًا لا يحيط بأكثر من أجواء البداوة والحياة القبلية، وكان القرآن هو الذي أحياها وشهرها وسن لها القواعد وصاغ لها الأساليب والأمثال التي لا تزال قوام الكتابة العربية. بل إنه عندما عجزت العربية الجاهلية عن الوفاء بمتطلبات القرآن استعار ألفاظًا من لغات أخرى وعربها.

وأهم من هذا كله... أن القرآن هو الذي حمى اللغة العربية من أن تمزقها اللهجات الإقليمية لو ترك الأمر لها على مدار القرون، ولو حدث هذا لتكرر في العربية ما حدث في اللاتينية وهي اللغة الأوروبية الأم. التي مزقتها اللهجات بحيث ظهرت الإنجليزية والفرنسية والألمانية... إلخ.

فالقرآن أوجد اللغة العربية القياسية، وحماها من الزوال؛ لأنها لغة عبادة وعقيدة، ولأن القرآن على خلاف الكتب السماوية الأخرى يتعبد بلفظه.. فاكتسبت ألفاظه قداسة ليست لغيره.

فنحن نكتب ونقرأ باللغة العربية القياسية التي جاء بها وحماها القرآن. وكان يمكن أن نقول على اللغة العربية "اللغة القرآنية"، فلعلها حسيبة عليه أكثر مما هي حسيبة على العرب.

وعندما تجتمع الوفود من مختلف دول هذه المنطقة وتتحدث بلغة القرآن، فإنها تفهم بعضها بعضًا، ولو تركت للهجاتها لما فهم السوري شيئًا من السوداني، ولما فهم عربي نجد بربري الأطلس... ولما فهم العراقي شيئًا من اليمني.

وقد كان من نتائج هذه الطبيعة الخاصة للغة العربية، وأنها لغة القرآن، أن علوم اللغة إنما نشأت لخدمة تفسير القرآن، وأن الذين خدموا العربية كان معظمهم من غير العرب بدءًا من سيبويه صاحب "الكتاب" حتى "الزمخشري" صاحب أساس

البلاغة، وفيما بينهم، وأن عالمًا عظيمًا يعد من أعظم نوابغ العالم مثل البيروني يقول "لأن أهجي بالعربية أفضل من أن أمدح بالفارسية"، ولم يقل البيروني هذا غزلا في سواد عيون القومية العربية، ولكن احتسابًا للغة القرآن وقربى إلى الله، وهذا شيء لا يمكن أن يحدث لغير اللغة العربية بفضل ارتباطها الوثيق بالقرآن والإسلام.

والدور الذي تقوم به اللغة العربية في تحقيق القومية ينقسم إلى قسمين:-

القسم الأول: أن اللغة أداة التخاطب والتعارف والتفاهم والكتابة والقراءة وهذا شرط أولي لقيام أي أمة.

وقد وضحنا أنه بالنسبة للقومية العربية أي للدول العربية ككل، فإن اللغة العربية كوسيلة تخاطب وتفاهم وكتابة وقراءة هي اللغة العربية القياسية التي حفظها القرآن، وأن هذا هو السبب الوحيد لوجودها بهذه الصورة، وأن العرب لا يزالون بعد 1400 عام يتحدثون بعربية القرآن ويفهمونها أكثر مما يفهم الإنجليز لغة شكسبير الذي لم يمض عليه أربعة قرون.

والقسم الثاني: أن اللغة هي التي تؤسس فكر الشعب بحكم أن الثقافة التي يلم بها، إنما يلم بها عن طريق ما يقرأه، أو ما يتلقاه من دروس بالعربية، "والمكتبة العربية" التي تبني الفكر العربي هي "المكتبة الإسلامية" فالكتب المطبوعة باللغة العربية، إما إسلامية الموضوع بشكل مباشر أي أنها التفسير أو الحديث أو الفقه أو السيرة أو التاريخ الإسلامي... وإما أنها إسلامية بصور متفاوتة.

ولو جمع كل ما كتبه الكتاب المحدثون في كل الدول العربية طول المائة عام الأخيرة، لما كانت إلا جزءًا صغيرًا بالنسبة للموسوعات الإسلامية التي وضعها العلماء والفقهاء الإسلاميون.

ومن هنا فإن الفكر الذي يمكن أن تقدمه اللغة العربية يكاد يكون فكرًا إسلاميًا وهذا هو السبب في أننا نرى دعوة القومية العربية تصدر عن الذين تثقفوا ثقافة غربية أوروبية، ولم يكونوا فكرهم عن اللغة العربية. ولكن عن الإنجليزية أو الفرنسية... وقد بدأت دعوة القومية العربية فيما يقول أصحابها بكتاب أصدره بالفرنسية في باريس "نجيب عزوري" وذكر هذا العربي المتفرنس – رائد القومية العربية المزعومة – أن مصر ليست عربية وعارض استقلالها ودعاها للتعاون مع بريطانيا، كما وضع آماله بالنسبة لسوريا العربية في فرنسا.

وفي الثلاثينات ظهر ساطع الحصري وهو "أعجمي" لا يحسن العربية، وميشيل عفلق الذي درس في فرنسا واستورد فكرة "البعث" من فكرة القوميات الأوروبية...

وأخيرًا.. يظهر مخلوق يدعى "أدونيس" يدعو لإصلاح اللغة العربية، ولعله آخر عجائب القومية العربية. وقد تقبل العرب "سيبويه" إمامًا للعربية لأنه كان يمت إليها بسبب الإسلام، أما هذا الأدونيس فهم يقولون إنه نصيري والعياذ بالله!

وقلما يشير دعاة القومية العربية إلى "الدين" باعتباره مقومًا من مقومات القومية؛ لأن ذلك يخالف هواهم، وإن كانت الحقيقة الموضوعية التي لا يجوز لمؤرخ أمين أن يغفلها هي أن الدين كان في هذه المنطقة محور المجتمع من سياسة أو اقتصاد أو تشريع أو فنون. وإن هذا الحكم كان من العراقة والأصالة، بحيث ظهر مع ظهور تاريخ شعوب المنطقة، بدءًا من "إيزيس" في مصر... "وبعل" في العراق، و"عشتروت" في سوريا. حتى المسيحية ثم الإسلام، فهي حقيقة موضوعية ارتبطت بتاريخ المنطقة، حتى قبل الإسلام، ثم لما جاء الإسلام عمقها وأحكمها بحيث يعد الإسلام المقوم الأول لأي قومية تجمع سكان هذه المنطقة.

***

من هـذا العـرض لمقومـات القومية يتضح أن هـذه المقومـات إنما تعـود إلى الإسـلام، فـإذا تجـردت القومية العربية منهـا، فإنها تصـبح مثل الصـدفة الفارغة الـتي جردت من لؤلؤتها، وأصبحت بلا قيمة.

والحق أني أفهم أن يقـول شـخص ما إنه مصـري، أو يمـني أو عـراقي... فهي صـــفات تنســـبه إلى بلاد لها تاريخها الخـــاص وجغرافيتها الممـــيزة وهي موقع رأسه وموطن أهله.

وأفهم، وأقدر، أن يتحـدث أحد عن "الوطنيـة" تلك العاطفة العميقة النبيلة الـتي ألهمت الأحرار والأبرار التضحيات والبطولات في سبيل الوطن المقدس..

وأفهم بالطبع أن يقول شخص ما إنه مسلم فهذا ينسب نفسه إلى قيم ومبـــادئ ومثل ونظام كامل للحياة وللوجود...

ولكني لا أفهم أبدًا أن يقول شخص ما إنه عربي... لأن هذا لا يعـني شـيئًا، اللهم إلا اللغة، واللغة ليست جنسية أو هوية – ونحن لا نقول على كل من يتحـدث الإنجليزية إنه إنجلـيزي، لأن الأمريكـيين يتحـدثون الإنجليزيـة، ولا نقـول عن هـؤلاء وأولئك إنهم إنجليز، ولأن اللغة العربية هي بنت القرآن، ولولا القرآن لما أصبح هنـاك شـيء اسـمه اللغة العربية على ما قـدمناه؛ فهي حسـبية الإسـلام، وسـليلة القـرآن، وتجاهل هـذه الخصوصية والاقتصار على "العربية" بالإضافة إلى ما فيه من إغفال للحقيقة يمكن أن يكون مزلقًا أو شبهة.

والحق أيضًـا أني لا أفهم – إذا جـردت الأمة العربية من إسـلامها – لمـاذا تكـون ذات رسالة خالدة كما يدعي حزب البعث؟ ولماذا لا تكون الأمة البريطانية هي صـاحبة هـذه الرسـالة؟! وقد كـان لها إمبراطورية لا تغيب عنها الشـمس، وظهر فيها عبـاقرة الفنـون والآداب وقباطنة الصـناعة. ولمـاذا لا تكـون الأمة الألمانيـة، ومنها ظهر أعظم الفلاسفة والموسيقيين والساسة؟!. وما هي هذه الرسالة الخالـدة الـتي تقـدمها الأمة العربية؟ اللهم إلا إذا كانت الإسلام.

ليس أدل على صدق ما تضمنه القسمان الأولان، أعني الملابسات المريبة الـتي ولدت فيها القومية العربية وانعدام المقومات التي يجب أن تتوفر لكل دعــوة ناجحة – من أن القومية العربية أتيحت لها- أكـثر من أية دعـوة أخـرى على السـاحة – الفـرص لكي تثبت نجاحها – وتحقق أهـدافها، ولكنها عجـزت عن ذلـك، وأصـبحت دعـوة تمـزق وانقسام وإضرام للعداوة بين الدول العربية التي ظهرت لتوحيدها.

وتجلى ذلك بصـورة فاقعة في العـداوة المريـرة الـتي تملكت جنـاحي حـزب القومية العربية – حـزب البعث في سـوريا والعـراق، فهو حـزب واحد بـدعوة واحـدة وقيـادة واحـدة، تتملكه العـداوة عنـدما يصل إلى السـلطة، ويصل بهـذه العـداوة إلى شقاق عجـزت عن علاجه محـاولات كل "الملـوك والرؤسـاء" المتكـررة، وأوجد سـورًا يفصل بين الدولتين الجارتين اللتين تبنتا "القومية العربية".

وما كان يمكن أن يحدث هذا لو كان للقومية العربية "مضـمون" يمكن الاحتكـام إليه أو عقيـدة تـؤمن بها الجمـاهير بحيث لا يسـتبد بها رئيسا الـدولتين، ولكن القومية العربية صـدفة فارغـة... وقد ظهر هـذا أولا عنـدما صـدع حـزب البعث بدعوته ونـادى الجماهير العربية، فلم يسـتجب له إلا ثلة من المثقفين، وكـان يمكن أن يظل كـذلك أو أن يتحلل ويذوي لولا أن تداركته السلطة العسكرية التي حكمت باسمه، وجعلته مطية أيديولوجية للوصول إلى الحكم، فأسنة الرماح وليس إيمان الجماهير، أو أصالة الفكـر، هي التي رفعت الحزب إلى الحكم، والحكم هو الذي قضى بالتجزئـة، وإضـرام شـقاق العداوة بين جناحيه...

وفي سنة 1945 تكونت جامعة الـدول العربية وسط ملابسـات مشـبوهة (كأنما قضي على كل تنظيم عربي قومي أن تتسلل إليه عناصر متفاوتة من السـفاح)، وكـان يرجى مع هذا أن تقوم ببعض دورها – إن لم يكن كله – في جمع شتات العرب وتوحيد الهدف إن لم يكن الصـف، ولكن الجامعة العربية – مثل حـزب البعث عجـزت أولا عن القيام بدورها، ثم أصبحت بعد ذلك أداة لإضرام الفرقة والتجزئة. فعجزت عن أن تحل المشكلات والخلافات بين الدول العربية، وعجزت عن أن توجد سوقًا عربية مشـتركة، أو أن ترفع نسبة التجارة بين الدول العربية بعضها البعض. (وهي لا تمثل سـوى ما بين 5%، 10% من تجارة هـذه الـدول) وعجـزت عن أن تحـول الاسـتثمارات العربية إلى السودان أو مصر لتسهم في مشـروعات التنمية بـدلا مما تقـوم به من مسـاندة رأس المال الأمـريكي والأوربي، وأنكى من هـذا كله فإنها عجـزت عن رفع قيـود السـفر، أو تخفيفها بين أفـراد الـدول العربية بعضـها البعض، وأصـبح سـفر العـربي إلى أمريكا أو إنجلترا أو سويسرا أسهل من سفر هذا العربي نفسه إلى بلد عربي آخر.

ووضـعت الرقابـات على الصـحافة العربية والكتـاب العـربي، ورفعت الرسـوم الجمركية وتذاكر الطـائرات، حـتى أنبتت الصـلات ما بين العـالم العـربي بعضه بعضًـا، وأصبح لا يعرف أخباره إلا من خلال الإذاعات الأجنبية، التي لم تسـتطع النظم الحاكمة أن تصنع لها شيئًا.

وعنـدما اختلفت السياسـات.. أصـبحت الجامعة العربية هي الهيئة الـتي تقـرر التفرقة.. وتعطيها مصداقية.

ولا جـدال في أن هـذا الفشل المتكـرر من حـزب البعث الحـاكم، ومن الجامعة العربيـة، دليل لا يـدفع على أن الفكـرة الـتي قـامت عليها الجامعة والحـزب – القومية العربية باطل... ولا يمكن أن تثمر حقًا أو تؤدي إلى توفيق.

قد يقول البعض: "ولماذا إذن نقول الـدول العربيـة، والـوطن العـربي، أفلا يـدل هذا على أن القومية العربية فرضت نفسها؟".

والرد أنه جـزء من صـفقة شـراء الـذي هو أدنى بالـذي هو خـير، الـتي أصـبحت سياستنا في كل شـيء، في الاقتصـاد، والسياسـة، والاجتمـاع... فلا غرابـة، أو هي من باب إطلاق الجزء على الكل...

ومرة أخرى قد يقال: "وهل المؤتمر الإسلامي أكثر نجاحًا من الجامعة العربية؟" فنقول: إننا لا نتحدث عن إسلام النظم الحاكمة... ولكن عن الإسلام الحق... وشتان...

***

وثمة واقعة أخــيرة تناولتها الصــحف، ولها دلالتها العميقة فيما نحن بصــدده، فعندما مـات "الـرئيس المؤسس لحـزب البعث ميشـيل عفلـق"، أعلنت الأنبـاء أنه قد أسـلم قبل وفاتــه، وصــلى على جثمانه في أحد مسـاجد بغـداد، ودفن طبقًا للتقاليد الإسـلامية وشـاهدنا في الصـحف صـورة النعش يحمله صـدام حسـين ورفاقه إلى المسجد...

ولا يجـوز لنا كمسـلمين أن نشـكك في هـذا، أو أن نرفضه أو حـتى أن نقـول "الآن.." وعلينا أن نتقبله بقول حسن ونسأل الله تعالى لصاحبه الرحمة والمغفرة..

ولكن يظل السـؤال.. ما الـذي يـدفع ميشـيل عفلق إلى ذلـك؟ هل اسـتبان أن القومية العربية دون إسلام صدفة فارغة وأن جهوده كلها ذهبت أدراج الرياح نتيجة لأن هذه النقطة دقت عليه؟ أو أنه أدرك أن زعيم القومية العربية لن يدخل التاريخ شخصًـا غير مسلم.. هذه أسئلة يكون على الذين يطالعون كتبه أن يضـعوها في حسـابهم وهم يقرءونها.

ولكن قد يقول أحد: "على رسـلك، إن العملية لا تعـدو أن تكـون تكنيكًا سياسـيًا وأن ميشيل عفلق مات على ما شب عليه".

وهنا تكون دلالة هذا التكنيك أكـبر وأعظم.. ونحن لا يعنينا بالدرجة الأولى صـدق الواقعة، فقد لا يعلمها إلا الله. ولكن ما يهمنا هو دلالة الواقعة، وفي حالة عدم صـحتها تصبح الدلالة أكبر إذ لابد من دافع قوي كان وراء هـذا التكنيك خاصة وأن الـذين قـاموا به لم يكونوا يومًا من أنصار الإسلام.

فالنتيجة في الحالتين واحدة: لابد من الإسلام.

الفصل الثاني
التجارب الثلاث للتنوير في مصر
(محمد علي – البورجوازية –
عبد الناصر)

يكثر أدعياء التنوير من الحديث عن "المشروع الحضاري".. أو "المشروع القومي".. ويعرضون هذا المشروع بديلا عن الحل الإسلامي.. وهم لا يقدمون – عادة – برنامج هذا المشروع أو مفرداته أو مرتكزاته (وهو ما يعيبونه على الإسلاميين) ولكنهم عادة ما يضربون المثل بالمشروع الحضاري لمحمد علي وعبد الناصر. وليس هناك ما هو أكثر دلالة على ركاكة وضحالة تفكير هؤلاء من اتخاذ هذين مثالا؛ لأن المشروع الحضاري في عهد محمد علي، إنما جاء من الشعب في أكمل صورة تضمنها تاريخ أمة من الأمم في العصر الحديث.. فتآمر عليه محمد علي حتى كاد أن يجهز عليه عندما استطاع شيخ أزهري من مجموعة الشعب أصلا وليس من جماعة محمد علي أن يمضي في تطبيق ما تيسر له من مشروع الشعب، مؤيدًا في هذا بزملاء له من المصريين. فمن الخطأ أو المفارقة أن يقال عن المشروع الحضاري الذي ظهر أيام محمد علي أنه مشروع محمد علي.. وهذا ما ينطبق بصورة أكثر حدة على مشروع عبد الناصر؛ لأن تجربة عبد الناصر لم تكن تجربة تنوير ولكن محاولة تعهير، كما سيرى القارئ، وكما سيقتنع في نهاية قراءته للنبذة الخاصة به...

والتجربة الحقيقية للتنوير هي ما قامت به الطبقة الوسطى المصرية (البورجوازية المصرية) في الفترة ما بين الاحتلال البريطاني سنة 1882 (الذي وضع خاتمة مرحلة المشروع الأول 1805 – 1882) مرورًا بثورة 19 ودستور 1923 الذي كان تتويجًا للتجربة حتى 1952 عندما دهمت المشروع إجراءات الانقلاب العسكري وقضاؤه على الحريات وهي روح تجربة التنوير البورجوازية.

ولم تدرس هذه التجربة الدراسة الواجبة رغم أنها الوحيدة والتي تركت بصمات على المجتمع المصري لا تزال باقية حتى اليوم.

وسنشير في نبذة خاصة إلى كل "مشروع" من هذه المشاريع الثلاثة:

المشروع الشعبي في عهد محمد علي:

كان محمد علي عبقريًا، كبير الهمة، قوي الإرادة، ومن بناة الإمبراطوريات، وأراد أن يؤسس إمبراطورية تحمل اسمه وتخلد ذكره، وتصور أن وسيلة تحقيق ذلك هي أن يأخذ بأسباب الصناعة الحديثة التي هي سر قوة العصر، والتي مكنت الدول الأوروبية من أن تسود العالم.

وقد كان يمكن لمحمد علي – بذكائه – أن يدرك أن إقامة دولة يتطلب ما هو أكثر من الصناعة، مثلا عقيدة أو نظرية تقدم الحماس وتكسب الإيمان للدولة.. وشعب وجمهور يؤمن بهذه النظرية وبهذه الدولة ويشارك في بنائها.. ونظام "مؤسساتي" يكفل التنظيم المنهجي لشئون الدولة.

ولكن محمد علي – حتى لو أدرك هذا – فإن عوامل عديدة جعلته يطرح هذه المقتضيات، لعل أبرزها أنه – كشأن كل الديكتاتوريين – يتصور أن اسمه وشخصه وعبقريته يمكن أن تغني عن الإيمان والنظرية.. وأن عمله وعمل أعوانه يمكن أن يغنيا عن المشاركة الشعبية، فضلا عن أن أوضاعه الخاصة تحكمت فيه، فقد كان ضابطًا – أي عسكريًا – وليس مدنيًا، بل إنه لم يكن مصريًا ولم يكن ينطق العربية إلا بصعوبة.

وكان لهذه الوقـائع انعكاسـاتها على المشـروع الـذي أراده، فطبيعته العسـكرية جعلته يطبق الأسـلوب العسـكري على المـدارس والمصـانع الـتي أقامهـا، فجعلها كالثكنات، ومنح القائمين عليها رتبًا عسكرية.. كما أنه كعسكري كان يفـترض الطاعـة، وطبيعي أن يضيق بأي نظام ديمقراطي أو شورى.

ولما كـان أجنبيًا عن هـذه البلاد، فلم تقم بينه وبين شـعبها أواصر من القـربى ناهيك عن الوحدة، ولم يحس أنه فرد من هذا الشعب، كما أن الشـعب أيضًا لم يحس أنه فـرد منـه.. ودفعه هـذا لاصـطناع العناصر الأجنبية الأوروبيـة.. وقـرب إليه أبنـاء المماليك الـذي استأصـلهم في مذبحة القلعـة، بل حـاول تجنيد السـودانيين بعد حملة السـودان.. ولما لم تكف هـذه الجهـود كلها المتطلبـات، اضـطر أخـيرًا للاسـتعانة بالمصريين في الجيش وفي البعثـات والأعمـال الأخـرى.. وبفضل الجنـدي الفلاح، نـال إبراهيم باشا معظم انتصاراته.

كـان أمـام محمد علي منفذ واحد يمكنه أن يخلص من كل هـذه الضـرورات الخانقة والأبواب المغلقة، ذلك المنفذ هو الإسلام.. فقد كان الإسلام هو العامل الوحيد الذي يمكن أن يقضي – في ذهن الشعب – على صـفته العسـكرية الألبانيـة، ويدخله – وهو الأجنبي – قلوب المصريين.

ولم يكن محمد يُكنُّ عداوة خاصة للإسلام، بل إننا لا نعدم نوعًا من القداسة كان يشـعر به نحو الإسـلام، ولكنه لم يكن مسـتعدًا مطلقًا لجعل الإسـلام محـور الحكم والحياة؛ لأن هذا سيقيد إرادتـه، ويحد من سـلطته، وسيفسح المجـال لشـيوخ القـاهرة ولشعب مصر في المشاركة في العمل السياسي.

بالإضـافة إلى أن الـديكتاتوريين جميعًا يرفضـون الشـورى الإسـلامية، فقد كـان هناك بالنسبة لمحمد علي – على وجه التحديد – عامل إضـافي يجعله يـرفض الإسـلام كمحـور للعمل السياسي ذلك العامل أنه إنما ولّي مصر من يد الشـيخ الشـرقاوي والسـيد عمر مكـرم – وهما اللـذان ألبسـاه خلعة الولايـة، وهما اللـذان فرضـاه على الدولـة، وتحـديا إرادة السـلطان الـتركي؛ لأنه عاهـدهما على الحكم بالشـرع والعـدل والإقلاع عن المظـالم، وألا يفعل أمـرًا إلا بمشـورة العلمـاء وأنه مـتى خـالف هـذه الشروط عزلوه.

وكان محمد علي يضمر في نفسه – من اليوم الأول – أن ينكث وأن يستأثر وأن يحطم سلطة الشـيوخ وعمر مكـرم، ولهـذا وجد نفسه وهو يعـادي المعسـكر الشـعبي الإسلامي...

وليس في تاريخ الديمقراطيات المعاصـرة ما يماثل الاتفـاق الـذي أبرمه شـيوخ القـاهرة مع محمد علي سـنة 1805 لأنه يفـرض أن يكـون الحكم شـوريًا، وينص على حرية إقالة الحاكم إذا نكث بالشروط.. وعلى هذا الأسـاس أيد المصـريون محمد علي وقاوموا الوالي التركي.

وقد يتطلب الأمر أن نقـول كلمة عن رجـال الدولة العظـام الـذين يبـدعون المشـروعات الحضـارية، وبين رجـال الدولة الطغـام الـذين يريـدون تخليد أسـمائهم. فـالأولون يربط بينهم وبين بلادهم حب عميق وإحسـاس بـواجب مقـدس نحوها يملي عليهم خدمتها، أو يكونون من المؤمنين بعقيدة سامية يعملون على تطبيقهـا، وفي كل الحالات لا يكون للفخر أو الكسب الذاتي محل عندهم، فهم يعملون لشعوبهم وينسون أنفسهم، وهؤلاء هم الذين يعيشون أبد الدهر في نفوس ووجـدان شـعوبهم، ويخلـدهم التاريخ.. أمثال الخلفاء الراشدين وفي أوروبا بسـمارك وكـافور وملـوك انجلـترا الـذين نهضوا بصناعاتها.. أما رجال الدولة الطغام، فهم المفتونون بأنفسهم، المصابون بجنون العظمة، والـذين يـدور طمـوحهم حـول أنفسـهم. وبلادهم – بالنسـبة لهم – هي مجـال

إبـراز هـذه العظمـة، ومثلهم أبـاطرة الرومـان ونـابليون وهتلر وموسـوليني وسـتالين ومصطفى كمـال والطغمة العسـكرية الـتي ابتلي بها المسـلمون (جمـال عبد الناصر / حافظ الأسد/ صدام حسين/... إلخ) وهـؤلاء الـذين تلعنهم شـعوبهم بعد مـوتهم وتلصق بهم الخزي والعار.

وكـان يمكن لمحمد علي أن يضع يـده في يد شـيوخ الأزهر وعمر مكـرم فيحكم بالشـرع وينهض بـالعلم والعمل والعـدل والصـناعة والزراعـة... إلخ ويجعل من الأزهر منارة الإشعاع الثقافي، ولكنه لم يكن يحب مصر، وإنما يحب نفسه، لم يكن من رجال الدولة العظـام، ولكن من رجـال الدولة الطغـام... وكـان كل ما يريـده هو إقامة دولة "علويـة"، فحطم المشـروع القـومي وغـدر بعمر مكـرم، وفـرق شـيوخ الأزهر بـالمكر والخديعــة! وعنــدما تــآمرت عليه الــدول الأوروبية وحرمته من المنــاطق الشــمالية للإمبراطورية التي أقامها، فإنها أبقت له مصر كاملة حتى منابع النيـل، وكـان يمكن أن يتعلم الدرس فيقلع عن فكرة "الإمبراطورية" ويعكف على بناء البلاد.. ولكن متى تعلم الطغـام والطغـاة... لقد كـان همه الأول – والأخـير – أن يكـون إمـبراطورًا، فلما فقد الإمبراطورية نفض يديه من المدارس والمصانع وكل ما أقامه لتحقيق الإمبراطورية!!

وكان الذي أبقى على جزء من المشـروع الحضـاري المصـري هو الشـيخ رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك اللذان ركزا جهدهما في نشر العلم والثقافة والمعرفـة، وقاما بتأسيس المدارس والمكتبات وترجمة الكتب الفرنسية إلى العربية، واصـطدما بـالطبع مع بيروقراطية النظم وسياسات الأمراء من أسرة محمد علي الذين حكمــوا مصر بعد ذلك.

ففكرة أدعياء التنوير عن مشـروع حضـاري تقـدم به محمد علي، وتـآمرت عليه الدول الأوروبية هي فكـرة غـير سـليمة.. والفكـرة السـليمة أن شـعب مصر ممثلا في قادته الطبيعيين وقتئذ شيوخ الأزهر والسيد عمر مكرم – تقدم بمشروع حضاري لحكم شـورى ديمقـراطي تـآمر عليه محمد علي، ولم يحتفظ منه إلا بما يخص إقامة صـناعة لخدمة الجيش.. فلما تـآمرت الـدول الأوروبية على محمد علي لم يجد الشـعب الـذي يقف معه!

ومما يضاعف من مسئولية محمد علي أن حركة الشـيوخ هـذه لم تكن "بـادرة" فريدة أو عشوائية، ولكنها كانت ثمرة عمل وكفاح جعل الشيوخ قيـادة طبيعية ومكنهم من القيام بها في أواخر عهد المماليك (إبراهيم بك ومـراد بـك) ثم الحملة الفرنسـية.. ففي خلال هذه المدة أدت الأحداث إلى تكوين هذه القيادة الشعبية التي كـان لـديها – بحكم ثقافتها الإســلامية من ناحية واحتكاكها المباشر بالشــعب من ناحية أخــرى- ما مكنها من تكوين مشروع حضاري يقـوم على العـدل الـذي يـأتي به الشـرع، ونجد في سجلات هذه الفترة مواثيق عديدة ألـزم بها الشـيوخ المماليك الحكم بالعـدل والشـرع تماثل ما ألزموا به محمد علي، فضلا عن دورهم في قيادة الثورة على نابليون وكليبر.. فميثـاق سـنة 1805 كـان خاتمة لمسـيرة كـان يمكن أن تكلل بالنجـاح لـولا أن اغتالها محمد علي بالمكر والتفرقة!

إن ما يــذكر لمحمد علي ليس هو المشــروع الحضــاري، ولكن أنه أدخل مصر العصر الحــديث وضم – ولو رغم أرادته – الفلاح للجيش فحمل الســلاح ورفع رايــات مصر فوق ثلاث قارات، وأنه عندما مات سلم للأجيال مصر بحدودها الطبيعية من منبع النيل إلى مصبه في حين أن عبد الناصر (الذي يقرنونه بمحمد علي) جاء بالإسرائيليين إلى عقر البلاد، وكان يمكن أن يدخلوا القاهرة.. فكيف تجوز المقارنة ؟!!.

والخطأ الذي وقع فيه دعاة الليبرالية في تقـييم "المشـروع الحضـاري" في عهد محمد علي هو نفس الخطأ الـذي وقعـوا فيه عند تقـييمهم لمشـروع عبد الناصر وفي جميع الحالات لم ينظروا إلى موقف الشعب ومدى مشاركته الحقيقية وعمق وســلامة

الأصـول النظرية للمشـروع، وهي المعـايير الحقيقية للحكم على سـلامة أي مشـروع حضاري...

وإذا كان ثمة مشروع حضاري في أعقـاب المشـروع الحضـاري الـذي تقـدم به شيوخ القاهرة سنة 1805 وتآمر عليه محمد علي حـتى وقـوع الاحتلال البريطـاني في سـنة 1882، فهو مشـروع الدسـتور الـذي وصل إلى قمته على يـدي جمـال الـدين الأفغـاني وعمله الـدائب لمـدة ثمـان سـنوات متصـلة مع المثقفين والطلبة في مصر بحيث ظهـرت حيـاة جديـدة في المجتمع المصـري، وتعـددت الصـحف وتكـونت بعض الجمعيـات سـرية أو علنية للمطالبة بالدسـتور، وتـاريخ هـذه الصـفحة الـتي عرضـها بإسهاب الأستاذ عبد الرحمن الرافعي في الجزء الثاني من كتابه "عهد إسـماعيل" في الجزء الذي تعرض فيه للاحتلال البريطاني.. وأشرنا إليه بتركيز في كتابنا "أثر الإسـلام في إرساء سيادة الشعب للحكم الدستوري" هـذه الحركة الـتي وصـلت إلى قمتها في مظاهرة 9 سبتمبر 1881 ثم أجهضها تدخل الدول والاحتلال البريطاني...

التجربة البورجوازية 1919 – 1952

خلال المدة من 1800 – 1919 نشأت البورجوازية المصرية ووصلت إلى درجة من القوة فرضت نفسها على المجتمع المصري.

وقد ضمت البورجوازية المصـرية أعيـان الريف والعمد والتجـار وكبـار مـوظفي الدولة والمهنـيين.. ومن يراجع أسـماء أعضـاء مجلس شـورى القـوانين في عهد إسماعيل يرى أسماء العائلات التي لا تزال حتى الآن تمثل "العصبيات" في الريـف، أو كبار التجار والمهنيين في المدن.

والبورجوازية واحـدة في العـالم كلـه، وهي تمثل طبقة تقـوم على آحـاد أذكيـاء نشطين يعملون بكل قوة لرفع مسـتواهم الاقتصـادي، وهم يتوصـلون إلى ذلك بالفعل بفضل الذكاء، والمال، والسياسة.

ولهم جميعًا – في كل أنحـاء العـالم – "نفسـية" واحـدة، فهم يؤمنـون بـالفرد ويرونه النواة الطبيعية للمجتمع، وهم يرون أن الدافع للعمل هو الوازع الفـردي سـواء كـان ربحًا في مجـال الاقتصـاد، أو منصـبًا في مجـال السياسـة، كما يـرون أن المنـاخ الضروري والذي لا غنى عنه هو "الحرية" حرية الفكر، وحرية العمل، وحرية السياسة.. وفي ظل هذه الحرية يمكنهم أن يشقوا طريقهم فيقيموا المصانع ويؤلفـوا الشـركات، ويؤسسوا الأحزاب.. وهي شركات سياسية.. فبهذا يهيمنـون على المجـاميع.. فبالمـال يكسبون السياسة وبالسياسة يدعمون المال.

فأسس البورجوازية ثلاثـة: الفـرد، والـوازع المـادي، والحريـة، وخلال مائة وخمسين سنة تقريبًا (1800 – 1950) من ظهور محمد علي حتى ظهور عبد الناصر تكونت البورجوازية المصرية ومكنت لنفسها في المجتمع المصري.

وكانت ثورة 1919 هي الفرصة الذهبية للبورجوازية، فركبتها وحولت مسـارها.. وقد كانت أصلا انتفاضة شعبية بحق استهدفت القضاء على الاحتلال البريطـاني، وكـان جمهورها هم الفلاحـون والعمـال والطلبـة.. فجـاءت البورجوازية وهيمنت على الثـورة وغـيرت طبيعتها ومسـارها فحجبت قيادتها من الباشـوات والبكـوات الطبيعة الشـعبية الجماهيرية لهـا.. وحـولت مسـيرتها من "الاسـتقلال التـام أو المـوت الـزؤام" إلى المفاوضات مع بريطانيا!! وأهم من هذا كله أنها انتهـزت هـذه الفرصة لتقـنين شـرعة البورجوازية في دسـتور 1923 ووجـدت في سـعد زغلـول الـزعيم الـذي يحقق هـذا الانتقال الجذري!

وقد كان سعد زغلـول فلاحًا بالنشـأة وتلميـذًا لمحمد عبـده، ورأى جمـال الـدين الأفغــاني، ولكنه لم يكن مؤصلا تأصــيلا إســلاميًا.. وعــاش في المدينـــة.. واحــترف المحامـاة.. وأصـبح التمثيل الحي للبورجوازية الطموحة الصـاعدة، وعـزز هـذا الاتجـاه زواجه بابنة مصطفى فهمي باشا – أكبر سياسي مصري ممـالئ للإنجلـيز وكـان حـزب الوفد هو تجسيد البورجوازية الليبرالية المصرية.

حقًا إن حزب الوفد رزق جماهيرية شـعبية، ولكن هـذا يعـود إلى شخصـية سـعد زغلول أكثر مما يعود إلى نظرية الحزب، وإلى بعض الملابسات الـتي أحـاطت بتكوينه وإلى كراهية الشعب للملك والإنجليز.. فهناك مجموعة كبـيرة أيـدت الوفد لا حبًا فيه – على وجه التحديد – ولكن كراهية في الملك والإنجليز.

وفي الوقت نفسه، فـإن هـذه الجماهيرية ليست جماهيرية الشـعب الكـادح من عمال في المدن وفلاحين في القرى.. ولكنها كانت جماهيرية العمد والملاك صــغارًا أو كبـارًا أو المهنـيين التجـار.. وجعلته هـذه الصـفة يعطي الجمـاهير (بالقطـار) ثم يمُنّ عليهم.. ولعل أبـرز مثـال لـذلك هو قـانون "الاعـتراف" بالنقابـات العماليـة.. فقد أراد العمال قانونًا يعترف بالنقابات أي يعطيها الشخصية الاعتبارية القانونية.. فجاء القانون 85 لسنة 1942 وقدم هذا – ولكن بثمن فادح – هو شل الحرية النقابية وفرض وصاية إدارية على النشاط والتنظيم النقابي وحرمان العمال الزراعـيين وعمـال الحكومة من حق تكوين النقابات.. فأين الشعبية في هذا؟

ومع صدور دستور 23 الذي كان تعبيرًا صادقًا عن تصـورات البورجوازيـة، بـدأت المرحلة البورجوازية في مصر بصورة مقننة.

وكـانت مصر البورجوازية في الثلاثينـات تحـذو حـذو البورجوازية الأوروبية الـتي كانت قد وصلت إلى القمة، فكان في مصر مجلس للنواب وآخر للشيوخ وعدة أحزاب وعـدة صـحف يومية ومئـات الصـحف الأسـبوعية أو الشـهرية.. وتعـاونت البورجوازية المصرية مع الرأسمالية الأوروبية وتسامحت في قبول ما كان يعد خروجًا على التقاليد المرعية، فظهـرت الحانـات حـتى في القـرى، وأبيح البغـاء في المـدن، ولم يعد منظر "الخواجات" في شركات المرافق (النور/ الميـاه/ الـترام/ التليفونـات... إلخ)، وصـورة الفاتورة "المكتوبة بالفرنسية شيئًا إذا.. وكان المربع ما بين شـارع فـؤاد وشـارع قصر النيل حـتى امتـداد شـاطئ النيل مربعًا أوروبيًـا: المحلات أوروبيـة، عاملاتها أوروبيـات، المارة من رجال أو نساء أوروبيون وأوروبيات يلبسن القبعات وأحدث الأزياء.. بل كـان هنـاك مـدن بأسـرها يغلب الطـابع الأوروبي فيها الطـابع المصـري مثل الإسـكندرية وبورسعيد والإسماعيلية والسويس.. كما كانت هناك أحيـاء سـكنية مغلقة للأجـانب في القـاهرة؛ كـالجزيرة والزمالك وجـاردن سـيتي، وكـانت الفـرق الاستعراضـية تـأتي من النمسا أو المجر أو فرنسا لتقدم عروضـها في الإسـكندرية أو بورسـعيد، كما لو كـانت تقدمها في (الفولي بورجيه) في باريس أو علب الليل في فيينـا.. وزحف على الأغـاني والتمثيل والموسيقى التحلل والابتذال والتجاوب مع الشهوات.

وأدى الانبهــار بأوروبا والاتجــاه البورجــوازي بقــادة هــذه المرحلة [باشــوات السياسـة، وقباطنة الصـناعة وملاك الأراضـي] أن يتصـوروا أن ما نجح في أوروبا ينجح في مصر، وكـانوا أبنـاء ثقافة الاحتلال البريطـاني وثمـرة تربيته الـتي قطعت الوشـائج بتقاليد البلاد وحضارتها كما كانوا من ناحية المراكز والمناصب والثروات مهيــئين لتقبل البورجوازية والدفاع عنها، وكانوا على استعداد للتعامل مع الإسـلام بطريقتها الخاصـة، والبورجوازية تعرف منزلة الإسـلام، وفي الـوقت نفسه فليست على اسـتعداد للـنزول على مقتضــياته "وحســبك تحــريم الربا وهو حجر الأســاس في النشــاط الاقتصــادي البورجوازي".

وكـان الحل هو إزجـاء آيـات الثنـاء للإسـلام، والاعـتراف بفضـله على العـالمين، وتكـريم علمائه وشـيوخه، وتعـيينهم في مناصب دينية مثل الأوقـاف والمسـاجد... إلخ. ذات مستوى أدبي ومادي مرض، إن لم يكن مغريًا، دون إعمال شريعته.

وظنت البورجوازية بهــذا أنها أمنت جــانب الإســلام ومعارضــته للنظــام، وأنها تستطيع أن تضعه في "ركن" قصي من أركان المجتمع!

ولكن هـذه التسـوية كـانت بمثابة هدنـة، وليست سـلامًا، لأن الشـعب لم يتقبلها تمامًـا، حــتى وإن تقبلتها بعض القيــادات المشــيخية، وأخذ تأييد الشــعب للبورجوازية ينحسـر.. وما إن ظهـرت قيـادات نابهـة، وعبقريـة، في ميـدان الـدعوة الإسـلامية مثل حسن البنا وأحمد حسين، حتى انحازت إليها الجماهير فظهـرت "الإخـوان المسـلمون" و"مصر الفتــاة" وبــدأ الخلاف يظهر بين الكتلــتين: الكتلة الشــعبية الإيمانيــة، والكتلة البورجوازية الحزبية.

وفي الأربعينيات وصل الخلاف إلى درجة حرجة ولم يكن الانشقاق بين الكتلـتين إلا أحد مظاهر هذا الصـراع، وكـان اغتيـال الإمـام حسن البنا في فـبراير 1949 إيـذانًا بالعد التنازلي لنهاية النظام، التي جاءت مع انقلاب 52.

ويمكن القــول إن تجربة البورجوازية المصــرية كـانت هي أقــرب التجــارب إلى التنوير فعلا وأنها تركت بصـماتها على المجتمع المصـري – حـتى الآن – وأنجبت لمصر كبـــار كتابها ومفكريها وجعلتها عاصـــمة الثقافة والمعرفة وملاذًا لكل الأحـــرار من كل الـــدول العربيـــة، كما وضع الحكم البرلمـــاني – على عيوبه – مبـــادئ الديمقراطية والمعارضة السياسية... إلخ.

وكـان النقص الأكـبر في تجربة البورجوازية المصـرية هو اغترابها عن الإسـلام، وهذا الاغتراب لا يعود بالدرجة الأولى إلى معارضة الإسلام للأصـول الثلاثة الـتي تقـوم عليها البورجوازية (الفـرد – الحرية – الـربح) رغم أن للإسـلام تحفظـات على مـدى اسـتخدامها؛ ولكن لأن هـذه البورجوازية كـانت متـأثرة بالنمط الأوروبي في التفكـير والحياة والاتجاهات التي استحوذت على إسماعيل باشا وجعلته يعمل لتطوير المجتمع المصـري إلى مجتمع أوروبي دون ملاحظة للاختلافـات العميقـة، وأنها لن تسـتطع أن تحقق التسوية السلمية مع الإسلام الذي كان وحده يمكن أن يحول دون ظهـور انقلاب 52؛ فالبورجوازية ذكية، ولكن الذي يقودها كان رأس المال ورأس المال جبان فخسر المعركة!!

الناصرية تعهير لا تنوير:

حتى لا يهولن أحدًا هذا العنوان، نقول إن الفـروض الـتي أقمنا عليها هـذا الحكم هي:

1. إن الحقيقة تظل هي الحقيقــة، رغم كل القــوى الــتي تريد طمســها أو تزييفهــا، فمهما ألقى أسـاتذة الجامعـات من محاضـرات، ومهما وضع كتـاب أو مفكـرون المجلدات في مدح (ثورة 23 يوليو أم الثـورات!) فـإن هـذا لن يغـير من الحقيقة شــيئًا، ولن يجعل مما حــدث في ليل 23 يوليــو، ثــورة فضلا عن أن تكــون أم الثورات!

ولا يستطيع شعب مصر بأسره، لو احتشد جميعًا وأقسم أن الشمس تشرق من المغرب، أن يغير حقيقة أن الشمس تشرق من المشرق وليس من المغرب!

الحقائق هي الحقـائق، لا تغيرها آراء الرجـال ولا تصـرفات الجمـاهير لأن مجـال التغرير والخـداع والـترهيب والـترغيب، والتعـذيب والتكـييف مفتـوح، ويسع الأسـاتذة

والجماهير معًا، وقد عاشت الجماهير مضللة أكثر مما عاشت مهدية، وعبدت آلهة زائفة أكثر مما عبدت الله الحق، وكانت الجامعات في أوروبا طوال القرون الوسطى، وحتى مشارف العصر الحديث معاقل للكهنوت ورفضت – لحقبة طويلة – فكرة أن الأرض كروية!!

إن حماقة البشرية لا حد لها، وقد وسع التاريخ من المفارقات والمساخر ما يثير الشك في حكمتها قادة وجماهير.. فقد رأى الإمبراطور الروماني ماركس أورليوس أن واجبه المقدس هو محاربة المسيحية دون هوادة، رغم أنه كان يعد من الفلاسفة الرواقيين وله كتاب عن "التأملات".. وأمضى الخليفة المأمون وقته في جدل مذهبي سخيف أباح لنفسه في سبيله جلد الأئمة.. وجعلت جماهير روما متعتها في مشاهدة "المجالدين" وهم يقتلون بعضهم بعضًا، أو متابعة الوحوش وهي تلتهم المسيحيين العزل.. وتقبل الشيوعيون التضحية بخمسة أو ستة ملايين فلاح تركوا ليموتوا جوعًا بعد أن انتزعت منهم حبوبهم بدعوى أنهم "كولاك" ودارت الأيام لتشهد الجماهير الزعماء الذين حكموا هذه الفترة وهم يعترفون على أنفسهم في محاكمات 1930 – 1933 المشهورة أنهم خونة، وهم رفاق لينين وأبطال الدولية.. واعتبروا تروتسكي الرجل الثاني في الثورة البلشفية خائنًا وعميلا دوليًا.

ورفع الشعب الإيطالي موسوليني إلى أعلى الدرجات.. ثم علقه منكوسًا من قدميه هو وعشيقته، وكان يمكن لهتلر – الذي عبده الشعب الألماني حينًا من الدهر – أن يلقى المصير نفسه لو لم يسارع بالانتحار هو وعشيقته أيضًا.

أي مصداقية يمكن أن تعطى للجماهير المضللة وقد رأينا في العراق ما يفوق الخيال.. رأينا ديكتاتورًا سفاحًا يسوق أمته إلى حرب ضارية مع جارته إيران، ويستنزف لثماني سنوات طوال مواردها وموارد العرب الذين وقفوا بجانبه، ثم لا يكاد ينجو بجلده حتى يهاجم جارته الصغيرة الكويت، بزعم أنها المحافظة التاسعة عشرة للعراق! وتسبب بذلك في تأليب العالم عليه.. ويتنازل عن كل مطالبه المزعومة من إيران التي من أجلها تورط في حرب الثماني سنوات، ليجابه أقسى هزيمة ومهانة يتعرض لها حاكم، ثم لا تنقصه البجاحة والصفاقة ليدعي أنه انتصر في "أم المعارك" وأم المعارك كالقادسية من قبل من نسج جنونه.. ورغم الإذلال الذي يتجرع غصصه وخضوعه المهين للتفتيش، وما يتعرض له هو وشعبه من عقوبات.. فإنه بعد كل هذا يدعي الانتصار، ولا يزال متشبثًا في منصبه يجد من يصفق له ويحتفل بعيد ميلاده بدلا من أن يقطع إربًا...

وأي مصداقية للجماهير وزميل هذا السفاح – لا يزال يحكم في سوريا – وهو الذي هدم حماة على أهلها لأنهم إخوان مسلمون!

وأي مصداقية للجماهير وقد كان في تونس معتوه تقام له التماثيل وتعقد له الاحتفالات حتى أخذوه إلى بيت المجانين!

فإن مصداقية يمكن أن تعطي لمائة ألف، أو حتى مليون مصري، وبضعة من الكتاب والمؤلفين والصحفيين خضعوا للتزييف والأكاذيب وغسيل المخ سنوات طوال، فضلا عن المؤثرات "الدراماتيكية" الأخرى التي صاحبت تمثيلية اعتزال (أو تنحي) عبد الناصر، ثم وفاته أو الضرورات التي جعلت البعض يتصور أن عليه أن يصلح ما أفسده...

لا تحدثونا عن مظاهرات 9و 10 يونيو والجماهير التي كانت تجهش بالبكاء فهذه النغمة الدعائية الممجوجة لم تعد صالحة حتى بالنسبة للجماهير.. فضلا عن المفكرين، وقد آن لكم أن تقلعوا عنها.

إن هذه المظاهرات نفسها هي أكبر دليل على إدانة العهد.. وأن تزييفه وتضليله وصل إلى درجة قلب المعايير بحيث يصفق للمهزوم ويكافئ العقيم ويشعر الشعب أنه عاجز كالطفل، ما لم يقف بجانبه عبد الناصر العظيم! فأي مهانة للشعب مثل هذه؟.. إن شيئًا أقل من هذا جعل المتنبي يقول:

فما كان ذلك مدحًا له ولكنه كان ذم الورى!

إن ما حدث ليلة 9 و 10 يونيو، وغداة موت عبد الناصر لا يعد مدحًا له ولكنه كان كبوة من شعب مصر في لحظة من لحظات الضعف، أو انزلاقة بتأثير التزييف ولا يسيء هذا شعب مصر، لأن له من التاريخ المجيد الطويل ما لا تؤثر فيه مثل هذه الهفوة!

***

إن ما يميز التعهير عن الكذب أو الزيف أن التعهير يزيد على الكذب والزيف بالتعمد وباصطناع كل الوسائل (عادة بالإغراء) للإيقاع بالضحية. فالعاهرة تتزين وتتجمل، وتعمد إلى صنوف من الزي وتلجأ إلى نمط من الحركات والسكنات وتعد الوعود وتقدم معسول القول، لتستطيع إيقاع ضحيتها وهذا هو الفرق بينها وبين الكاذبة أو المزيفة.

وقد كان الشيوعيون هم أول من شن سياسة التعهير عندما ادعوا لأنفسهم شعارات الديمقراطية والحرية. وأكدوا ألف مرة، وبكل صور التزييف والادعاء أن الديمقراطية الحقيقة هي دستور 1936 الذي وضعه ستالين أو أن الحرية الحقيقية هي ما يتمتع به المواطن في الدول الشيوعية حيث تحكم "البلوريتاريا"!!

وبالنسبة لتعهير الناصرية، فإنه بدأ عندما أراد عبد الناصر أن يكتسب شعبية رغم سوءاته ومؤامراته فدله الشيوعيون على الطريق، وبدأ هذا عمليًا عند وضع الميثاق، فهذا الميثاق وثيقة اجتماعية سياسية مكتوبة بأسلوب فني رفيع ومؤثر، وهو يتحدث عن الشعب المعلم، والقائد.. إلخ. ويتحدث عن النقابات باعتبارها شريكة للإدارة.. وعن الهيئات الشعبية ودورها في أن تراقب وتقود الهيئات التنفيذية والمركزية، وهو يتحدث عن الحرية كعاشق لها، وعن الانتخابات التي يجب أن تعبر عن إرادة الشعب من القاعدة إلى القمة.. فالميثاق من ناحية الشكل والموضوع يظهر "ملكة جمال" وما يجعل هذه الملكة عاهرة هو أن كل هذا التجمل، والتزين، والأسلوب والمضمون، إنما يراد به إيقاع الضحايا وخداع الأبرياء.



صورة من تعهير الفن لخدمة الدعاية السياسية وهناك العشرات من أمثال هـذه الصـورة. وعنـدما زار الملك فيصل نيويـورك واسـتقبله الصـهيونيون بها شر اسـتقبال عرضت روز اليوسف وصباح الخير عديدًا من الصـور الكاريكاتورية تصـوره في أوضـاع شائنة..

ودارت الأيـام، وذهب عبد الناصر إلى الخرطـوم في آثـار هزيمة 67 فاسـتقبله فيصل استقبال المسلم الذي يسمو فوق الصغائر والأهواء...

إن التطـبيق الفعلي للميثـاق هو ما يصم هـذه الوثيقة بـالعهر، لأنه معـروف، وما لا نجد أنفسـنا في حاجة للتـدليل عليـه، فلم يُـذَلّ الشـعب يومًا وتقهر إرادته كما حدث أيام عبد الناصر، ولم تكن النقابات والهيئات الشعبية ذيلا، دون حول أو طول أو إرادة كما كانت أيام عبد الناصـر، ولم تزيف الانتخابات بصورة صارخة كما زيفت لكل تصل إلى 99.9%!!.

وعندما يذيع المذيع – غداة حـرب 1967 – أننا أسـقطنا 50 طـائرة فإنه يكـون كاذبًا.. أما أن يصـيح بهـذا الخـبر بحماسة طاغية ونـبرات عاليـة، لمجـرد أن الأوامر قد صدرت إليه بعمل "فرقعة" فهذا نوع من العهر الإخباري!

وقل مثل ذلك عن الشعارات التي لا يراد بها أبـدًا حقيقة (من الخليج الثـائر إلى المحيط الهـادر)! "ارفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاسـتعباد" ".. الشـعب المعلم.. الشعب القائد!!".

لن نناقش الإنجازات التي لا يمل الناصـريون من تكرارهـا، مثل إشـراك العمـال بخمسين في المائة في المجـالس، وتـأميم قنـاة السـويس، ومجانية التعليم، والقضـاء على الإقطاع، والسد العالي.. وسنسلم – جدلا فحسب – ومن باب توفـير الصـداع أنها إنجـازات.. فلا أحد ينكر أن المنـاخ الوبيـل، منـاخ المركزيـة، والسـلطة، والمحسـوبية، وأهل الثقــة، وإعطــاء القــانون إجــازة، والبيروقراطيــة.. كلها تـآمرت على تطــبيق الإنجـازات المزعومــة.. بحيث طبقت تطبيقًا سـيئًا ذهب بقيمتهـا.. وكل واحد يعلم أن نسبة الـ 50% جاءت إلى المجلس بمجموعة للتصفيق والهتـاف وإقـرار كل ما تعرضه الحكومة.. ومن ذا تحدث من هؤلاء العمـال والفلاحين خلال المـدة كلها (من 1963 – 1993) أما مجانية التعليم فقد تمت على حســـاب الكيف فهبطت بمســـتوى التعليم هبوطًا شــنيعًا جعل الحاجة إلى الــدروس الخصوصــية أمــرًا لا مفر منــه، ومصــاريف الدروس الخصوصية أكبر من المصاريف الدراسية القديمة.. وقد كـان في نظم التعليم القديمة قواعد تسمح للنـابهين من الفقـراء بـدخول الدراسة الجامعية مجانًـا، بل وأخذ مرتبات، وبفضل هـذه النظم دخل عبد الناصر وأنـور السـادات- وهما من أفقر شـرائح المجتمع المصري – الكلية الحربية وهي أرفع الكليات!

أما تــأميم قنــاة الســويس، وهو مطلب طــالبت به مصر الفتــاة، والإخــوان المسلمون، والشيوعيون، فقد أعلن وطبق بأسوأ طريقة استتبعت عدوان 1956 الذي بدأت به إسرائيل الزحف، ونالت "إيلات" وفتحت قنـاة السـويس، ولـولا تـدخل أمريكا وإنــــذار المارشـــــال يولجـــــانين لنفــــذت إســــرائيل في 56 ما نفذته بعد أحد عشر عاما (1967).. على أن نجاة عبد الناصر في 1956 كـانت من أسباب سقوطه في 1967، لأنه ظن في 1967 أنه سينجو كما نجا في 1956 فخـاب ظنه...

أما القضـاء على الإقطـاع فقد طـالب به النـائب إبـراهيم شـكري في مجلس النـواب والشـيخ محمد خطـاب في مجلس الشـيوخ.. وطبقته الناصـرية بأسـلوب " يا عزيزي.. كلنا لصوص"!

أما تمصير الاقتصاد فلم يكن من الكياسة في شيء نقله من أجانب مهـرة.. إلى ضباط جهلة لا يعرفون شيئًا عن إدارة المؤسسات الصناعية، فحدث التسـيب والتهليب والفوضى!

إن أفضل ما طبق خلال الحقبة الناصـرية هو السد العـالي.. وقد جـاءت الفكـرة أساسًا من أحد الأجانب المقيمين في مصر.. وكان بطله الحقيقي هو العامل المصري. ومع هذا، فلم يخل السد العالي من مآخذ!

حـتى لو فرضـنا – جـدلا أيضًـا ولتوفـير الصـداع – أن هـذه الأعمـال: المشـروع الحضاري الناصري، كانت إنجازًا وأنها طبقت تطبيقًا سليمًا فما قيمتها أمـام الموبقـات التي جاءت بها الناصرية.

ما قيمة أن تجعل لي شقة وأرضًا وأن تدخلني مدرسة.. إلخ، مقابل أن تصفعني ليل نهار، وتحرمني من حرية العمل وحرية الفكر.

هنـاك شـيء اسـمه الكرامـة، والكرامة هي أول شـيء، وهي أهم من الغـذاء والكساء.

وقد أُهـدرت كرامة الشـعب وقُهـرت إرادتـه، كما لم تهـدر أو تقهر في أسـوأ العصور ولا تزال نعيش في آثار القهر الناصري...

إن موبقات العهد الناصري التي تعصف بكل "إنجازاته" المزعومة:

أولا: الحكم الديكتاتوري الـذي لم يكن معروفًا في تـاريخ مصر الحديث..

نعم إن محمد علي كان ديكتاتورًا ولكنه شغل ببنـاء الدولة عن التنكيل بخصـومه وكان العنصر الموضـوعي فيه أكـبر من العنصر الـذاتي.. وأعقبه حكـام لم يسـتطع أي واحد منهم أن ينفرد بالحكم، ثم جـاءت المرحلة الليبرالية فأشـاعت الحرية السياسـية والمسئولية الوزاريـة، والمعارضة وحرية الصـحافة وتكـوين الأحـزاب والنقابـات.. إلخ. حـتى جـاء عبد الناصر فقضى على دسـتور 1923 وأحل محله عـدة دسـاتير كلها مثل دستور 1956 الـذي كـان يمنحه سـلطة مطلقـة، وحـتى هـذا، فإنه إنما وضع من بـاب الـديكور فحسـب.. فكما قـال السـادات إن الدسـتور لم يوضع لجمـال عبد الناصر أو السادات.. ولكن لزيد وعبيد ممن سيأتي بعدهما!

والحكم الديكتاتوري معناه حل الأحزاب والرقابة على الصحافة، أو حـتى تأميمها – كما يقولـون – والقضـاء على المعارضـة، وضـرب أي رأس يرتفـع، وقطع أي لسـان يتكلم، وسيطرة الحاكم الواحد حتى يموت...

ثانيًا: الإرهاب والاعتقال والتعذيب:

لم يكن ممكنًا أن يحكم عبد الناصر حكمه المطلق إلا بعد أن يقذف الـرعب في نفـوس الشـعب ويجعل الخـوف يلجم الألسـنة ويشل الأرجـل، ويجعل النـاس يلـوذون ببيوتهم.. وقد حدث في الشهر التالي للانقلاب بعقد محكمة كمحكمة دنشـواي للعمـال في كفر الدوار، وشنق اثنين من القيادات العمالية، ثم فتحت أبـواب المعتقلات وأدخل نوع جديد من الإرهاب الخسيس الذي لا يقنع باعتقال المعتقل، ولكن بتعذيبه.

وقد شمل التعذيب الجميع بلا استثناء.. رجالا ونساء وأطفالا.. قرويين ومـدنيين. عمـالا وفلاحين.. ضـباطًا ومهنـيين.. شـيوعيين وإخـوان مسـلمين.. وكـان من تقاليد الاعتقال الناصري أن يمر كل معتقل كائنًا ما كان بـ "حفلـة" اسـتقبال ينهـال عليه فيها

الصفع والركل والضرب بالسياط من باب المعتقل حتى باب الزنزانـة.. ولم يـوقر أحد أو يحـترم أحد لسـنه أو مقامـه، وعلى رأسـهم رئيس الجمهورية نفسه (محمد نجيب) البطل الحقيقي للحركة، إذ ضرب وقذف به إلى مكان مهجور تملؤه الفئران!

أما الشـيوعيون فقد مـات شـهدي عطية بسـبب الضـرب، وأصـيب محمـود العسكري – النقابي اليساري البارز بدوالي عفنة في القدمين نتيجة ضـربة المتـوالي.. وطورد لويس عوض بالخيل، وضرب بالسياط وأخذوا يقطعون ظهر إسـماعيل صـبري عبد الله بالسـياط لإجبـاره على أن يقـول: (أنا امـرأة) وأصـيب ثلاثة من قـادة حـدتو بالجنون بعد سجنهم انفراديًا مددًا طويلة أواخر عام 53 وقد شفي أحـدهم (كمـال عبد الحليم) بعد أن عولج بالصدمات الكهربائية، ولم يشف الاثنان (مصطفى كمال صـدقي وعبد الرحيم صدقي) حتى ماتا، وانهالوا بالصفع والركل على عبد القادر عودة.

أما القاضي الجليل حسن الهضيبي فأوقفوه موقف المايسترو الذي يضبط إيقاع فريق يغني "يا جمال يا مثال الوطنية".. أما الشيخ الأودن الـذي جـاوز السـبعين وكـان محل ثقة بعض الضباط وأدلوا إليه بتاريخ القيام بحركتهم.. وظل الرجل سـاهرًا يصـلي ويدعو لهم.. فقد ملئوا زنزانته بـالكلاب الـتي تنبح في وجهه وتبـول عليه لأنه لا يحتمل التعذيب!

ولم تنج الفنانـات والممثلات والراقصـات.. فقد زج بهن في مـاخور صـلاح نصر وتعرضن لصور شائنة من انحرافاته!

ولم ينج الصحفيون من الاعتقال والتعذيب.. فاعتقل إحسان عبد القـدوس الـذي مهد للانقلاب بإثارته قضية الذخيرة الفاسدة، واعتقـل... وعـذب مصـطفى أمين الـذي صـنع الطاغية بيـده وقلمـه... واقتلع فكـري أباظة من رئاسة تحرير المصـور... وكـان هناك شخص واحد يستطيع أن يتكلم بصراحة لأنه صوت سيده!

وحتى لا نتهم بالمبالغـة، فإننا نعـرض هنا سـطورًا قليلة من المجلـدات السـوداء للتعذيب والإرهاب في عهد عبد الناصر...

(1) قالت محكمة جنوب القاهرة في قضية تعذيب أهـالي كمشـيش في حكمها – كما نشرته الأهرام: أن وقائع التعذيب والعذاب اللذين تعـرض لهما المجـني عليهم لم يحدث مثله في شريعة الغـاب وتمت في أسـوأ فـترة مـرت بها البلاد حيث ذبحت خلالها الحريات ووطئت أجساد الناس فيها بالنعال، وهتكت الأعراض بقصد إجبـار الضحايا على طاعة أوامر رجال السلطة!

(2) قال فؤاد سراج الدين: المنظر الذي رأيته في السجن الحربي عندما اعتقلت عام 1965 لن أنساه أبدًا.. لقد رأيت على امتـداد جـدران السـجن أثنـاء خـروجي من الزنزانة أو العودة إليها، رأيت رجالا يجلسون على "قرافيصهم" ووجوههم للحائط وخلف كل ثلاثة أو أربعة يقف عسكري بالكربـاج لضـرب أي واحد يتحـرك... هـذا المنظر كان يبدأ من الثامنة صباحًا حتى السادسة مساء، وكانوا كلهم من الإخوان المسـلمين ثم نـرى في السـجن مسـئولين اعتقلـوا ذاهـبين أو عائـدين من غرفة التحقيق أو غـرف التعـذيب لا يسـير واحد منهم على قدميـه، فهو إما يزحف على الأرض أو محمـولا أو ظهـره مكسـور أو ذراعه أو رجله مكسـورة.. ولا أحد منهم سليم.. وعنـدما يخيم الظلام ترتفع أصـوات الاسـتغاثات في جميع أرجـاء السـجن من هول عمليات التعذيب.. وكـانت عمليـات فظيعة تسـتمر حـتى الفجـر.. أنا لم أتحدث عما فعلوه معي، لقد ضربت بالكرباج ولا أحد من أسرتي أو معارفي يعلم ذلك حـتى الآن.. كيف أنسـاها عنـدما أقـرأ حيثيـات حكم محكمة أمن الدولة في قضية كمشيش.. كيف أنسـاها عنـدما يـأتون بكلاب بوليسـية مدربة يـدفعونها إلى هتك أعراض الرجال!!

هــذه كلها إســاءات في حق الإنســان المصــري، وحق مصر كلها لا يمكن أن تنسى... نعم، أنسى ضـربي بالكربـاج من عسـكري كـان يقف بفنـاء السـجن الحـربي وظيفته ضـرب كل واحد يمر أمامه وبـدون سـبب.. نعم أنسى سـبي وسب أبي وأمي وعائلتي.. والله نسيت كل هذا ولكن الإساءة لبلدي ولمواطني إلى هذا الحد فأنا أحتاج إلى قوة من عند الله حتى أستطيع أن أنساها!!

(3) وعن تعذيب الكاتب الكبير مصطفى أمين:

فقد أجلســـوه على مقعد دائـــري في وسط الزنزانة بعد أن خلعـــوا عنه جميع ملابسه حـتى أصـبح عاريًا تمامًـا، وسـلطت عليه الأنـوار الكاشـفة القويـة، ومنع عنه الطعام والشراب حتى اضطر إلى شرب ماء الاستنجاء وشـرب بولـه، ثم شـدوا شـعر جسده، وهو مقيد اليدين والقدمين للحائط ثم سـلط عليه التيـار الكهربـائي بينما كـان ينهال عليه السباب وبأقذع الألفاظ.

(4) الشيخ يوسف القرضاوي من قصيدة طويلة:

نار القريض بخاطـري فدعوني — أفضي لكم بفجائعي وشـجوني
قل للعواذل إن رميتم مصــرنا — بتخلف التصنيع والتعديـــن
مصـر الحديثة قد علت وتقدمت — في صنعة التعـذيب والتقرين
وتفننت كي لا يمل معـــــذب — في العرض والإخراج والتلوين
أسمعت بالإنسان ينفخ بطنـه[23] — حتى يرى في هيئة البالــون
أسمعت بالإنسان يضغط رأسـه — الطوق حتى ينتهي بجنــون
أن كنت لم تسمع فسل عما جرى — مثلي، ولا ينبئك مثل خبيـــر

فليضف الناصريون هذه الصور من التقدم والتفنن إلى الإنجازات الناصرية.. وإذا نسوها، فلن ننساها!

فالدَّين لا يبلى.. والديان لا يموت...

(5) قال أحد المعتقلين في مذكرة تقدم بها إلى السجن الحربي:

شاهدت عددًا من المعتقلين في السجن الحـربي يفقـدون أبصـارهم وأطـرافهم من التعذيب.. ورأيت النساء يجلـدن بالسـياط وكـذلك الأطفـال، دون السـابعة، ورأيت الآباء يضربون أبناءهم، والأبنـاء يجلـدون آبـاءهم أمـام سـمع ونظر السـادة المحققين، وبأمرهم، بحثًا عن أشياء لا يعرفونها! ورأيت أكثر من ذلك يا حضرات المستشــارين ما أتعفف عن ذكره![24].

(6) شهادة الأستاذ الدكتور حسين مؤنس:

كان الدكتور حسين مـؤنس يكتب في مجلة أكتـوبر سلسـلة من المقـالات تحت عنوان "باشوات وسوبر باشوات" وقد ضمها فيما بعد في كتـاب بالاسم نفسه وضـمنه وثائق تاريخ الحقبة الناصرية.. والشهادة الـتي سنعرضـها فيما يلي هي المقالة الحادية عشرة التي نشرت في مجلة أكتوبر (العدد 348 – 26 يونيو 1983) وقدم لها بالآتي:

---

23 (?) **مما يـدل على أن هـذا النـوع من التعـذيب "النفخ" مما لم ينسه المجتمع المصـري بين إنجازات الناصرية، ولم تنفرد به كتابات الإخوان المسلمين أن الرسام الكاريكاتيري البارع الأستاذ مصطفى حسين عندما أراد أن يسخر من سياسة وزارة الاقتصاد نشر في الأخبـار (11/1/1987) رسمًا يصور "إدارة المخابرات على المصـدرين – قسم الاعترافـات" تضـمن كلبًا شرسًا مربوطًا في سلسلة وكرابيج معلقة ومنفاخًا على كرسي!**

24 (?) **هـذه الوقـائع – وهي قطـرة من بحر جـرائم التعـذيب – نقلناها من كتابنا "الإسـلام هو الحل" الفصل الثاني عشر، ص 221 – 274.**

صديق كريم يسـألني: قل لي يا أخي: أنت مع عبد الناصر أم عليـه؟ أنت مع السادات أم عليه؟ وأجيبه: أنا أوفر عليك العناء وأقول: إنني أيها العزيز مع شيئين لا ثالث لهما: أنا مع الحق أولا، ومع وطـني مصر ثانيًـا. فأنا مع كل من مع الحـق، ومع كل من مع مصـر، وهنا لا يكـون الأمر أمر أسـماء أعلام، بل مبـادئ، لأن مصر شـيء، وعبد الناصر شـيء آخـر، والسادات شيء ثـالث، فـإذا كـان عبد الناصر مع مصر فهو يصـبح مصـرًا وأكون معه، ونكون كلنا مع الحق، وكذلك الأمر بالنسـبة للسـادات. ونحن بعد تجارب السنين ومرارتها لابد أن نكـون قد فهمنا أنه ليس لنا إلا هـذا الوطن، فإذا نحن خدمناه بصدق وإخلاص نجا ونجونا، وأفلح وأفلحنـا. ولا يتصورن إنسان أنه يفلح وحده إذا خسرت مصر، لأننا وبلدنا شـيء واحـد، وكلنا ينبغي أن نخـدم وطننـا، وينبغي أن نفهم أننا عنـدما نكـون خـدمًا لمصر فإن مصر تعز بنا، ونحن نعز معها، فمن مصر نأخذ عزتنا وأقـدارنا، وإذا تصـور إنسـان أن مصر ينبغي أن تخدمـه، أو أنه سـيدها، أو أنه صاحبها، وله الحق في أن يسـتخدمها كما يريـد، فهو يـذل نفسه دون أن يـدري. ومصر هي الأرض والنـاس، وهي أرض مصر ونـاس مصـر، وعبد الناصر أذل أهل مصـر، وامتهن حقـوقهم وكرامـاتهم، ورفع قـدر نفسه وهو يحسب أنه بذلك يرفع من قدر مصر، وعبد الناصر ضيع جـزءًا عزيـزًا من أرض مصـر، وأذل هـذا الجـزء من أرض مصر لأذل خلق الله بنص القرآن الكريم، ومحصلة ذلك كله كانت في مـؤتمر الخرطـوم بعد هزيمة 1967 عندما جلس عبد الناصر مسكينًا مفلسًا حطيمًا يعتذر – بغير كلام – لمن أراد أن يقضي عليهم بمغامرته في اليمن، لأنه أصبح الآن في حاجة إلى أموالهم وعطفهم وصفحهم، والناس أعطوه وصفحوا عنه، لأنه كان بالفعل قد مات وما بقي من عمره – بما في ذلك بيان 30 سبتمبر – كان إجراءات تشييع الجنازة...

وأنا أقـرأ أخبـار العصر الناصـري، وأقف عند بانـدونج في أبريل 1955، وأشـعر بـالفخر إذ أرى بطلنا المصـري جمـال عبد الناصر يتـألق كواحد من قـادة الـدنيا في مـؤتمر عـدم الانحيـاز، وأعجب به وبحسن تصرفه وشخصـيته الـتي جـذبت الـدنيا إذ ذاك، وأقـرأ عن زيـارة السـفير الروسي شـبيلوف لعبد الناصر في يوليو 1955 وعرضه تقـديم أسـلحة للجيش المصري، ثم عقد صفقة الأسلحة التشيكية مع مصر في سـبتمبر 1955 فـأعرف لعبد الناصر فضـله، وأعجب ببسـالته، فقد كـان لتلك الصـفقة أثر معنـوي عميق في نفـوس المصـريين والعـرب وأهل العـالم الثالث، وأنا هنا أشعر بالزهو، لأن مصـريًا حـرر الإرادة المصـرية أولا، ثم خطا فأصبح واحدًا من أكابر زعماء الـدنيا، ثم خطا خطـوة أخـرى فأصـبح أكبر زعيم سياسي في الدنيا خـارج أوروبا والولايـات المتحـدة وروسـيا، ولكنـني عنـدما أطـوي الصـفحة وأنظر إلى أحـوال المصـريين في ذلك الـوقت فـإنني أرى أن الثمن الـذي دفعـوه لكي يرتفع اسم واحد منهم يجعل الصفقة خاسرة مهما كانت قيمتها المظهرية، غير معقول أن يذل كل المصريين لكي يعز واحد منهم فحسـب، وما كـان يجـري في مصر إذ ذاك كان أسوأ من أن يصدق.

والمصـري الـذي عـرف ألوانًا من الظلم والحرمـان في العصـور الماضـية – أيـام المماليك والأتـراك مثلا – وعـرف خيبة الأمل والحـيرة والشك بل اليأس في أيـام الإنجلـيز والملك والباشـوات، بـدأ يعـرف لونًا

أسود من الظلم في أيام عبد الناصر: ظلم الخوف والإرهاب والسجن الطويل والتشريد والفصل من الوظيفة والحسرة لجوع الأولاد، وإقفال الناس الأبواب في وجه المغضوب عليه، وذلة الحاجة إلى القرش بل إلى الرغيف.

وإذا كان المملوك يسرق لأنه حقير، والتركي يجلد لأنه غبي، والباشا لا يكترث لأنه كان مشغولا بجمع مال يجعله ضمن الأثرياء، فإن عبد الناصر كان يذل الناس ويعذبهم ويمتهن كراماتهم لأنه كان يحس أن مصر لا تتسع لإنسان آخر عزيز النفس مرفوع الرأس إلى جانبه. كأنما كان يرى أن تحرير الإرادة المصرية.. معناه ألا يبقى على وجهها إلا رجل واحد له إرادة حرة هو عبد الناصر نفسه، وأي مصري آخر يفكر في أنه له كرامة وعزة إلى جانب العزيز الأوحد إنسان منحرف، ينبغي أن يقوم، ومتمرد لابد أن يحطم، وخطر لابد من القضاء عليه.

وأذكر هنا حكاية قصها علي مملوك السلطان الذي جاءنا سفيرًا في مدريد، قال([25]) :

- كل غسيلهم القذر قمت بغسيله، ثم "ينفوني" بعد ذلك إلى آخر الدنيا كما ترى! هل تتصور يا فلان أن أحمد أبا الفتح كان صديقًا لنا وحليفًا للثورة قبل أن تقوم وبعد أن تمت، وكنا نجتمع عنده لنتدارس ونتشاور ونتسامر، وتعشينا عنده ليلة، وأسبغ الرجل علينا من فضله، وسهرنا وتسامرنا، وفي مساء اليوم التالي يناديني عبد الناصر ويقول:

- تذهب الآن إلى بيت أحمد أبي الفتح وتقبض عليه وتحبسه..

وأدهش للأمر وأنكره، وأنظر إلى عبد الناصر وأقول:

أمرك يا سيادة الرئيس، ولكن هذا الرجل صديقنا ومنا وعلينا، وأمس فقط كنا عنده على أحسن حال من الود والصفاء، فإذا كان قد بلغك عنه شيء فدعني أستوثق منه فأنا عليم ببواطن الأمور، ولكن لعل شيئًا قد خفي عليّ. وينظر إليّ عبد الناصر والشرر في عينيه ويقول في ازدراء:

أنت عليم ببواطن الأمور؟ أنت نائم على آذانك، والمؤامرة تحاك من حولي.. أمض لما آمرك به، وأرجوك ألا تناقشني فيما آمرك به بعد الآن، ومادمت تتصدى للدفاع عن أعدائي فسأريك عاقبة تصديك.. عليك أن تأمر قائد السجن بأن يشدد عليه ويعذبه، ومن الليلة لا ينام إلا على البرش، وليكن في علمك أنني لن أتردد في أن أدوس على ابني نفسه بقدمي لو أراد أن يزحزحني عن الأرض التي أقف عليها!

وكان لابد أن أصدع بما أمر، فأخذت رجالي وياوري وذهبنا لتنفيذ هذه المهمة، وحتى لا أجد في نفسي حرجًا من القبض على صديق أكلنا معه إلى الأمس خبزًا وملحًا ظللت في سيارتي، وأمرت ياوري والعساكر بأن يصعدوا إلى البيت ويأخذوا الرجل. وقام الياور والعساكر بالمهمة، وأتوا بالرجل، فوضعناه في "البوكس" دون أن أراه، وبعد أن أسلمناه للسجن وأبلغنا قائده تعليمات الرئيس قال لي الياور ونحن في طريق العودة:

- والفيلا.. ماذا ستصنع بها؟

---

[25] (?) وهو الضابط أحمد أنور الذي كان قائد السجن الحربي في السنوات الأولى للانقلاب.

- **أي فيلا؟**
- **فيلا الرجل الذي أمسكناه الآن. إنها شيء فاخر لا يليق إلا بك..**
- **فنهرته وقلت له إنني لا أمد يدي على مال صديق، ويكفي ما أصابه على يدنا.. فيقول الياور:**
- **إذن بعد إذنك.. آخذها أنا.**
- **تأخذها أنت.. أما أعطيناك الشقة التي اخترتها أنت بنفسك في جاردن سيتي؟**
- **هذه أعطيها لأختي، وآخذ أنا الفيلا، ففيها حديقة ترد الروح، والأولاد في حاجة إلى حديقة.**

وبعد أيام أكون مع عبد الناصر فيقول لي:

- **منذ متى أنت وفلان حبايب؟!**

فحكيت له الحكاية فقال بعد تفكير.

- **عندما أقول لك إن فلانًا عدو لي وخطر علينا، فمعنى ذلك أنني متأكد مما أقول، وهؤلاء الناس كلهم يستحقون الحرق، وليحمدوا الله على أننا نكتفي بوضعهم في السجن.**
- **ولكن يا سيدي الريس ما الذي بلغك عن هذا الرجل؟.**
- **وهل تظن يا سي فلان أنني ليس عندي غيرك؟ وهل تغيب عني حركة تصدر عنك، أو من غيرك في هذا البلد؟!. افتح عينيك يا فلان واعلم أن ألف خيط ترتبط بكل أصبع من أصابعي هذه، وأنا أقول لك هذا الكلام لأنك صديق وأنا أحبك.. أما غيرك فأنني أشد الخيط على رقبته حتى أختنقه.**

ويسكت قليلا ثم يعود فيقول: إن صدري ينفجر يا فلان، وأريد أن أتحدث إلى رجل يفهمني. إنهم يأخذون العيال ويعملون منهم وزراء، وفلان ياورى الذي حدثتك عنه أصبح الآن من أقرب الناس إلى أذن الريس، ولولا أنه يعلم أنني عظمة زرقاء لأكلني، وعندما طال بي العهد في العمل البغيض الذي ارتبط باسمي أعفاني منه، وعينني وزيرًا في الحكومة الاتحادية مع اليمن، وكانت وزارة تكسف، وشكوت للمشير، والمشير أشار بإبعادي، وهذا الكلام أقوله لك لتعلم أنني مشكلة لعبد الناصر، فأنا أكبر منه وأقدم، وقمت له بخدمات ما كان أحد يستطيع القيام بها غيري، ومن كانوا يجدونه يستطيع أن يقوم بصفع نقيب العمال على وجهه وكسر أنفه وسط الناس في المطار إلا أنا؟ لقد كان لابد أن نفعل ذلك، وكان لابد من تحطيم رأس هذا الرجل الذي طغى وظن نفسه بني آدم له كلمة وقيمة، فما وجدوا والله لها غيري، ثم ماذا كانت مكافأتي؟ وزير في وزارة لا يحس بها أحد، وفلان وهو عيل بالنسبة لي يمسك بأعظم مشروع زراعي في البلد، ويضعون تحت يده الملايين، وهو لا يفرق بين كوز الذرة وعود البرسيم، فها هو ذا اليوم ملك زمانه، وعنده ملايين لا يعلم بأمرها إلا الله، وتحت يده موظفون بمرتبات وزراء وألف سيارة مربوطة على بابه كأنه ملك [26]!

---

26 (?) رد الأستاذ جمال حماد على الدكتور حسين مؤنس في العدد نفسه تحت عنوان "بل ثورة يوليو خالدة.."ردًا ركيكًا يقول فيه إن الدكتور مؤنس يلقي الكلام على عواهنه، ولا يثبتها بدليل – وكأن هذه الدعاوى التي يعلمها القاصي والداني في حاجة إلى دليل. ثم يلوذ بالحجة الفارغة التي يبرر بها الأخطاء حجة "إن لكل ثورة أخطاء وإن لثورة يوليو أخطاءها والمؤرخ المنصف هو الذي يسجل الإيجابيات والسلبيات، وأن الأنماط التي أبرزها لنا الدكتور مؤنس ليست سوى نماذج لقلة من المنحرفين استغلوا ثقة الثورة بهم كما هو الحال في جميع العهود وفي كل الثورات، وأود أن أؤكد في هذا المقام أن معظم

وقد قــال بعض أتبــاع الناصــرية أن التعــذيب قد وجد من قبل واســتعاد بعضــهم ذكرى "العسكري الأسود" وليس هناك ما أكثر زيفًا من هذه الدعوى. فلم تعـرف مصر "الليبراليــة" التعــذيب الناصــري أبــدًا، وكــان المتهم بــالعيب في الــذات الملكية يمضي بضعة شهور في "سـجن الأجـانب" تخصص له غرفة صـغيرة بها سـرير ودولاب كما لو كان في فندق، ويتولى السجن تنظيفهــا، ويـرتب له طعـام خـاص وتأتيه الصـحف. ولم نسمع بتعذيب في جرائم سياسـية إلا في عهد "السـعديين" الأشـقياء عنـدما احتـدمت العــداوة بينهم وبين الإخــوان في أعقــاب حل الإخــوان المســلمين في ديســمبر ســنة 1948 وكــان التعــذيب يأخذ شــكل الضــرب. وأشــاعوا حكاية "العســكري الأســود" للإرهــاب، وحـتى لو كـان له حقيقة فهي حالة فرديـة. ومع هـذا فقد فضـحت الصـحف السعديين حتى أقيلوا إقالة مهينة، وهزت اعتقـالاتهم العهـد، وكـانت من أكـبر العوامل التي أدت إلى قيام انقلاب 23 يوليو ونجاحه.

وأخيرًا نأتي إلى القارعة المروعــة، والآزفة الــتي تَبَّرت ما علو تتبـيرًا، وعصـفت بدولة المخــابرات ومراكز القــوى وبــرأس هــذه المراكــز، عبد الناصر نفســه. ولكن ما أفدح الثمن! إن هزيمة 67 هي إحدى الهزائم "الفاصـلة" هي مثل هزيمة أكـثيوم الـتي قضت على مصر باحتلال الرومان لها ستمائة عام، ومثل مرج دابق الــتي قضت بتبعية مصر للعثمـــانيين ثلاثة قـــرون. وقد مضى على هـــذه الهزيمة ربع قـــرن، ولا زلنا في عقابيلهــا. ومن الصـعب جـدًا التغلب على آثارها قبل مائة عـام! لأنها أعطت إسـرائيل أكـثر مما كـانت تحلم بـه. سـيناء كلهـا، والقـدس، والضـفة الغربية وغـزة والجـولان.. وهزمت وأذلت جيش مصر وسـوريا وغنمت سـلاحهما، وأهم من هـذا الكبريـاء والزهو الذي جعل إسرائيل تؤمن أنها قادرة على أن تحقق "إسرائيل الكبرى".

يقابل هــذا الزهو والازدهــاء.. المهانة والضـعة الــتي حــاقت بكل مصــري.. وكل عربي والفجيعة المروعة لآمال الذين صدقوا دعاوى الناصرية...

وقد كشفت الهزيمة النظام وعرته، وأظهرت كيف تسير الأمــور، فــإذا كــان عبد الناصر عالمًا بأن الضربة ستقع يوم 5 يونيو، وأمر أن لا نبدأ فقد ارتكب خطيئة العمــر، وإذا كان المشير العقيم لم يفعل شيئًا فهو لا يكون مشـيرًا ولا غفـيرًا. وكل منهما يعلم بحالة المطارات والطائرات التي تجثم كالبط الأمر الذي روع مغنية[27]، لا ضابط أركان حرب.. ولكنها الطريقة التي كانت تحكم بها مصر ما بين العمدة وشـيخ الغفــر، وما تم بعد ذلك أكثر دلالة فبعد هذه الهزيمة المروعة عرض العمدة على شيخ الغفر أن يكون نائب رئيس الجمهورية! ورفض شيخ الغفر. فهل يمكن أن تدار "عزبة" بهذه الطريقة.

***

كـــانت هزيمة 67 هي نقطة النهاية لـــرؤى جيل كامـــل، رفعته الشـــعارات إلى سماوات الوهم حـتى جـاءت الهزيمة فأنزلته إلى حضـيض الواقع الـذي ما كـان يخطر بالخيــال، وتجمد الفكر المصــري، وقد يصــور ذلك أن الوطــني القــديم الأســتاذ أحمد حسين شُل، وأصبح مقعدًا بعد أن كان يتوقد حركة ونشاطًا.

للناصــريين أن يقولــوا أن عبد الناصر حطم الإقطــاع، وأرسى قاعــدة الصــناعة وحقق العدالة الاجتماعية وبلــور أحلام جيل في المشــروع الحضــاري لمصــر، وللقومية

هؤلاء المنحرفين لم يكونوا من ضباط الثورة" وهذا ادعاء عـار عن الصـحة جملة وتفصـيلا فلا يمكن تبرير الأخطاء بأخطاء والموبقـات الـتي ذكرها الـدكتور مـؤنس تمحو محـوًا تامًا الإيجابيـات المزعومـة. والنمـاذج السـيئة الـتي ذكـرت ليست لقلة أو أن معظم هـؤلاء لم يكونوا من ضباط الثورة فإنهم كانوا أبـرز رموزهـا. ومـاذا عسى أن يقـاس إنحـراف أحمد أنور بـانحراف صـلاح نصر الـذي جـاء بعـده. وليس أدل على تفشي الفسـاد أن الحكومة لا تجرؤ حتى الآن على إعلان محاضر محاكمة المنحرف صلاح نصر بعد لأنها سـتلوث قيـادات 23 يوليو. ولكن ماذا عسى جمال حماد أن يقول وهو من ضباط 23 يوليو؟

27 **(?) دعيت الفنانة شــريفة مــاهر للغنــاء في حفل بالمعســكرات قبيل الهزيمة مباشــرة – وروعها منظر الطائرات الجاثمة كالبط دون أي حماية..**

العربيــة... ولناقديه أن يقولــوا إن المنــاخ الوبيل حــال دون التحقيق الســليم لهــذه الإنجـازات، فضلا عن أن الواقع العملي كـان نقيض الشـعار المعلن عن خط مسـتقيم "أرفع رأسك يا أخي" "الانتخابات من القاعدة للقمة بالإرادة الحرة" إلخ..

أما الشيء الحقيقي الذي لا جدال فيه فهو أنه:

(1) أفسد الحياة السياسية فسادًا لم تبرأ منه حتى الآن عنـدما أوجد الديكتاتورية في أسوأ صورها.

(2) أهان كرامة الشعب وقهر إرادته وأدخل التعذيب الخسـيس لمعارضـيه جميعًا من كل الفئـات ومن كل الأعمـار ومن كل جنس، فبث روح الخـوف والقهر في المجتمع.

(3) مكن – وهو العسكري أركان حرب – لإسرائيل أن تهزم جيش مصر وتوقع به المهانة، وتغنم أمواله وعتاده وتمـزق تربة الـوطن بـاحتلال سـيناء، فضلا عن استيلائها على القدس وغزة والضفة الغربية وهضبة الجولان!

هذه الثلاثة مما لا يمكن لأي وطني أن يغتفرها أو يتسامح فيها.

إذ كيف يمكن أن نبني الإنسان المصري الذي يحس العـزة والكرامـة، إذا كـانت الحركة المسـئولة، والرجل المسـئول عن العـار والهزيمة والقهر والطغيـان يظهـران كثورة عظمى، وكبطل قومي...؟ هذا لا يستقيم!

***

أثر الطبيعة السـرية لتنظيم الضـباط الأحـرار على حركة 23 يوليو:

إن الأخطاء الفاحشة الـتي اكتنفت الحقبة الناصـرية والانحرافـات الـتي انـزلقت إليها من أيامها الأولى حـتى انتهت عـام 1967 إنما تعـود إلى الطبيعة السـرية لتنظيم الضباط الأحرار التي حالت دون أن تأخذ طابع ثـورة، أو حـتى انقلاب عسـكري كما كنا نتصور قبل أن تتضح لنا دقائق الأمور.. ولكن طابع مؤامرة دبرت في الظلام!

إن أربعين أو خمسين ضابطًا اشتركوا في مؤامرة وسـيروا وحـداتهم العسـكرية في ظلام الليل دون أن تعلم هذه الوحدات شيئًا.. ورزقوا عوامل استثنائية مكنت هـذه المؤامرة من أن تحقق انتصارًا لم يكن المتآمرون أنفسهم يحلمـون بـه... وأبـرز هـذه العوامل: الاسم المشرف والمقبول للواء محمد نجيب الذي تسـترت المـؤامرة وراءه، وأن عدوهم – الملك فاروق والأحزاب – كانوا فاسدين حـتى النخـاع، وأن النظـام كـان متهاو وآيل للسقوط، ومساندة الإخوان المسـلمين وبعض الأجنحة الشـعبية، فضلا عن عدد من المصادفات أشار إليها مؤرخو الحركة وكتبنا عنها بالتفصيل في كتابنا "الإسلام هو الحل"[28]!

ولما كانت المطالب التي أعلن عنها المتآمرون وهي عزل الملك فـاروق مقبولة تمامًا من الشعب، فقد رزقت المؤامرة تأييده.

وكان يوم 26 يوليو 1952 هو قمة المؤامرة الـتي كـان يجب أن تنتهي عنـدها – لولا أنها مؤامرة... ولو كانت حركة لانتهت بطبيعتها ولكن أثر التنظيم السـري للضـباط الأحرار تحكم فيها، وكان وراء كل انحرافاتها.

---

28 (?) **كنا قد بدأنا نكتب ونطبع في الأيـام الـتي تلت 23 يوليو مباشـرة كتابًا عن هـذه الحركة بعنـوان "ترشـيد النهضة – دراسة توجيهية للانقلاب العسـكري ونظـرة عـبر المسـتقبل المصري" – قلنا فيه إن الحركة انقلاب عسـكري وليس ثـورة، وقد صـودر الكتـاب قبل أن يتم بمجرد أن قرأت (الرقابة) ملزمته الأولى.. وانتهزنا فرصة إصدارنا كتاب "الإسـلام هو الحل" فأدرجنا فيه الفصل الأول من هذا الكتاب المؤود... (ص 67 – 74).**

ذلك أن التكـوين السـري لتنظيم ما يسـتتبع جـوًا من الغمـوض والتكتم وعـدم الإعلان أو التصريح وتركيز السلطة... إلخ مما يفسح مجالا للانحراف، وقد ظهرت هذه الانحرافات في كل التنظيمات السـرية سـواء كـان ذلك في التـاريخ الإسـلامي القـديم كمحركات الشيعة، وما انسـاقت إليه من انحرافـات حـتى "النظـام الخـاص" للإخـوان المسلمين الذي انشق على طاعة الإمام الشهيد، رغم أنه كان خلاصة الخلاصـة، وكـان الإمام الشهيد رمز الدعوة ورئيسها المطاع، وكان تنظيم الضباط الأحرار من هذا النوع وفـــاقم في آثـــار ســـريته أنه تنظيم عســـكري يتطلب أقصى درجة من التكتم.. وأن التنظيم ضم أمشـاجًا من الإخـوان من اليسـاريين ومن الوطنـيين، فضلا عمن ربطتهم علاقـــات خاصة أو أســـرية، فلم يكن له فكر موحـــد، مما يركز التوجيه في قائد هـــذا التنظيم، وكانت الموهبة الحقيقية في عبد الناصر أنه "متآمر" بالفطرة والطبيعــة، مما هيأه لقيادة مثل هذا التنظيم ووفر له الدهاء، والتكتم، والمناورة... إلخ وهذا هو السبب في تفوقه على ضباط كانوا أقدم منه وأرسخ في تنظيمات الضـباط، وأنه اسـتطاع أن يخدع الإخوان والشيوعيين والأحزاب قبل 23 يوليو وبعدها!!

ولا ينفي هـذا كله أن تنظيم الضـباط الأحـرار ضم عـددًا من الضـباط الوطنـيين الذين كانت تموج بهم المعسكرات، وأن غرض المـؤامرة في حد ذاته كـان نـبيلا. فـإن هذا كله شيء، **والطبيعة التآمرية التي تفرض نفسها على كل تنظيم سري بحكم سريته شـيء آخـر.. وقد قلنا إن أثرها ظهر في تنظيمـات الشـيعة السرية قديمًا، كما ظهر في تنظيمات الإخوان المسلمين حديثًا**.

على أن الموهبة التآمرية لعبد الناصر كـانت (محليـة)، فقد كـان كـالفلاح الـذي يجيد السباحة في الترعة، ولكنه سيغرق حتمًا إذا حاول السباحة في المحيـط... ولهـذا فإنه عندما حاول أن يجـرب تـآمره وخداعه مع إسـرائيل وأمريكا والاتحـاد السـوفيتي، فإن هـؤلاء جميعًا خـدعوه وراح ضـحية مغامرته الدولية الـتي ظن أنه سـينجح ويصـول ويجول فيها كما نجح ليلة 23 يوليو، وكما نجح في خداع الإخوان والضباط والأحزاب!

وكل تاريخ عبد الناصر هو سلسلة من الخداع والتآمر،.. وبهذه الطريقة اسـتطاع أن يتخلص من كل الضباط الذين شاركوا في المـؤامرة... ولم يبق إلا السـادات الـذي أثبت أن الدهاء (المنوفي) غلب الدهاء (الصعيدي).. واسـتطاع أن يخـدع هـذا المخـادع الكبير وعرف كيف يتعامل معه!!

ولو كـــان عبد الناصر ضـــابطًا كبـــيرًا محبوبًا عند الضـــباط.. ولو كـــان طبعه هو **الصــراحة والإخلاص والوطنيــة.. ولو كـان هدفه القضـاء على الفسـاد.. لكان من الممكن أن يفعل مثل ما فعل عرابي عندما ساق الجيش ليرغم الخديوي على إصدار الدستور وتكوين مجلس النواب**!

إن دراسة هذه السابقة المشرفة التي اسـتثمر فيها عـرابي صـفته كضـابط في تسيير الجيش لتحقيق مطـالب الشـعب، ومقارنتها بما حـدث في ظلام ليل 23 يوليـو، يوضح لنا كثيرًا من الحقائق، ويقدم لنا مقارنة عظيمة الدلالات والفائدة...

لقد كان عرابي ضابطًا من صميم تربة مصر، كان فلاحًا ودخل الأزهر لفترة قبل أن يدخل الجيش كعسكري.. ومن تحت السلاح – كما يقولـون – نـال رتبته العسـكرية، فكان تمثيلا للشعب بحكم المنبت والثقافة، وأنه نال رتبته العسكرية "تحت السلاح"!

واكتسب عرابي شهرة لبعض الملابسات، فاتجه إليه رجـال الإصـلاح وانضم معه الوطنيون من الضباط، فاستخدم هـذا كله ليجمع الجيش، ورجـال الإصـلاح، وليسـير به إلى ميدان عابـدين في ذلك اليـوم المشـهود (9 سـبتمبر 1881)، وتحت سـمع وعلى مـــرأى كل رجـــال ونســـاء القـــاهرة، وحضـــور منـــدوبي الصـــحف والوكـــالات الأجنبية

والشخصيات الوطنية من أعيان وأحـرار، تقـدم عـرابي على جـواده، وفي يـده سـيفه، لينقل إلى الخديوي إرادة الشعب!

حقًا إنه ترجل، وأغمد سيفه، ولكنه لم يغمد مطالبه، ولم ينصرف الجيش إلا بعد إعلان قبول المطالب التي كان أولها إقالة الوزارة المستخزية وإعلان الدستور وتكوين مجلس النواب!

هذا مثال فريد – ناجح وصريح – في استخدام الجيش لتحقيق مطـالب الشـعب، عندما يعجز الشعب عن أن يحقق ذلك بوسائله الخاصة.

إن مظاهرة 9 سبتمبر 1881 حققت لمصر الدستور، وأجرت الانتخابات واجتمع مجلس النواب، وكان يمكن لهذا كله أن يكون بداية لعهد باهر لولا تدخل الإنجليز!

ولك أن تقارن بين هذا الأسلوب، قيادة وعملا، وبين ما حــدث في ظلام ليلة 23 يوليو 1952.

كان عرابي – كما قلنا – تمثيلا صـادقًا للفلاح المصـري، ولم تتغـير هـذه الصـفة، حتى مات... أما عبد الناصر، فإنه وإن كان يمت إلى أصول شعبية صـعيدية فقـيرة، إلا أنه عـــاش في المدينـــة، ودخل مدارســـها بحيث أصـــبح في أدنى درجة من ســـلم البورجوازية التي تضرم التطلعات وبدفع هـذه التطلعـات وبتيسـير عوامل أخـرى دخل الكلية الحربية حيث يعلمون الطلبة أن يكونـوا ضـباطًا يـأمرون فيطـاعون، أو يـؤمرون فيطيعـون! وهـذا هو الـدرس الأول والأكـبر لكل الضـباط في كل الجيـوش (الطاعـة)! وبئس الدرس لمن يحكم شعبًا.

وكل من يعـــرف جمـــال عبد الناصر في أيامه الأولى يعلم أنه كـــان شخصـــية انطوائية، تكاد تكون منفرة، فهو لا يبتسم ولا يضحك ولا يتجاوب مع محدثه ولا يتحــدث ويؤثر أن يستمع.. وكان في هذا يختلف تمامًا عن محمد نجيب البشوش الصريح، وعن أحمد عرابي الفلاح الفصيح..

وتنظيم المظاهرة – مظاهرة 9 سبتمبر – علـني اشـترك فيه الأعيـان والأحـرار، وشاهده كل من يسـتطيع أن يطل على ميـدان عابـدين الفسـيح! والمطـالب واضـحة، وهي أسمى المطالب للشعب: إصدار الدسـتور، تشـكيل مجلس النـواب... وشـتان ما بين حركة تطالب بالدستور، وحركة أخرى أول أعمالها إلغاء الدستور!

كـان عـرابي صـادقًا مع نفسـه، مخلصًـا في حركتـه، يعلم أنه يسـتطيع أن يـأتي للشعب بالدستور ومجلس النواب، ولكنه لا يسـتطيع ولا يسـتهدف أن يحكم الشـعب.. لأن الشعوب لا تحكم بضباط!

ولكن ما حـدث في ظلام ليل 23 يوليـو، كـان مـؤامرة.. وملابسـات المـؤامرة وطبيعتها فحسب تسـمح بـالانحراف، بل أنها تسـتتبع الانحـراف! ولهـذا كـانت الحركة مقضيًا عليها.. لقد كانت شقية من بطن أمهـا، وبشخصـية أبيهـا، وجر شـقاؤها التعاسة على مصر!

الفصل الثالث
أزمة أدعياء التنوير
الصراع بين الذات والموضوع

كثـيرًا ما يتسـاءل المـرء كيف نفسر وجـود عـدد من الشخصـيات الممتـازة، المثقفة، بين زمرة أدعياء التنوير، وكيف نفسر اتجاهـات لهم ما كـان الإنسـان يتوقعها منهم؟!

والـرد أن هـؤلاء هم ضـحية "إشـكالية" – كما يقولـون – كبـيرة من أكـبر قضـايا المسألة الاجتماعية، هي الصراع بين الذات والموضـوع.. وقبل أن تظهر وتتحكم فيهم، ظهرت وتحكمت في محمد علي، وكـانت سـبب تـآمره على المشـروع القـومي الـذي اتفق عليه مع شـيوخ القــاهرة، وكــانت ســببًا في أن تحيف البورجوازيــة/ الليبرالية المصرية على الإسلام فيما بين 1923، 1952 وهي أيضًا سـبب انحرافـات عـدد كبـير من أدعياء التنوير، ولولاها لكان من المحتمل أن يصبحوا دعاة تنوير، بحق!

"والإشكالية" تضم طرفين هما: الموضوع والذات...

والموضـوع هنا تمثله مصـر، بينما الـذات تمثلها شخصـيات أدعيـاء التنـوير.. وما جاءت به المستجدات والملابسـات من تطـورات ارتبطـوا بهـا، وأصـبحوا جـزءًا منها لا يستطيعون منها فكاكًا!

الموضوع: مصر

كما قلنا، الموضوع هو، مصر...

فنحن لا نتحدث عن دعوات مطلقة، أو دعاوى أكاديمية.. ولكننا نتحدث عن هــذا كله بالنسبة لمصـر.. ونريد لها أن تطبق على مصـر.. ومن هنا تنشأ علاقة ما بين هـذه الدعوات والأفكـار.. وبين طبيعة مصـر، وبقـدر ما يكـون الفكر والـرأي مطابقًا لطبيعة مصر، ومتجاوبًا معها بقدر ما تكون فرص النجاح والتوفيق.. والعكس بالعكس...

ولا يـدفع هنا أن الأمم متشـابهة.. وأن التطـور يجعلها تمر بمراحل واحــدة، وأن التقدم العـالمي محا الاختلافـات فهـذا كلـه، وإن كـان له نصـيب من الصـحة، إلا أنه لا يقوى على طمس الطبيعة والهويــة.. وهو وإن أوجد "متشـابهات" تضم "المتخالفـات" من المجتمعات، فإنه لا يقضي على الشخصية الممـيزة لكل أمة بحيث يبقى المصـري مصريًا، والهندي هنـديًا، والإنجلـيزي إنجليزيًـا.. إلخ وكل وحـدا ينهل أو يقبس من الآراء والأفكار الحرة بقدر ما تسمح به ظروفه وتقدر عليه قوى استيعابه.

ولعل الشيوعية دليل على ذلك...

فلا جدال أن الشيوعية رزقت منظرين ومفكرين ودعاة، ورجـال دولة وسياسـة، وهيمنت على عدد من دول العالم، منها الاتحاد السوفيتي – سـدس العـالم – ووجـدت في كلبية الرأسمالية وجرائمها ما يدينها وما يوفر عليها نصف الطريق!

مع هذا لم ينجح الفكر الشيوعي في مصر...

كان فكرًا غربيًا، مغرقًا في "أوروبيتــه"، اصـطلاحاته وتعبيراته ومفرداته والأمثلة والشواهد التي يستشهد بها، كلها غربية تمامًا عن مصر، قدر ما هي قريبة من اليونـان أو الرومان أو إنجلترا وفرنسا.

وأهم من هذا أنها تتنكر للدين!

فشــلت الشــيوعية رغم كل شــيء، ولم تنجح في مصر رغم ما أنفق عليها وما بذل فيها، لأنها غريبة على مصر، معادية للأديان!

في مواجهة هذا، أقبل الشعب على الإخوان المسلمين زرافات ووحدانًا، في القرى والمدن، وتصدت الحكومة طوال أربعة عهود متصلة للجماعة التي لا تملك حولا ولا طولا! واستخدمت كل هيلمانها، ولكنها عجزت عن قهر الجماعة، وكل مرة كانت تخرج من محنتها أشد قوة...

ولماذا حدث هذا؟!

حدث هذا لأن الدين يشغل مكان الصدارة في مقومات مصر ويمثل المحور في العلاقات والنظم، هو "روح مصر" الذي تنبثق منه نظم الحكم والقضاء والفنون والآداب.. هو "المفاعل" الذي فجر عبقرية مصر وجلاها في مثل الأهرامات والمعابد والتماثيل والمساجد، هو الذي أبقى عليها وحفظها، ومكنها من أن تواصل البقاء في مواجهة عاديات الغزو ونوازل الفقر والجوع والظلم التي كان يمكن أن تقضي على الشعب، وروحه قضاء مبرمًا، إن أثر الدين في مصر لم يقدر تمامًا. فمصر هي الدولة الأولى - ولعلها الأخيرة - في العالم التي عاشت للدين، وضحت بالحياة الدنيا في سبيل الآخرة.. عاشت في الأكواخ بينما كانت تبني الأهرامات الشامخة والمسلات السامقة لتحقق لروحها الخلود الذي هو رمز الديانة المصرية.. وغطت مظلة الدين النجوم والشموس والأنهار والنبات والحيوان وأضفت عليها قبسًا من القداسة.. ومفتاح ذلك كله الزراعة المنتظمة.. إن المأثرة التي تذكرها الديانة المصرية للإله هي أنه علم المصريين الزراعة. من أجل هذا اعتبر أوزوريس "رأس الآلهة" على حين أننا نرى - في حالة اليونان - أن المأثرة التي تذكر لبروميثيوس أنه سرق سر النار من الآلهة وقدمه للبشر.. كانت حضارة مصر زراعية.. خضراء.. مستقرة بينما كانت الحضارة الأوربية نارية.. حمراء متوهجة..

ومنذ أن عرف المصري القديم كيف يتعامل مع النيل. وبفضل الفيضان المنتظم والغرين المخصب وقد تكونت مصر تكوينًا إيمانيًا راسخًا، في بيئة زراعية مستقرة طوال ثلاثة آلاف عام متصلة.. انصهرت خلالها الشخصية المصرية في الدين، وانصهر الدين في الشخصية المصرية بحيث صارا شيئًا واحدًا.. ومن هذه السبيكة تكون شعب متميز، وتم هذا قبل أن تبدأ أولى الغزوات؛ ولهذا عندما بدأ الهجوم على مصر لم يقض الغزاة على شعب مصر، فهو إما منتصر - بحكم العقيدة على الغزاة يؤثر فيهم ويستقطبهم، وإما متقوقع داخل صدفة الدين حتى تمر الغاشية أو يستعيد قواه خلال عقود، أو حتى قرون تنتهي بأن يذوب المنتصر فيه ويصبح - بصورة بطيئة وغير محسوسة - جزءًا منه.

وقد تعرضت آثار مصر خلال تاريخها الطويل لكل صور النهب والسلب وسوء الاستخدام والتدمير، منذ أن أصدر الإمبراطور الروماني ثيودسيوس أوامره بتحطيم المعابد "الوثنية".. (379 - 394) حتى العرب.. عندما أرسل يزيد بن عبد الملك (سنة 101 هجرية - 720 ميلادية) إلى واليه على مصر عقبة بن مسلم بكسر "الأصنام والتماثيل" فكسرت كلها على ما قيل ومحيت آثارها!!، وعندما حاول المأمون أن يفتح الهرم، والولاة الذين تعاقبوا على مصر وبنوا قصورهم ومساجدهم بأحجار وأعمدة منهوبة، والجهالة وسوء الاستخدام الذي جعل لفات البردي الثمينة تستخدم وقودًا. ومع العصر الحديث انثال على مصر كل أنواع اللصوص والقراصنة الذين قاموا بعمليات سلب ونهب واستغفال للولاة.. حتى نقلوا إلى الخارج ثلاثة ملايين قطعة نفيسة من الآثار.. تزدان بها متاحف العالم، ومع هذا الهدم والسلب والنهب ومن

خمسة آلاف عام لا يزال ما في متاحف مصر أكثر مما في متاحف العالم. ولا نزال نستكشف بين الحين والحين آثارًا أخرى حتى يتصور الإنسان أن تاريخ مصر ليس فوق أرضها ولكنه مطمور في الرمال وتحت طيات التراب..

بأي قوة استطاع هؤلاء المصريون في فجر التاريخ أن يقيموا هذا الوجود القوي الصامد للدين: أن يصعدوا بأحجار الأهرام الثقيلة إلى قمته وأن ينحتوا من الجبال معابد وتماثيل، وأن يغوصوا بالمقابر في أعماق الأرض. وأن يزينوها ويرسموها حيث لا ضوء ولا شمس وأن ينقشوا بالأزميل على الصخور الصلدة ليخلدوا تاريخهم وليبلغوا رسالتهم إلى الأجيال..

ما من قوة كان يمكن أن تحقق هذا إلا عندما ينصهر الإيمان في الشخصية بحيث تعبر هذه الشخصية عن نفسها بلسان الدين..

وبحق قال شوقي:

فإذا قيل ما مفاخر مصر قيل فيها إزيسها الغراء

وفي العصر القبطي – على أنه كان مختزلا، ومحاربًا، ولم يقدر له الحكم، فإن مصر قدمت إضافاتها المبدعة إلى المسيحية وقدم رجال كنيستها مذهبهم الخاص.

وفي الإسلام – مع أن التطورات التاريخية جاءت من البصرة والكوفة، ودمشق وبغداد أولا، فإن الإسلام ما إن تأثل في مصر حتى كانت هي التي انقضت على الصليبيين واستعادت القدس وأسرت الملك الفرنسي لويس التاسع، وقضت على رعب المماليك، وقتئذ – التتار – الذين لم تقف في وجههم جيوش من قبل.

وسار هذا الدأب حتى حرب رمضان 1973 التي قامت تحت شعار "الله أكبر".

وعندما يقول شوقي إن إيزيس هي مفاخر مصر، فإنه يعني أن مصر هي التي وضعت بذرة الضمير الإنساني واكتشفت سر الخلق والعالم الآخر بثوابه وعقابه ليكون هيكل العدالة كاملا.. وهذه كلها أمجاد حضارية رفيعة لا يمكن لأحد أن يماري فيها، ويعد جحدها حرمانًا لمصر من إضافتها الخاصة في الحضارة.

فالدين في مصر يمثل قدس أقداسها، وعمق حضارتها وتاريخها ورمز ضميرها ووجدانها ومن هنا فلا يمكن المبالغة في تقدير منزلته، وأي فكر أو نظام يعارض الدين فسيرفضه المجتمع المصري، وأي فكر يناصره فسيؤيده، وقد رحب الأقباط بعمرو بن العاص وهو الغريب عنهم، بالجنس واللغة والدين، لأنه أطلق الحرية الدينية التي حرموا منها، كما رحب شيوخ الأزهر بمحمد علي وهو العسكري الألباني، لأنه تعهد بالحكم بالشرع.

وأي رجل دولة في مصر لابد أن يلحظ هذا المعنى، وقد قيل إن نابليون تزيا بزي المشايخ ليتقرب إلى الشعب.. وأشاع أنه أسلم، ولا يخالجني شك في أن نابليون لو قرر البقاء في مصر لما تردد في اعتناق دين الإسلام، ليس بالضرورة لأنه مخلص في ذلك، ولكن لأن هذا هو ما يجعله يتمتع بثقة شعب مصر!

وعندما جاء المحتل البريطاني، فإنه – بذكائه – حرص أن لا يمس المقدسات الإسلامية، بل إنه تقرب منها، وحاول أن يستغلها لمصلحته، باعتبارها أقرب الأبواب إلى قلب الشعب.

***

وقضية الدين تسلمنا – ضرورة – إلى الإسلام.. لأن مصر آمنت بالإسلام، وأصبح هو دينها ولا يغير من هذه الحقيقة وجود أقلية غير مسلمة، ففي كل العالم توجد

الأقليــات الــتي قد يزيد عــدد مجموعها عن عــدد الأقلية القبطيــة، ولا يغــير ذلك من الحسابات العامة شيئًا!

وإذا كان الدين هو في مصر محور الحيـاة والدولة والمجتمـع.. فـإن هـذا ينطبق بالتبعية على دين مصر الحديثة وهو الإسلام.

وهذا ما يكشف عن جانب خاص للإسلام، لا لأنه الإسلام، ولكن لأنه الـدين الـذي ارتضته مصر، فلو لم يكن الإسلام دين حيـاة، لفرضت عليه مصر هـذه الطبيعـة، ولكن الإسـلام كـانت له هـذه الطبيعة بالفعـل، فلم يخـذل مصر وكـان طبق طلبتهـا. وقد لا تصدق كلمة الرسول على بلد وشعب، كما تصدق على مصــر. "أنا حظكم من الأنبيـاء، وأنتم حظي من الأمم".

والحقيقة أن إيمان مصر بالإسلام كـان أمـرًا مقضـيًا، كـان يمثل النهاية الطبيعية لمسيرة الإنسان المصـري نحو الـدين، ووجـدت التصـورات السـاذجة البدائية للإنسـان المصـري عن الله واليـوم الآخر صـورتها النقية المجـردة في الإسـلام.. وهنـاك تشـابه عجيب بين فكرة الدين المصري القديم عن اليـوم الآخر وهو أبـرز مقـوم في الأديـان، وبين فكـرة الإسـلام.. ففي الديانة المصـرية نجد المـيزان ونجد "ريشة الطـائر" الـتي ترمز للعدالة.. وهو ما يمثل "الميزان" في الإسلام وتعبـير "مثقـال ذرة " أو "حبة من خــردل" كما أن ثمة تشــابه بين بعض تصــورات الجحيم في الديانة المصــرية القديمة والإسلام.

وتتكرر الأحاديث في الديانة المصرية القديمة عن الشـمس كرمز للألوهيـة، كما تتكرر الإشارات في القرآن عن الشمس كآية من آيات الله.. وقد يجوز القول إن شيئًا ما في أعمــاق – أو لا شــعور – الأقبــاط قد تحــرك وذكــرهم برمــوز الديانة المصــرية القديمة التي كان يؤمن بها أسلافهم قبل اعتناقهم القبطية، وقرب إليهم الإسلام.

وحافظ الإسلام على التكوين الـديني لضـمير مصر عنـدما قـدم صـياغة "الحلال والحرام".. – بصرف النظر عن مـدى السـلامة في تكـييف الحلال والحـرام – لأن هـذا يرتبط بدرجة الوعي والفهم والتقدم الفكري والاجتماعي[29].

وهكـــذا نجد أن "الموضـــوع" وهو مصر المؤمنة يســـلمنا إلى مصر المسلمة باعتبار أن الإسلام هو دين مصر، وإيمانها..

---

29 (?) هناك آلاف الشواهد التي تؤكد عمق معنى الحلال والحرام في النفس المصـرية اليـوم، وأنه الفيصل في الحكم على التصـرفات والأعمـال، قد تعـبير عنه – مثلًا الأغنية الشـعبية الـتي تقـول [" تحـرم" عليّ إيـدي إن لمست إيـديك "تحـرم" عليّ عيـني لو طلت عليـك] ولكنها تقلب الآية [لما تكون "حلالي"] فتقول "لما تكون حلالي أحطك في عيـني وأتكحل عليك!!". وقد أرسلت إحدى قارئات الأهرام رسـالة تقـول "أنا مواطنة مصـرية أعيش في سـلطنة عمـان مرافقة لـزوجي ولي عتـاب صـغير على معظم صـفحات المـرأة بالصـحف المصــرية هــو.. صــفحة المــرأة لمن؟ هل هي لســيدات صــاحبات اجتماعــات، ونــدوات، وثقافات، وموديلات، وآراء عن المرأة المصرية هي بعيدة عنها؟
يا أيها الفاضل، إنـني سـيدة ومتعلمة وأيضًـا لي ثقـافتي المحـدودة في مجـال الأدب والفن وخصوصًا التشكيلي منه، والشـعر إلى جـانب العلم، وهو دراسـتي الأساسـية والـدين وهو الأساس وفـوق كل ثقافـة، وفي سـكني في مصـر، وحـولي جـيران وخصوصًـا السـيدات، أمهات، ومنهن عاملات، أفكارهن بسيطة، والحمد لله ليس هناك أي خلل في حياتهن، ولا أعلم إلى من توجه صفحة المرأة الخطاب، اجتماعـات لنـادي روتـاري، لا أعلم مـاذا يعـني هذا النادي، وندوات عن المرأة والطفل، لمن تصل؟ أعتقد أنها، لا تصل سوى لكاتبتها، أو صاحبات الندوة.
إنني أحب أن أجد على صفحة المرأة، ما يعنيها حقًـا، دراسة مصـرية، فبعض المقـالات، مثلا، تقول للتفاهم بين الزوجين، يقول الدكتور فلان (أجنبي بـالطبع) كـذا وكـذا، مـالي وهـو، أريد رأي الدين، لأنه ما تقبله نفسي، ونفس كل امرأة وكل رجل.
إنــني لست ممن تســمونهم الجماعــات الدينية ولا تنظيمــات، ولكنــني تــربيت على الحلال والحرام، فلا أريد أسمع حين كبرت وتـزوجت، عن رأي مسـتورد، أريد رأيًا محليًـا، وسـتجد هذا الرأي نابعًا من الحلال والحرام، وأتحدى أي إنسان في هذا إلخ.
أميرة شوقي عبده
الأهرام – بريد الأهرام تحت عنوان – "كونوا واقعيين " ص 9 يوم 11/12/1993.

هذا هو "الموضوع" الذي كان يجب أن يكون نصب أعين كل الذين يعالجون شيئًا يمت إلى مصر بصلة.. والباحث الأمين لابد أن يلتزم به، ولابد أن ينزل على ما ينزله الموضوع، لا على ما يحب هو ويختار.

ومن الخطأ الاستشهاد بدول أخرى، أو القول إن الدين لم يعد يؤدي اليوم دوره القديم، أو القياس على الدول الغربية، أو اقتباس النموذج الحضاري الأوروبي في العصر الحديث، لأن الحضارات ليست فروضًا رياضية، ولا هي قوالب جامدة، يمكن نقلها، أو لبسها كما تلبس الثياب، ولا يمكن تطبيقها دون نظر إلى الظروف الخاصة بكل أمة.. إن الأديان لم تقم في أوروبا بالدور الضخم الذي قامت به في الشرق، لأن الله تعالى لم يرسل رسلا "من أولي العزم" إلى أوروبا، وقد قام الفلاسفة والمفكرون بالدور الذي يقوم به الأنبياء، وأبدعوا لأوروبا إطارًا حضاريًا، وأبدعوا فكرة الواجب والقانون... إلى آخر القيم الحضارية الخاصة بالمجتمع الأوروبي وعندما نقلت أوروبا المسيحية فإنها جعلتها مسيحية أوروبية.. وقد تكون **القبطية المصرية أقرب إلى الإسلام منها إلى المسيحية الأوروبية، لأن القبطية عايشت، وتأثرت بدين إلهي هو الإسلام، ولكن المسيحية الأوروبية ارتبطت بالوثنية الأوروبية وعايشت رموزها من اليونان والرومان والإسلام يحنو على المسيحية أكثر مما تحنو الحضارة الأوروبية عليها، وإذا كان الإسلام يمثل العدل، الذي قد يكون بعيدًا شيئًا ما عن "الحب" الذي يمثل المسيحية، فإن أوروبا تمثل القوة، البعيدة عن العدل والحب معًا!**

ومع أن أوروبا الحديثة وحضارتها لم تعد تستلهم قيمتها ومثلها من الكنيسة أو تقيم أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية على مقررات الكنيسة، فإنها لا تزال تحتفظ بالميثولوجيا اليونانية، التي تمثل الديانة الحقيقية لأوروبا ورمز حضارتها، وتجد مفردات هذه الميثولوجيا في علم النفس، وعلم الفلك والرياضة.. إلخ...

كما يعود المسرح الحديث إلى التراجيديا اليونانية ولا تزال تمثل مسرحيات أسخيلوس ويوربيدس وأرستوفان، أما سير أبطال اليونان والرومان فإنها هي التي تزود رجال الدولة والتاريخ بالأمثلة والشواهد، فأوروبا لم تتنكر لماضيها ولكنها احتفظت به، ودمجته في حياتها؛ فما من أمة لا يكون لها ماض؛ وما من أمة يمكن أن تتنكر لماضيها لأن مثل هذه الأمة تكون كشجرة ليس لها في الأرض جذور متغلغلة تمسكها...

ومن الخطأ أيضًا الافتيات على الإسلام أو الادعاء بأن الإسلام لا علاقة له بالحكم والاقتصاد، لأن آيات القرآن الكريم صادعة وصريحة، فهي تفرض الزكاة وتجعلها قرينة للصلاة، وهي توجب الشورى وهي تندد أشنع تنديد بالظلم والطغيان وهي تؤذن بحرب من الله ورسوله لمن يمارسون الربا.. فأين يذهب الذين يدعون أن الإسلام "علاقة بين الإنسان وربه" من هذه الآيات، وهل يعد نظامًا يقوم على ديكتاتورية البلوريتاريا، أو طغمة الجيش أو يقوم اقتصاده على الربا.. أو لا تؤخذ الزكاة ممن تجب عليهم لتدفع لمن تحق لهم.. هل يعد هذا النظام إسلاميًا، أو حتى متجاوبًا مع الإسلام؟!

فحيثما اتجه الباحث الأمين نحو مصر.. أو نحو الإسلام.. فإنه يجد الدين أساسًا للقيم، ومحورًا للعلاقات، ومصدرًا للضمير.

وسنجد – فيما سيلي – أن هذا لا يمثل الحقيقة الموضوعية التي صاحبت مصر والإسلام على مدى العصور، فحسب، بل إنه هو أيضًا أمثل الحقائق.. ولله الحمد والمنة.

الذات:

ننتقل الآن إلى الطرف الثاني للإشكالية وهو "الذات" التي يمثلها أدعياء التنوير، والعوامل والملابسات التي تحكمت فيهم بحيث صرفتهم – وهم مصريون أولا – عن الاتجاه الذي يتفق مع الطبيعة الإيمانية الإسلامية لمصر، وحولتهم من دعاة، إلى أدعياء!

والحقيقة أن هذه العوامل عديدة، وقوية، ونحن الذين ننتقدهم، نعترف بأن الخيار لديهم كان محدودًا – وقد كانوا بحكم هذه الملابسات – مسيرين، كان التيار جارفًا، وجرفهم في طريقه!

ومن العوامل التي انحرفت بكثير من أدعياء التنوير:

(أ) الثقافة:

يعد التكوين الثقافي لفرد ما من أبرز العوامل التي تحدد الاتجاهات الفكرية – سياسية أو اجتماعية – لهذا الفرد، وقد تعرضت الثقافة في مصر لمؤثرات وتيارات وقوى عديدة، جعلتها تأخذ صياغات وصورًا قد لا تكون المثلى.

بصفة عامة، نجد أعرق المعاهد العلمية – الأزهر – وثقافاته الإسلامية السلفية، وقد كانت دراساته تلك هي التي أوجدت لنا "فقهاء التقليد" واتجاهاتهم التي انتقدناها في القسم الأول من الكتاب.

وفي مقابل هذا نجد المؤسسة الثقافية المدنية التي تضم المدارس الابتدائية حتى الجامعات، وما بينها، وقد بدأت هذه المؤسسة مع محمد علي، ولكنها تبلورت بصفة رئيسية في فترة الاحتلال البريطاني، ووضع القس الإنجليزي دانلوب – الذي كان مستشار وزارة المعارف – سياستها، ومع أنها تغيرت إلى حد كبير، فلا تزال بعض القسمات القديمة باقية، مثل **المركزية البيروقراطية، وعزل التلميذ عن بيئته (الحارة – القرية) والفصل بين العلم والعمل، وعدم الاحتفال باللغة العربية والدين، وهي قسمات كان لها آثار مدمرة لمقومات الشخصية.**

بالإضافة، فقد أخذت هذه الدراسات أحد اتجاهين: فهي إما إنجليزية أو فرنسية، فالهندسة، والعلوم والطب عادة ما تكون بالإنجليزية، والآداب والفنون والمحاماة عادة ما تكون بالفرنسية.

ونحن من دعاة إحكام اللغات الأجنبية والاطلاع على الثقافات الأوروبية، ولكن هناك فرقًا بين أن نحكمها لحساب ثقافاتنا الخاصة، وبين أن نحكمها على حساب ثقافاتنا الخاصة. والمفروض أن نلم بكل الثقافات والمعارف، لأنها جزء من الحكمة التي هي هدفنا والتي تدخل في مكونات الإسلام، والذي حدث هو أن العناية بالثقافة الأجنبية مع استبعاد الدين واللغة، وعزل الطالب عن بيئته، جعل تأثير الثقافة الإنجليزية أو الفرنسية طاغيًا.

وقد يصور هذا كلمة الدكتور زكي نجيب محمود.

"لم تكن قد أتيحت لكاتب هذه الصفحات في معظم أعوامه فرصة طويلة الأمد تمكنه من مطالعه صحائف تراثنا العربي على مهل، فهو واحد من ألوف المثقفين العرب الذين فتحت عيونهم على فكر أوروبي – قديم أو جديد – حتى سبقت إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنساني الذي لا فكر سواه؛ لأن عيونهم لم تفتح على غيره لتراه،

ولبثت هـذه الحـال على كـاتب هـذه الصـفحات أعوامًا بعد أعـوام: الفكر الأوروبي دراســته وهو طـــالب، والفكر الأوروبي تدريسه وهو أســتاذ، والفكر الأوروبي مسلاته كلما أراد التسلية.

استيقظ صاحبنا كاتب هذه الصفحات – بعد أن فــات أوانه أو أوشك – فإذا هو يحس الحيرة تؤرقه فطفق في بضعة الأعوام الأخيرة الـتي قد لا تزيد على السـبعة أو الثمانيـة، يـزدرد فيها تـراث آبائه ازدراد العجلان كأنه سائح مر بمدينة باريس وليس في يديه إلا يومان ولابد له من خلالها أن يريح ضميره بزيـارة اللـوفر. فـراح يعـدو من غرفة إلى غرفـة، يلقي بـالنظرات العجلى هنا وهنـاك، ليكتمل له شـيء من الـزاد قبل الرحيـل"[(30)].

إن هـذه الكلمـات تُجْمِل المأسـاة كاملـة، وتـبرز جريـرة الثقافة الأوروبية على شخصية المثقف المصري، ويزيد من أهمية هـذه الفقـرة أنها تشـمل "ألـوف المثقفين العــرب". فهي ليست حالة خاصة كما قد يــبرهن على عمق صــدقها أن الكــاتب وهو يندب حظه لتخلفه في التعرف على الأدب القومي والتراث العربي والإسـلامي، وينـدد بغلبة الفكر الأوروبي لم يجد لتمثيل ذلك إلا مثلا يمت إلى أوروبا نفسها بصلة!.

وأكثر دلالة ومأسـاوية من هـذا ما ذكـره الـدكتور لـويس عـوض عن نفسه أنـه: "ظل ما بين العشــرين إلى الثانية والثلاثين لا يقــرأ حرفًا واحــدًا بالعربية إلا عنــاوين الصحف السيارة وبعض المقالات الشاردة التي ألزمته الضرورة السياسية بقراءتها..." فلا عجب إذا قــال: إنه لــولا الميلاد "**لكــان ولـدًا شــرعيًا لليونــان والرومــان والقرون الوسطى والحضارة الحديثة**".

ولنتصـور مـدى المأسـاة عنـدما يصـبح صـاحب هـذا التأسـيس العـربي الهزيل مستشــارًا لأكــبر جريــدة يومية عربية (الأهــرام!)، ويعد من الــذين يؤصــلون للفكر المصري!

وهذا الاستغراق في الفكر الأوروبي كان في أصل أخطاء لويس عوض وأشهرها بالطبع بتلك الخطيئة البلقـاء عنـدما جعل من أحد العملاء والخونة والـذين حـاربوا جنبًا إلى جنب الجيش الفرنسي في الفــترة الأخــيرة للحملة الفرنســية وهو "الجــنرال يعقوب" **صاحب أول مشروع قومي لمصر**!.

ولكن الأمر لا يقف عند تحطيم المقومات الوطنية والمصرية...

لقد قرأنا ما لم نكن نتصور وقوعه...

ففي قسم اللغة الإنجليزية بكلية آداب الجامعة المصـــرية كـــان يــــدرس في الثلاثينيات كتابان أحدهما "جـان دارك" لبرنـارد شـو، والثـاني "محـاورات من الخيـال" لكاتب إنجليزي يدعى سافيج لاندور...

في مسرحية "جان دارك" جاء في سياق الكلام على لسان "كوشـون" وهو أحد الأساقفة أن جان دارك كانت تبعث بكتبها إلى ملك الإنجليز لكي يخضع لأمر الله الـذي أوحى إليها فيعود إلى جزيرته وإلا باء بغضب من الله.. ثم يقول ما نصـه: "ألا فـاعلموا أن إرسال هذه الكتب عادة جـرى عليها قـديمًا محمد عـدو المسـيح".. ثم مضى يصف أمر هذه الفرنسية المتنبئة فقال: "وبمثل هذا قام عربي جمّال فطارد المسيح وكنيسة المسـيح حــتى طردهما جميعًا من أورشـليم ثم مضى يضـرب في الأرض فيعيث فيها الفـزع والخـراب حـتى إذا بلغ مغربها قـام جبل الأبـواب (وهما جبـال الـبرانس) دونـه، وقامت رحمة الله وحيل بين فرنسا وبينه فنجت من الله، فماذا صـنع الجمّـال العـربي

---

30 [(?)] **تجديد الفكر العربي الطبعة الخامسة ص 5.**

في بداية أمـره، أكـثر مما صـنعت هـذه الفتـاة، جـاءه الـوحي من جبريل وجاءها من القديسة كـاترين والقديسة مرجـريت والمبـارك ميخائيل وأذن في النـاس بأنه رسـول الله.. وكتب الكتب إلى الملوك باسم اللـه".. ثم يقـول بعد قليـل: "إنا والحمد لله الآن بخير، فليس في الدنيا إلا محمد ومخدوعوه، وإلا الفتاة جـان ومخـدوعوها.. ولكن كيف يكون الحال إذا خالت كل فتاة أنها جان دارك وخال كل رجل أنه محمد؟؟"!!

وجـاء في الكتـاب الثـاني "محـاورات من الخيـال" فصل كامل بعنـوان "محمد وســـرجيوس" يســـتغرق من ص 178 حـــتى 201 وهي مكالمة توهمها المؤلف بين الرسول ﷺ وهذا الـراهب سـرجيوس، وهي فرية قديمة روج لها المبشـرون ونشـروها، وأعادها من قبل كفار مكة وأشـار إليها القـرآن الكـريم ﴿ وَلَقَـدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُـونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ !! (النحل 103).

وهـذه الإشـارة على محاولتها النيل من الرسـول الكـريم لا تقـاس بما جـاء في الكتاب بعنوان "الكونت جلايشـيم، والكونتيسـة، وولـداهما" وجـوار ولهلم ابن الكـونت جلايشيم مع أخته أنابيلا.. قال ولهلم: "لست طفلا حتى أتوهم أن يفر فـارس مسـيحي من وجه متمـرد تـركي (أي مسـلم) في المعركة ولكن النصـارى قد يؤخـذون أحيانًا بحيلهم وبكلبه محمد"... فتقول أخته أنـابيلا: "وأنا وإن لم يكن بيـني وبينك سـوى سـنة واحدة فليس يبلغ بي الحمق أن أصدق بوجود كلب يقال له محمد، وإذا صح أنه موجود فعندنا كلاب خير منه وأكـثر أمانة وأشد قـوة"... فيقـول أخوها مخاطبًا إياهـا: "لا أكـاد أملك نفسي من الضـحك إذا ما ذكـرت ما يطـوف في رءوس الفتيـات من خيـالات محمد... فنحن نعلم أن محمدا ما هو إلا كلب له ثلاثة ذيول كذيول الخيل..." !!

إلى هذا الدرك...

فما الـذي يجعل أسـاتذة قسم اللغة الإنجليزية يقـررون "جـان دارك" ما دامت تتضمن إشارة تمس مشاعر الطلبة المسلمين؟ ومسرحيات شو عديـدة؟ وما الـداعي لتقرير كتاب من تأليف أحد النكرات يتضـمن هـذا الإسـفاف أو القـذف؟ وهل بعد هـذا نستبعد أن يكون أسـاتذة هـذا القسم من الجواسـيس المحـترفين ذوي العلاقة الوثيقة بدوائر المخابرات أو هيئات التبشير، كما أكد ذلك مؤلف "أباطيل وأسمار" ([31]).

فأي وعي وطني أو موضوعي يكـون قد تـربى على هـذه السـموم؟ وكم تكـون نسـبة المصـرية أو الوطنية فيـه؟ إنه لا يعد مصـريًا إلا بحكم الميلاد... أما الثقافـة، والفكر، والاتجاهات، والميـول، والـولاء.. فهي أوروبية خالصـة، وهو ما اعـترف به على نفسه لويس عوض وزكي نجيب محمود وغيرهما..

***

وتصل مأسـاة الخلط الثقـافي وتزييف المعـايير قمتها في حالة الـدكتور حسن حنفي.

فنحن نرى أستاذًا، كاتبًا، مؤلفًا، جم النشاط، غزير الإنتاج، عظيم الطموح، واسع المعرفة، لا ينقصه الذكاء في استخلاص النتائج، ولا المهارة في عرضها، وقد ظل يلقى محاضراته على طلبة الجامعة أربعين عامًا واقتعد كرسي الفلسفة الإسلامية..

وهو بحكم هـذا أجـدر من يمكن أن يتعمق في فهم الإسـلام حـتى يصل إلى لبه وجـوهره، ومن ثم يسـتطيع أن يقـوم بحركة تجديد علميـة، وفكرية ينفض بها غبـار الزمان وغشاوات التقليد، كان يمكن أن يضع في أصول الفقه "رسـالة" جديـدة تماثل "رسالة" الشافعي وقد تفوقها بحكم غزارة الثقافة وما توصل إليه العصر الحـديث من إمكانيات لم تتوفر للشافعي...

---

[31] (?) **انظر ما جاء عن هذين الكتابين، وهوية أسـاتذة قسم اللغة الإنجليزية بكلية آداب جامعة القاهرة في كتاب "أباطيل وأسمار" للأستاذ محمد شاكر، ص 474 – 476.**

ولكنه بدلا من أن يحدد غايته ليصل إليها أسلم نفسه للأمواج، وأخذ يسبح وسط تيارات المحيط معتقدًا أنه يمكن أن يخضعها، ويوحد بينها، فتجاذبته، وأخذت تدور به حتى فقد توازنه، ولم يعد يعرف أين هو...

وخلال فترة عدم التوازن جاء بتخليط ومغالطات لا يأتي بها نصف مثقف، دع عنك أستاذ الفلسفة العتيد.

خسارة... وأي خسارة...

إن الدكتور حسن حنفي ينقد العلمانية، والاشتراكية وفي الوقت نفسه يؤيدهما!! ويتحدث أحيانًا بلغة الفلاسفة والمفكرين، بينما ينساق أحيانًا أخرى وراء القطيع! وهو صاحب مشروع ثقافي ضخم ([32]) وهو يعارض المستشرقين ويتصور أنه: "آخذ كل فلاسفة الغرب وأضمهم في طابور عرض وأكون أنا قائدهم، أوجههم وأحركهم وأستعرضهم في حركات وتشكيلات وتحيات كيفما أشاء، وطبقًا لاستراتيجيتي وخططي وأهدافي، بل آخذ طوابير الأعداء بعد حصارهم، وأضعهم جميعًا في الأسر وأضع كل مجموعة منهم في زنزانة وأغلق عليهم أبواب السجن، وبالتالي نضيع من نفوسنا رهبة الأعداء.." فهذه القطعة تنم عن تأثر الكاتب "بالناصرية" العسكرية والاعتقالات والزنزانات كطريقة لإزالة الرهبة.. هذا منطق عساكر، وليس منطق فلاسفة، ولماذا يفعل هذا كله، والفكر الأوروبي – وإن كان عنصريًا بالفعل – لا يؤمن إلا بأوروبا، إلا أنه مع هذا فيه الحسن الطيب، كما فيه السيئ الخبيث والدكتور حسن حنفي شأنه شأن كل مفكرينا المحدثين عالة على الفكر الأوروبي، أو ضيف على المائدة الأوروبية؛ فلا داعي للعقوق ومن "البارانويا" أن يتصور أنه يجرهم من آذانهم في حين أنه مخزوم إليهم من أنفه.

وكما لاحظ الأستاذ علي حرب في مقاله المسهب في مجلة "منبر الحوار" عن "حسن حنفي مستغربًا" فإنه يعلن في المقدمة: "من العقيدة إلى الثورة" أنه لا يكتب كتابه باسم الله – كما فعل القدامى – بل يكتبه باسم الأرض والشعب والأمة والنهضة!! وفيها يصرح بأن التقدم هو جوهر الوعي الإنساني وحركة التطور، وأن الإنسان قادر بعقله المستقل وإرادته الحرة أن يواصل حركة التاريخ وأن يستمر باجتهاده الخاص حتى يرث النبوة والأنبياء، وكما لاحظ الكاتب، "ولا يخفى أن مثل هذا الكلام يصدر عن مفكر يمتلك وعيًا بالتاريخ وينتمي إلى حضارة طردية" إنه كلام يقف وراء خطاب الأنوار الأوروبي وبه يخرج حسن حنفي على نظام الفكر الذي يتركز الاهتمام فيه على قراءة الوحي وتأويل النص، فيستبعد المفاهيم المركزية العاملة في الخطاب الإسلامي كالله والوحي والنبوة والنص والشريعة والعقيدة لصالح مفاهيم حديثة كالوعي والتطور والتقدم والتاريخ والثورة والجماهير" (ص 105).

ولا جدال أن كاتبًا يقول إنه لا يكتب كتابه باسم الله. إنما يدل على غرور لا يليق بمفكر، دع عنك، عن أستاذ للفلسفة الإسلامية (أيُّ إسلام؟!!) فإذا لم يكتب باسم الله، فإنه سيكتب باسم عبد الناصر أو ماركس، أو كانط أو هيجيل.. إلخ وقد يتردى

---

32 **(?) أشار إلى هذا المشروع الثقافي أستاذ لبناني فقال: "... فالمفكر المصري هو صاحب مشروع ثقافي ضخم وشامل عنوانه العام "التراث والتجديد" وينطوي هذا المشروع على ثلاثة أقسام لكل قسم منها مقدمة أو بيان نظري فضلا عن الأجزاء والفصول أو الأبواب: القسم الأول هو الموقف من التراث القديم ويتألف من بيان نظري وسبعة أجزاء صدر منها حتى الآن البيان والجزء الأول في كتاب ضخم يتألف بدوره من خمسة أجزاء تقع في آلاف الصفحات عنوانه "من العقيدة إلى الثورة"، أما القسم الثاني فيتألف من بيان نظري وثلاثة أجزاء وهو يتعلق بالموقف من التراث الغربي، وقد صدر الآن بيانه النظري، أما القسم الثالث فموضوعه الموقف من الواقع أو "نظرية التفسير" وهو يتعلق بتمثل الواقع المباشر واستيعاب الحاضر بالاستناد إلى النص والوحي وتنفيذه مؤجل إلى حين تحقيق الأجزاء السبعة من القسم الأول والأجزاء الثلاثة من القسم الثاني" الأستاذ علي حرب في مجلة "منبر الحوار" العدد 29 صيف 93 صفحات 85 – 113 "حسن حنفي مستغربًا".**

كما حدث بالفعل فينساق وراء القطيع ويكـرر كالببغـاء.. وكـان له عن هـذا مندوحـة... ولو فكر لوجد أن الرسول العظيم سبقه وأعلن أن العلم مـيراث الأنبيـاء، وأن العلمـاء ورثته.. وأن الفكر الإسلامي لا يدور كما يذهب غالبية الناس، وكما ذهب الكـاتب الـذي نقد حسن حنفي واستشهدنا به حول "الوحي وتأويل النص" إن الفكر الإسـلامي يقـوم على العقل. وقد استدل على وجود الله بالعقل كما توضح ذلك الآيات العديدة للقرآن، أما الوحي فـدوره أن يحسم شـأفة ما يـأتي به القصـور الإنسـاني بالنسـبة لـذات الله تعالى. وما يغلب على الطبيعة البشرية من ضعف عند تقييم الخير والشر.

النهاية! لقد اشترى الدكتور حسن حنفي الذي هو أدنى بالذي هو خير، ويبـدو أنه قبل أن يكون من الذين إذا ذكر الله وحـده اشـمأزت قلـوبهم وإذا ذكر من هو دونه إذا هم يستبشـرون! ولهـذا فلا عجب إذا وجـدناه يسـف.. فيعـرض لنا في ديماجوجية فجة مآثر الناصرية الشعبية!! ويذهب إلى أن "اليسار الإسلامي هو الناصرية الشـعبية" وأن الاشتراكية هي المضـمون الوحيد لشـعار قرآنية قرآنيـة.. ثم لا يكتفي بهـذا فيقـول إن اليســار الــديني هو المصب النهــائي لحركــات الإصــلاح الــديني ولجماعة الإخــوان المسلمين، وللتيارات الماركسية وثورة 23 يوليو وكـان من الطـبيعي (!) أن يصب في النهاية في "التجمع الوطني التقدمي الوحدي".

وهو خلط يماثل خلطه بالنسـبة لعقيـدة الله تعـالى والـوحي مما جعل "التجمع الوطني التقـدمي الوحـدوي" يرفضـه، كما أبعد نفسه بـالطبع عن أي فصـيل إسـلامي عندما عالج موضوع الله والوحي كمجرد تراث لأن الشرط الرئيسي لأي فكر إسـلامي هو الإيمان بالله والرسول، وأخيرًا فإنه لم يصب جانب الحقيقة إذا كان يتوخاها..

ومع أن الـدكتور حسن حنفي قد قطع الجسـور بكتاباته ومواقفـه، فإننا لم نفقد الأمل في أن يتوب، ويثـوب، فالله تعـالى أكـبر منا جميعًـا، والتوبة أعظم من الـذنوب جميعًا، والحق أحق أن يتبع، ولا يعيب أحد أن يخطئ فكل بني آدم خطـاء (كفى المـرء نبلا أن تعد معايبه) وما يعيب الإنسان هو الإصرار على الخطأ، وأن تأخذه العزة بـالإثم. ونحن "نستخسـر" الـدكتور حسن حنفي ونأسى له ونأمل أن يقـوم بالمهمة العظيمة والجديرة به، مهمة التجديد الإسلامي الذي ينبع عن الإيمان بجوهر الإسلام وتـؤدي إليه الثقافة الواسعة، والفكر العميق، فما هي الماركسية بالنسبة للأديان؟ إنها رغيف عيش حاف أمام مائدة حافلة مترعة؛ فيها القيم الموضوعية؛ فيها المُثل العليـا؛ وفيها الرسل والأنبياء؛ وفيها العـالم الآخـر. وهل الناصـرية العجفـاء الملفقة إلا كسـرة خـبز عفنـة؟! فكيف يهدر مفكر يتعامل مع القيم ويشارك القمم فكره ويـنزل إلى مسـتوى الـتزييف الديماجوجي ؟!!

وإذا كــــان يظن أنه يصل إلى الحقيقة بتجاهل الله تعـــــالى – ناهيك بتحديه – فليحـــذر أن يوقف نفسه موقف الشــيطان، أو أن يضــطر كــأوديب – لأن يفقأ عينيه بيديه..

بصـرف النظر عن هـذه المـؤثرات على الثقافة الـتي كـان لها انعكاسـاتها على الشخصية، فهناك جانب آخر هام، هو أن هناك أنماطًا عديـدة من الثقافة "الشـائعة" أو التي تقف وراءها جهات معينة، وهناك التأثر بظاهر القـول دون التغلغل في الأعمـاق.. إن الثقافة العامة السطحية قد تكون أشد خطرًا من الأمية.. وهـذه الثقافـات المعلبـة، المسطحة، التي تصدرها إلينا أجهـزة الأعلام في الـدول الرأسـمالية والاشـتراكية على سـواء، يغلب أن تضـلل الأغلبية الـتي تقـرأ دون أن تكلف خاطرها أو تسـتطيع التعمق فيما يعـرض عليهـا. إنها تعـرض الآلهة الزائفة بكل الـرواء والبهـاء، والإغـراء والإغـواء بحيث لا يســتطيع الفــرد العــادي أمامها إلا الاستســلام... وكل الوســائل: الكتــاب، الصحيفة، الراديو، التليفزيون – تقدم غذاءها الثقافي عن طريق "مفرد" يكون الإنسان

فيه "متلق" أو "متفرج". لا يستطيع القيام بدور مشارك، ولا يدعه السياق الحثيث لها، وإنها تظهر يومًا بعد يوم أو ساعة بعد ساعة، ليفكر أو ينقد. ونتيجة لهذا وجدت الحضارة الأوربية عبدة يؤمنون بكل شيء فيها، ولا يحاولون – ولا يستطيعون – ولا يجدون وقتًا للتمحيص، والذين نقدوا الرأسمالية والديمقراطية الحزبية وجاءوا بالدليل الاشتراكي.. وقعوا أنفسهم ضحايا الوثن الذي أقاموه، فلم يروا الثغرات الكبرى فيه.. وانظر إلى الملايين الذين مجدوا جرائم الرأسمالية، واستغلالها العمال، ونهبها ثروات أفريقيا وآسيا.. وإلى الملايين الذين مجدوا لينين وستالين رغم أن جرائمهما قد تفوق جرائم أتيلا وجنكيز خان وهولاكو.. وإذا أرادوا الفرار من ستالين قصروا ولاءهم على لينين، وهو الذي وضع بذرة الظلم بكل ويلاته، أو لاذوا بتروتسكي، وتروتسكي لا يفضل ستالين، فهو الذي أباد بالمدافع بحارة كرونستاد الأبطال أول من أيد ثورة أكتوبر، وهو الذي أبدع نظام الرهائن، وهو الذي أراد "عسكرة" النقابات وهو مؤلف "دفاع عن الإرهاب".

انظر إلى مدى التزييف الذي وقع فيه الملايين من الناس حين عبدوا هذه الآلهة الزائفة التي عرضت عليهم في مجلدات ألفها الذين وضعتهم الأقدار في معابدها، وأصبحوا سدنتها.

لقد رأينا شيئًا كهذا عندما ظهر دجاجلة الناصرية، والقومية العربية... إلخ وضللوا أجيالا في مصر وفي الدول العربية.

(ب) الانتماء السياسي:

عندما قام انقلاب 23 يوليو 1952، كانت شرائح الفئات العمرية للمجتمع المصري شيئًا كهذا:

أطفال (من 1 – 10) مراهقون وشبان (من 10 – 20) رجال ونساء (من 20 – 50) شيوخ (من 50 فصاعدًا).

الفئتان الأوليان: ولدتا وشَبَّتا في غيابات جب الناصرية، ولُقنتا كل زيوف وأكاذيب العهد، ولما لم يكن لهما معرفة بما قبل الناصرية، فإنهما ابتلعتا الطعم بسهولة، وكان على الكثير منهما، أن يجري لنفسه "غسيل مخ" قبل أن يتحرر من أساطير الناصرية وآلهتها الزائفة، ولكن هذا لم يكن ميسرًا خاصة وأن الجرح رُم على فساد، وأن أخطاء العهد عُلِّلَت أو هُوِّنَت أو تُكُتِّم عليها (كما هو الحال في قضية انحرافات صلاح نصر، وهزيمة 1967) بدلا من أن تُعَرى وتحاكم. ولهذا نجد أن معظم هؤلاء لا يزال مُضَلَّلا مُتَمَسِّكا بنسب متفاوتة بالناصرية.. فمن شب على شيء شاب عليه كما يقولون!

وهم اليوم في خمسينيات العمر، ورثة العهد، وجمهرة عضوية الحزب الوطني الديمقراطي الذي ورث بدوره "الاتحاد الاشتراكي"!

المجموعة الثالثة الهامة (من 20 – 50) وجدت نفسها في معسكر من معسكرات ثلاث...

المعسكر الأول: المعارضة لمخالفة الانقلاب، أو مناقضته لإيمانهم، أو مصالحهم.. ويدخل في الأولين الإخوان المسلمون والشيوعيون، كما يدخل في الآخرين الإقطاعيون والرأسماليون والحزبيون.

وعمل الانقلاب على تصفية هؤلاء.. فأعد المعتقلات الرهيبة.. واستقدم الخبراء الألمان في التعذيب والتزييف.. وفي هذه المعتقلات مورست أقسى وأقذر طرق ووسائل التعذيب.. ولكن الطبيعة البشرية، والقوة الإيمانية كانت – في كثير من

الحــالات – أقــوى من كل فنــون التعــذيب ولهــذا لم تــؤد المعتقلات إلى شل دعــوة الإخــوان، - بل لقد شب في داخل المعتقلات جيل "الرافضة الجديــدة" الــذي سـيقوم بتكفـير العهـد، ولا يـزال الإخـوان، وهـذه الفئـات الإسـلامية الشـاردة، تمثل قاعـدة المعارضة الشعبية للحكم وللعهد.

وشارك الشـيوعيون الإخـوان فـترة في الاضـطهاد والتعـذيب، ولكن عبد الناصر عنـدما وضع قنـاع الاشـتراكية على السـترة العسـكرية، أجـرى مسـاومة مع معظم الشـيوعيين، غفـروا له بها كل ما أنزله بهم من هـوان، في مقابل مسـاعدته بخـبراتهم الفنية والتنظيمية، وأغلب الظن أن أحدًا من الفـريقين لم يكن مخلصًـا، لأنهما معًا جُبلا من طينة التآمر، ولكن الصفقة كانت مجزية، وقد مكنت الشيوعيين من أن يصـلوا إلى أعلى مراكز التوجيه والإعلام... إلخ واكتسب منهم العهد تلك الغلالة الاشـــــــتراكية والشعارات.. إلخ.

على أن التـآمر لم يكن هو الـذي دفع بكثـير من الشـيوعيين لوضع يـدهم في يد عبد الناصر، لأننا لو أمعنا النظر لوجـدنا أن اللينينية هي مدرسة الشـمولية في العـالم، وأن على يدي لينين، وفي مدرسته، تخرج هتلر وموسـوليني وإذا كانا قد غـيرا الاتجـاه، فإنهما استخدما الأسلوب اللينيني.. ولهذا فإن الشيوعيين المصريين لم يتحولوا كثــيرًا، ولم يخونوا طبيعة اللينينية.

ومن هذه اللحظة، وقد هيمن اليساريون على أجهزة الإعلام، والصحافة وتشبثوا بهـا، وأيـدتهم النظم الحاكمة على اختلافهـا، لأن لـديهم المهـارات اللازمـة، ولأنهم لم يجدوا حرجًا من ناحية المبادئ – (إذا وجدت) في تأييد العهد، باستثناء الفترة الساداتية التي طرد فيها السادات الخبراء الروس، وتخلص من النفـوذ السـوفييتي.. الأمر الـذي لم يغفره الشـيوعيون المصـريون أبـدًا، ولم يشـفع عنـدهم انتصـار رمضـان، ورأوا أن الحقبة الساداتية كلها – بما فيها انتصار رمضان – ردة عن الناصرية!

أما أصحاب الأعمال ورجال الاقتصـاد، فقد جـردهم النظـام من ثـرواتهم وبـذلك أفقدهم قوتهم، على أنه ظهر أن الكثيرين منهم تحالفوا مع ضـباط النظـام وما إن بـدأ الانفتاح حتى عادوا مرة أخرى للظهور!

أما أحــزاب ما قبل 1952 فلم يكن عسـيرًا على عبد الناصر حلهــا، لأنها كـانت هشة، باستثناء حزب الوفد الابن البكر لثورة 1919، والـذي اسـتطاع أن يعـود (بحكم القضاء) في الفترة الساداتية.

وسمع السادات بظهور ثلاثة أحزاب أريد بأحدها (حزب العمل) أن يكون معارضًا مستأنسًـا، ولكن رئيس هـذا الحــزب – وهو محـارب متمـرس من أيـام مصر الفتـاة، والنائب الاشتراكي الذي طـالب بتحديد الملكية الزراعية أيـام فـاروق – لم يستسـلم.. ومع التطور أصبح هذا الحزب هو أقوى أحزاب المعارضة.

المعسكر الثاني: السلبية وقد ضم هذا المعسـكر جمهـرة الليبرالـيين من رجـال المهن من الأطبـاء والمهندسـين إلخ.. والتجـار والمـوظفين.. ومع أن معظم هـؤلاء لم يسيغوا من النظـام متـأثرين بـنزعتهم الليبراليـة، فـإنهم لم يسـتطيعوا شـيئًا، ولم يكن أمامهم إلا السلبية.

ولما كـانت السـلبية – بالنسـبة لنظـام جديد – هي نـوع من المقاطعـة، فقد تنبه النظام وعمد إلى سوقهم سوقًا إلى عضـوية الاتحـاد الاشـتراكي المفتوحـة، فانسـاقوا دون حمـاس، ودون معارضـة، ودفعـوا "الخمسة قـروش" الـتي كـانت بمثابة اشـتراك العضوية.

وبهذه الطريقة أصبح الاتحاد الاشتراكي يضم ستة ملايين، وعمد بعضهم إلى نقد العهد في المقاهي والنوادي، ولكن ظهر أن للعهد جواسيسه المكلفين بنقل النكات والإشاعات، فأوقفوا هذا، وتحولوا إلى هوايات أخرى.

وأثرت سيكولوجية السلبية على المجتمع المصري وأصابته بما يشبه الشلل ثم قننت هذا الموقف القوانين المقيدة للحرية التي حالت دون أن يمارس الناس ما يؤمنون به وجعلت السلبية أمرًا لا بديل له[33]..

المعسكر الثالث: التأييد. وهذا المعسكر يضم فئتين؛

الأولى فئة: المخدوعين، وهم مجموعة كبيرة تأثرت بالشعارات والوعود والخطابات الحماسية والمشروع القومي والمشروع الحضاري والقضاء على الاستعمار.. إلخ ولهذا أيدت العهد!

ويجب أن نلحظ هنا أن أجهزة الإعلام وصلت من الهيمنة درجة لم يُسمع فيها كلمة واحدة عن التعذيب المدوي الذي ضجت منه السماوات والأرض. في الوقت الذي رفعت فيه الآمال والأحلام وإمكان تكوين "الإمبراطورية العربية" من الخليج إلى المحيط إلى آخر هذا "العهر" الذي انطلى عليهم، فآمنوا بالعهد وأيدوه حتى جاءت قارعة 1967 فأيقظتهم يقظة مروعة وهوت بهم من السماوات إلى الدرك الأسفل، وكشفت لهم عن العصابة التي كانت تحكم مصر، والأنذال الذين كانوا يسيطرون على المعتقلات والمخابرات والعمدة وشيخ الغفر!

على أن حقيقة 1967 والعصابة والمخابرات لم تعرف تمامًا طوال الحقبة الناصرية، وإنما عرف عنها ما سمح السادات بتسريبه عندما ولي الأمر، وهذا هو السبب في أن مئات الألوف من هؤلاء المخدوعين تمسكوا بعبد الناصر – رغم الهزيمة – وأن مئات الألوف ساروا في جنازته يجهشون بالبكاء!

وبالإضافة إلى التستر على موبقات الناصرية، بحيث جهلها هؤلاء المخدعون، وانعدام وجود أي رأي آخر أو معارضة.. فإن النظام قام بعملية تكييف للطبيعة البشرية، بالشعارات المدوية، والدعايات المتكررة التي تؤثر شيئًا فشيئًا، ليس فحسب على الذين توجه إليهم، بل حتى على الذين يضعونها أنفسهم، بحيث يأتي وقت يصدقون ما ادعوه و "فبركوه"، فلا جناح على هؤلاء المخدوعين إن صدقوا هذه الدعايات.

***

والفئة الثانية من المؤيدين: هي الحاشية والبطانة التي جعلتهم الظروف يلتحقون بالنظام، ويضعون أيديهم في يده، ويشغلون المناصب الكبرى في الحقبة الناصرية، سواء لأن عبد الناصر قد اختارهم، أو لأنهم اختاروا عبد الناصر.. ويدخل فيهم الوزراء ورؤساء تحرير الصحف، وقيادات الاتحاد الاشتراكي وزعماء الحركة النقابية الذين أفرزهم التنظيم السياسي ويدخل فيهم الـ 50% الذين أخليت لهم الدوائر الانتخابية بحيث أصبحوا نوابًا من حيث لم يحتسبوا، ودون أن يعرفوا ما هي النيابة! وكانت ثمنًا للولاء والإخلاص والتصفيق والهتاف، وهم ضباط وجنود وأوغاد السجن الحربي ودولة المخابرات. وهم قيادات الإذاعة والتليفزيون الذين جعلوا منها صوت سيدهم.. وكما هو واضح فهي مجموعة كبيرة تورطت مع العهد في كل قاذوراته وسخرت مناصبها لتدعيمه وتأييده، فهي لا تستطيع – حتى لو أرادت – التخلص منه، أو

33 **(?) لقد حاولت بعض النقابات المهنية كالمحامين والصحفيين المقاومة فحلها النظام وشتت قادتها.**

التنكر له، ولما كانوا قد ظلـوا في مراكز القـوة والنفـوذ سـنوات طـوال ومعظمهم عمل مع عبد الناصر والسادات وبعضهم واصل المسيرة حـتى مبارك؛ فقد أصـبحوا يعتقـدون أن هـذه المناصب حق ثـابت لهم، وأن أي نقد للنظـام أو تغيـير يقتلعهم من عروشـهم، وقد يعرضـهم للمسـاءلة الجنائية! وقد يجردهم من أموالهم التي اكتسبوها بحكم وظـائفهم، وقد يـزج بهم إلى السـجون.. فكيف إذن لا يسـتقتل هـؤلاء في الـدفاع عن الناصـرية الـتي غرسـتهم ووضـعتهم على الكراسي العاليـة، ولما كـانت مخازي الناصرية لم تعلن حـتى الآن. وصـوت الـتزييف لا يـزال أعلى من صوت الحقيقـة، فـإنهم اسـتمرءوا اللعبة وكونـوا حزبًا ناصـريًا وأصـدروا صـحفًا ووجـدوا مسـاندة من أمثـال القـذافي وذيـول عـدن وبقايا الماركسـية.. وفلـول الجيل المخـدوع، فضلا عن أن تخبط السياسـة، وتفاقم الفساد قدم لهم مناخًا مواتيًا.

وعنـدما يتلاقى العامل الثقـافي والانتمـاء السياسي وشـغل المناصب في فـرد واحـد، كما هو الحـال في معظم أدعيـاء التنـوير، فـإن الأثر يكـون مضـاعفًا ويصل من القوة درجة يغلب فيها شخصيات ناضجة ومثقفة ومتمرسة، لأن قدرة الطبيعة البشرية على المقاومة محـدودة، ولأن الزيـوف تأخذ - مع الـزمن ومع الهـوى إلخ - طـابع الحقائق، وهذا وحده هو الذي يفسر لنا كيف أن كاتبًا متمرسًا مثل الأستاذ محمد عودة يتحدث عن "الديمقراطية" أيام عبد الناصر، ويصور التعذيب كتجاوزات محدودة، أو أن كاتبًا مثل محمود السعدني نال نصيبه من الضرب والركل والشتائم والصـفعات، ينسى كل هذا ويغتفره لأن "ضرب الحـبيب مثل أكل الـزبيب". ولا يسـتطيع هـو، أو عـوده أن يوضـحا لنا تحت أي اسم من مفـردات العمل السياسي الشـعبي الـديمقراطي الـذي يكون فيه الشعب هو السيد.. المعلم إلخ!! يمكن أن توضع موبقات التعـذيب وظلمـات الإرهاب وقبضة الديكتاتوريـة، وكيف يمكن لأسـتاذة محنكة في القـانون الدسـتوري أن تضرب بقرارات القضاء عرض الحائط لأن المجلس "سيد قـراره" وتـرى أن الدسـتور الذي أصبح أشبه بثوب مرقع.. مهلهل.. ليس في حاجة إلى تعديل...

إننا لا يمكن أن نفهم مثل هـذه المواقف إلا في ضـوء الآثـار الماحقة للثقافـة، والمـران الـذهني، والتكـييف النفسـي، والانتمـاء السياسـي... والـدفاع عن النفس والحـرص على المصـالح المكتسـبة فمع هـذه العوامل كلها لا يمكن أن يوجد مكـان للمنطق أو الحقيقة الموضوعية.

ولكن أين يذهبون من حكم التاريخ.. وإلى متى يمكنهم أن يطاولوا التطور.. فإذا سـمح لهم المـدى القصـير، وبقايا الماضي باسـتمرار الأكـاذيب فـإن حكم التـاريخ في النهاية حاسم.. ولن يفلتهم كما لم يفلت لينين وسـتالين، وهتلر وموسـوليني وأتبـاعهم وكانوا أعز نفرًا وأكثر قوة من الناصرية الهزيلة...

(ج) حاجز الدين:

أدى حاجز الدين – أي اعتناق غـير الإسـلام – بمجموعة من الكتـاب والمفكـرين لأن تُغلِّب الذات على الموضـوع بصـفة مكثفـة، وهي مجموعة محـدودة العـدد، ولكنها كبيرة التأثير بحكم ما وصلت إليه من ثقافة أو ما في يـدها من سـلطات.. كما أن هـذا العامل يكتسب حساسية خاصة لارتباطه بدين إحدى فئات المجتمع المصري.

ومعالجة هـذه النقطة تثـير تـداعيات عديـدة لا نريد لها أن تبعـدنا عن السـياق.. ولكن يبدو أن من العسير الخلاص منهـا، وأن من الضـروري مجابهتهـا، ونحن لا نتنـاول القضـية القبطيـة، ولكننا فحسب نعـالج واقعة ذات تـأثير في موضـوعنا، **تلك هي أن فهم كثـير من الأقبـاط لمقتضـيات الإيمـان جعلهم يقفـون من الإسـلام**

موقفًا يضعهم في أزمة تجني عليهم أولا، وعلى المجتمع ثانيًا.. وكانوا في غنى عنها لو فهموا الموضوع بالطريقة التي سنعرضها.

والحقيقة أن الرغبة في تعريف مواطنينا الأقباط بطريقة القضاء على الأزمة هي التي شجعتنا على أن نمضي في معالجة القضية بقدر ما يتطلب الموضوع وليس ابتسارها، أو الفرار منها.

وكما هو معروف، فإن عددًا من سكان مصر يؤمن بالمسيحية، وقد وجدوا قبل الفتح الإسلامي، ورحبوا به، ورحب بهم، وكفل لهم حرية العقيدة والعمل، وفي هذا المناخ عاش الأقباط ووصل عدد من قياداتهم إلى أعلى المناصب طوال العصور الوسيطة التي كانت الأقليات – بما فيها المسلمة أو اليهودية – تحرم من مجرد الوجود.. وفي العصور الحديثة تقلد اثنان من الأقباط رئاسة الوزارة، واعتبر الأقباط أنفسهم جزءًا لا يتجزأ من شعب مصر، ورفضوا – عند وضع دستور 1923 – أن يعاملوا معاملة الأقليات، وقد فهموا، وتقبلوا، أنهم يعيشون في دولة دينها الإسلام، ليس فحسب لأن هذا هو الأمر الواقع الذي لا يمكن المجادلة فيه، ولكن أيضًا لأنه يمنحهم من الحقوق، ويفتح لهم من الأبواب مالا تفتحه لهم "الديمقراطية" التي تكون فيها القرارات والقوانين تحت رحمة الأغلبية.

ورأوا أنه مادام المجتمع الإسلامي في مصر يكفل لهم الحرية الدينية، ويفتح أمامهم أبواب المناصب وحق المساواة في الفرص.. إلخ، **فإن الطريق الحكيم هو أن ينتهزوا هذه الفرصة ويسلكوا هذه المسالك كمصريين لا كأقباط، لأن أي إثارة للمعنى الديني في هذه المجالات الاقتصادية، والحكومية، والسياسية، لن يكون في مصلحتهم، وقد يحرمهم من وضع "الجزء الذي لا يتجزأ" إلى وضع (الأقلية) التي تختلف عن الأغلبية، والتي تحدد حقوقها بقدر حجمها، وتبينوا أنهم لو غبنوا، فعليهم مضاعفة الجهد مادامت الأبواب مفتوحة، وهذا هو ما فعلوه فعلا ونجحوا في الاستحواذ على عديد من المواقع، وكان يهمهم أن يبنوا من المدارس القبطية أو المصانع، أكثر مما يبنون من الكنائس، لأن المهم في النهاية هو التعليم والمهارات... إلخ.. كانوا أذكى بكثير من الذين جاءوا بعدهم وأصيبوا بعدوى "الشنودية"([34]) وأخذوا يتحدثون عن "سلبية الأقباط" في حين أن سلبية الأقباط – كأقباط – كانت وسيلة أو مدخلا للاستحواذ على المناصب، لأن إبراز المقوم القبطي سيبرز بالضرورة الصفة الخاصة التي يمكن أن تؤثر على ما يستحوذون عليه، فهي لن تعطيهم ولكن يمكن أن تأخذ منهم!**

وكان الاحتلال البريطاني قد حاول أن يطبق مبدأه (فرق تسد) فجرب تأليب الأقباط وانصاع له بعضهم، وعقدوا المؤتمر القبطي الشهير في أسيوط عام 1910.

وظهرت جمعيات تبشيرية للمذاهب المسيحية الأوروبية، ونشط المبشرون في الثلاثينيات واتخذوا من بيت عرابي باشا في باب اللوق بالقاهرة مقرًا لاجتماعاتهم، وفتحوا عددًا من المدارس تتبع الكنائس المسيحية المختلفة.

ولكن هذه الجهود كلها لم توجد فرقة، لأن الكنيسة القبطية كانت حكيمة، فلم تستسلم للإغراء أو تنطلي عليها الألاعيب، واتسم البطاركة الذين تسنموا كرسي القديس مرقص بالفطنة والطيبة والإخلاص ومعرفة دقائق الأمور، واعتبر كل واحد منهم نفسه رئيسًا لمجموعة من المصريين يعيشون في وطن أغلبيته الكاسحة من

---

34 (?) **نسبة إلى الأنبا شنودة الذي وضع للكنيسة القبطية خطا يختلف عن خط الآباء السابقين عليه، كما سيلي.**

المسلمين، ويدينون بـالولاء لـرئيس كل المصـريين، ولا يجـدون حساسـية في أن هـذا الرئيس مسلم، وكان هذا الموقف يتفق مع الروح المسيحية التي أرساها آبـاء الكنيسة بولس وبطرس وغيرهما.

ويمكن القــول إن البطاركة كـانوا أكـثر حكمة من العناصر القبطية "العلمانيــة" وأكــثر ارتباطًا بالحكومــة، وإن الاحتكاكــات الــتي حــدثت لم تحــدث ما بين الكنيسة والحكومة، أو الكنيسة وهيئـات إسـلامية.. ولكن بين الكنيسة و"المجلس الملي" الـذي يضم العناصر المدنية القبطية، وقد يصور ذلك موقف البطريرك كـيرلس الخـامس في العقد الأخـير من القــرن التاسع عشر عنـدما تــوترت العلاقــات ما بينه وبين المجلس الملي الــذي كــان يرأسه بطــرس غــالي، وســافر البطريــرك في صــيف 1891 إلى الإسكندرية حيث كان الخديوي توفيق يصطاف وعرض عليه الأمر وتوسط للصلح.

ولكن الأمـــــور تـــــأزمت بعد ذلك وطلب المجلس الملي من الحكومة تنحية البطريرك من رئاسة المجلس واختير أسقف صـنبو (أسـيوط) رئيسًـا للمجلس، ووكيلا عن البطركخانة، ولكن البطريرك عقد مجلسًا كنسـيًا وأصـدر قـرارًا بحرمـان الأسـقف وقطعه من الكنيسة!

واجتمع المجلس يوم أول سبتمبر 1892 وأصدر قـرارًا بإبعـاد البطـيرك إلى دير البرموس وأرسل القرار إلى مجلس الوزراء الذي لم ير مناصًا من الموافقة عليه حتى لا يزيد الخلاف حدة.. وهكذا رحل البطريرك إلى الدير!

وبعد فـترة أعـاد المجلس الملي النظـر، ونـدم على ترحيله للبطريـرك فأرسل وفدًا قابل الخديوي طالبًا إعادة البطريرك فوافق على ذلك.

يقـــول مؤلفا "الإيضـــاحات الجلية في تـــاريخ حـــوادث المســـألة القبطية": "ولما ذهب الوفد إلى البطريـرك في دير الـبرموس قـال لهم البطريرك: إني قد استبعدت من مركزي بأمر من جناب خديوينا السـامي العظيم، وأمرت من لدنه ألا أتكلم العالي.. فقـال لهم أين المكاتبة الـتي بأيديكم بالتصريح لكم بذلك؟ فإذا كان في أيديكم مكاتبة من الحكومة فلا أتأخر عن الإجابة وإطاعة لأمر أفندينا المعظم..."

في مقابل هذا، كان "أفندينا" يبجل البطريرك تبجيلا شديدًا ويـؤمن أنه رجل مبارك...

كما يمكن ضرب المثل أيضًا بموقف البطاركة المصـريين إزاء الكنيسة الحبشـية التي دانت لهم بـالولاء.. وكـانت تطلب منهم ترشـيح "مطـران" ليكـون رأسًـا للكنيسة الحبشية، فلم يحـاول أحد آبـاء الكنيسة المصـرية اسـتغلال هـذا الموقف سياسـيًا، كما كان المطران المصري الذي رشحه البطريرك بعد تمحيص – يعتبر نفسه حبشيًا بمجرد توليه سـلطانه.. ومع أن ثقة ملـوك الحبشة كـانت مطلقة في الكنيســة، فلم تحــاول الكنيسة المصـرية اسـتغلال هـذه الثقة لنفسـها في يـوم من الأيـام، أو الحصـول على مطـامع أو مناصب أو التـدخل في شـئون الحبشـيين.. وكما لم يحاولها أيضًـا المطارنة المصريون الذين رأسوا الكنيسة الحبشية...

هذه السياسة الحكيمة التي وضـعها آبـاء الكنيسة المصـرية، والـتي تجمع ما بين الحفـاظ على العقيـدة والمواطنة وعـدم إثـارة المعـنى الطـائفي للأقلية القبطية في مصر، قضت على بـذرة "الحساسـية" ما بين الأقبـاط والمسـلمين، وتجلت في المبـدأ الذي وضعه السياسي القبطي النابه "مكرم عبيد" الذي يقول: "أنا قبطي دينًا، ومسلم وطنًا"...

ولكن هذه السياسة تغيرت تغيرًا جذريًا في الربع قرن الأخير نتيجة لعدد من العوامل كان منها زحف معسكر "المجلس الملي" ومنشآته على معسكر الكنيسة الكهنوتي الذي قصر نشاط الكنيسة على الجانب الروحي.. وكان معسكر المجلس الملي قد خضع لكل المؤثرات الدنيوية التي لابد وأن تؤثر على التنظيمات الفئوية وتجعلها تعمل لما يحقق لها المصلحة على كل المستويات، أي بالنسبة لكل المجالات.. وبالنسبة لطبيعة هذه المصالح وهل هي سريعة المدى... إلخ. وكان هذا الاتجاه يضلل أصحابه، أو يعرضهم للوقوع في أخطاء أو الدخول في صراعات، شأن كل تنظيم من هذا النوع...

على حين كانت الكنيسة تتمسك بمبدأ قامت عليه "الديانة" المسيحية، وكان وراءها خبرة وتراث ألف عام. وكانت الديانة، والفطرة، والخبرة التاريخية والوجدان.. كلها تجعل آباء الكنيسة يحجمون عن المطامع والدخول في غمرات الدنيا والتعرض لإغراءاتها وصراعاتها... إلخ.

ولكن اتجاه التطورات كان يدفع بالمعسكر الدنيوي الملي إلى الأمام ويعلي صوته على صوت الكنيسة. وقد رأينا أنه في فترة مبكرة استطاع أن يضغط على الحكومة لتنحية البطريرك كيرلس. وقد زادت التطورات الأخيرة من قوة الاتجاه الدنيوي.. وكان من أبرز دلالات ذلك انتخاب الأنبا شنودة الذي عرف بالحيوية والفعالية وإرادة النهضة بالطائفة.

آفة الطموح:

وكما نقول دائمًا فإن الطموح – وإن كان من المكونات الرئيسية لكل زعيم وقائد – فإنه ما لم يقترن بالحكمة، والحذر، والشورى، وملاحظة العديد من الاعتبارات، والأبعاد، ومقاومة الإغراء بحيث يقف القائد عند نقطة معينة لا يتعداها.. فإن الطموح يمكن أن يؤدي إلى عكس ما استهدفه.. ففي الطموح طبيعة المقامرة، والمغامرة، والمقامر الحكيم وحده – إذا وُجد – هو الذي يستطيع مقاومة الإغراء الذي يمكن أن يودي بكل ما ربحه!

ويتعرض القائد الطموح لعملية نفسية/ اجتماعية دقيقة يتداخل فيها الطموح الذاتي بالهدف العام ويتمازجان حتى يصبحا شيئًا واحدًا، وقد يمثل ذلك قولة لويس الرابع عشر (أنا الدولة) أو كلمة سعد زغلول "لا تحرج سعدا، فتحرج الأمة!" كما قد يصوره انحراف لينين عن الخط الموضوعي والأصيل لكل أدبيات الاشتراكية وتداعياتها من حرية، ومساواة جماهيرية، وعدالة.. إلى سياسة المركزية الديمقراطية في السياسة والأخذ بالتيلورية في سياسة العمل، وقمع المعارضة العمالية.. إلخ. وإذا كانت هذه الاتجاهات التي نبعت من الإيمان الشخصي للينين قد قهرت روح الاشتراكية وطبيعتها، فهذا ما يعطينا مثالا حيًا عن قوة الطموح وكيف يجعل القائد يرى نفسه ممثل الدعوة، وكيف يدفعه للسير قدمًا حتى يوقفه على حافة الهاوية، وفي معظم الحالات يوقعه فيها...

وقد لا نجد كتابًا عني بمثل هذه النقطة وفصل فيها ونوه بها ونبه عليها مثل القرآن الكريم... فالقرآن يسلم بضرورة وجود القائد والإمام، ولكنه يجعله "رسولا".. ومعنى هذا أن يستبعد كل المعاني الذاتية ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (آل عمران 128)، وهو يؤكد أن دور الرسول هو البلاغ، ويسوقه في صيغة الحصر ﴿ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وأنه ليس جبارًا، ولا حفيظًا، ولا حتى وكيلًا عن الناس، وهو يوجهه لكي لا تستبد به الرغبة في الهداية إلى الدرجة التي قد يغلب فيها المعنى الخاص المعنى العام رغم أن دور الرسول هو بالطبع أن يهدي الناس وبقدر ما ينجح في هداية أكبر عدد بقدر ما يعد

مؤديًا لرسالته، ولكن الأمر ليس بهذه البساطة لاحتمال تداخل المعنى الخاص بالمعنى العام، ولأن هناك أناسًا لا يمكن هـدايتهم لأسـباب عديـدة، وليس من دور الرسـول أن يهديهم قسرًا، ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى﴾ ..﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُـوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ ..﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللـهَ يَهْـدِي مَن يَشَـاءُ﴾ ..﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّـمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُـدَى فَلاَ تَكُـونَنَّ مِنَ الْجَـاهِلِينَ﴾ ..﴿وَلَـوْ شَـاءَ رَبُّكَ لَجَعَـلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِـدَةً وَلاَ يَزَالُـونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِـذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَـةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ..﴿ إِن تَحْـرِصْ عَلَى هُـدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

وهو يوجب طاعته على المؤمنين، بل يصل إلى آخر مـدى فيقـرن طاعته بطاعة الله.. ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾.. وهذا طبيعي ما دام الرسـول يبلغ رسـالات الله.. ولكن أي انحراف عن ذلك يعرض الدعوة لخطر كبير، ولذلك يخـاطب القـرآن – بلهجة حازمة لا تـدع أثـارة من شك – الرسـول: ﴿وَإِن كَـادُوا لَيَفْتِنُونَـكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاتَّخَـذُوكَ خَلِيلا * وَلَـوْلاَ أَن ثَبَّتْنَـاكَ لَقَـدْ كِـدتَّ تَـرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً * إِذًا لأذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾

وإلحاح القرآن الكريم على هذه النقطة ومعالجته لها من كافة نواحيها وما يتسم حديثه عنها من حسم وقـوة، يوضح خطورتهـا.. وإذا كـانت بمثل هـذه الخطـورة، حـتى على الأنبياء والمرسلين، الذين تحوطهم هداية الله ورحمته، ويتـنزل عليهم الـوحي من السماء، فما بالك بخطورتها على القادة العاديين؟.. إن سجلات التاريخ حافلة بمصـارع الطامحين والويلات التي ألحقوها بشعوبهم.

***

ومن الدلالات التي تنم عن أن الطموح قد جاوز منطقة السلامة وشارف منطقة الخطـر، أن يحـاول القـادة التوسع ومد سـلطانهم إلى منـاطق جديـدة، وأن يعنـوا بالسياسة الخارجية مثل أو أكثر مما يعنوا بالسياسة الداخلية إذ مجـال العمل الحقيقي هو "الداخل" وأي "خارج" يمثل طموحًـا، وقد يمكن المقارنة ما بين بسـمارك وكـافور اللذين حققا الوحـدة الألمانية والإيطالية بوسـائل وسياسـات حكيمة ومتأنية ووقفا عند ذلـك، وما بين هتلر وموسـوليني اللـذين اسـتهدفا التوسع فبـاءا بالفشل وجـرا الهزيمة على بلديهما.

وقد بلغ البطريرك شنودة هذه الدرجة عندما استدرج لأن يكـون رئيسًـا لمجلس الكنـائس العالمية ذي العلاقـات المشـبوهة بالمخـابرات المركزية الأمريكية (س. آي. إيـه) وأخذ يرسي ركـائز له في أسـتراليا والولايـات المتحـدة، وهـذا كله – فيما نـرى – طمـوح دنيـوي وسياسـي، ليس فحسب بعيـدًا عن روح الأب المسـيحي، بل يمكن أن يسيء إلى صفته كمرشد روحي للأقباط المصـريين، ويربط ما بين مـواقفهم ومواقف الجاليات التي تتعرض لمؤثرات أخرى غير مصرية!

معضلة الشنودية:

إن معضلة السياسة الـتي وضـعها الأنبا شـنودة للكنيسة المصـرية، هي معضـلة الرجل الذي يريد أن يأكل الكعكة ويحتفظ بها في الوقت نفسه!

فالشنودية من ناحية تضـيق بـإبراز المعـنى الإسـلامي في أي شـيء.. حـتى في الأسـماء.. ولم يفتها – في حساسـيتها المرهفة – أن السـادات في مرحلة (العلم والإيمان!) أصبح يبرز اسمه "محمد أنور السادات" وليس "أنور السـادات"، وهي تنـدد بأي دعوة "لأسلمة" ما، وتضيق بأي حديث عن الإسلام، وتناصر دعوة الدولة العلمانية،

التي ينفصل فيها الـدين عن الدولـة، وتكـون مصر لكل المصـريين، بصـرف النظر عن الدين.. وترى في إبراز المعنى الإسلامي "شقًا" لوحدة الأمة.

وفي الـوقت نفسـه، فإنها تـدعو لتعميق المعـنى القبطي ولبعث آثـار الحضـارة القبطيـــة، وتـــدعو للاحتفـــال في المناســـبات القبطية وتطـــالب بمزيد من المناصب والوظائف... إلخ للأقباط.

ومن الواضح أن هذين الجانبين للشنودية متناقضان...

فإذا كانت الشنودية تدعو للدولة العلمانية وتضـيق بـإبراز المعـنى الإسـلامي فلا يجوز لها أن تمارس "الشنشنة" القبطية بكل مكوناتها.

وإذا كانت ترفع راية "القبطية" وتطالب بحقوق للأقباط كأقباط، فلا يجوز لها أن تدعي الدولة العلمانية ولا الدعوة إلى "كل المصريين"، ولا يصح لها أن تضيق بالـدعوة الإسلامية...

وتظهر المأســـاة الـــتي وضـــعت الشـــنودية نفســـها فيها بقـــدر ما ترتفع إلى المستويات العليا، فقد لا يظهر أثرها بين موظف قبطي صغير، وموظف مسلم صـغير، أو تاجر قبطي، وتاجر مسلم... ولكن عندما يريد أحد الأقبـاط النـابهين والموهـوبين أن يصل إلى أعلى مستويات المجتمع أو القيادة العامة، كأن يكون رئيسًـا لحـزب أو نقابة عامة ضخمة، أو يكون وزيـرًا... إلخ فلابد وأن يجد الإسـلام أمامـه، سـيجده في إيمـان القيادات الأخرى،... وسيجده في التاريخ، والقيم، والمثل العليا، والشخصيات التاريخية الـتي يكـون عليه أن يستشـهد بها وتسـتأثر بحب واحـترام المصـريين.. سـيجده في رمضـان، وعيد الأضـحى، ومولد النـبي.. سـيجده في القيم الـتي غرسـها الإسـلام في المجتمع المصري: كتحريم الخمر، والالتزام بقدر من العفة...

إن الشنودية تضع الزعيم القبطي في مأزق.. فإذا أراد إبراز المقومـات القبطية – كما تملى عليه – فسـيكون لهـذا أثـره بـالطبع وبالضـرورة – على وحـدة المشـاعر، وتجاوب الوجدان مع جمهوره المسـلم، وإذا سـلك أقل "الإيمـان" فلم يـبرز الخصيصة القبطيــة، وفي الــوقت نفسه تجاهل المشــاعر الإســلامية، فإنه لن يصل إلى أعمــاق جمهوره، وسيخسر الأوتار الحساسة والنبض الحي فيها!

هل معـنى هـذا أن تخسر مصر مـواهب بعض القـادة من أبنائها نتيجة لأنهم من الأقباط؟ كلا... إن هناك طريقًا.. ولكن الشنودية تغلقه... وما من مصري مسلم يضـيق بقبطي لأنه قبطي، لأن هذا يخالف الـروح المصـرية والإسـلامية على سـواء.. وقبل أن نعرض الحل على أسس مبدئية وبصورة تتعـانق فيها القبطية كـدين والإسـلام كـوطن، كان السياسي القبطي النابه مكرم عبيد قد اهتدى إليه بحاسته...

وسنعرض في نهاية النبذة لهذا الطريق...

***

لم يقتصر نقد سياسة الأنبا شنودة على الـدوائر الوطنية الـتي رأت أن سياسـته تضرم نار التعصب الفئوي وتنـاقض وحـدة الأمـة، فهنـاك معارضة قوية لهـذه السياسة نشأت بين عدد من الأقباط النابهين الذين أدركوا المغبة السيئة لسياسة الأنبا شـــنودة، وما تتمخض عنه من هـــدم الألفة والثقة الـــتي أقامها البطاركة الســـابقون بحكمتهم والخطـوط الـتي سـارت عليها الكنيسة القبطية ومثلت تقاليـدها وخلاصة تجربتها في معايشة المجتمع المصـري، وظهر عـدد كبـير من الكتـاب الأقبـاط مثل الأسـتاذ جمـال سـعد عبد الملاك مؤلف كتـاب "من يمثل الأقبـاط" وهي نقطة من أهم النقـاط وفي صميم الموضوع والفكرة الرئيسية للمؤلف أنه إذا كـان البابا هو الـذي يمثل الأقبـاط – كما هو الظن السائد – فإن هذا تركيز للمعـنى الفئـوي وفصم لوحـدة الأمـة؛ فالأقبـاط

كمواطنين مصريين تمثلهم انتماءاتهم المختلفة داخل الأحزاب أو النقابات، شأنهم في هذا شأن إخوانهم المسلمين، أما البابا فإن سلطته يجب أن تكون مقصورة على النواحي الروحية الخالصة دون أي ناحية دنيوية، ومن الواضح أن هذا يناقض سياسة الأنبا شنودة.

كما ظهر تيار قوي يعارض الطريقة التي يدير بها الأنبا شنودة شئون الطائفة، وطريقة تعامله مع الكهنة، أو تصرفه في الأموال، وهي نواح كنا نود لو تُعفى من الإشارة إليها لولا دلالتها فيما نحن بصدده. وأن موقفه من الفكر الإسلامي هو جزء من الموقف العام له نحو كل من يعارضه أو يختلف معه مسلمًا:كان أو مسيحيًا!

ونشرت مجلة روزا اليوسف [العدد 3413 في 8/11/1993] ص 8 تحت عنوان "منشورات المعارضة في الكنيسة المصرية" تقريرًا صحفيًا أشار إلى صدور 136 منشورًا تنتقد أوضاع الكنيسة و 67 كاهنًا تمت معاقبتهم منذ تولي البابا وأشار إلى أن "المعارضة لا تمثل الجماهير، ولكنها تحظى برضا المثقفين" وأبرز التقرير أن بعض أشد المعارضين كان في يوم ما من أشد أنصار البابا مثل الأستاذ جمال أسعد عبد الملاك، ومثل بعض ممن وقف مع البابا أيام أزمته مع السادات عام 1981. وأن حجم المعارضة وإن لم يكن كبيرًا فإنه يتصاعد بشدة. ومعظم المعارضة تأتي من كندا وأستراليا وأمريكا.

ويستطرد التقرير.

كما شكل بعض رجال القانون من الأقباط لجنة تحت اسم "جبهة الإصلاح الكنسي القبطي" مهمتها الدفاع عما ما أسموه المبادئ الكنسية الأصلية وحددوا تحفظاتهم على إدارة الكنيسة في ست نقاط:

1- عدم وجود لوائح منظمة للمحاكمات الكنسية لرجال الدين والمدنيين.

2- عدم وجود لوائح مالية وجهات رقابية من الدولة وأجهزتها على إيرادات ومصروفات البطريركية باعتبارها جهة عامة ويصدر قرار جمهوري بتعيين رئيسها.

3- عدم وجود حلول جذرية لتصاريح الزواج المعطلة في المجلس الإكليريكي وما يثار حولها.

4- النهوض بالأديرة والرهبنة ومنع الرهبان من الخروج من أديرتهم وسحب من يخدم منهم في كنائس الكرازة والمهجر من الخدمة وإحلال كهنة علمانيين بدلا منهم بعدما تناثر حولهم من اتهامات.

5- مناقشة ما رفع إلى الجهات الرقابية بالدولة من تقارير عن ميزانية هيئة الأوقاف القبطية والتي قال المشرف عليها إنه لا يعرف عنها شيئًا.

6- العمل على إلغاء الخط الهمايوني الذي يحظر إقامة الكنائس إلا بموافقة رئيس الجمهورية.

ومعظم هذه المطالب ينادي بها المعارضون الآخرون، وقد ظهر بعضها في المنشورات التي صدرت ووزعت على الأقباط، وهي أبسط أوجه الخلاف مع البابا وإن أضيف عليه ما أسموه بدكتاتورية البابا حيث يرون أنه انفرد بحكم الكنيسة واستطاع فرض آرائه على الجميع، وحسب ما قاله جمال أسعد إن البابا تخلى عن مبادئ الديمقراطية التي كان ينادي بها قبل توليه المنصب البابوي وذلك بعد أن أحكم سيطرته

على المجلســين اللــذين يقــودان الكنيسة وأولهما المجلس الملي الــذي يقــود الكنيسة إداريًا وماليًا ويضم في عضـويته 24 شخصًـا من المـدنيين ورجـال الـدين ويتم اختيـارهم بالانتخـاب الحر المباشر من قبل الأقبـاط المقيدين في جداول الانتخابات العامة. أما الثاني فهو المجمع المقـدس الـــذي يضم جميع المطارنة والأســاقفة على مســتوى الجمهورية وهو يختص بمحاكمة البابا ومحاكمة من يهرطق في الدين.

ويوضح جمـال أسـعد كيفية سـيطرة البابا على المجلسـين بقولـه: "إن البابا أصر على عمل قائمة بأســماء المرشــحين الــذين يــرغب في نجـاحهم في انتخابـات المجلس الملي والـتي تجـرى كل خمس سـنوات. ومن الطــبيعي أن يختــار الأقبــاط قائمة البابا في ظل تقديســهم له وبالتـــالي أصـــبح أعضـــاء المجلس الأربعة والعشـــرون تـــابعين له لا يســتطيعون معارضــته خاصة بعد أن جعلهم شمامسة وهي رتبة كهنوتية وبذلك أصبحوا خاضعين له بحكم الوضع الكهنوتي الجديد.

أما بالنسبة للمجمع المقـدس الـذي يعتـبر أعلى سـلطة روحية في الكنيسة فقد سيطر عليه من خلال زيـادة عـدد أعضـائه وتعـيين عـدد من الأساقفة الموالين له وذلك من أجل القضاء على سلطة الحرس القــديم من الأساقفة الذين عينوا ورسموا في عهود سابقة عليه.

وقد استطاع البابا زيـادة عـدد الأعضـاء عن طريق إنشـاء أبرشـيات جديدة يرأسها أساقفة جـدد حيث كـانت كل محافظة بها أبرشـية واحـدة فقـــام البابا بتقســـيمها إلى عـــدة أبرشـــيات حـــتى وصل عـــددها في محافظــات أســيوط والمنيا وســوهاج إلى ســبعة في كل محافظة على سـبيل المثـال، ومن الطـبيعي أن يخضع الأسـاقفة الجـدد لسـلطة البابا وخاصة أنه يختارهم من الموالين له.

وهو الأمر الذي يؤكد البعض أنه لهذا السـبب فقد المجمع المقـدس أية صـــلاحية في مناقشـــته في أي مشـــاكل روحية أو عقائدية تمس الكنيسة والأقباط، فالذي يعـارض البابا داخل المجمع يحاصر من الأغلبية ويتجنبـوه مثلما حـدث مع الأنبا غريغوريـوس أسـقف البحث العلمي كما يروي جمال أسعد الذي كـانت له آراء في جـوانب عقائدية تمس التطـور مثل قضايا الطلاق والـزواج، حيث ينـادي بإباحة الـزواج من أخت الزوجة المتوفــاة وهو الأمر الـــذي يرفضه البابا شـــنودة، ولـــذلك أصـــبح الأنبا غرغوريوس معزولا من الجميع حـتى أن أحـدًا من الأسـاقفة لا يجـرؤ أن يدعوه للصلاة في أبرشيته رغم أنه أسقف البحث العلمي حـتى لا يغضب البابا شنودة.

وسـجل أحد كهنة الكنيسـة، وهو القمص أنـدراوس عزيز سـليمان المآخذ الـتي يأخــذها لفيف من الكهنة على سياسة الأنبا شــنودة، وبعضــها يتعلق بإضــرام التعصب وتعميق المعاني الفئوية وإيجاد حساسية ما بين الأقباط والمسلمين، وهو يقول:

"إنني كمسيحي أجزم بأننا نتمتع بكل حقوقنا، فلا تمييز أو تفرقـة، فمنا من يحتل مراكز كبــيرة في الجيش أو البــوليس أو دواوين الحكومة المختلفـــة، ومنا من يمتلك العمـــارات والأعمـــال التجاريـــة، والآلاف والملايين في البنوك وهناك أيضًا الفقراء الذين يكسـبون خـبزهم بالكـاد والكد مثلنا مثل الإخوة المسلمين. وهناك الكنائس الـتي سـاهمت الدولة

في بنائها مثل الكاتدرائية بالعباسية أو قامت ببنائها كلها على نفقتها مثل كنيسة العاشر من رمضان...

"فإذا كان هناك شخص متعصب، مسلم أو مسيحي، فهو رجل مريض وعلى الدولة أن تتخذ ضده ما يمكن من وسائل العلاج، قد يكون علاجًا نفسيًا أو إعلاميًا أو تهذيبيًا، فهذا عمل الدولة، أما من ناحية الكنيسة أو المؤمنين فعليهم أن يقدموا له المحبة والصداقة وأن يتداخل المسلم مع المسيحي ويتلاحما، لتكوين نسيج واحد هو هذا المجتمع العظيم، مصر...".

والاضطهاد ليس معناه حرمان من درجة أو وظيفة أو ترقية، فهذه أشياء مادية وقتية بعيدة عن سلطة الكنيسة الروحية.. ولكن الاضطهاد معناه السحل والقتل والحرمان من ممارسة الشعائر الدينية، وهذا لم ولن يحدث نهائيًا، ولكنها كلمة تستغل في غير مكانها تخدم أغراض من يبحثون عن الزعامة الشعبية للأقباط!.

والمسيحية مملكة ليست من هذا العالم، رئيس أو ملك هذه المملكة هو السيد المسيح له المجد، وسر قوة هذه المملكة أنها ليست من هذا العالم، تؤثر فيه بمبادئها وسماحتها وحبها السامي ولا تتأثر به "تعيش في العالم ولا يعيش العالم فيها..".

"فهي تستطيع أن تعيش في ظل كل القوانين والتشريعات سواء كان هذا التشريع مصدره الشريعة الإسلامية أو القانون الروماني أو الفرنسي، فكل هذا لا دخل له في القلب الداخلي النقي أو عرش المسيح أو مملكة المسيح الروحية...".

"وقد عاشت الكنيسة مع الشريعة في كل عصور الإسلام صنوان متحابان كل في طريقه، هذه تحكم الوطن كقانون مدني وتلك تحكم الروح كقانون سماوي خاضع لتشريعات الدولة، فإذا كان القانون المدني يحاكم السارق والزاني والمجرم فليسر في طريقه وليأخذ كل مخطئ جزاءه بالشريعة ولتستمر العلاقة الروحية كقانون سماوي بين العبد وربه.."[35]

ورأي المؤلف أن الكنيسة تحولت كجماعة للمؤمنين وملك خلاص للضالين، مستلهمة تعاليمها من وحي الروح القدس إلى حزب سياسي اقتصادي منهجي يسعى لاكتساب الرأي العام الداخلي والخارجي بكل الوسائل... ".

ويقول المؤلف:

"لقد عشنا سويًا مسلمين ومسيحيين على ثرى هذا الوطن، آلاف السنين معًا في السراء والضراء، على الحلو والمر، يدًا واحدة، والخلافات إذا وجدت بين الإخوة تصفى أيضًا بين الإخوة، دون أن يسمع الغريب".

"ولكن حدث شيء غريب لم يحدث مثله في تاريخ الكنيسة، وليس له شبيه.. في حادثة "الخانكة" عام 1973 أن يأمر رئيس الكنيسة الكهنة ويقول لهم: (أنتم كم؟ مائة وستون، عايزكم ترجعوا ستة عشر كاهنًا،

---

35 (?) **الحقائق الخفية في الكنيسة القبطية تأليف القمص أندرواس عزيز – سنة 1985 – ص 9 8.**

والبـاقي يفترشـون الأرض افتراشًـا ويستشـهدون!) حـتى أجابه أحد الكهنة: (ولماذا لا تأتي معنا ياسيدنا علشان تستشهد أولنا؟)"[36].

وهذه واقعة توضح – إن صحت – كيف أن رئيس الكنيسة بدلا من أن يطفئ نار الفتنة، فإنه يضرمها وينفخ فيها.. ولماذا هذا ؟!!

ولماذا هذا!؟.

"... هو أن يمـوت عـدد من الكهنة والشـعب في احتكـاك مفتعل ومثير وعن طريق زبانيته القلائل المتعصبين في الخارج يأخـذونها ذريعة للدعاية ضد الـوطن وإثـارة الـرأي العـام العـالمي بـدعوى أن المسـلمين يقتلون المسيحيين".

إن الاستشهاد في العصور الأولى للمسيحية معنى جميل، أن يموت المسيحي لأجل مبدأ أنه مسـيحي في عـالم وثـني لا يعـترف بالمسـيحية ويحظرهـا.. وقد انتشـرت المسـيحية وانتهى عهد الاستشـهاد منذ زمن بعيد جدًا يموت البطريرك بطرس خاتم الشهداء قبل ظهور الإسلام.

"أما أن نأخذ فكـرة الاستشـهاد وسـيلة الهـدف منها الدعاية ضد الدولة والتشنيع بدين الدولة الرسـمي الـذي نعيش في رحابه وسـماحته في حب ووئام آلاف السنين، لأجل أن أخلق من نفسي "زعيما شعبيا" ذا صيت واسع في دنيا السياسة وشاشات التليفزيون.. أبـني نفسي بهلاك الآخرين، فهذه أنانية وذاتية مفرطة... ".

"أحلام الأنبا شنودة بتكوين جبهة قبطية للرأي العام العالمي خـارج مصر الهـدف منها أن يكـون زعيمًا شـعبيًا، هي سـراب خـادع أضر به وبالمسيحيين في مصر.. "[37].

وضـرب المؤلف المثل لاسـتغلال شـعيرة من شـعائر العبـادة لخدمة غـرض سياسي: "فالصوم فكرة روحية جميلـة.. ولكن يمكن أن تتحـول هـذه الفكـرة الروحية الجميلة إلى موضوعات سياسية للإثارة، فـأطلب صـومًا انقطاعيًا لأن هنـاك اضـطهاد؛ فأسـتغل فكـرة الصـوم لهـدف سياسي هو أن بالدولة اضـطهاد، فـأغرس بطريق غـير مباشر فكرة ضد المسيح وهي "اضطهاد الدولة للمسيحيين" يا لها من فكرة شـيطانية مغلفة بورق سلوفان مفضض..."[38].

وقد انتقد الكاتب بشدة أن تكون الوظائف في يد البطريـرك أو في يد الأسـقف دون أي ضـمان للكهنـة، فكل الـذين يعملـون في الكنيسة هم تحت رحمة إرادة البطريرك أو الأسقف دون أي حماية، كما أن الأموال التي ترد للكنيسة لا رقابة عليها!

ونسب الكـتيب إلى البابا ما لم ينسب إلى الملـوك من بنـاء القصـور واقتنـاء الكلاب البوليسية التي تأكل قطعًا غالية من الشيكولاته المسـتوردة وكـذلك السـيارات المرسيدس الفخمة، هذه العدوى التي بليت بها الكنيسة هذا العصر.

ويغلب أن يكون لهذه الإشـارة أصـل، إن لم تكن هي الحقيقـة، وعلى كل حـال، فأسوأ ما يقال فيها: "ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل"!

على أن التفاصـيل الدقيقة الـتي أوردها الكـتيب عن معاملة البطريـرك لأعـداد كبيرة من رجالات الكنيسة بعضهم في مثل مستوى الأنبا غريغورس أسقف الدراسـات والبحث العلمي، والأنبا مينا مطـران جرجا ونجع حمـادي، والأرخن الشـهير المرحـوم

---

36 (?) **المرجع السابق ص 27.**
37 (?) **المرجع السابق ص 29.**
38 (?) **المرجع السابق ص 20.**

يونان خلة المدور، والأب متى المسكين، إلى بقية القسس مثل القس بطرس شحاته كاهن كنيسة مارجرجس، والقس أيوب فام، والقس يوسف مرقص وأربعة عشر قسًا كان المؤلف أحدهم.. كل هؤلاء أبعدوا عن مناصبهم أو حرموا حقوقهم الوظيفية التي يتمتع بحمايتها أقل موظف في الدولة، وبعضهم مات من شدة الأسى والحسرة!

نقول إن هذه وقائع حقيقية، وقد صدرت عن كاهن يلم بخفايا الأمور، وليس أدل على صدقها مما نشره أقباط شبرا في مجلة الشعب سائلين إعادة القس إبراهيم عبده في رسالة تصور المأزق المؤلم الذي وضعته سياسة الكنيسة وبطشها وما في يديها من سلطة مطلقة، وكيف أنها أحوجت الأقباط إلى التماس العدالة فيما يشبه الشحاذة الوضيعة، وبعد إزجاء آيات الثناء على من أوقع بهم الجزاء الظالم.!

تقول رسالة أقباط شبرا:

حضرة صاحب القداسة والغبطة رئيس الأحبار الأعظم/ البابا شنودة الثالث.

بكل خضوع نرفع لسدتكم الرسولية أسمى آيات الطاعة والولاء سائلين الله أن يديم لنا رعايتكم حتى تنعم الكنيسة بما تحقق لها من امتداد وازدهار، إذ علا شأنها وتجدد شبابها وأصبحت تعيش في صحوة روحية مباركة قل أن تكون لها سابقة في التاريخ المعاصر وذلك بفضل يقظتكم وتعاليمكم وما خص الله به قداستكم من ثقافة وعلم غزير، ونحن نؤمن بأن الله في سابق تدبيره قد وفرك لهذا العهد بالذات ربانا حكيمًا جديرًا بالقيادة الروحية لشعب يضمر لكم حبًا يتسامى فوق كل تعبير.

مقدمو هذا التوسل لغبطتكم أبناؤكم "أبناء مصر" وقد فزعت قلوبنا وحل بها الأسى حينما علمنا بالقرار التأديبي الذي صدر بإدانة الأب الورع القس إبراهيم عبده الذي بموجبه تم استبعاده وعزله في دير الأنبا باخميوس بالصعيد. لو كانت عقولنا- بحكم معايشتها لهذا الأب زمنًا طويلا يمكن أن يتطرق إليها أي نذر من الشك الذي يؤدي إلى تبرير المؤاخذة أو الملامة في شيء من تصرفاته – لاستقبل الشعب هذا الإجراء كأمر عادي لا يوجب التعليق لأن العرف الجاري يقضي أن يكون "الجزاء من صنف العمل" ولكن باعث الحزن الذي ألم بنا لفراقه مخذولا وحرماننا من أبوته الحانية، هو القناعة اليقينية بأن أبانا يتميز بالوداعة والتواضع ورحابة الصدر والقدوة الحسنة في كل تصرفاته وفي كل الأحوال نرى فيه رسالة المسيح الصادقة التي نتمنى أن يحتذي بها الكثيرون.

نحن إذ نذكر ما يلاقيه هذا الأب من المطاردة والتعقب بين الحين والآخر نعزوها إلى طبيعة العالم منذ البدء، وما يلاقيه الناجحون في حياتهم، ولعل التجربة الماثلة أمامنا تذكرنا بالكثير الوارد في كتابنا المقدس ومنها قصة يوسف الصديق وما جره عليه حسد إخوته من ضيقات ومتاعب (تك 37:ـ 11). ولكن عناية الله كانت معه وسخرت كل التجارب للخير.

واعلم يا سيدنا أن قلوبنا أمام الله تعترف لقداستكم أن أبانا القس/ إبراهيم عبده ليس محبوبًا من شعب كنيسته فحسب، بل هو موضع إعزاز وتقدير من كل الذين سعدوا بمعرفته على امتداد الكرازة وإن كانت ألسنة الناس هي أقلام الحق فإن الجموع الموقعة على هذا

الرجـاء، وهي جـزء من كـل، تناشـدكم بدالة البنـوة لتحقق رجـاءهم، فلا يطول حرمانهم من أبيهم وتعيده إليهم،

أدام الرب حياتكم سنين عديدة وأزمنة سلامية مديدة.

ممدوح بشري ويصا
(وعدد من التوقيعات)[39]

ولا جدال في أن تصرف الكنيسة تجاه كاهن يتمتع بهذه الثقة ينـافي ما سـطرته آيــات الثنــاء في القسم الأول من البيــان، ويــدل على أن هنــاك أحكامًا فردية تطبق بصورة بعيدة كل البعد عن الديمقراطية أو ما تتطلبه أوليات العدالة من ضمانات.

لقد تضمن كتــاب "**الحقائق الخفية في الكنيسة القبطية**" قصة تعيد إلى الــذهن قصص إذلال السـجن الحــربي وصـلاح نصــر.. إلخ، فقد أوقف مــرتب القس يوسف مرقص واستدرج لدير الأنبا بشوي فلما حضر مع زوجته تاركًا بناته الأربع الكبار في مـنزل متواضع جـدًا جـدًا ما يـزال يقطنه في دير الملاك، أعـاد البطريــرك زوجته للقاهرة مع أحد الرهبان لينفرد بهذا الكاهن ويغدر به نكاية في الأنبا غريغورس، فطلب منه أن يحلق ذقنه ويخلع الزي الكهنوتي، فـرفض في إبـاء مهما كـان الثمن، فصـدرت التعليمــات للأنبا أغــاثون "عشـــماوي" بتنفيذ هــذا الحكم الــذي أحضر له جلبابًا أبيض وطاقية بيضـاء ألبسه إياهما وأخذ ينصـحه بالوعيد تـارة وبالتهديد تـارة أخـرى. فلما لم ينصع هجم عليه اثنـان أشـداء من الرهبـان وكتفـوه كما للـذبح وأخـذوا يقصـون لحيته بالإكراه وحبسوه لمـدة 23 يومًا في قصر الأنبا بـولا بالعزباوية وقد عـرفت السـلطات بالجريمة وتدخلت وحــرر محضر أمـام النيابة بنـاء على بلاغ وصل إلى هـذه السـلطات في قسم شرطة الأزبكية!

ولكن هذا الكاهن المسكين المتواضع تنـازل عن المحضر إجلالا لرئاسـته الدينية وأبعد عنهم التهمة، ولاء وحبًا وتسامحًا بعد أن توسـلوا إليه أن ينقـذهم من جريمة ثابتة ووعدوه بسخاء ثم بعد تنازله كالوا له الاتهامات وتناسوا الوعود...

ويبدو أن أنصار الأنبا شنودة أحسوا بهـذه المعارضـة، فنشـروا صـفحة كاملة في جريدة الأهرام تحت عنوان "البابا شنودة: 22 عامًا بطريركـا"([40]) تحـدثوا عن إنجازاته كرجل علم وفكر وأنه (أول من أرسى مبدأ ديمقراطية العمل الكنسي وامتـدت رعايته إلى المهــاجرين في أمريكا وأســتراليا ودول أوروبــا.. وأنه أصــدر أول لائحة للمجمع المقدس، وأول من أسس أديرة المهجر... إلخ).

ويظهر أن الذين وضعوا مادة هذه الصفحة اهتموا بإبراز ما يعد تفنيدًا للاتهامــات الــتي تنــدد فيها المعارضة القبطية بطريقة مباشــرة البابا لســلطاته، الأمر الــذي دفع الأستاذ جمال أسعد عبد الملاك لأن ينشر في جريدة الشعب تعليقًا لاذعًا وطــويلا تحت عنــوان "مكانة قداسة البابا أعلى من الإعلانــات مدفوعة الأجــر!"([41]**)) قضى قضــاء مبرمًا على كل ما جاء في الصفحة الكاملة وكشف عما كان البابا في غنى عنه – وجاء فيه:

خرجت علينا جريدة الأهرام يوم الثلاثاء 16/11/1993 بصفحة كاملة مدفوعة الأجر تتكلف عشرات الآلاف من الجنيهات بعنوان "البابا شنودة: 22 عامًا بطريركًا رجل علم وفكر: شاعر وعضو نقابة الصحفيين وأســتاذ بالكلية اللاهوتية".

---

39 (?) **جريدة الشعب عدد 26/11/1993.**
40 (?) **الأهرام 16/ 11/ 1993 ص 17.**
41 (**) **الشعب 23/11/1993.**

ورغم إدراكي أن هـذا الإعلان المـدفوع الأجر الهـدف منه هو الـرد على مقالات المعارضة التي تعلن الرأي الآخر في الكنيسة، والـتي تنتقد بعض تصـرفات قداسة البابـا، والـتي من حقنا أن ننتقـدها، أقـول رغم إدراكي هذا، فقد هـالني هـذا الشـكل الإعلاني الـذي لا يليق ولا يجب ولا يصح أن يتبعه قداســته وهو في موقعه الــروحي هــذا، حــتى ظننت أن قداسته قد قرر أن يخوض معركة انتخابية من النـوع الثقيل بتـاع إخواننا الانفتـاحيين واللي "بيرشـوا فيه تمـام"، ولكن لعلمي أن زفة انتخابـات رئاسة الجمهورية آخر الزفـات ولا يوجد أية انتخابـات الآن. قلت لا سـمح الله هو فيه منافس لقداسة البابا على كرسي البابويـة، حيث إن صـفحة الإعلان الأهرامية هـذه قد حـوت نشـاط وإنجـازات وأعمـال ومـواهب قداسته موضحة في بعض المواقع من الإعلان الفـرق بين عهد قداسـته والعهد الســابق عليـــه، وكـــأن القصد هو المقارنة بينه وبين الآخـــرين (عمومًا هذه سـمة لكل ملـوك مصر منذ الفراعنـة) مع العلم بـأن ما جـاء بالإعلان عن الإنجـازات فهو مكـرر للمـرة الألـف. فقد سـبق الإعلان عنه في مجلة الكـرازة الـتي يـرأس تحريرها البابـا، والـتي لا عمل لها سـوى الإعلان عن مقابلاته وسـفرياته وإنجازاتـه!. كما لا أعلم هل قداسة البابا نشر هذا الإعلان متصورًا أن الأقباط سيقولون إن الأهرام هو الذي نشر. وبهذا الوهم يكون البابا في نظر الأقباط مثل رئيس الدولة وأكثر ناسـيًا أن أي قـارئ سـيعلم أن هـذا إعلان مـدفوع الأجر مثل أي إعلان عن أية سلعة استهلاكية، فهل يليق هذا الوضع مع موقع البابا وهو الأب الروحي لكل الأقبـاط في العـالم؟! حيث إن هـذا الموقع يجب أن يكـون عند ثقة الجميع أقباطا وغـير أقبـاط لما للكنيسة من احـترام على مـدى التـاريخ، فهل موقع البابا وهو بهذا القدر وهو كذلك يحتاج إلى نوع من الدعايـة؟! إنه رجل علم وفكر وشــاعر.. إلخ، وما قيمة هــذه المواقــع؟ وهل يمكن لهـذه المواقع المادية الدنيوية أن تعطي موقع البابا الـروحي الأبـوي أية ممـــيزات؟ وهل هو صـــراع بين المـــذاهب المادية الدنيوية وبين الموقع الروحي؟ وهل يعلم قداسة البابا أن قديسي الكنيسة على مـدى التـاريخ كـانوا قديسـين نتيجة لمسـتواهم الـروحي ولتقشـفهم وزهـدهم وليس بالأبهة والإعلانات والفخفخة، وكذلك لماذا هذا الإسراف والإنفـاق الـذي لا يقبله اللـه، فـإذا كـان مبلغ الإعلان – وهو عشـرات الآلاف من أمـوال الكنيسة – فكيف يسمح قداسة البابا بإهـدار أمـوال الكنيسة وهي أمـوال الشـعب بهـذا المسـتوى الـذي لا يليـق؟ وكيف يقبل أن يبعـثر أمـوال الكنيسة في الدعاية لشخصه التي لا تبرير ولا مبرر لهـا، والـتي يجب أن ينأى بنفسه عن مثل هذه التصرفات.. وإذا كان المبلغ مـدفوعًا من كبـار المسـتثمرين الأقبـاط الـذين سـيقولون إنهم يحبـون البابا ويقدسـونه. نقـول: هل قـال لكم الله ذلـك؟ وهل هــذه الأمــوال تعتــبر مقدمة لله وللكنيسة؟ وهل سـتنالون عن هـذا التبـذير أية بركـة؟ وهل لو كـان هـذا المبلغ من نصيب الفقراء ألا يكـون أنفع وأجـدى؟ مثل ما قـال الـرب إن من أعطى فقيرًا فقد أعطى اللـه، فهل المجاملة والنفـاق وصلا إلى حد مجاملة البشر على حسـاب الله (سـبحان اللـه)؟ وهل قبـول البابا لهـذا الإعلان الــذي لا يليق أو يتسق مع روحانية موقع البابا الــذي نتمنــاه، ألا يعتبر هذا تبذيرًا في غير موضعه وإنفاقًا لا مـبرر لـه، وهل فاقد الشـيء يعطيــه؟ فكيف نقـول ونعظ ونكتب عن الاهتمــام بالروحيــات وبالحيــاة الآخرة، وألا نجري وراء شهوة الجسد؟ كيف نقول ذلك وتصرفاتنا لا تـدل

على ذلك، بل تدل على الاهتمام بالماديات على حساب الروحيـات.. فهل سكن القصور وركوب السيارات الشـبح والفخفخة والمنظـرة.. هل هـذه هي روحيــات الكنيسة في مشــارف القــرن الحــادي والعشــرين؟ وهل الاهتمام بالملابس المزركشة والمدندشـة، والـتي لم يلبسـها أي بابا في تاريخ الكنيسة، هل هذه هي الروحيـات؟! وهل بنـاء قصر في منطقة أبو ثلاث في الاسكندرية تكلف 2 مليون جنيه كاستراحة مع القصـور الأخـرى في الداخل والخارج هل هذه هي الروحيات؟ وهل هذه المعيشة المترفة في الــوقت الــذي توجد فيه كنـــائس وكهنة لا يجــدون إلا القليل لسد احتياجاتهم؟ هل هـذه هي العدالة المسـيحية..؟ وكيف نقـول مع هـذا إن المسيحية عطاء وبذل واتضاع؟ وهل هذه هي حيـاة الرهبنة الـتي تـركتم العـالم من أجلها وأقيمت عليكم صـلاة المـوتى فـأين اتضـاع المسـيحي وأين تقشف الراهب؟؟

أما ما جــاء في الإعلان مــدفوع الأجر عن إنجــازات البابا من ناحية تأسـيس المعاهد اللاهوتية والأديــرة والكنــائس بــالمهجر، فنحن لا ننكر على قداســته هـذا بل نؤيـده عليه ونشـكره. ويسـتطرد حـتى يصل إلى علاقة البابا بالطوائف المسيحية وهنا نقول للبابا: ما هي حقيقة العلاقة بينك وبين الطوائف المســيحية؟ وهل مهاجمتك للطوائف مثل ما حــدث في اجتمـــاع كهنة القـــاهرة في 30/9/1993 دليل على حسن العلاقـــة؟ وهل قطعك للحوار بين الكنيسة القبطية والكنيسة الإنجيلية بسبب كتاب للدكتور رفيق حبيب، ابن رئيس الطائفة الإنجيلية فهل هــذه هي العلاقة الحســنة؟ وهل يتم تقـــيم العلاقة بين الطوائف المســيحية بنـــاء على مواقف خاصة أو وجهة نظر خاصة؟ وهل رأي دكتــور رفيق يجعلك تقطع الحـــوار؟ وهل هـــذا هو نـــوع من التهديد لمن يريد أن يعـــبر عن آرائه وأفكاره؟

أليس هذا هو نوعًا من محـاكم التفـتيش ونوعًا من التهديد الـذي لا يليق؟ ولا أعلم بعد ذلك أية علاقة حسنة تلك التي تتحدث عنها؟

أما ما جاء بالإعلان بخصوص ما يسمى بالديمقراطية في الممارسة الكنسية والتشدق بشعار "على الشعب أن يختار راعيه"، أقول هل يحدث يا قداسة البابا أنك تجتمع مع الشــعب في الأيبراشـــية الخالية وتســمع آراءهم حيث يقومون بتسمية اسم الشخص الذي يريدون رسامته أسقفًا هل يحدث هذا؟ على العمـوم أأذكـرك برسـامة أسـقف القوصـية، والـتي كنت مشاركًا فيها منذ البداية أأذكرك وأقول إن الشعب قد جاء بناء على أوامرك مرتين مرة سمع فيها منك النقد والتقريع بأنهم شعب لا يستحق أن يرسم له أسـقف، حيث لم يقومـوا ببنـاء قصر فخيم للأسـقف، لكي يسـتقبل فيه بعد الرســامة، فهل الــذي يشــغل قداســتكم هو المنظر والترف، وأن يكون الأسقف زعيمًا بدلا من أن يكـون أبًـا.. وكل ما يعنيك هو أن يكون الأسقف ذا وضع رسمي اجتماعي لا ديني روحي. أما المــرة الثانية الـتي قـابلت فيها شـعب القوصـية فكـانت المقابلة الـتي سـبقت رسـامة الأسـقف بأسـبوع وفيها تكـرمت وأعلنت أنك سـتقوم برسـامة الأسقف، ولكن لم يختر الشعب اسمًا ولا أنت لم تذكر أيضًا اســمًا. ولكن لم نعرف الشخص المزمع أن يكون أسقفًا إلا يوم الرسامة. فكيف نقول إن الشعب يختار راعيه كيف؟ وكيف تسمح لنفسك أن تقول في التقليد، وهو المرسوم الـذي يعلن رسـامة الأسـقف والـذي يتصـدر صـالون قصر

الأسقف في الأيبارشية، تقول في التقليد: إن الشعب بطوائفه جاء إليك واختار فلانًا لكي يكون أسقفًا. وهذا لم ولن يحدث، وبعد كل ذلك تقول إن الشعب يختار راعيه! كيف هذا ولماذا يا أبي؟

أما فيما يخص المحاكمات الكنسية فأتركها للآباء الكهنة الذين يكتبون في هذا الموضوع. أما الموضوع الأخير الذي جاء في الإعلان وهو دور العلمانيين وأنهم يريدون أن يسيطروا على الأكليروس، فنقول إن الخدمة في الكنيسة بالمفهوم المسيحي هي بذل وعطاء ونصيحة لا كسب وتسلط وسيطرة. فالعلماني الذي يخدم يريد أن يكمل دور الأكليروس لا أن يسيطر عليه وهذا يقال للعلمانيين، كما يقال للأكليروس أيضًا لكي لا يكون هناك طرف مسيطر على الطرف الآخر، أما غير ذلك فسيكون سلوكًا بعيدًا عن المسيحية، وهذه بعض الملاحظات والآراء نقولها لصالح الكنيسة التي نرجو لها التقدم والازدهار كمؤسسة دينية مصرية وطنية، وهنا يحضرني قول الكاتب المسرحي الفرنسي موليير عندما يقول في إحدى مسرحياته: "سأصير قسيسًا وأطلق لحيتي وأتحدث عن الفضيلة. سأمنح نفسي حرية واسعة وأهدد خصومي بالحرمان! وسأعلن أنني صوت السماء.. فمن أطاعني فقد أطاع الرب. ومن خالفني فلا مكان له على الأرض، إنها السلطة المطلقة التي أحلم بها وويل للمعارضين". انتهى مقال الأستاذ جمال أسعد عبد الملاك.

إن هذه الوقائع تدل دلالة قاطعة على أن البابا استطاع أن يحكم هيمنته على الكنيسة وأجهزتها ويديرها بيد من حديد ويفرض جوًا من الإرهاب على الجميع، وهي تثير التساؤل عن السلطات التي تتمتع بها الرئاسات الكنسية ومدى توافقها مع حقوق الإنسان وضمانات الديمقراطية: لقد كان الذي نفَّر أوروبا من المسيحية هو استبداد سلطات الكنيسة واستئثارها بالأمور واستهدافها الحكم والنفوذ، وهذا ما تمارسه السلطات الكنسية هنا. إن التستر وراء الدين لا يبرر أبدًا إلحاق ظلم بأحد، فإنما جاءت الأديان جميعًا لتحقيق العدالة وتوفير الكرامة.

وكل هذه الكتابات الموثقة من كتاب أقباط تؤكد أن الكنيسة قد وقعت في خطأ جسيم عرضها لنقد لاذع لم يسبق أن وجه مثله لأحد من الذين حملوا دعوة واسم القديس مرقص الشهيد المتقشف، ولابد أن هناك سببًا سيكولوجيًا عميقًا يحمل البطريرك على أن تظهر صوره مثل "شارلمان" تمامًا مع فارق واحد هو أن شارلمان يمسك بسيف عريض، بينما البابا يمسك بعصا طويلة، باستثناء هذا فإن صورة شارلمان وصورة شنودة تنطقان بالجبروت والسلطة والقوة، وهذا إذا صح بالنسبة لشارلمان فإنه لا يجوز لرمز المسيح ومخلص النفوس.

***

ظهور الجماعات الإسلامية والتيار المتشدد:

كان ظهور الجماعات الإسلامية والتيارات المتشددة التي اقترنت بها من العوامل التي أرهفت حس الكنيسة واستندت عليها في تبرير مواقفها وصياغة سياستها.. وإن كان هناك من يرى العكس: إن سياسة الأنبا شنودة التي سبقت ظهور هذه الجماعات بوقت قصير وعاصرتها، كانت من العوامل التي ألهبت مشاعر لفيف من الإسلاميين المتطرفين، واضطرتهم إلى اتخاذ موقف متشددة، على نقيض الموقف التقليدي للهيئات الإسلامية تجاه الأقباط الذي كان يتسم بقدر كبير من المجاملة.

ولكننا على كل حال لن نشغل أنفسنا بتحقيق هذه النقطة، وقد بسطنا رأينا عن الجماعـات الإسـلامية في عـدد من كتبنا[42]، وباختصـار فإننا نـرى أنها الثمـرة المـرة لسياسة الطاغوت الناصـري وما حفلت به ديكتاتوريته وإرهابه وتعذيبـه، فكـان لابد من رد فعل لهـذه السـوءات بمجـرد موتـه، وانقضـاء عهـده، واتسم رد الفعل بكل ما في الفعل من ســـوءات، فضلا عن أن الســـادات، وقد ورث تركة مثقلة ومراكز قـــوى وتكتلات ناصرية وشيوعية، أراد أن يضـرب هـذه القـوى المناوئة لـه، فلم يجد إلا هـذه الجماعات، فأطلقها لتثأر لنفسها من الناصرية المقيتة!

ومن الواضح بالطبع أن السادات – رغم أنه كـان بطبيعته كفلاح مصـري، وخلال فترة تشرده وتعرفه على الإخـوان تعرفا وثيقًا – أقـرب إلى الإسـلام من عبد الناصـر.. ولكن من الخطأ الفـاحش الظن أن الإسـلام كـان محـور فكـره السياسـي، فقد كـان ضـابطًا، وكـان مصـطفى كمـال أتـاتورك مثله الأعلى حينًا مـا، وكـان بحكم السـلطة والمزاج يبتعد عن أثر الفطـرة والقرية وذكريـات الإخـوان، وقد تـورط مع عبد الناصر طـويلا.. وكـان العامل الأساسي في تشـجيعه للجماعـات الإسـلامية هو القضـاء على خصومه الذين كانوا خصومهم أيضًا.. فسياسته قامت على أساس تكتيكي (عدو عدوي صديقي!).. وعندما أجهزت الجماعات الإسـلامية على فلـول الناصـريين والشـيوعيين، وكشفت سؤال الناصـرية، انتهت مهمتها بالنسـبة للسـادات، وأصـبحت بالتـالي خطـرًا عليه، وجاوزت في إسلاميتها وعداوتها للناصرية الحدود الساداتية!

على أن هذا التطور الـذي انتهت إليه الأمـور لم يظهر إلا في السـنوات الأخـيرة من حكمه، أما السنوات الأولى فهي سنوات الوفاق.. ويبـدو مع هـذا أن السـادات أراد شـيئًا فشـيئًا أن يجـرد الجماعـات الإسـلامية من أوراقها الرابحة ومن دعـوى (تطـبيق الشريعة).. فأوعز بأن يتقدم الأزهر بمشروع قانون للحدود، وآخر عن الردة!

ولم يكن الإنسان بحاجة إلى ذكاء خارق ليعلم أنها "مناورة"، وأنه لم يدر بخاطر الحكومة أبدًا أن تعتزم إصدار مثل هذين القانونين اللذين كانا يستتبعان ثورة تشـريعية واجتماعية، يمكن أن تعصف بالنظام نفسه!

ولو كان على رأس الكنيسة القبطية أب مثل كيرلس الخامس لما حرك سـاكنًا، ولترك المناورة حتى تكشف نفسها دون أن يـورط الكنيسة في شـيء، والقـوانين في كل الدول الديمقراطية تعرض على المجالس التشـريعية المنتخبـة، وتتعـرض للنقـاش على صفحات الجرائد وعلى كل حال فما دامت هذه القوانين – على طبيعتها الإسلامية لا تمس حرية العقيدة، فلا يجوز لهيئة أن تحتج عليها، فما دام مجلس الشعب المصري أجاز عقوبة للسـرقة، فيفـترض أن تطبـق، كما يطبق أي قـانون، ولا يجـوز التعلل بـأن هذه العقوبة لها أصل إسلامي وبالتالي فلا يجـوز أن تطبق على الأقبـاط، لأنها لا تمس حرية العقيدة في شيء، وإنما يجوز للأقباط الاحتجـاج لو أصـدر المجلس قانونًا يحـول بينهم أو يضـيق عليهم ممارسة شـعائرهم الخاصـة، أو يمـيز بينهم في الوظـائف على أساس الدين،... إلخ، وهذه وتلك مستبعدة من قانون الحدود...

ولكن الأنبا شـنودة أراد أن يتخذ منها مناسـبة لاسـتعراض قوتـه، فسـمح بعقد أخطر مـؤتمر ديـني مسـيحي في تـاريخ البلاد منذ سـتة وسـبعين عامًا (أي منذ عقد المـؤتمر القبطي سـنة 1911) وأصـدر بيانًا طـالب فيه بإلغـاء مشـروع قـانون الـردة واستبعاد التفكير في تطبيق الشريعة الإسلامية على غير المسـلمين، وإلغـاء القـوانين العثمانية التي تقيد بناء الكنائس، واسـتبعاد الطائفية من الوظـائف العامة على مختلف المستويات، وحرية النشر!

---

42 **[?] انظر كتاب"رسالة إلى الدعوات الإسلامية" وكتابنا "الفريضة الغائبـة: جهـاد السـيف أم جهاد العقل" وهو ردنا على ما جاء في كتاب "الفريضة الغائبة"... دار ثابت – القاهرة.**

ولاحظ الكاتب القبطي الدكتور غالي شكري أن البيان الذي أصدره هذا المؤتمر كان واضح التطرف والطائفية معًا في استخدام تعبيرات مثل "**الشـعب القبطي**" و "**السلالة العريقة في القدم**"[(43)]..

وحرك الأنبا شنودة أجهزته الخارجية المتمثلة في الجاليات القبطية في أستراليا وكندا والولايات المتحدة، التي أمطرت الحكومة المصرية، كما استعدت كل حكومات العالم بمئات العرائض والمقالات التي تتحدث عن انتهاك المسلمين لحقوق الأقلية القبطية في مصر!

وهكذا أصبحت هناك "مسألة قبطية" في الإعلام الخارجي.. حتى أن مجلة متخصصة صدرت بالفرنسية في باريس تدعى "العالم القبطي" وكتب في عددها الأول (الرئيسي الفرنسي جيسكار ديستان، والرئيس السنغالي ليوبولد سنجور)([44]).. بالإضافة إلى الرئيس أنور السادات نفسه!

وكان واضحًا كل الوضوح أن البابا، وقد لعب لعبة السياسة والدنيا، كاد أن ينزلق إلى حالة لا يملك هو نفسه التحكم في القوى التي أثارها أولا.. كما حدث تقريبًا للسادات والجماعات الإسلامية.

وكانت هذه السياسة شديدة البعد عن السياسة المقررة للكنيسة المصرية، وعارضها بشدة عدد كبير من الكهنة والآباء وعلى رأسهم الأب "متى المسكين" الذي عرض في لقاء مع الأستاذ مكرم محمد، الفكرة المسيحية النقية عن دور الكنيسة، وأن الكنيسة لا تتدخل مطلقًا، حتى في الأعمال الخيرية، وأن عملها الوحيد هو تخليص الروح بالبشارة.. كما كان عدد من ممثلي الكنائس قد أعربوا عن موافقتهم على تطبيق الشريعة عندما أجرت مجلة الدعوة حوارًا معهم (فبراير 1977) ([45]).

اللبس التاريخي:

من الأسباب التي أسهمت في سلوك الأقباط مسلكًا خاصًا، أنهم وقعوا في "لبس تاريخي" كان له تأثير على تصورهم الموقف وإصدارهم الأحكام.

ذلك اللبس هو أن الأقباط هم "السلالة العريقة والنقية للجنس المصري، وأن المسلمين يعودون إلى أصول عربية وافدة جاءت مع جيش عمرو بن العاص، أو خلال الهجرات العربية العديدة إلى مصر.. وأن مصر كانت قبطية حكومة وشعبًا ولغة، حتى جاء الفتح الإسلامي فأفقدها هذا وألحقها بالإسلام"!

وهذا الظن يخالف الوقائع التاريخية، فإن جيش عمرو بن العاص والهجرات الوافدة ما كان يمكن أن تكّون أغلبية الشعب المصري.. والذي حدث هو أن أعدادا غفيرة من الأقباط على امتداد ألف عام اعتنقت الإسلام لأسباب معروفة نشأت عن السياق التاريخي خلال هذه الحقبة الطويلة ما بين رغبة في الوصول إلى المناصب الكبرى والبارزة في المجتمع، أو الخلاص من صور من المظالم التي كان بعض الولاة الجهلة يوقعونها على الأقباط، مما لا يخلو منه أي تاريخ، ومنها بساطة العقيدة الإسلامية، والمثل الجذابة للشخصيات الإسلامية الكبرى من الرسول والخلفاء وما عرف عنهم من عدل، ومنها روح المساواة الإسلامية التي كانت تسوي بين كل من يدخل الإسلام مهما كان جنسه أو لونه أو وضعه الطبقي، أو حتى ماضيه، وما بين بقية المسلمين دون حساسية، وأن فكرة الإسلام عن المسيح، وأنه رسول وليس إلهًا كانت موجودة في مصر قبل الإسلام، وأن الأريوسية، التي ظللت الأفق المسيحي قرونًا

---

43 (?) **الثورة المضادة في مصر د. غالي شكري ص 214 (كتاب الأهالي).**
44 (?) **المرجع السابق صم 315.**
45 (?) **يمكن الرجوع إلى نص الأسئلة والإجابات في كتابنا. الدعوات الإسلامية المعاصرة مالها وما عليها ص 134**

عـدة نشـأت في الإسـكندرية، كما أن فكـرة عـدم صـلب المسـيح ورفعه إلى السـماء وجـــدت في مصـــر.. ونقـــرأ في كتـــاب "المنـــارة التاريخيـــة" في الحـــديث عن عهد الإمبراطور الرومـاني كومـودوس سـنة 181 – 194 "ومن هـذا الحين بـدأ الانقسـام والخلاف بين المسيحيين وذلك لأن أمزجة القبط أهل الصعيد نسل عباد ثيبة الـورعين، كانت غير أمزجة الأغريق المرحى نسل عباد قيريس وبـروزربين أو برسـوفين، فأولئك تعبدوا وتقشفوا ونسكوا وقالوا حاشا للمسـيح أن يصـلب بل شـبه ذلك للنـاظرين وإن الله رفعه سالمًا حيًا، وأولاء رأوا بالدين الجديد ما يشحذ قريحتهم على الفلسفة فقالوا بخلاف ما قاله القبط.. وقد عد الاختلاف بينهم كفرًا من الطرفين (ص 103)[46].

كما نقـرأ في الحـديث عن عهد الإمـبراطور يوسـتن الأول (518 – 527) أن أسقف كنيسة سوريا سويروس هرب إلى الإسكندرية لأنه أخذ بمذهب مصر اليعقـوبي "وإنما بوصوله لها وجد أنه لا يمكنه أن يصادق على مذهب المصريين برمته أيضًـا، وأن مذهبهم كان بأن يسوع لم يصلب بل شبه للناظرين كما جاء فيما بعد بالقرآن، ومذهبه لم يكن كـذلك" (ص 189) وأخـيرًا فنحن نقـرأ عند الحـديث عن هرقل (ص610) من أن "أسقف الإسكندرية يوحنا ابن حـاكم قـبرص ظفر برضا المصـريين حين أبـدى من الإحسـان والرأفة بـالفقراء ما أكسـبه لقب المحسن وخلال الخمس سـنين الأولى من أسقفيته بنى عدة مستشـفيات للمرضى وتوليد النسـاء ونـزلا للبائسـين، وكـان مذهبه بالمسيح أنه لم يصلب بل شبه لهم".

فهـــذه النصـــوص كلها توضح أن ما جـــاء به الإســـلام لم يكن غريبًا عن الفكر القبطي إلى درجة دفعت بمؤلف "المنـارة التاريخيـة" لأن يقـول "الإسـلام دينًا هو دين التوراة والإنجيل، ومـذهبًا وشـريعة هو أحد المـذاهب المسـيحية الجدليـة" (ص213).. مما سهل على الأقباط اعتناق الإسلام، بالإضافة إلى العوامل الأخرى التي أشرنا إليها.

وكما هو معروف، فإن الفاتح الإسلامي لمصر كـان عمـرو بن العـاص، وهو رجل دولة وسياسة قدر ما هو رجل دين وشريعة، ولهذا قرب إليه البابا بنيامين، ووضع مبـدأ تقريب الأقبـاط وهو المبـدأ الـذي أدى بعد ذلك إلى الاسـتعانة بهم في أجهـزة الدولـة، خاصة ما يتعلق بالمـــال وتحصـــيل الضـــرائب، مما كـــان لهم خـــبرة خاصة فيه ليست للعرب، واستمر هذا التقليد من عمرو بن العاص حتى الخديوي إسـماعيل، والسـادات، ومبارك..

وقد كانت سياسة الحكام المسـلمين هي دعم الأقبـاط والاسـتعانة بهم ما أمكن ذلـك... وقد كـان المهنـدس الـذي أقـام مسـجد ابن طولـون الشـهير هو ابن كـاتب الفرغاني المهندس القبطي الذي كافأه ابن طولـون بعشـرة آلاف دينـار، وأجـرى عليه الرزق طيلة حياته.

وكان للأقباط خلال عهد الفاطميين صـلة وثيقة بالحكـام، وولى العزيز بالله (ابن المعز لدين الله) ابن مينا الملقب بأبي اليمن حكم فلسـطين، وكـان هـذا القبطي أمينًا على أموال الدولة التي تعرضت للضياع وكافأه بـأموال كثـيرة أعطاها للبابا إبـرام ابن زرعة لينفقها على الكنـــائس والأديـــرة.. وكـــان الشـــيخ المكين أبو البركـــات الكـــاتب المعروف بابن كتامة هو كاتب الدولة في عهد خلافة الفائز بنصر الله الفاطمي، وجـــدد وأقام عددًا كبيرًا من الكنائس.. وكان أبو القديس برسوم العريـان كاتبًا لشـجرة الـدر، وتـرك له أمـوالا طائلة فزهد فيها وانصـرف إلى العبـادة.. وظهر أبنـاء العسـال الثلاثة الذين سجلوا بالعربية القوانين والعقائد القبطية، وكانت معرفتهم بالشـريعة الإسـلامية لا تقل عن معرفتهم بالشريعة القبطية.

---

46 (?) **المنـــارة التاريخية في مصر الوثنية والمســـيحية، تـــأليف إســـكندر صـــيفي، المطبعة العصرية، ص 103.**

وتعرض عامة الأقباط لما تعرض له عامة الشعب لعسف المماليك.. ولكن كبراء الأقباط تعاونوا مع المماليك في عمليات جباية الضرائب وظفروا منهم برعاية كبيرة خاصة في الأيام الأخيرة لهم التي عاصرت الحملة الفرنسية وظهر المعلم إبراهيم الجوهري والمعلم جرجس الجوهري والمعلم رزق والمعلم غالي وهو أول من منح رتبة البكوية من الأقباط.. ونقرأ في الجبرتي عن ثراء ومنزلة هؤلاء وأنهم كانوا من الشخصيات الكبرى البارزة في الدولة حتى نصل إلى إسماعيل باشا الذي وهب الأقباط 1500 فدان لتخصص ريعها على المدارس القبطية (ص 216 عصر إسماعيل، جزء1) وحتى نصل إلى عبد الناصر والسادات ومشاركتهما في بناء الكاتدرائية الكبرى في العباسية.

بل إننا نجد أن أحد الأقباط الذين أسلموا وصل إلى درجة المشيخة للأزهر وأنه كان واحدًا من خمسة أو ستة من الشيوخ الكبار الذين تصدروا مسرح الأحداث وتولوا إصدار القرار في تلك السنوات الحاسمة ما بين خروج الفرنسيين وتولية محمد علي.

وهذا السجل الطويل من التسامح بقدر ما شجع أعدادًا كبيرة منهم للتحول إلى الإسلام، بقدر ما حفظ للأقباط كيانهم..

وهكذا يتضح من هذا العرض أن أغلبية المسلمين المصريين تعود إلى الأقباط الذين أسلموا على امتداد ألف عام، وأن ما جاءت به الهجرات العربية تعد قلة بالنسبة لهم، وليس أدل على أن المسلمين والأقباط جنس واحد، هو أنك لا تجد فرقًا بيولوجيا أو أثنينيا بين مسلم وقبطي، فهم جميعًا لهم ملامح واحدة، وقد أدرك هذه الحقيقة ببداهة الفنان شوقي، ووضعها موضعها السليم:

ألستم بني القوم الذين تجبروا   على الضربات السبع في الأبد الخالي

رددتم إلى فرعون جدًا وربما   رجعتم لعم في القبائل أو خال

وهذه الحقيقة هي ما تتفق مع دعوى الأقباط أنفسهم عن الشعب المصري الواحد الذي لا يختلف فيه المسلم عن القبطي، ويتفق مع الظاهرة الجغرافية/ التاريخية المعروفة عن مصر جيدًا، ألا وهي أن مصر بوتقة تصهر الأجناس، وأن الأجناس السودانية والحبشية والشركسية والأرمينية... إلخ كلها انصهرت في بوتقة مصر، ولم يعد هناك فرق بعد عدة أجيال بين أبنائهم والمصريين الأصل.

ويعرض بعض الأقباط تاريخ مصر كما لو كانت قبل الفتح الإسلامي قبطية لغة وحكمًا، حتى جاء الفتح فأفقدها هذا كله وغير مسارها وأنزلها منزلة التبعية للإسلام.

ويتطلب تمحيص هذه الدعوى المترسبة في أذهان كثير من الأقباط، أو التي نجدها في بعض كتابات الأوروبيين، الرجوع إلى التاريخ وحقائقه الصلبة.

فعندما ظهرت المسيحية كان الشعب المصري يعتنق الديانة المصرية القديمة بعد أن تأثرت ببعض المؤثرات اليونانية خلال حكم البطالمة، حتى وقعت في يد الرومان إثر هزيمة أكتيوم سنة 31 قبل الميلاد، وكان الرومان وثنيين، وكانوا يتقبلون الديانات الوثنية.

ودخلت المسيحية مصر عام 51 بعد الميلاد على يدي القديس مرقص الإنجيلي تلميذ بطرس الرسول.

وتعرضت المسيحية الوافدة لثلاثة عوامل عوقت مسيرتها ولبدت سماءها:

الأول – مقاومة اليهود والإغريق والمصريين القدماء.

الثاني – الإرهاب الروماني.

الثالث – الصراعات المذهبية.

وفيما يلي فقرة موجزة عن كل عامل من هذه العوامل:

العامل الأول:

عندما دخلت المسـيحية كـانت الغلبة والسـيطرة الفكرية لليهـود والإغريق بينما كان الشعب متمسـكًا بديانة آبائه وأجـداده، وقـاوم الجميع الديانة الجديـدة وظلت لهم الغلبة حتى أصدر الإمبراطور تيودوسيس أوامره بتدمير الهياكل والمعابد المصرية سنة 379، وعندئذ هرب كهنة هذه المعابد إلى الصـعيد وأقـاموا بـه، وفي عهد الإمـبراطور ترقيـان سـنة 450، نسـمع أن المسـيحية تلاشت من الصـعيد، وعـادت الوثنية إلى ما كانت عليه، وأن بعض الذين تنصروا رجعوا يصلون لإيزيس وسيرابيس[47].

ولم تكن مقاومة الإغريق بأقل من مقاومة كهنة المصريين القـدماء، ونحن نعلم أن ثقافة اليونـان انتقلت إلى الإسـكندرية وإلى أثينـا، وبعثت في الإسـكندرية بعد أن ماتت في اليونان، وأن أعاظم العلماء والفلاسفة عاشوا في الإسـكندرية منذ أن أحياها البطالمة (الذين كانوا يونانيين) وأسسـوا فيها مكتبتها الكبـيرة العظيمة (سـبعمائة ألف كتـاب)... ولهـذا لم يكن من السـهل أن تستسـلم الفلسـفة اليونانية العريقة والمؤهلة للثقافة المسـيحية الجديـدة الوافـدة، وظلت الثقافة اليونانية هي سـيدة الموقف ردحًا طويلا... ونقرأ في المنـارة التاريخية أنه خلال حكم الإمـبراطور ثيودوسـيوس الثـاني (408 – 450) زار الإسكندرية بعض شبان الأرمن لدرس اللغة اليونانية وتصحيح ترجمة الكتاب المقدس، فلم يجدوا أسـتاذًا مسـيحيًا، واضـطروا لـدخول المدرسة الأفلاطونية التي كان رئيسها سيراقوس (ص 173). بل نقرأ أن معبد إيزيس في جزيـرة فيلة ظل حتى عهد مرقيان 450 – 457 ملجـأ للوثنـيين وأن المسـيحية لم تـدخلها إلا في عهد الإمــبراطور ريوســتن الثــاني 566 – 578. كما نعلم في مرحلة لاحقة تلك الحادثة المشهورة عن "هيباثيا" ابنة ثيون التي كانت تدرس العلوم والفلسفة اليونانية وهاجمها أتبـاع البطريـرك كيريل واسـتلوها من عجلتهـا، وجروها وراءهم، ثم جردوها من ثيابها ورجموها ومزقوها إربا إربا، وكان ذلك في الصوم الكبير سنة 514 مما يوضح أن نفوذ الإغريق الوثنيين كان قائمًا ومؤثرًا حتى أوائل القـرن السـادس أي قبل دخـول العـرب بقرن واحد...

والعامل الثاني: الذي أثر على تاريخ الأقباط منذ ظهور المسيحية حتى دخول العرب هو الإرهاب الروماني، فمصر كـانت قد وقعت فريسة للاحتلال الرومـاني عقب هزيمة أكـتيوم سـنة 31 قبل الميلاد، وعنـدما ظهـرت المسـيحية تعرضت لنوبـات من الاضطهاد من أباطرة الرومان الذين كانوا وثنيين، وكان أبرز نوبات هـذه الاضـطهادات اضطهاد نيرون سنة 64 واضطهاد تراجان سـنة 105، ولم يصب قبط مصر من هـذه الاضـطهادات إلا نــذر يسـير لجـدة المسـيحية، ولكن اضـطهاد ديقيـوس (وقد يكتب ديسـيوس) من سـنة 249 – 251 نـال الأقبـاط وأدى إلى نفي أسـقفها ديونسـيوس وأريجانوس وهرب عدد كبير من المسيحيين إلى الصحراء وكان منهم شاب أسمه بـولا وهو الذي صار الناسك الأول في الصحراء.

وأخذت نوبة الاضطهاد خلال عهد دقلـديانوس سـنة 303 ذروة الاضـطهاد، وأمر بهدم الكنائس وإحراق الكتب وقتل المسـيحيين إذا لم يرجعـوا عن دينهم، وتبـالغ بعض المصادر القبطية فتصل بعـدد شـهداء الأقبـاط إلى ثمانمائة ألف أو مائة وأربعين ألفًـا،

[47] (?) المنارة التاريخية في مصر الوثنية والمسيحية ص 181.

منهم معظم الذين تحتفل بهم الكنيسة القبطية مثل القـديس يوحنا الشـهير بالعجـائبي والقديس تادرس والقديس يوليوس والقديسة ديميانة.

وقد جعل الأقباط تقويمهم يبدأ بسـنة 284 الـتي ارتقى فيها دقلـديانوس عـرش الملك واعتبروها السنة الأولى للشهداء.

وفي سـنة 323 أعتنق الإمـبراطور الرومـاني قسـطنطين المسـيحية وانتهى اضطهاد المسـيحيين من قبل الوثنـيين، ولكنه بـدأ في صـورة جديـدة، ذلك أن مـذهب قسطنطينية كان يختلف عن مذهب الإسكندرية، وكان هذا يؤدي إلى صـور عديـدة من الاضطهاد.

وهذه الصور من الاضطهاد أدخلت في باب العامل الثـالث أي الصـراع المـذهبي الـذي شـغل سـحابة العهد القبطي للبلاد والـذي ظهر بشـكل حـاد ما بين أريـوس وأثناسيوس. وكلاهما من الإسكندرية.. ووصلت حدة النزاع أن آثر أتباع أثناسـيوس في إحدى جولات الصراع حرق كنيسة الإسكندرية على أن تقع في يد الآريوسيين.

والحقيقة أنه ما إن اعتنق قسطنطين المسيحية وأصـبحت ديانة المملكـة، حـتى انتهت الوحدة التي كان الاضطهاد يعمقهـا، وبـدأت الأهـواء والمطـامع الـتي تصـطحب بالسلطة من عهد قسطنطين حـتى الفتح الإسـلامي، فكـان الفتح الإسـلامي وحـده هو الـذي أراح الكنيسة القبطيـة، ومكنها من أن تعمل دون مقاومة أو اضـطهاد المـذاهب الأخـرى ولما تكـرر – في الفـترة المعاصـرة – وصـول بعثـات بروتسـتنتية من أمريكا استنجدت الكنيسة بالحكومة التي نصرتها على هذه الطوائف.

ولا يتسع المجال للحديث عن هذه الصراعات ولا عن السبب اللاهوتي فيها الذي أدى إلى عقد المجمعات المسكونية الأربعة التي صال وجال فيها أسـاقفة الإسـكندرية وكـانوا هم أبطالها وهي مجمع نيقية سـنة 325، ومجمع القسـطنطينية سـنة 381 ومجمع أفسس الأول سنة 431 ومجمع أفسس الثـاني 449، ومجمع خلقيدونية سـنة 451.. وكانت هذه المجـامع تقر مبـدأ ثم تعـود فتنفيه وتنقضه في مجمع آخـر، أو تضع تقليدًا يكمله مجمع آخر وكانت كلها تـدور حـول نقط لاهوتية تتعلق بالثـالوث والأقـانيم وطبيعة المسيح... إلخ.

على أن هـذه الخلافـات النظرية كـانت تنتهي بمـذابح ما بين الفـرق المختلفة والمتناحرة، وفتن لا يصرفها إلا تدخل السلطة!

ويكفي فحسب أن نأخذ إحـدى صـور الاضـطهاد الـتي حـدثت خلال حكم الإمبراطور يوستنيان (527 – 566) أي قبل الفتح الإسلامي ببضعة عقود من السنين، نقلا عن "المنارة التاريخية":

"لما آل الحكم إلى يوسـتنيان دعا الأسـقفين من الإسـكندرية للعاصمة، ثم أبعدهما وأقام بولس أسقفًا واحدًا عوضـهما ليعمل بقـانون مجمع خلقيدونيا، وبعد سنتين أبدله بالأسقف زويلوس بـالرغم عن إرادة المصـريين، فـاحتملوه ست سـنوات ثم طـردوه وطـردوا كافة أسـاقفة المذهب الإغريقي...

وإذ بلغ الإمبراطور ما أجراه اليعقوبيون، بعث أبولينا ريوس أسقفًا وحاكمًا على الإسكندرية فـدخلها على رأس الجنـود بزيه العسـكري، ولما وصل للكنيسة خلع ثوبه العسـكري ولبس بدلته الأسـقفية، وباشر تلاوة الصلاة ولكنه لم يفتح فـاه حـتى أتـاه الـرجم من كل مكـان واضـطر إلى الفـرار من الكنيسـة، فمكث ثلاثة أيـام، ثم أرسل مناديًا بالأسـواق يـدعو النـاس إلى الكنيسة لاسـتماع قـراءة كتـاب الإمـبراطور الأحد المقبـل..

فاجتمعوا، وإذ افتتح خطابه يتهددهم بالقتل، والنساء بالسبي، رجموه كالأول، لكن بإشارة منه دخلت الجنود الكنيسة شارعة سيوفها فوقعت على القوم تضربهم حتى جرى الدم للركب وانصرف منهم من سلم.. وبعد ذلك لم يجترئ أحد على مقاومة الأسقف الأغريقي الملكي.. وهذا كان أصل الروم الملكيين، (ص 190 – 191).

وكان المشهد الأخير هو تولية الأسقف تيروس الماروني الذي كان على مذهبه بالقول بالطبيعتين والمشيئة الواحدة خلافًا لمذهب الملكيين القائلين بالطبيعتين والمشيئتين والمذهب اليعقوبي القائل بالطبيعة والمشيئة الواحدة.. فازداد هؤلاء نفورًا من الإغريقي وكرهًا له. وهكذا لما دخل عمرو بن العاص مصر وجدهم من أنصاره ضد الروم..." (ص 205) المنارة التاريخية.

***

من هذا العرض يتضح أن:

(1) الأغلبية الإسلامية في مصر تعود، أصلا، إلى اعتناق معظم الأقباط للإسلام على امتداد ألف عام، وأنه ليس هناك تفرقة عرقية بين المسلمين والأقباط، فهم جميعًا يعودون إلى أصل واحد، فضلا عن أن الفئة التي جاءت بها الهجرات تكفلت بها البوتقة المصرية فصهرتها تمامًا.

(2) الفترة القبطية في تاريخ مصر تعرضت لمقاومة شديدة من المصريين الذين احتفظوا بديانتهم القديمة، ومن الوثنيين الإغريق ومن اليهود الذين كانوا سادة في الإسكندرية وأن هذا الوجود الوثني زاحم المسيحيين واستمر حتى العقد الأول من القرن السادس الذي حدث فيه حادث هيباثيا ذو الدلالة (514) بحيث أن المسيحية لم تكن دين مصر الوحيد إلا أقل من مائة عام.

(3) الديانة القبطية تعرضت لاضطهاد منذ أن آمن القبط بها. ففي القرون الثلاثة الأولى كان الاضطهاد الروماني الوثني من أباطرة روما وفي القرون الثلاثة التالية كان الاضطهاد من أباطرة القسطنطينية (بيزنطة) لاختلاف المذاهب.

(4) خلال هذه الفترة كلها لم يل الأقباط الحكم الذي كان في يد الرومان، ولم يكن لهم جيش، ولم تكن لهم سيادة، ولم تكن لهم لغة[48]، وكانت قوتهم في الحقيقة تعود إلى إيمانهم، هذا الإيمان الذي نجد مفاتيحه في الشخصية المصرية، وما أشرنا إليه من أنها شخصية "إيمانية" يمثل الدين جزء عضويًا في تركيبها.

(5) الكنيسة المصرية تدين بحريتها واستقلاليتها ووجودها، إلى الحكم الإسلامي الذي كف عنها عدوان المذاهب الأخرى، ومكنها من أن تنمو في جو من السماحة والسلام.

---

48 (?) **كانت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية خلال عصر البطالسة والعهد البيزنطي وقد كتب بها جميع آباء وعلماء الكنيسة في الإسكندرية، وكانت اللغة القبطية مقصورة على حاجة الكنيسة لتعليم الشعب أصول الدين خاصة في الأرياف.. وقد قامت اللغة القبطية على حروف يونانية عدتها 25 حرفًا أضيفت إليها سبعة حروف من المصرية القديمة في آخر مراحلها وهو الخط الديموتيكي، وأضيفت إليها ألفاظ يونانية وعبرية ولاتينية، وكان لها عدة لهجات منها اللهجة المنفية نسبة إلى منف وهي لهجة القاهرة وغرب الدلتا، واللهجة الصعيدية، واللهجة الفيومية، واللهجة الأخميمية، واللهجة البشمورية نسبة إلى بشمور التي كانت جهات عامرة في الدقهلية.. وبعد الفتح الإسلامي علا شأن اللغة القبطية حينًا، ولكنها تدهورت وحلت محلها العربية واعتمدها لغة رسمية في الطقوس البطريرك غبريال باتريك (1131 – 1145).**

***

الاختراق الصهيوني للفكر المسيحي:

هـذا عامل قد يكـون محـدود الأثر ولكنه لا يخلو من دلالـة، ويمكن لو تـرك، أن يتضخم وهو الاختراق الصهيوني للمسيحية في الولايات المتحدة، الذي ركز على نقطة معينة في الكتـاب المقـدس. وبلـور فيها فكرتهـا، وكـان الفضل في لفت الأنظـار إليها لكـاتب قبطي نابه هو الـدكتور رفيق حـبيب عنـدما أصـدر كتابه الهـام "المسـيحية والحرب".

وما يهمنا من الكتـاب هو أمـرين: الأول عـرض للفكـرة الرئيسـية للأصـولية المسيحية بتأثير الاختراق الصهيوني في الولايـات المتحـدة.. والثـاني مـدى نجـاح هـذه الأصولية في اختراق الكنيسة المصرية واصطناع أتباع لها بين الأقباط..

إن خير ما يوضح النقطة الأولى هو كتـاب هل لندسي "الكـوكب الأرضي العظيم الراحل" الذي بيع منه 18 مليون نسخة واعتبر الأول في المبيعات للكتب غير الروائية، ويأتي في المرتبة الثانية بعد الكتاب المقدس:

يقول الدكتور رفيق حبيب:

"والكتـاب ليس في العقيـدة فقـط، بل هو عن السياسة والتـاريخ أيضًا، ففيه يشرح الكاتب تاريخ العـالم، من وجهة نظر عقائديـة، فيفسر كيف يتفق التـاريخ الماضي مع نبـوءات الكتـاب المقـدس بعهديه القـديم والجديد، وبالتالي يمتد بالتاريخ إلى المسـتقبل، ليشـرح ما سـيحدث في المسـتقبل، طبقًا لنبـوءات الكتـاب المقـدس، حسب فهمه لهـا، والرؤية في مجملها تدور حول تحديد قوى الشر وقوى الخـير في العـالم، وكيف سيبدأ العد التنازلي لنهاية العالم من خلال تجمع اليهود من الشـتات في دولتهم في فلسـطين، ثم تتجمع قـوى الخـير لتحـارب قـوى الشـر، في معركة هرمجـدون، وهي في موقع في فلسـطين، وفي هـذه المعركة تنتصر قوى الخير على قوى الشر، ويـأتي المسـيح ليحكم العـالم أجمـع، حكمًا أرضـيًا فعليًا لمـدة ألف سـنة كاملـة، هي الألف سـنة السـعيدة. ولندسي يرى أن العد التنازلي للنهاية قد بدأ وأن هذا الجيل سوف يشهد قيام الملك الألفي[(49)].

وعبر صفحات الكتاب، يتعرض الكاتب إلى الدول المختلفة، فروسيا ضمن قوى الشر، كذلك العرب والمسلمون، وبابل سوف تسـقط تمهيـدًا للحرب الأخيرة، وليبيـا، ضـمن قـوى الشـر. والحكومـات العربية الموالية لروسـيا، مثل حكومة جمـال عبد الناصـر. هي جـزء من قـوى الشر المتحالفة على قوى الخـير المسـيحية. لـذلك فـإن انتصـار إسـرائيل في حرب 1967، هو جزء من الخطة الإلهية، لانتصار قوى الخير، وقيام دولة إسـرائيل الكـبرى من النيل إلى الفـرات، ليتجمع فيها كل شـعب الله المختار، حتى عندما تقوم الحرب الأخيرة، ويموت جـزء كبـير من اليهـود في الحرب، يأتي المسيح ويعطي لشـعبه المختـار المتبقي فرصة أخـيرة حتى يقبلوه كمخلص للعالم. فاليهود كشـعب مختـار ضل الطريـق، ولكن الله لا يتخلى عن شـعبه المختـار، لـذلك تظل له مكانة خاصـة، وتظل له فرصة أخـرى. فكل قـوى الشر تتحطم في حـرب هرمجـدون، ويـذهب الأشرار إلى الجحيم، وكل من رفض المسيح كمخلص للعالم. ولكن شعبه المختار، الذي رفضه، يعطى فرصة أخرى، حتى يقبله، (ص 42 – 43).

49 [(?)] **Lindsey, Hal. The late great planet earth. Michigan Zondervan 1997.**

وقد استطاعت حركات الأصولية الصهيونية/ المسيحية أن تنشر هذه الفكرة في الرأي العام الأمريكي، وتدسها في هيئـات عديـدة. وتـأثر بها الـرئيس الأمـريكي رونالد ريجان، وكانت وراء السياسة الأمريكية المؤيدة لإسرائيل بلا تحفظ وعلى طول الخط.

أما عن النقطة الثانية، وهي دخول هذا الفكر الصـهيوني المسـيحي مصـر.. فقد حملته هيئــات أمريكية الأصل مثل هيئة البحــارة Navigators الــتي تأسست عــام 1933 كمنظمة إرســالية إنجيلية تهــدف إلى تنمية قيــادات روحية يقومــون بقيــادة الآخرين ليتبعوا طريق المسـيح ومـدت نشـاطها إلى سـتين دولة من دول العـالم وهي تركز نشاطها في معسكرات الطلبة ووحدات الجيش والمجتمعـات الصـغيرة من خلال الكنيسة. ومفتاح فهم هيئة البحارة هو مفهوم التلمذة ويعني أن القائد (البحـار) يقـوم باختيار أعضـاء (تلاميـذ) ويقـوم بتـدريب وتعليم كل واحد منهم على حـدة حـتى يصـبح تلميـذًا. والتلمـذة تقـوم على الطاعة لله أولا، ثم للقائـد. ولكن القائد هو حلقة الوصل بين التلميذ والله. وهـذا النمـوذج له قـوة غـير عادية في زرع الفكر المسـتهدف داخل عقل (التلميـذ) الـذي يسـتمر تابعًا للقائد الـذي يظل بــدوره المرشد الـروحي له في العديد من أمور الحياة..

وهذا الأسلوب يخلق أتباعا يطيعـون قائـدهم، ويتوزعـون في كل مكـان. فالهيئة تشجع تلاميذها على الاستمرار داخل كنائسهم، ومن ثم يستمر "التلميـذ" في كنيسـته، ولكنه يتبع القائد في فكره، فيصبح سفيرًا جديدًا لهـذا الفكـر، وهو سـفير مطيـع، ومن هنا تظهر أهمية نشر الأتباع داخل الكنائس المختلفة خاصة عندما يقوم البحارة بتلمـذة قيادات الكنيسة، ثم تركهم على الطاعة، يعملون داخل كنائسهم، بهذا يكسب البحــارة قيادات توجه كنائسها، لا حسب عقائد الكنيسة، بل حسب عقائد البحارة.

لـذلك فـإن البحـارة في مصـر، عملـوا من خلال الكنيسة الإنجيليـة، بـدعوى أن هــدفهم مســاعدة الكنيسة على التعليم، والنهضة الروحية أما الواقع فهو أن البحــارة استطاعوا خلق أتباع لهم في كل ركن من أركان الكنيسة، وعبر 15 عامًا. وفي البداية كان العمل يتم من خلال برنامج التلمذة، ومع تزايد الاعـتراض عليـه، أصـبح العمل يتم من خلال برنامج الأزواج والزوجات، وفي البرنامج الأخير، يقـدم للمتـدربين، معلومـات عن الحياة الزوجية، وتربية الأطفال، وغيرها، وكلها تقوم على نفس المبادئ الأساسـية "للتلمذة". أي أن الفرق الأساسي، وهو واضح من نشاط البحارة عالميًا، أنهم يضـعون بـرامج دينية فقط (التلمـذة) وبـرامج دينية اجتماعية للمـتزوجين، والمحـالين للمعـاش والأطباء، وهكذا.

ولعل أثر التلمذة الحقيقية، كما تسـمى، يظهر فيما يقـال عن أن نبيل جبـور، قد تلمذ القمص زكريا بطرس، راعي كنيسة مار مرقس في مصر الجديدة، ومار جـرجس بمنشية التحرير، والذي تم إبعـاده عن مصـر، متهمًا بالتبشـير في عـام 1989، وبغض النظر عن مــدى صــدق هــذه القصــة، فهي تعــني أن كسب "تلميــذ" داخل كنيسة بروتستانتية أو أرثوذكسية، هو الطريق إلى محاولة تغيير فكر هـذه الكنيسـة، وإذا كـان "التلميذ" قائدًا، وزعيمًا روحيًا، فإن الآثار التي يمكن أن يتركها على كنيسة بل كنـائس، لا يمكن أن تقاس.

من ناحية أخرى، فإن فكرة التضاعف لها أهميتهـا، فهي تعـني أن على القائد أن يتلمذ أكثر من شخص، ثم على كل تلميذ أن يتلمذ آخرين، وفي أحد النمـاذج، يمكن أن نفرض أن القائد يتلمذ 8 أفراد، وكل منهم يتلمذ 8 أفراد، وهكذا، ولنا أن نحصي العـدد المتتالي المتزايد، وهو 1، 8، 64، 612، 409، وهكذا. وبالطبع فإن النجاح لا يحدث دائمًا بهذه الصورة، ولكن الفكرة في حد ذاتها، ملفتة للنظر.

ومن الهيئات المسيحية/ الصهيونية التي دخلت إلى مصر منظمة "شباب له رسالة" التي تعمل في مصر منذ عشرين عامًا، أي منذ أواخر ستينيات القرن العشرين، ونشاط هذه المؤسسة، يلفت النظر، لما لها من تأثير كبير وممتد، عبر الشباب المسيحي، كذلك فإن نشاطها في قبرص، يمثل مركزًا مهمًا، لنشر فكرها في الشرق الأوسط.

وتعمل هذه الهيئة، بدون أي غطاء لها في مصر، ويرتبط عملها، بممثلها ومندوبها في مصر، منير مساك، ولا توافق معظم الكنائس المحلية على هذا العمل. فهيئة شباب له رسالة، عكس الهيئات الأخرى، لم تستطع العمل من خلال الكنائس المصرية، ولم تستطع الحصول على قبول كنسي عام، باعتبارها هيئة مساعدة للكنيسة، مثلما فعلت هيئات أخرى. وبرغم هذا الوضع الضعيف رسميًا، إلا أن الهيئة، أثبتت قدرتها على التأثير في مصر الكنيسة، وفي مصر الفكر المسيحي السائد في مصر.

فبرغم رفض الكنيسة في مصر، لعمل هذه الهيئة إلا أن الكنيسة لم تستطع إيقاف عملها، أو حتى الحد من تأثيرها، وعبر قنوات الهيئة من القيادات المسيحية المؤمنة بفكرها، يتاح لها اختراق الكنيسة، وبث فكرها.

ومن خلال التأثير على كنيسة، ينتقل الأثر إلى الكنائس الأخرى، وهو عادة يبدأ بالكنائس البروتستانتية، وينتقل إلى الكنائس الأخرى، تبعًا لاستراتيجية الاختراق.

وإذا كانت هيئة شباب له رسالة تؤمن بالملك الألفي، وإذا كانت لا تؤمن بالتدبيرية، أي انتظار تحقق هذا الملك دون تدخل من المؤمنين، وإذا كانت تؤمن بأن على المؤمن التمهيد لقيام الملك الألفي، أي أنها تؤمن بأن عليهم أن يساعدوا إسرائيل، ويسهلوا عودة يهود الشتات ومنهم اليهود السوفييت، ويساعدوا في بناء هيكل سليمان، كذلك في هدم المسجد الأقصى، إذا كان كل ذلك صحيحًا، فماذا تفعل هذه الهيئة في مصر؟!!

هل تنادي بهذه الأفكار؟ هل تحاول إقناع المسيحيين في مصر بها؟ هل تبحث عن تأييد المسيحيين لإسرائيل؟ هل تعمل على تبشير المسلمين؟ وعشرات أخرى من الأسئلة، تبحث عن إجابة مقنعة، ولكن الواقع قد يعطي مؤشرات مختلفة.

فهذه الهيئة، مثل غيرها، تعمل بين المسيحيين، أكثر من المسلمين، وتحاول تغيير الفكر المسيحي المصري، نحو الأصولية الأمريكية. كذلك فإنها مثل غيرها، تنشر الفكر الأصولي، في معظم جوانبه، أكثر من ذلك الجانب الصهيوني. وتحاول كسب الشباب والقيادات، للفكرة الأصولية، أكثر مما تحاول جذب تأييدهم لإسرائيل. وباختصار نستطيع أن نقول إن هذه الهيئات، تعمل في حدود المقبول، ليس لأنه مقبول، بل لأنه الممكن. أي أن نشاطها ينحصر أحيانًا كثيرة في حدود ما يقبل من المجتمع، لأن هذا ما يتاح لها، أي لأنه الممكن. وتبقى الأهداف الأخرى، على هامش العمل، لأنها مستحيلة، وكلما أتيح لها فرصة ستجد طريقها. وعلى أضعف الأيمان، فقد استطاعت هذه الهيئة، وغيرها، رغم تطرف فكرها، وعدم ملاءمته للبيئة المصرية، أن تجد لها أتباعًا ومؤيدين وتحقق مدى واسعًا من التأثير، خاصة على الشباب، وكل ذلك في أرض الكنانة مصر.

ويستطرد المؤلف فيقول:

"يلاحظ، مما سبق، أن الهيئات الأصولية، تتبع مبدأ الممكن، حيث تقوم بالعمل المتاح والممكن، حسب ظروف المجتمع الذي تعمل به. وهذا المبدأ يتيح لها اختراق الكنيسة، خاصة عندما تخفي فكرها

المرفوض، وتعلن الجانب المقبول. بهذا المعنى، استطاعت هيئة البحارة، العمل من خلال الكنيسة الإنجيلية في مصر، دون أن تظهر فكرها عن "التلمذة" والطاعة، أو أي عمل من شأنه أن يهدد بناء الكنيسة، ومن خلال عملها، بدأت الجوانب السلبية في الظهور تدريجيًا، وتوقف عمل الهيئة في النهاية، بعد أن ترك آثاره التي يصعب مواجهتها.

كذلك بالنسبة لهيئة المعسكر الصليبي للمسيح، فهذه الهيئة تعمل من خلال الكنيسة الإنجيلية في مصر، ولكن الهيئة قد أخفت فكرها الخاص بالملك الألفي، وكذلك تأييدها لإسرائيل، وهي أمور كافية بمنع التعاون بينها وبين الكنيسة الإنجيلية، ومختلف الكنائس المصرية. حيث إن الكنيسة الإنجيلية (المشيخية) ترفض عقيدة الملك الألفي، وما بها من مفاهيم شعب الله المختار وغيرها، ولكن الهيئة استطاعت إخفاء هذا الجانب، والعمل من خلال أفكارها الأخرى، التي يمكن أن تقبل في مصر.

وأكثر من هذا، فإن هيئة شباب له رسالة، والتي تعمل بدون أي إطار كنسي، قد أخفت – إلى حد كبير – فكرها الذي يؤمن بالمسيحية الصهيونية السياسية (لاهوت السلطة). فهذا الفكر يعني أنها تساعد على إقامة الملك الألفي وتساعد إسرائيل، أي أنها تحول العقيدة إلى برنامج عمل سياسي، على عكس هيئة المعسكر الصليبي، التي تؤمن بالتدبيرية، أي أن الملك الألفي سوف يحدث بتدبير الله فقط. ولكن، وعبر السنوات الطويلة لعمل هيئة شباب له رسالة في مصر، ظل هذا الجانب من فكرها خافيًا على أغلبية من سمع عنها، أو تعامل معها.

إن هذه السياسة من جانب الهيئات الأصولية، تسمح لها باختراق الكنائس المصرية، بعد أن تقدم لهم الجانب المقبول من فكرها، ثم تحاول التسرب تدريجيًا لتكسب الأرضية والأتباع، وربما تأتي بعد ذلك لحظة مناسبة، يبدأ فيها إعلان الجزء الخفي من مضمون فكرها.

إن هذا الأمر يتكرر مع الكنيسة الإنجيلية، والكنيسة الأرثوذكسية، في مصر، فالهيئات الأصولية التي تتعامل مع هذه الكنائس، تخفي ما يضرها، كذلك فإن هذه الهيئات تقدم فكرها للجماهير، بالأسلوب الأفضل للنجاح، وتخفي الفكر الذي قد يحرمها من الأتباع، أما في الكنيسة الكاثوليكية، فإن الفكر يأتي من داخلها، حيث أن سياسة الفاتيكان تميل إلى احتواء كل فكر يظهر بين الكاثوليك، حتى وإن اعترضت عليه منعًا للانشقاق.

وهناك هيئة "صانعي الخيام" التي يعمل معتنقوها في المناطق الشعبية ويحترفون مختلف الحرف حتى يصلوا إلى مجموعات من الشعب.

ومن متابعة الصحف في مصر يمكن أن نجد تسجيلا لإحدى هذه المجموعات ففي صحيفة الأهرام بتاريخ 14/4/1991، وفي الصفحة الأولى، نشر الخبر التالي تحت عنوان "القبض على تنظيم يدعو لإثارة الفتنة"، "ألقت أجهزة الأمن أمس القبض على تنظيم يدعو للتبشير بالمسيحية وإثارة الفتنة الطائفية بين المسلمين والأقباط في مصر، ويضم التنظيم مواطنين سويسريين وآخر ألماني الجنسية استأجروا شقة بشارع الرشيد بالعجوزة عثر بها على بعض المنشورات والكتيبات

التي تدعو إلى إثـارة القلاقل الطائفيـة، كما يـتردد عليهم بالشـقة بعض المصريين وجار البحث عنهم".

والخبر، على صغره، يشير إلى إحدى الهيئات التبشيرية، الـتي ليس لها وجود رسمي، بل التي تستخدم أسلوب "صانعي الخيـام". ولكن يبـدو أن الأمر أصــابه بعض الغمــوض، ربما نتج عن أي أفكــار أصــولية غربية تعتنقها هذه الجماعة، أو أي أسباب أخرى، وهذا الغموض ظهر في اليوم التالي (15/4/1991) في صـحيفة الأهـرام أيضًـا، حيث كتب تحت عنـوان "إخلاء سـبيل الأجـانب المتهمين بالتبشـير بـدين غـامض" وفي الصـفحة الأولى من الجريدة، "أمـرت نيابة العجـوزة بـإخلاء سـبيل الأجـانب الثلاثة المتهمين بالتبشير بدين غـامض وسط المواطـنين في الأحيـاء الشـعبية، وترحيلهم إلى خارج البلاد بعد أن رأت النيابة أنهم لم يمارسـوا التبشـير، وكـانت النيابة قد اسـتمعت أمس إلى أقــوال أفـراد التنظيم حيث قــرر أولهم أنهم لم يقصدوا الإساءة إلى الإسلام".

ومن هذا يتضح، أن هذه المجموعة هي من المجموعات الـتي تتكلم باللغة العربية، وهو ما يمكنها من العمل في الأحيـاء الشـعبية، كما يتضح أيضًـا، أنهم كـانوا يتكلمـون عن الإسـلام وعقيدتـه، كمـدخل للحـديث عن المســيحية، وهو ما يحــدث غالبًا عن طريق محاولة تشــكيك الفــرد في عقيدته حتى يسهل إقناعه بالعقيدة المسيحية.

وتتضح الصورة أكثر، من اعترافات هذه الجماعة، في نفس الجريدة (الأهــرام 15/4/1991) وفي الصــفحة 15، حيث قــرر المتهم الأول اســتيفان وولــتر سويســري الجنســية، بأنه حضر إلى مصر منذ عــامين لدراسة اللغة العربية مع مواطنه رولاند جريسر والألمـــــــــاني مايكل جوزيـف، واعـترف بأنه كـان يـنزل إلى التجمعـات الشـعبية ويتحـدث مع النـاس باللغة العربية الـتي يجيـدها إيمانًا منه كمسـيحي بتعريف النـاس بعقيدته بـدعوى تخليص البشـرية من مشـاكلها، وزعم أنه يحب الشـعب المصري ويـرغب في تخليصه من كل مشـاكله وقـال إنه لم يكن يريد أن يسـيء إلى الإسـلام، وإن ما فعله لم يقصد منه التعـدي على السـلطات المصـرية، والصـورة واضـحة فهم مجموعة من صـانعي الخيـام، يعرفـون العربية، ويبشرون بالمسيحية في الأحياء الشعبية، من خلال توجيه النقد للعقيدة الإسـلامية، بـالحوار والكتب، وتقـديم المسـيحية كعقيـدة بديلـة، سوف تساعد من يؤمن بها على حل مشاكله".

وعالج المؤلف نقطة هامة هي أثر الإيمان بالعقيدة الألفية على سلوك المواطن القبطي المصري وضرب مثلا رواه القس أكرم لمعي:

"الحقيقة أن هذه العقيدة أثرت في وجدان من يؤمنون بها بصــورة أوقعتهم في مآزق فكرية وأخلاقية عدة، ففي إحـدى جلسـاتي مع طيـار مســيحي (من الواضح أنه يقصد طيــارًا مســيحيًا مصــريًا) يــؤمن بهــذه العقيدة، صرح لي بأنه ممزق داخليًا، لأنه إذا صدر له أمر بضرب إسرائيل فسوف ينفذ الأمر ويحارب لأجل بلاده فهو وطـني يحب بلـده، في نفس الـوقت الـذي يعتقد أن إسـرائيل لابد وأن تنتصر في نهاية الأمـر، فكيف يكون أمينًا في أحاسيسه ومشاعره نحو بلده العزيـز، وفي نفس الـوقت الذي يكون فيه أمينًا نحو عقيدته، وأي تمزق يعيشـه؟ هل يتمـنى انتصـار إســرائيل الــتي قتلت أخــاه وصــديقه وكــانت ســببًا مباشــرًا في أزمته

الاقتصـادية والاجتماعية وسـببًا في انهيـار الكثـير من القيم الإنسـانية والأخلاقية داخل مجتمعه وتـدهور المرافق العامة والخـدمات بصـورة لم يسبق لها مثيل أو يكره إسرائيل كإنسان وطني محب لبلده، ويكون بهذه الموقف ضد خطة الله نحو العالم حسب تصوره، والحقيقة أني أشـفقت جدًا على هذا الطيار وفكرت أن هذه المشـكلة هي مشـكلة من يعتنقـون هـذا الفكر في الغـرب، ومنهم من يـدفع أمـوالا وضـرائب لأجل دولة إسرائيل، في الوقت الـذي فيه تسـتخدم إسـرائيل هـذه الأمـوال لشـراء أسلحة تقتل بها أطفال الحجارة في فلسطين وتشرد رجالا ونساء عـزلا من السلاح" ص 194.

ويعتقد المؤلف أن:

معظم "الألفـيين في مصر كما في العـالم، يؤمنـون أن إسـرائيل اليوم هي إسرائيل المقصـودة، وأن نهاية العـالم على الأبـواب، والبعض ينتظرها في غضون سنوات، والكثيرون يعتقدون أنها في خلال حيـاتهم، وهـذا الموقـف، يجعل المـؤمن بالملك الألفي يـرى أن إسـرائيل الحالية تحقيق لإرادة الله، ويصـبح موقفه منها شـائكًا، وفي ذلك نجد بعض ردود الفعل المتنوعة، ومنها:

1- الامتناع عن الحرب، إن أمكن.

2- الخضوع للاشتراك في الحرب، باعتبار أن القانون لا يبيح الامتناع عنها، مع رفضها داخليًا.

3- الامتنـــاع أو الاشـــتراك في الحـــرب، مع رفض فكـــرة مقاومة إسرائيل، لأنها مقاومة لإرادة الله، ويبقى الـرفض على مسـتوى العقيدة فقط.

4- الاشـتراك في الحـرب لأنها واجب وطـني، ولأن المـؤمن بالملك الألفي غير مطالب بمساندة إسرائيل، فإن الله الـذي يريـدها هو الذي يحميها.

وكل هـذه المواقف المتنوعـة، تقـدم حلـولا، وتبقى المشـكلة، في أعماقها، فهل يشعر الألفيون بالسعادة لقيام إسرائيل؟ لأسـباب دينيـة؟ أو يشعرون بالحزن، لأسباب وطنية؟ وإذا استطاع العرب طرد إسـرائيل، ودفعها للشتات مرة أخرى، فما موقف الألفـيين، بين السـعادة والحـزن، وبين الاشتراك في هذه الحرب، أو رفضها؟

تبقى القضــية معلقــة، وعلى المؤمــنين بالملك الألفي مواجهتها بصراحة، وتقديم حل لها، بـدلا من تركها أزمة تعيش بـداخلهم. وتجعلهم أحيانًا فريسة لمشاعر متناقضة.

فالغـالب في النهايـة، أن الألفـيين في مصـر، كما في كل العـالم، شعروا بالسـعادة عنـدما قـامت دولة إسـرائيل، وأنهم آمنـوا أن المسـيح قادم ليحكم العالم في هذا الجيل، وأنه قادم في عـام 1988، أو 1989، ولأنه لم يأت في هـذا التـاريخ، فهو قـادم في 1992، وإن لم يـأت فـإن ســنة 2000 هي في النهايـــة، وهي النهايـــة، وهي بداية الألف عـــام السعيدة، ص 196.

من هـذا العـرض يتضح أن هـذا العامـل، وإن كـان أثـره محـدودًا، وأنه لم يظفر بتأييد الكنيسة، بل إنها حاولت صده، إلا أنه يعد من العوامل التي تبعد صـاحبه عن فكر

مصـر، بل وسياسة مصـر، وتفـرض عليه فكـرة معارضة معادية اسـتطاع الصـهيونيون بذكاء أن يجعلوها من محاور الكتاب المقدس، وليست هي إلا إحدى النبـوءات العديـدة ذات الطابع الرمزي..

العملاء المهيجون:

لا يمكن إنهاء العوامل التي أثرت على مواقف الأقبـاط دون الإشـارة إلى عامل إضـافي – بمعـنى أنه قد لا يكـون أصـيلا، ولكنه فـرض نفسه على القضـية، وأثر في مسـلك الأقبـاط بالفعـل.. ذلك العامل هو أن بعض الشـانئين للإسـلام ركبـوا الموجة القبطيـة، لا حبًا في الأقبـاط، ولكن كراهية للإسـلاميين، خاصة إذا كـانت أوثـانهم الـتي عكفوا عليها عابدين كالماركسية والناصرية والقومية العربية قد هـوت وسـقطت.. كما قد يكون هناك أفراد مدفوعين من هيئات للصيد في الماء العكر، ولإضـرام عـداوة بين المسلمين والأقباط، لأن هذا يخدم سياستهم في إثارة الاضطراب والقلق وشغل البلاد بالمشكلات والنعرات القومية، وتلويث اسم النظـام، وتشـويه اسم مصر في الخـارج.. كما يمكن أيضًا أن يسلك هذا المسلك كل أعداء النظام، وأخـيرًا فقد يسـلكه أو يتقبله عناصر في الأمن ترى أن في قيـام مثل هـذه القلاقل ما يثبت مركزها ويـدعم وجودها ويبسط نفوذها!

إن ساحة الصراع والمصالح والأهواء تتسع لكل هذا...

وسنشـير كمثـال إلى قلم قميء يسـتخدم مجلة أسـبوعية حمـراء في اسـتثارة الفتنة والتحريض بصورة تذكر الإنسـان بـدور "العميل المهيج" الـذي يسـتخدمه أعـداء النظام لإثارة الفتنة وتدمير السـلام أو يسـتأجره أصـحاب الأعمـال لإفسـاد الإضـرابات العمالية بالانحراف بها نحو التدمير... إلخ!

في العـدد الصـادر يـوم 22/4/1992 من المجلة الحمـراء كتب صـاحب القلم القميء تحت عنـوان "**دعـوة للفتنة في كتـاب مدرسي**" موجهًا حديثه لـرئيس الوزراء:

"فقط سـأورد فقـرات غـير عاقلة وغـير معقولة من كتـاب عنوانه "محاضـرات وبحـوث في أصـول التربية – الفرقة الثالثة – إعـداد قسم أصـول التربيـة"، لنقـرأ هـذه الفقـرات ولـنر أثرها على نفسـية طـالب مسيحي، ولنر أثرها على مواطنين شركاء في ملكية هذا الـوطن: ترابـه، وتراثه، وتاريخه، ومسـتقبله. لنـدرك أن أصـحاب هـذا الكتـاب.. من قسم أصـول التربيـة.. يسـتحقون هم أنفسـهم درسًـا في التربيـة.. فأية تربية هذه التي تمزق الطلبة إلى مسلم ومسيحي؟ والتي تمزق المسيحي في موضوع الممتهن، وماذا سـيحل بنا إذا تخـرج في قسم التربية مدرسـون يمتلكـون (تربيـة) تشـبه تربية أسـاتذتهم فيعيشـون في الـوطن تمزيقًا وتطرفًا!

يا دكتور عاطف صدقي اقـرأ معي، وانظر مـاذا أوصـلنا إليه ضـعف حكومتك...

"المسيحية تقوم على اليهودية، واليهودية ليست دينًا" (ص 15)!

"إن المسيح قد لا يكون له وجود على الإطلاق" ! (ص 86).

"المسيحية طعمت بالوثنية" ! (ص 18

"المسيحية تأثرت في الفكرة الإلهية بالثالوث المقـدس عند قـدماء المصريين وبالثالوث الهندي"! (ص19)

"بولس الرسول تظاهر بالنصرانية لتحريف المسيحية"! (ص 19)

"المسيحية تم فيها عبث بشري جعلها توليفة يهودية وثنية"! (ص 78)

وهكذا تمتد عشرات الفقرات لتتطاول على ديانات سماوية، وكأن المسلم لا يكون مسلمًا حقًا إلا إذا أهان وامتهن الديانات الأخرى، بينما صحيح الإسلام يقوم على الاعتراف بالديانات السماوية وعلى احترامها...

يا حكومتنا غير العزيزة،

الأمر جد لا هزل فيه، فإما أن تمتلكي الحد الأدنى من القدرة على حماية أبسط حقوق المواطن في احترام ديانته ومعتقدة وهو ما يكفله له الدستور.. وإما أن ترحلي غير مأسوف عليك، ويكفي أن التاريخ سوف يذكر لك أن حمى التطرف قد وصلت في عهدك المدرسي والجامعي.. ورسميًا وعلنًا في الطعن في الديانات الأخرى.

وإذا كنتم لا تعرفون أن ذلك يفتح أبواب جهنم فأنتم في سذاجة تصل إلى ما هو أفدح من السذاجة.

وإذا كنتم تتخيلون أن الأقباط سيظلون في هذا الضغط المشين ساكتين راضين.. من لا يعجبه يحتمل، ومن لا يحتمل يهاجر، فأنتم جد واهمون، ولم تتعلموا دروس التاريخ ولا دروس الحاضر في أكثر من بقعة من العالم[50])!! (انتهى).

نقول إن ما جاء في كتاب التربية هذا، جاء أضعافه في كتاب "المنارة التاريخية" الذي وضعه كاتب مسيحي عندما تعرض لآثار الديانة المصرية القديمة على الأقباط كما جاءت إشارات مماثلة في كتابات لويس عوض عن عهد النهضة في أوروبا، ويمكن التدليل عليه من كتابات اليهود أو الأقباط.. فمثلا "المسيحية تقوم على اليهودية" يمكن البرهنة عليها بكلام المسيح عن أنه جاء ليهدي خراف بني إسرائيل الضالة.. "واليهودية ليست دينًا" هو ما يحكم به الأمر الواقع الذي وضعه اليهود أنفسهم لتحديد من هو اليهودي، وتجعل من اليهودية شرعة عنصرية وأما آثار القديس بول على المسيحية التي جاء بها نبي الناصرة وكيفها طبقًا للمفاهيم اليونانية/ الرومانية السائدة فهذا ما يعد من ألف باء التاريخ المسيحي([51]).. وأما ما جاء عن حدوث عبث أو تحريف فأنا أحيله على كتاب "لوثر" الذي وضعه مسيحي كاثوليكي يتحدث فيه عن عبث لوثر

---

[50] (?) لقد أعماهم الله فأعادوا نشر هذا المقال البذيء والتحريض السافر في كتاب من كتب "المواجهة" المزعومة ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

[51] (?) كمثال – من أمثلة لا حصر لها – انظر ما كتبه الأستاذ سلامة موسى في كتابه "حرية الفكر" الذي أعادت طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب في سلسلة كتب "المواجهة" وأرادت بها التنوير إذ قال: والمسيح الذي كان يطلب من المسيحي أن يدخل غرفته، ويقفل على نفسه ويصلي، لم يفكر قط في إنشاء كنيسة وإقامة كهنة عليها، وإنما جاءت هذه الفكرة من بولس. فالمسيحية الفاشية الآن ومنذ القرن الأول للميلاد هي مسيحية بولس، وليست مسيحية المسيح" (ص 32) ومرة أخرى "ولما ظهرت المسيحية دخلتها طائفة كبيرة من العقائد الفاشية في ذلك الوقت في تلك الأديان – ومازلنا نحن المصريين نعرف في المسيحية فكرة الثالوث الأب والابن وروح القدس، وإنها هي الفكرة التي كانت فاشية عند المصريين باسم أورسوريس وأبسيس وهورس. وقد يسر هذا التداخل على الناس الإيمان بالدين الجديد" (ص 33) وتحدث في الجزء الثاني عن الراهب الدومينيكي برونو الذي أحرق سنة 1600 لأنه كان "ينكر الإنجيل ويجاهر بعدم ربوبية المسيح".. وتحدث عن سرفتيوس الذي أحرقه كالفين لأنه "ذهب في أبحاثه الدينية إلى أن عقيدة التثليث عند المسيحيين، وهي أن الأب والابن وروح القدس إله واحد خطأ لا أصل له" (ص 141) أما ما أفاض فيه وشرحه الدكتور لويس عوض عن تأثر المسيحية بالمصرية القديمة أول ظهورها. وتأثرها خلال القرن الخامس عشر الذي أدى إلى ظهور حركة الإصلاح الديني، وما أخذه كالفين ولوثر من الإسلام. فيضيق عنه المجال.

في نصوص الإنجيـل.. إلخ فهـذا لا يقـال عنه "تطـاول" لأنه يعـالج وقـائع وقضـايا ويتبع مناهج وأساليب علمية.

التطاول الحقيقي هو ما جاء في آخر كلمته والذي يمثل لنا أصدق تمثيل سياسة "العميل المهيج"... فـأي سـفاهة وأي تحـريض يمكن أن يجـاوز ما جـاء في فقرته الأخيرة؟!

يا هذا...

من وكلك عن الأقباط لتتحدث باسمهم أو نيابة عنهم، وتتنبأ بما سوف يعملون!؟

لحساب من تحرض الأقباط وتوغر صدورهم وتغريهم بهذا المسلك الوبيل؟.

"حِل عنهم" حتى لا يحيق بهم شـؤم كل دعـوة تناصـرها وتنفخ فيهـا، فيأتيها الله من القواعد.

***

وفي 29 أبريل 1992 وتحت عنـوان "وإنمـا..." حـاول أن يسـتعدي نقيب الصحفيين على صحيفتي النـور وأكتـوبر ودعا النقابة لكي تتـدخل "لكي تفـرض على الجميع الاحتماء بمصريتهم من أية نوازع مدمرة لوحدة الـوطن وتلـزم الجميع بـاحترام الأديـان.. كل الأديـان.. واحـترام معتقـدات المصـريين، كل المصـريين، وتمنع الأيـدي المستهجنة بمصر من أن توجه سهامها إلى قلب الوطن".

وله نقول.. ألا تكفيه قوانين "القيم" والجبهة الداخلية والسلام الاجتمـاعي... إلخ وقانون حماية الوحدة الوطنية وبـاقي ما أصـدره السـادات... ولمـاذا إذن تضـيقون بها وتدعون إلى إلغائها، وتلصقون كل تهمة بالسادات؟

وفي عـدد 13 مـايو 1992 وجه رسـالة طويلة للـرئيس، لا نثقل على القـاريء بما فيها، وإنما ننقل له منها هذه الفقرات:

"ولعل الصراحة تكـون موجعة إذ أقـرر أنـني وأنا المصـري المسـلم أستشعر فزعًا من هذا التمييز فما بالنا بالمصريين الأقباط.

وآسف ياسيدي الرئيس إذ أقرر أن بعضًا من هـذا التميـيز يـأتي من جانب مؤسسة الرئاسة ولعل هذا يضفي على الأمر كله مسحة كافية من الرسمية.

فمثلا هنـاك تلك القصة المقيتة للخط الهمـايوني الـذي يتحكم في إنشـاء وإصـلاح دور العبـادة للإخـوة الأقبـاط، وهو بكل المعـايير منـاف للدسـتور وللمنطق وللحق الطـبيعي للإنسـان القبطي المصـري في أن يقيم دور عبادته على قـدم المسـاواة مثله مثل المصـري المسـلم، وفي أحيان تخف وطأة "الهمايوني" وفي أحيان تشتد، هذه تأتي عندما تتشدد الجهة المعنية فتقبض يـدها عن إصـدار الموافقـات اللازمة لإصـلاح الكنائس وبنائها.

ولأنك – سيدي الـرئيس – رئيس لكل المصـريين، فـإن أول واجباتك هو أن تعطيهم حقوقًا متكافئة في العبـادة، والأجـدر هو إلغـاء هـذا "الهمـايوني" ثم وضع قـانون مصـري وأكـرر مصـري أي لكل المصـريين ينظم هذا الأمر.

وبرغم وضوح هذا الأمر، وبـرغم أنه يمثل جرحًا غـائرًا لـدى الإخـوة الأقباط فإنه يتم تجاهله، بما يعطي انطباعًا واضحًا بالتمييز والتميز.

وهنـــــاك أيضًـــــا التعـــــيين في المواقع القيادية والعليا – وزراء/ محافظون/ قادة عسكريون/ سفراء.. إلخ.

ولعلك تعـرف – سـيدي الـرئيس – أن البعض يمسك بالآلة الحاسـبة لكي يحسب النسبة التي غالبًا ما تعطي للأقبـاط (صـفرًا) في المائة بما يغرس في قلوبهم ونفوسهم أنهم مواطنون من الدرجة الثانية، ويغرس بالمقابل في نفوس دعاة التطرف حمية المزيد من التسلط والتمييز.

وتكر المسبحة – كما يقول الإخوة الشوام – ويتوالى التميـيز ويتولد معه وبه ما أسميناه في البداية المناخ العام للتطرف.

فمنـاهج التعليم، وأجهـزة الإذاعة والتليفزيـون والصـحافة، وحـتى الصحافة القومية، تضخ كلها رياح التفرقة والتفريق.

فهل وصل إلى مسـامعك – سـيدي الـرئيس – أن داعية إسـلاميًا لا يتـوانى عن التهكم على الديانة المسـيحية في بـرامج التليفزيـون، وأن صحفًا قومية تنشر شيئًا مثل ذلك؟!.

وهل تتصـور سـيدي الـرئيس أن موظفًا في مديرية طما التعليمية تجاوز صريح القانون والتعليمات الوزارية فحرم المدرسـين الأقبـاط من حق العبادة صباح الأحد، بل ووقف متباهيًا أمـام جمع من النـاس فقـال: نحن (نـدكن) على قـرارات الـوزير ولا ننفـذها.. فمن أين أتته مثل هـذه الشجاعة!

وهل تصـدق أن أسـتاذًا جامعيًا في المنيا لا يختـار لبـدء امتحانـات النقل إلا يوم عيد القيامة المجيد؟

وهل علمت يا سيدي أن أحدًا من هؤلاء لم يسأل لماذا فعل ذلك؟

وهل تعـرف يا سـيدي الـرئيس أن الأمر قد وصل بـالمتطرفين أن سـيطروا على نقابة الأطبـاء في دورتها السـابقة وأنهم غـيروا القسم الـذي يتلـوه الطـبيب عند التخـرج ليصـبح "قسـمًا إسـلاميًا".. بما وضع الأطباء الأقباط في حرج أشعرهم أنهم مواطنون غير مرغوب فيهم!

بل هل تعلم إلى أي حد تجـاوز المتطرفـون في قـرى الصـعيد كل حـدود وفرضـوا هنـاك دولتهم بلا منـازع، وفرضـوا الجزية على الأقبـاط فـــدفعوها وهم صـــاغرين، لأنهم لم يجـــدوا من يقف معهم في وجه التطرف..." (انتهى).

نحن لا ندافع بالطبع عن الخط الهمايوني ونـرى حرية إقامة المعابد من مسـاجد وكنائس دون قيد.. ولكن الكلمة تشـير إلى الوظـائف، فـإذا كـان المطلـوب أن يكـون للأقباط نسبة معينة تتناسب مع عددهم، فإن هذا هو أقصى ما تريده بعض الفئات التي ترى أن الأقبـاط يظفـرون بما يجـاوز نسـبتهم العدديـة، وهو على كل حـال "تكـريس" للطائفية!

***

وفي كل عـــدد من أعـــداد المجلة الحمـــراء، نجد تعليقًا من القلم القميء على رســالة جاءته من قبطي أو عن تصـــرف قـــام به أمين شـــرطة، أو معلم أو موظف أرشيف، فيقيم الدنيا ويقعدها.. مما يشجع آخرين على الكتابة سواء بـالحق أو بالباطل مع صـغير أو كبـير.. أما حملاتها على "المتطـــرفين" فهي دائمًا تملأ الصـــفحة الأولى وتستأثر "بالمانشتات الحمـراء الكبـيرة" وفي سـبيل الحملة على الإسـلاميين وتلـويث

صفحتهم تستكتب مجلتهم بعض الضباط الملوثة أيـديهم بـدماء التعـذيب وتطلق عليهم "مستشاري أمن".. وآخر إنجازاتها في النصف الثاني من نوفمـبر 1993 أنها كتبت في الصـفحة الأولى نبأ مكالمة تليفونية خاصة بين أحد مسـئولي لجـان الامتحـان وأسـتاذ جـامعي عن حرمـان قبطي من مراقبة الامتحانـات وجعلت منها قضـية قومية كـبرى تشبع فيها لطمًا وندبًا وتطالب الوزير بالرد، فإذا رد ترد على الرد!

إن هذه المجلة وأمثالها يقـترفون جناية كـبرى في حق هـذه البلاد، ويبلغون في هذا ما لا يمكن أن تبلغه إسرائيل نفسها، لأنهم يعملون في الــداخل، وتحت ســتار "الوحــدة القوميــة" المــدعاة، كما أنها تضــخم الشـائعات وتضـرم التطلعـات وتعمق الخصيصة الفئوية لـدى الأقبـاط وتغرس الازدواجية في المجتمع المصري، وكانت من أكبر عوامل التحول من الموضوع إلى الذات.

والنقطة التي ترددها صحيفة الإثارة والفتنـة، وهي كتابـات بعض المسـلمين عن المسيحية تدخل في إطار حرية الفكر، والبحث، وإبداء الرأي وهي حرية مقدسة دعونا إليها في القسم الأول من هـذا الكتـاب في مواجهة الحصـانات الـتي يريد السـدنة – شـيوخًا أو قساوسة – أن يعطوها لمعتقـداتهم وقد تكـون الدراسة الموضـوعية شـيئًا، والجدل شيئا آخر.. والجدل بصـفة عامة مـذموم في القـرآن ما لم يدفعه اسـتثناء وهو يؤثر عدم الجدال في الأديان ويضع آدابًا وتوجيهات في هذا كما توضحها الآيات التالية:

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل 125)

﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُـوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت 46)

﴿ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللـهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيـــــــــــهِ تَخْتَلِفُـــــــــــونَ﴾ (الحج 68 – 69)

ولدى معظم الناس حساسية بالنسبة للذين يكتبون عن دين ما، من غـير أصـحاب هـذا الدين. فكثير من المسلمين يتهمون المستشرقين عنـدما يكتبـون عن الإسـلام، وكثـير من المسيحيين يتهمون المسـلمين عنـدما يكتبـون عن المسـيحية وهـذه الحساسـية لا أساس لها، فإنما يكون الحكم للمقولة وليس للقائل!

وعلينا – مسلمين وأقباطا – أن نتقبل بصدر رحب الآراء عن الأديان الـتي تختلف عما نعتقده، مادام أصحابها يلتزمون مبادئ الحوار وقواعد البحث. وقد يكون هذا خـيرًا لنا، ويمكننا إذا أردنا الرد بمثل هذا المنهج، وفيما نرى، فإن هذا وذاك يثريان العقيدة لا يضيرانها.

ولا يخلو الحـال من عـدد من الحمقى من المعسـكرين يسـيئون القـول وهم لا يستحقون أهمية، وخير ما يتبع نحوهم هو توجيه القرآن: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَـرُّوا كِرَامًا ﴾!

نحو الحل:

نتيجة للعوامل السابقة، أعني سياسة الأنبا شنودة، وظهور الاتجـاه الـدنيوي في الكنيسة، والاتجاهات المتشددة لبعض التيارات الإسـلامية، واغـتراب المثقفين الأقبـاط بحكم ثقافـاتهم الأجنبية عن الإسـلام، وتمويهـات العملاء المهيجين، واللبس التـاريخي

الـذي جعل الأقبـاط يظنـون أن الإسـلام انـتزع مصر من الحكم القبطي والسـيادة القبطية.

كل هذا أوجد مناخًا سيئًا باء بإثمه الأقباط بالدرجة الأولى، وإن عاد بالضـرر على البلاد كلها.

وفـاقم في ذلك السياسـات الخاطئة للحكم في مصر من 1952.. فعبد الناصر أعلنها شعواء على الإسلام وتبنى الاشتراكية العلمية، أو بالتعبير المعروف الماركسية.. وحاول أن يستأصل أكبر هيئة إسلامية في العصر الحديث.. فلما جـاء السـادات عكس الآية، لا إيمانًا منه بالإسلام، ولكن مقاومة لخصومه السياسيين الشيوعيين والناصريين، وعنـدما ظهـرت الثمـار المـرة لهـذا التخبـط، ارتفعت الـدعوة عالية لتوحيد "عنصـري الأمـة" وعـاد الحـديث الممل عن (الهلال والصـليب)، (الجـامع والكنيسـة)، (الشـيخ والقسيس)!!

وليس هذا علاجًا، إنه تضخيم للمشكلة وغرس للازدواجية وهو يغـذي تصـور غلاة القبط وغلاة المسلمين الذين يريدون للأقباط وجودًا مسـتقلا، الأولـون يطـالبون بمزيد من الحقوق له والآخرون يرون أنه جاوز ما يستحقه، وإذا سمح لهـذا التيـار بـأن يسـير إلى غايته فسينتهي الأمر بأن يكـون القبط "أقليـة" لها وضع وحـدود وحقـوق الأقليـات وسيخسرون كثيرًا، ولن يسـعد به إلا الـذين يفضـلون أن يـأكلوا طـبيخهم الفاسـد، ولو أضر بصحتهم، على أن يتخلصوا منه.. وهم للأسف كثيرون!

ولكن من حسن الحظ أن هناك حلا أفضل بكثير من هـذا المصـير السـيئ يحقق للأقباط الانـدماج في المجتمع المصـري والوصـول إلى أعلى المناصب ويحسم شـأفة الحساسية.. وهو حل ينطبق عليه القول:

"بالسير الطويل، انتهينا إلى الطريق القصير!".

يبدأ هذا الحل بمسلَّمة هي أن الإسلام والمسيحية – وإن اختلفا في التفاصـيل – فإنهما يتفقان في الأهداف العليا...

وحتى القضـية الشـائكة، قضـية وحـدة اللـه.. فـإن الأقبـاط يبـدءون "باسم الله الواحد..".

ويرى الإسلام أن المسيح لم يصلب وإنما رفع إلى السـماء إكرامًا لـه، وبصـرف النظر عن أن هذا كان رأي لفيف من الأقباط القدامى على ما أشرنا في نبـذة "اللبس التاريخي"، فإن الرأي المقرر في المسيحية أنه صلب فداء للبشر.. إكرامًا له أيضًا...

ويرى الإسلام شخصية المسئولية، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وترى المسيحية أن في صلب المسيح فداء من الخطيئة الأصلية.

وهذه التصورات كلها تقوم على منطق وتستند إلى فكـر.. وهنـاك اختلاف بينهـا، ولكن الاختلاف لا يعني التناقض، فلا يمكن أن يقال إن الرحمة حسـنة، والعـدل سـيئ، رغم أن منطقهما مختلـف.. فالرحمة فضـيلة، والعـدل فضـيلة أيضًـا.. وللحقيقة أبعـاد كثيرة قد تختلف، ولكنها تعود إليها.

والأديان كلها تدور حول محور واحد هو وجـود إله حكيم خـالق هو مصـدر القيم، والحقيقـة، والمثل العليـا.. والتوجيه الرئيسي للأديـان جميعًا هو حسن الخلق وسـلامة القلب، وطيب المعاملة.

والإسلام والمسيحية في هذا سواء...

في مواجهة الأديان نجد دعوات لا تؤمن أصلا بالقيم المعنوية أو الروحية، أو ترى فيها "بناء فوقيًا" للعلاقات الإنتاجية أو قناعًا للنفاق الاجتماعي...

وهناك نظريات تقوم على مراكمة الثروة واكتساب الجاه والاستمتاع بالحياة...

وهناك أفكار عنصرية تؤمن أن عنصرًا بعينه أفضل من العناصر الأخــرى وله حق السيادة عليها!

وهنا دعوات "شوفونية" وطنية أو قومية مغرقة، ترى أن وطنها فوق الجميع!

وهناك فلسفات تقوم على الصراع، وتمجد القوة، وتزدري الرحمة!

هــذه الفلســفات والنظريــات تعــادي الأديــان، وهي الــتي يجب أن يتضــافر أهل الأديان جميعًا لمقاومتها، لأنها لا تفرق بين إسلام ومسيحية.

ومن المفارقـــات أن يكـــون أحد المســـيحيين أقـــرب إلى الشـــيوعية منه إلى الإسلام..

إذ الإسلام أقرب إلى المسيحية من الشـيوعية.. بل إننا نـرى أن الإسـلام أقـرب إلى القبطية من القبطية إلى المســيحية الأوروبيــة.. لأن المســيحية الأوروبية تــأثرت بالوثنية الأوروبية، في حين أن القبطية عايشت الإسلام وهو دين سماوي.

وإذا نظرنا إلى الكتب المقدسة في المسيحية والإسلام فلا نرى في أحدها طعنًا في الآخر.

لم يتحدث الإنجيل عن الإسلام، وإذا كان هناك من يـرى أنه بشر بالإسـلام، فمن المقطوع به أنه لم يندد بالإسلام.

وبالتــالي فــإن كل ما يقوله مســيحيون عن الإســلام فإنما يضــعونه على لســان المسيح، دون أن ينطق به المسيح، والمسيحية الحقة براء منه.

أما الإســلام، فــالقرآن واضح وصــريح وهو يــوجب على المســلمين الإيمــان بكل الرسل (لا نفرق بين أحد منهم) والسيد المسيح هو رسـول من أولي العـزم، والسـيدة مريم صديقة وسيدة نساء العالمين.

وأحاديث الرسول عن الدين وأنه بناء واحد وجد فيه ثغرة جاء الإســلام ليســدها، وعن الأنبياء كــإخوة، وعن المســيح كــأقرب الأنبيــاء إلى الرســول، معروفــة.. وقد نهى الرســول عن أن يفضــله أحد على بقية الأنبيــاء، وهو يطبق في هــذا أدب القــرآن ﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾.

وهو ينهى عن الجدال ويقول: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ﴾ (المائــدة 47). ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ﴾ (المائدة 43). ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيـلَ وَمَا أُنْـزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُـوا مِن فَـوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (المائـدة 66). ﴿ قُـلْ يَا أَهْـلَ الْكِتَـابِ لَسْـتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾ (المائدة 68).

فلنكن أمناء، ونعترف أن الإسلام والمسيحية بريئان من كل ما ينسب إليهمــا، أو يقال فيهما من عداوة، وأن العداوة إنما جاءت من "الرجال"، من المؤسسة، من سوء الفهم، من العوامل العديدة التي تنحرف بالناس من الموضوع إلى الذات.

ولا نــبرئ المســلمين من هــذا الانحــراف، ولكن الحقيقة أن المســلمين هم أقل أهل الأديان حساسية بالنسبة للأديان الأخرى وقد يكون مرجع ذلك ما قرره القرآن من الإيمان بالأديان الأخــرى.. ولم يشذ عن هــذا الخــط، ســوى تلك المجموعــات الشــاردة التي ظهرت أخيرًا، وكان أول ضحاياها شيخ جليل من شيوخ الأزهر!

أما الأقباط فليس الذي يؤخذ عليهم هو "العداء" للإسلام، ولكن السلبية إزاءه.

إن الموقف الموضوعي الأمثل يملي أن نقف جميعًا مع الحقيقة، كل الحقيقة. والإنصاف والعدالة يوجبان علينا الاعتراف بها.

والموقف السلبي يحيف على الحقيقة، أو يتجاهلها، ومن أجل ذلك قيل إن الساكت عن الحق شيطان أخرس.

ونجد الألوف، أو حتى مئات الألوف من المسلمين يزجون المديح للسيد المسيح، ويتحدثون عنه بإيمان وإخلاص وتقدير وحب، ويسمون أبناءهم باسمه، وبناتهم باسم "مريم" ولا يخطر ببالهم أي حساسية نحو ذلك.

ولكن كم من الأقباط يتحدثون عن "محمد" وعن الإسلام كما يتحدث المسلمون عن السيد المسيح والمسيحية؟

كاتب واحد، وقيل إنه تعرض لمتاعب من الكنيسة في حياته، وعند وفاته([52]). كم من الأقباط يسمي ابنه محمدًا وابنته فاطمة؟ لا أحد[53].

إن "محمدًا" ليس فحسب أنجح الأنبياء وأعظمهم، ولكنه أيضًا سيد العرب جميعًا، وكل من يتكلم بلفظة عربية مدين له، وهو مؤسس الأمة العربية، ولن يزيده اعتراف المعترفين، ولن يخسره تجاهل المتجاهلين، ولكن سيكسب المعترفون أنهم يكونون في عداد المنصفين الذين يعترفون بالحقيقة.

إن كل المنصفين من الكتاب الأوروبيين اعترفوا بعظمته وبما قدمه للبشرية.. ومن المفارقات أن يعترف بذلك أوربيون، ويسكت عنه مصريون!

الغريب أننا قد نجد بعض كلمات عامة يزجيها أقباط مجاملة للإسلام، واعترافًا ببعض جوانبه السمحة المشرقة.. ولكننا قلما نظفر بكلمة واحدة عن الرسول.

إننا لا نعدم من الأقباط من تحدث، وكتب، وألف عن ماركس وهيجيل ونابليون وفولتير إلخ.. فهل محمد أقل من هؤلاء، أو أبعد عن هؤلاء الكتاب منهم؟ إنني أترك للأقباط أنفسهم أن يفكروا في هذه الظاهرة...

***

إننا في مقدمة هذه النبذة "حاجز الدين" قلنا إن ما يشجعنا على المعالجة الكاملة للقضية أننا نريد أن نجد للأقباط حلا، بحيث يمكنهم المشاركة الإيجابية في سياسات البلاد، دون حساسيات.

هناك جوانب عديدة، بعضها واضح ومسلم، به وبعضها الآخر يحتاج إلى توضيح...

من الجوانب الواضحة والمسلم بها أن مصر بلد الإيمان، سواء كان إسلامًا أو مسيحية، وأن الأغلبية الكاسحة لشعبها يعتنق الإسلام منذ ألف وخمسمائة سنة.. ومعلوم بالطبع أن الإسلام يضع خطوطًا عريضة ولكنها مؤكدة عن الاقتصاد والسياسة بحيث لا يعد المجتمع مسلمًا بدونها.

---

52 (?) **هو الدكتور نظمي لوقا رحمه الله. وقد ذكرت لنا فيما ذكر كتابات ممتازة بوجه خاص للدكتور وليم قلادة والأستاذ إدوار غالي الذهبي وغيرهما مما لم تتح لنا مطالعتها ويلحظ أن المسيحيين في لبنان كانوا أكثر تقديرًا للإسلام فكتب ميشيل عفلق عن الرسول ووضع جورجي جردان ستة مجلدات عن عليّ بن أبي طالب وتحدث الرياشي عن الرسول وعمر. وكتب الدكتور فيكتور سحاب عن أثر القرآن الكريم في حفظ الموسيقى الشرقية، وأن التجويد هو أصل التلحين، أما كتابات جورجي زيدان الإسلامية، فأشهر من أن تذكر.**

53 (?) **باستثناء ميشيل عفلق، الذي سمى أبنه باسم محمد. ولكن ميشيل عفلق ليس من الأقباط المصريين.**

ومن الجوانب المسلم بها أيضًا أن في مصر أقلية قبطية وأنها جزء لا يتجــزأ من شعب مصر، وأنها بهـذا الحـق، وبحكم المبـادئ الإسـلامية أيضًـا لها الحرية الكاملة في الاعتقاد وممارسة مقتضيات الاعتقاد والإيمان.

لا خلاف على هذين...

ولكن هناك جوانب أخرى تحتـاج إلى إيضـاح منها مسـاهمة الأقبـاط في وضع السياسات والخطط الخاصة بحاضر البلاد ومستقبلها.

وليس هناك قيد على أي مصري في المشاركة...

ولكن هــذه المشــاركة تصــطدم بحقيقــة، هي أن الإســلام – كما ذكرنا – وضع خطوطًا عريضة في الاقتصاد والسياسة، ولم تضع المسـيحية مثل هـذه الخطـوط، ولو أنها وضــعت لما اختلفت، فما من أحد يــزعم أن المســيحية تــدعو إلى الربا أو تقبل الظلم، أو ترحب بالإباحية وإشاعة الفواحش.

فما هو موقف الأقباط مما يضعه الإسلام من قوانين عن السرقة أو الربا.. إلخ؟

إن مساهمة الأقباط ستتحدد بدرجة تجـاوبهم مع الخط الإســلامي.. فإذا لم يكن هناك معارضة – على أساس مسيحي – فهي تكريس الصــفة الفئوية للأقباط.

وكان يمكن للأقباط في مثل هذه الحالات أن يقولوا نحن مع إخواننا المسلمين.

فيكســبون المســلمين، ويكســبون الحقيقــة، ولن يخســروا شــيئًا (لأنهم أقلية لا يمكن أن تقف أمام الأكثرية طبقًا للأصول الديمقراطية).

ولكنهم لا يفعلون، لأن هناك رواسب نفسية عميقة تمنعهم من هذا.

ويظهر أثر هــذه الرواسب في أن يــرى الأقبــاط أن كل مــدح في الإســلام يعــني غضًـا من المسـيحية، وأن كل كسب للإسـلام يكـون على حســاب المســيحية وقد لا يخلص من هــذا الأثر كثــير من المســيحيين النابهين الذين يعملون في التقريب بين المسلمين والأقباط.

ففي كلمة للأب أنسطانس غبريال في جريـدة الشـعب (17 سـبتمبر 93) جـاء: "بل ما هو أكــثر من ذلــك، فمحاضر اجتماعــات مجلس الشــعب منذ عهد ليس ببعيد انتهت إلى زيادة الجرعة الدينية الإسلامية في التليفزيون واقترح إنشاء جامعة للقرآن، حتى كاد القبطي يستشعر بأن الوطن لم يعد له، بل للمسلمين..." (54).

وهذه الفقرة تمثل تمام التمثيل أثر الرواسب القديمة، سلبًا وإيجابًا!

وكما قلنا من قبل، فما من أحد يرغم الأقباط على الإيمان بشيء، ولكن القضية أنهم يودون المساهمة بقوة، وعلى قدم المساواة، ولابد في مثل هـذه المسـاهمة من المشاركة الوجدانية.

إن البديل الوحيد الـذي قد يـراه بعض الأقبـاط هو التضـحية بـالقيم الدينية كلها – مســـيحية وإســـلامية – وإقامة المجتمع على أســـاس "علمـاني" مـدني يـدور حـول المصـلحة – كـالمجتمع الأوروبي. وبهـذا يخلصـون من الإسـلام ولو ضـحوا في سـبيل ذلك بالمسـيحية أيضًـا أخـذًا بمنطق:

"اقتلاني ومالكًا واقتلا مالكًا معي!!"

---

54 (?) **جريـدة الشـعب 17 سـبتمبر 93 ص. وقد عقب الأسـتاذ مجـدي أحمد حسـين في نفس العدد ورد ردًا قويًا. ورد الأب أنسطاس في عدد تال على الرد.**

ولكن المسـيحية أعز على الأقبـاط من أن يقبلـوا التضـحية بهـا، ولو بـالثمن المرموق: التخلص من الإسلام!

وأهم من هذا أن المجتمع المدني قد يخسـرهم حقوقًا يتمتعـون بها في المجتمع الإسلامي، لأنه سيضعهم تحت رحمة الأغلبية النزقة.

والمسلمون أيضًا سيرفضون فهي صفقة خاسرة..

***

ومن المعالجات الخاطئة – التي تنتهي إلى هذه النتيجة نفسها – ما نشرته مجلة الأهالي يوم 29 /12/1993 ص 12 بقلم الدكتور عبد القادر خليف "أمين لجنة الوحدة الوطنية بأسيوط" تحت عنوان "في جذور الإرهاب والتطرف والتعصب" والكـاتب يبـدأ من مقولة هي وجود صور شائنة لما سماه التطرف الإسـلامي والتعصب القبطي. وقد دلل على وجودهما بوقـــائع لمســـها هو نفسه وحققها خلال حياته الوظيفية الطويلة كمدير لمستشفيات جامعة أسيوط وكأستاذ جامعي، منها ما قاله له صـديق قبطي من أنه لا يوجد قبطي واحد يرحب بجلاء الإنجليز "لأننا لا ننسى عدوان الإخوان المسـلمين على كنائسنا" ومنها إنكار طبيب قبطي مسئول عن وحدة نقل الدم بالمستشفى وجود دم لمريض مسلم كما قام طبيب مسلم بنفس التصرف حين كانت حاجة الدم لمريض قبطي. كما أنه أوضح لطلبته أسباب التمييز في كليـات الطب بـأن الأطبـاء الإنجلـيز – في فترة الاستعمار – قربوا الأطباء الأقبـاط ومنحـوهم الأسـتاذية، ليكيـدوا المسـلمين وليفرقـوا وحـدة الأمـة. "وأذاق هـؤلاء الأسـاتذة الأقبـاط زملاءهم المسـلمين العـذاب والمهانة مما دعا في مسـتقبل لاحق إلى الـرد بتعصب الأغلبيـة، وتفـاقم التعصب بين الجانبين يصبح إحدى السمات الكئيبة لكليات الطب في مصر".

وليست هـذه هي كل الحـالات، ولكنها أهمهـا، ومنها انتهى الكـاتب إلى وجـود تطرف إسلامي.. وتعصب قبطي..

ومن هذه "الأرضية" انتقل لمحاولة العلاج ولما كانت تجارب الحياة قد علمته أن اتخاذ القرار السليم في المشاكل الصـعبة يحتـاج لأن يضع نفسه موضع الغـير صـاحب المشـكلة "أرى بعينـه، وأفكر بعقلـه، وأحس بقلبـه" فقد وضع نفسه مـرة موضع المتطـرفين الإسـلاميين والمنطق الـذي يحكمهم، ووضع نفسه مـرة أخـرى موضع المتعصـبين الأقبـاط وما يحسـونه ويستشـعرونه.. ووجد نفسه في الحـالين أمـام بـاب مسدود لا انفتاح له..

ولما كـان يخـاف أن ينتهي هـذا إلى صـدام، تصـبح مأسـاة لبنـان بجانبه كلعبة أطفال، فإنه انتهى إلى هذه النتيجة:

"اقتلاع المشكلة من جذورها في حسم لا سـبيل فيه إلى أي تـردد، وذلك بتنحية الدين عن حركة المجتمع ليصـبح الـدين لله والـوطن للجميع قولا وفعلا، وليكن ذلك هو شعار الدولة وأسـاس دسـتورها – دولة تـؤمن بالله وتـرعى العقائد الدينيـة(!) وحرية ممارسـتها للجميـع. والتخلي عن الموقف الغـامض بـأن تعلن رسـميًا بـأن تطـبيق الشـريعة الإسـلامية السلفية غير ممكن لعدم ملاءمته لظروف المجتمع والناس كما تعلن عن فصل الدين عن الدولة كما فعلت أمم الغـرب في القـرن السـادس عشر لتتخذ من ذلك الموقف طريقها نحو التقدم والتحضر.

ويبقى للدين طريقان: الإيمـان والفطـرة، وللدولة طريقهـا: العلم والعقل والسـعي بلا هـوادة لإصـلاح وتعـديل المسـارات الـتي اختلت

بالتعصب في جميع المجـــالات في إدراك عميق ومســـئول بأننا نواجه مسئولية مصير، أن تكون أو لا تكون، انتهى.

ونحن نشكر للكاتب صراحته وواقعيته وإيراده لوقـائع يتجاهلها أو ينكرها البعض، ولكننا نقول إن النتيجة التي انتهى إليها نتيجة خاطئة تمامًا لأنها بـنيت على وقـائع، وإن كـــانت موجـــودة، إلا أنها تمثل انحرافًا ولا يمكن أن نبـــني أوضـــاعنا على التســـليم للانحراف، وإنما المفروض أن نبحث عن سبب هـذا الانحـراف ونعالجـه، أما أن نسـلم به، أو نتجاهله، وأسوأ منه أن نبني أوضاعنا على وجوده، فهـذا خطأ فـادح، وأسـوأ منه أن نتصور أننا وقد سلمنا به، فإننا سنتمكن أن نقتلعه.. فهذا عبث..

إن وجود التعصب القبطي والتطرف الإسـلامي إنما يعـود إلى أسـباب من سـوء الفهم أو غلبة المصالح أو استغلال الفساد المستشرى إلخ.. وهـذه الأسـباب هي الـتي يجب أن تعالج ومعالجتها هي التي ستقتلع جذور المشكلة، ولكن التسليم بها سمح بأن تستشري وتهدم كل ما بنيناه..

إن فكرة أن يضع الإنسان نفسه موضع الطرف الآخر، إنما يراد بها التعرف على نفسـيته والعوامل الـتي دفعته لما انسـاق فيـه، بهـدف معالجتـه، أما أن نقف أنفسـنا موقفه لنسـلم له فهـذا يكـون كمن أراد معالجة ظـاهرة تفشي السـرقة، فيضع نفسه موضع السارق ليعرف الأسباب التي دفعته للسـرقة، وهل هي الحاجـة، أو البطالـة، أو الاحتجـاج على التفـارق الطبقي ما بين أغلبية جائعة وأقلية متخمـة. ويكـون الإجـراء التالي هو معالجة الأسباب. أما الموقف الذي اتخذه الكاتب فهو كمن يقول إن السارق معذور، وكان لابد أن يسرق وعلينا أن نسلم بذلك ونتقبله.

وافتراض أن تكون مصر كلبنان قياس ركيك وسخيف ومن الخطأ البـالغ التلـويح به لأن المارونيين في لبنان يقاربون عددًا الطوائف الإسلامية، ويتخذون اللغة الفرنسية وثقافتها ويلوذون بحماية فرنسا إلخ.. وهذه فروق لا توجد لدى الأقلية القبطية التي لم تنكر انتماءها المصري، ولا تسمح لها نسبتها العددية بأن تكون عنصرًا مرجحًا، أو حـتى مؤثرًا، فلا داعي للتخويف والتزييف ومن الخطأ أيضًا قياس ما فعلته أوروبا من الفصل ما بين الـدين والدولة على مصـر، لأن الهـدف الأول لـذلك كـان درء تـدخل الكنيسـة، والإسلام لا يعرف الكنيسة..

والمقال في جملته يصور المأزق الـذي يقع فيه الكـاتب عنـدما يعـالج المشـكلة معالجة ظاهرية وسطحية لعدم توفر المعرفة بالأسباب العميقة، وبطرق علاجها ويـبرز خطورة أن تعالج هذا الموضوع الحيـوي صـحف لها اتجـاه معين كالأهـالي، أو كتـاب أو صحفيون لا يلمون بكل أبعاد الموضوع، ولا أعماقه ولا يتوفر لهم النضج الضـروري عند معالجة هذه القضية.

فإذا كانت القضية قضية حرية، فالأبواب مفتوحة...

وإذا كانت القضية قضية ديموقراطية فلتؤخذ الأصوات..

ولكن الأقبــاط يريــدون – كشــرط لمســاهمتهم – أن يتجــرد المســلمون من الخطوط التي وضعها الإسلام[55]، والتي تعد جزءًا من إسلامهم، وهذا أمر مرفوض وهو يشبه أن يطالب أحد المسلمين المسيحيين بالتخلي عن شيء من معتقداته.

إن هذا ليس من الديموقراطية، أو الحرية، أو الحفاظ على وحدة الأمة أو القول إن الأقباط جزء لا يتجزأ من شعب مصر.

---

55 (?) **ليس من هذه الخطوط الحديث عن "الجزية" أو "أهل الذمة" فهـذه أوضـاع تاريخية بنت وقتهـا، وكـان الإسـلام فيها متقـدمًا على زمنـه، ولكنها الآن من حـديث الماضي والـذين يتكلمون عنها يعيشون في متحف التاريخ ويتجاهلون التطور والإسلام "تقدمي" دائمًا لأنه يطلب الحكمة أينما كانت، ولأن كل ما يقضي به العقل يقضي به الشرع.**

إن هذا الموقف يهدم كل ما يدعيه الأقباط، ويثبت أنهم يعالجون القضية العامة كأقباط، لا كمصريين، ويرون أن تمسك المسلمين بالخطوط التي وضعها الإسلام يستتبع تلقائيًا المعارضة.

وليس هناك ما هو أقبح من هذا التصور...

إنه تصور الصليبيين القدامى الجهلة!

إنها "الغيرة" التي تخرب البيوت، وتتغذى على لحوم البشر، على ما يقول شكسبير.

***

قد يقول قائلهم: هل تريدون أن ننصاع لأحكام الإسلام قسرًا؟

نقول لهم إن قسمة الأقلية هي أن تنصاع للأغلبية، ما من مفر من هذا لأنه حكم المنطق.. ومن حسن حظ الأقباط أن الإسلام يكفل لهم حقوقًا لا يجوز للأغلبية المساس بها حتى لو أرادت وهم في هذا أسعد حظًا من الأقليات الإسلامية في الدول المسيحية التي تجري عليها أحكام وقوانين الأغلبية، وليس لهم حرية بالنسبة للزواج والطلاق أو الميراث، أو حتى حماية الإسلام، لأن الحماية مقصورة على المسيحية واليهودية فقط!

القضية في الحقيقة أعمق من أغلبية وأقلية...

فكما أثبتنا في فقرة "اللبس التاريخي" أن الوجود القبطي لا يمكن أن يقارن بالوجود الإسلامي، لا من ناحية المدة، ولا من ناحية العدد، ولا من ناحية الشمول.. فالقبطية في مصر تعرضت لاضطهاد وصراع استمر طوال القرون الستة من ظهور المسيحية حتى الفتح الإسلامي، ولم يقدر لهم الحكم والسيادة طوالها، كما أن المسيحية كدين، وإن لم يكن هناك شك في عمق الإيمان بها، إلا أنها هي نفسها لا تغطي المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، أو على الأقل ليس كما يغطيها الإسلام – على حين أن الإسلام أمضى خمسة عشر قرنًا في مصر، ويمثل أغلبية الشعب، ويغطي مجالات الحياة. ومطلب الأقباط أن يكون هناك "وجود" قبطي لابد وأن يحكم بهذه الحقائق التاريخية...

على أن هناك ما هو أفضل من هذا كله...

ذلك أن يستلهم الأقباط روح المسيحية، وروح المسيحية هي "الحب"، أن نحب العدو، وأن نحب الجار، ووصل بها هذا المعنى درجة قالت "من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر!".

وفي الإسلام أيضًا ظهر من قال:

أدين بدين الحب أنَّى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

فلماذا لا ندع الحب يقودنا؟

لماذا لا نستمع إلى دعوة القرآن التي تسعنا جميعًا.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ﴾.. (آل عمران 64).

لماذا لا يتجاوب أقباط مصر مع تقدير القرآن لهم.

﴿... وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ إن هذه الصفات: أن يكون منهم قسيسين ورهبانا، وأنهم لا يستكبرون إنما تنطبق أكثر ما تنطبق على أقباط مصر الذين وضعوا

أسس الرهبانيـــة، وكـــان من أصـــول ما وضـــعها القسيســـون المصـــريون "أنهم لا يستكبرون".

إن القرآن الذي يرى أن ﴿ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ﴾ هو نفسه الـذي يقول عنهم: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَـاتِ اللـهِ آنَـاءَ اللَّيْـلِ وَهُمْ يَسْـجُدُونَ * يُؤْمِنُـونَ بِاللـهِ وَالْيَـوْمِ الآخِـرِ وَيَـأْمُرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـوْنَ عَنِ الْمُنْكَـرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران 113 – 115).

فإذا كان هذا هو تقدير القرآن لفريق من اليهـود فمـاذا عسى أن يكـون تقـديره للذين قال عنهم إنهم أقربهم مودة للذين آمنوا..

لمـاذا نـدع وجـوه الاختلاف ما بين المسـيحية والإسـلام تفرقنـا، ولا نـدع وجـوه الائتلاف تجمعنا؟

إن وجوه الاختلاف جزئية، طقوسية.. بينما وجوه الائتلاف أساسية جوهرية.

ونحن بعد، في وطن واحد...

تجمعنا أرض واحدة، وتظللنا سماء واحدة...

إننا نقرأ في الكتابات الأوروبية تعبير (اليهودية/ المسيحية) كأسـاس لحضـارتهم، فـإذا كـانوا قد قرنـوا اليهودية بالمسـيحية- رغم ما بينهما من تعـارض – أفلا يسـعنا أن نجمع ما بين المسيحية والإسلام؟

ولماذا لا نرى أن تعدد الأديان أمر أراده الله، ولو شـاء لجمعهم على دين واحـد، وهو معـنى متكـرر في القـرآن.. وأنه بالتـالي الأمر الطـبيعي الـذي لا يسـتتبع الـتزام عاطفة معينة نحو أصحاب الأديان الأخرى.

إنـني أقـرر أن من أعز أصـدقائي زوجين من المسـيحيين، رأيت فيهما ما لم أر في الآخرين من المحبة الخالصة والإعزاز القلـبي والرغبة في مسـاعدتي في نشـاطي الإسلامي، مما جعلني أعتبرهما أخوين لي، ولم يؤثر أبدًا فينا اختلاف الأديان!

***

إننا أخيرًا نقول لإخواننا الأقباط..

عندما يرتفع الأقباط فـوق مسـتوى الفئوية وحساسـياتها ومطامعها ويسـتلهمون روح المسيحية "الحب"...

وعندما يتعلم الأقباط وقائع التـاريخ وحقـائق المجتمع الـتي تضـعهم مكـانهم في المجتمع المصري وتحدد لهم الحقوق والواجبات...

وعندما يؤمن السياسيون الأقباط بما آمن به مكرم عبيد "أنا قبطي دينًا ومسـلم وطنًـا" ويكتبـون – كما كـان يكتب في مربع الكتلة "اللهم إنَّا نصـارى لـك.. ومسـلمين لمصر([56]) "..

وعندما تتحول المعارضة الرشيدة التي ترفض أن تدور الكنيسة المصـرية حـول المطـامع والتطلعـات الدنيويـة، ولا تجد من ينشر لها سـوى "الشـعب" أو تقـوم بطبع كتبها على حسابها.. فتصبح هي الأغلبية.. وهي صوت كنيسة مصر...

وعنـــدما يظهر عشـــرون أو خمســـون كاتبًا قبطيًا مثل نظمي لوقا يكتبـــون عن الإسلام، وعن نبي الإسلام بعاطفة وإنصاف...

---

56 (?) **بالمعنى، لأن النص الحرفي هو ما لم تحتفظ به الذاكرة.**

عندئذ يمكن أن يوجد رئيس وزارة قبطي دون حساسـية من المسلمين، ويمكن أن ينصهر الأقباط في المجتمع المصري/ الإسلامي الذي يدور على محور القيم الحضارية الإسلامية بلا حساسيات أو فئويات ولكن مجتمعًا مصريًا واحدًا: إسلامي الهوية، متعدد الديانة..

****

(د) سلطان الهوى:

قد يتصور البعض أنه مما لا يتناسب مع كتاب علمي أن ندخل حكم الهوى بين العوامل التي تنحرف بأدعياء التنوير من الموضوع إلى الذات، ولكن علينا أن نعترف أننا – ككائنات بشرية – يحدث كثيرًا، أن يغلبنا الضعف والهوى على أمرنا.. ونحن بعد أبناء آدم الذي ﴿ نَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ و ﴿عَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى* ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾.. وقد أشار القرآن في آيات أخرى عديدة إلى أثر الهوى على النفوس.. وحذر الرسول من أن يتبع "أهواءهم" ونص على أن اتباع الهوى من أكبر أسباب الانحراف والضلال.. وصور القرآن الكريم في آية بلغت الغاية من الإعجاز قوة الهوى الطاغية التي تستبد بالإنسان فتجعله عبدًا لها، وتعميه عن أي شيء آخر، فلا يفيد معه علم، أو بصر، أو أذن.. ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾.

وحقيقة الحال أنه إذا لم تكبح النفس الإنسانية قيم ومبادئ أكبر وأعظم من هواها، فلا شيء يمكن أن يقف أمام الهوى إلا الحدود المادية ولا يمكن أن نجد المبادئ التي هي أكبر من الهوى إلا في الأديان، لأن كل القيم والمبادئ الأخرى التي يصنعها الإنسان لابد وأن تكون مشوبة بالهوى نفسه، لأن الإنسان لا يستطيع أن يتحرر من ذاته وأعماقه، ولأن مرد هذه القيم المجتمع، والمجتمع في حد ذاته أو وحده ليس لديه الموازين الموضوعية (فليس المجتمع سوى تجمع الآحاد) ومن هنا يصبح حكم الهوى أو ما تهوى الأنفس هي الوجهة التي تتجه إليها "البوصلة" ونجد النظم والقوانين وهي مبطنة بحكم الهوى!

وقد تقبل المجتمع الأوروبي نظرية فرويد عن هيمنة الغريزة الجنسية على الإنسان، وأن آثار هذه الهيمنة تمتد إلى كل تصرفات الفرد، كما تتجلى في الفنون والآداب التي هي التعبير العاطفي للمجتمع.. نقول تقبلها لأنه وجد فيها التنظير "العلمي" لاتجاه فرض نفسه على المجتمع وأصبح أمرًا مقضيًا.

وقد لمسنا بأنفسنا قوة وتأثير الهوى على كثير من أدعياء التنوير.. وفي السودان عندما وضعت مشروعات قوانين الشريعة، كان الهم الأول للذين ألفوا الشراب هو ما جاء خاصًا بالخمر وتحريمها والعقوبة عليها، فهذا وحده كان موضوع اهتمامهم!

وكان مما ضاعف من أثر هذا العامل أنهم تصوروا أن تطبيق الشريعة سيجعل حياتهم جحيمًا.. فلا شراب، ولا قمار، ولا سهر ولا سمر، ولا ملاهي ليلية، ولا كباريهات، ولا مسارح... إلخ.

فأين إذن، وكيف يمكنهم أن يستمتعوا بوقتهم.. وإذا كان دعاة الشريعة يبدءون – بالنسبة للمرأة – من الحجاب هادفين إلى النقاب، فكيف يمكنهم أن يعيشوا في مجتمع الأشباح السوداء الكئيبة هذه؟!

لا جدال في أن المثل الإسلامي الأعلى لا يقر كثيرًا من الموبقات التي يتسامح فيها المجتمع الأوروبي، ولكن هذا لا يعني إقامة دولة بوليسية للفضيلة، ولا يستهدف إزجاء الناس قوة واقتدارًا للصلاة!

ولا نريد أن نحل حرامًــا، ولكن يمكن القــول ببســاطة إن كل واحد يســتطيع أن يفعل في بيته ما يشــاء، مــادامت أبوابه مغلقة عليــه، وأعماله لا تضــير أحــدًا خارجها بصـــوت أو رائحـــة... إلخ وتكـــون العلاقة عندئذ بينه وبين اللـــه، لا بينه وبين الدولة والمجتمع.. والله ستار والناس كلهم معافون إلا المجاهرون.

والإسلام بعد، يضع في مكان ما يحرمه بديلا يخلو من سوءات ما حرمه، وعندما يحرم الخمر فإنه يحل كل أنواع المشروبات الـتي تخلو من مســكر.. والمفـروض على كل حـال أن تعـالج قضـية الخمر من المنظـور العـام لا من المنظـور الخـاص (أو على الأقل منهما معًا) إذ لا جدال أن إباحة الخمر تـؤدي إلى الإدمـان، وهو وبـاء قـومي أنقذ الإسـلام مجتمعه منـه.. وحـاولت الولايـات المتحـدة أن تنقذ نفسـها في العشـرينيات ولكنها فشلت، لأن الامتناع عن الخمور لا يمكن أن يأتي من قبل القانون وحده.

وفي العلاقات المشروعة ما بين الرجال والنساء التي يمكن أن تتم في النوادي والجامعات والمساجد... إلخ ويسمح بها الإسلام ما يغـني عن العلاقـات المحرمة الـتي تحوطها الـريب والشـبهات وتفسح المجـال للظنـون والإسـاءات. ووجهة نظر معظم الجماعات الإسلامية عن المرأة في واد، ونصوص القرآن الكريم وروح الإسلام في واد آخر.

ونحن نؤكد أن "مجتمع الأشباح السـوداء الكئيبـة" ليس من الإسـلام في شـيء! وأن المجتمع الإسلامي يمكن أن يكون جميلا وبهيجًا بل يفترض أن يكون جميلا وبهيجًا.

***

إن حكم الهوى، وإن أخذ شكلا فرديًـا، كما في الحـالات الـتي أشـرنا إليهـا، قد يكـون مـرده في النهاية – المـزاج العـام، الـذي يعـود بـدوره إلى أصـول عامـة، ففي المجتمع الأوروبي فـإن الأصـول العامة هي الفـرد والحريـة... ومن هنا لا يصـبح حكم الهوى حكمًا للهوى كما يراه أصـحاب القيم الموضـوعية.. ولكن هـذا التأصـيل مقصـور على الحضارة الأوروبية.. أما في الدول التي تؤمن بالإسلام، فـإن القيم فيها تعـود إلى ما هو أقدس وأكبر من الفرد، كما يوجد نـوع من الارتبـاط ما بين الحرية والحق الـذي هو رمز القيم المطلقة، وبالتالي يأخذ الانحراف عنها شكل الهوى الفردي.

والمفروض في كل من يتصدى للعمل العام، ولتوجيه الجماهير والإصلاح ألا يـدع الميول الخاصة أو الهوى الفردي تؤثر على أحكامه، فهذه الأحكـام يجب أن تصـدر عن ملاحظة المقتضـيات العامة والسـلامة الموضـوعية وهو الأمر الـذي لم يطقه أدعيـاء التنوير، وسمحوا للهوى بالتأثير عليهم وتوجيههم.

الباب الثالث
عندما تتصافح اليدان

الفصل الأول: عندما تتصافح اليدان
الفصل الثاني: مشروع للأجيال

الفصل الأول
عندما تتصافح اليدان

يعــرض لنا بعض الكتــاب اليمين واليســار كما لو كانا يــدين تتجه إحــداهما إلى اليمين، وتتجه الثانية إلى اليسار، وبالتالي فلا يلتقيان!

ولكن الله تعــالى عنــدما جعل لنا يــدين يمــنى ويســرى، فإنه ربطهما بالجسم وجعلهما يتلاقيان كل يوم ألف مرة، وكانت الحكمة في هذا أنه لا يمكن إمســاك شــيء إمساكًا محكمًا إلا عندما يقبض عليه الإنسان بكلتا يديه. ولهذا فــإن الحكمة في اليــدين هي التلاقي، وأن تكمل كل واحدة منهما الأخرى.

وثمة حديث نبــوي يصل بتلك الحكمة إلى أقصــاها يقــول: "إن المــؤمن للمــؤمن كاليــدين تغسل إحــداهما الأخــرى"... فــانظر إلى عمق تلك اللفتــة: (تغسل إحــداهما الأخرى) وما فيها من دلالة عميقة، وإن كانت ممارسة يومية لا تثير انتباها.

ويمكن أيضًا أن نقــول إن تعبــير اليمين واليســار ما كــان يمكن أن يوجد أحــدهما دون الآخر، فإنما يُعدُّ اليمين يمينًا إذا وجد اليســار، فــإذا لم يوجد اليســار فلا يمين وهو ما يقال أيضًا عن اليسار، فالصــفة الخاصة لكل واحد منهما إنما تعــود إلى الآخــر، فــإذا كــان هنــاك افــتراق في النهايــات فهنــاك تلاق في البــدايات هو الــذي ســمح بــاختلاف النهايات.

وبعد كل شيء فهما جزء من حكمة "الزوجين" اللذين أقام الله عليهما الكائنات جميعًا.

هكــــذا يجب أن نفهم "اليمين" و "اليســــار" ويجب أن نتخلص من الجمــــود "الاستاتيكي" وأن نحل محله مفهومًا حيويًا متكاملا تتلاقى فيه الأطراف، لا ليتصــارعا – كما في الجدل الماركسي – ولكن ليتكاملا.

نقــول هــذا لنوضح أن تلك التفرقة ما بين يمين ويســار لا تقــوم على أســاس أصولي، ولكن على خط وهمي، وقد تمسك بها وأبرزها هــواة "التصــنيف" و"الخانــات" أو الذين يستسهلون الأمور ويأخذونها على ظاهرها.. أو الذين يؤثرون التشدد.

وسوف نرى، فيما سنقدمه من عرض، أن دعاة التنوير حقًا كــانوا مُثُلا على هــذا التلاقي، وإن أنكر ذلك فقهاء التقليد وأدعياء التنوير.

التنويريون فئتان:

إذا استقصينا نشأة وتطور ونشــاط الــذين قــاموا بــدعوة التنــوير أو حملــوا عبء العمل العام من مستهل العصر حتى الآن، نجد أنهما فئتان:

الفئة الأولى – نشــأت في القريــة، الــرحم البيــئي للإيمــان، أو الريف قبل أن يــنزحوا إلى المدينة لإتمــام دراســاتهم العاليــة، أو أنهم نشــئوا في المدينــة، ولكن في أسرة محافظة ومن أبوين يلتزمان بآداب الإسلام وأداء شعائره.

يتعرف هؤلاء على الحضارة الأوروبية في مستهل حيــاتهم، فينبهــرون بها تمامًــا، ويــتزلزل إيمــانهم إلى درجــات متفاوتة – تعظم أو تقل – ويكونــون في هــذه المرحلة دعاة تغريب أوروبي.

وبعد حقبة من الزمن – عشرين عامًا على سبيل المثال – يتلاشى هــذا الانبهــار، ويتعرفــون على المثل والقيم الإســلامية، وتنضج شخصــياتهم وتأخذ أحكــامهم طــابع الاعتدال، وينصرف بعضــهم إلى نقد الحضــارة الأوروبية الــتي أعجب بها شــابًا غريــرًا..

بينما يعمل البعض الآخر لاستكشاف نواحي الإبداع في الإسلام مستخدمًا في هذا ثقافته الأوروبية، وما زودته به من أدوات بحث، أو قد يعملون للجمع بين حسنات الحضارة الأوروبية والمثل والقيم الإسلامية بدرجات متفاوتة من التوفيق.

هذه هي الفئة الأولى، وسنجد أن هذه الفئة هي التي حملت مشعل التنوير وجعلته رسالتها، وحاولت أن تقدم إضافة منشئة لحل القضية الاجتماعية والفكرية من رفاعة الطهطاوي حتى إحسان عبد القدوس وزكي نجيب محمود.

وهناك فئة أخرى لم تنشأ في القرية، ولكن في المدينة، من آباء وأمهات غير ملتزمين بالقيم الإسلامية، هؤلاء تغلب عليهم "الطبيعة البورجوازية"، بمعنى أن يأخذ طموحهم طابعًا شخصيًا يدور حول أنفسهم ويكفل لهم الثروة، والنفوذ والمناصب والجاه، وهم يسلكون إلى هذا سبل الصناعة والتجارة وأهم من هذين الاحتراف السياسي، وعندما يدخل أحدهم المجال العام ويصطدم بالإسلام، فإنه إذا كان ذكيًا يلجأ للمجاملة، ولكنه قد لا يرى ضرورة لذلك لأن هذا قد يخسره أكثر مما يكسبه.. وقد يرى أن رضا السلطان أثمن وأهم من تجاوب القاعدة الشعبية، فيلجأ للتجاهل ولا يجد سندًا إلا في "الشللية الحزبية" أو المالية أو الصحفية، ويكون اتصاله بقاعدته الشعبية عبر قنوات المؤسسات والمناصب وليس بمخاطبة الوجدان أو من منطلق الدعوات والمثل!

وقد يصاب بعض أبناء هذه الفئة الثانية ممن وهبوا ذكاء أو ثقافة خاصة، أو ملوا الحياة البورجوازية بالماركسية، وهي أقرب إليهم من الإسلام بحكم الثقافة والمزاج والبيئة، فيصبحون كمن وقع في حب غانية جميلة: يعميه ويصمه فلا يرى فيها إلا جمالا ولا يستطيع عنها انفصالا.. ولكن هذا عادة ينتهي مع تحقيق الأمل البورجوازي، المنصب، الجاه، ومجاوزة سن الشباب والانبهار، إلا إذا كان قد تورط في مناصب ومسئوليات قيادية، فيغلب أن يعسر عليه التحلل منها.

ونجد بين هذه الفئة (أدعياء التنوير)، كما نراها في القيادات التي تسيطر على المجتمع المصري من انقلاب 23 يوليو حتى الآن في الحزب الحاكم وفي الآداب والفنون، وقد يكون من أبرز رموزهم الصحفيان هيكل ومصطفى أمين[57]، وفلول الماركسية الناصرية.

والفارق بين الفئتين هو الإسلام.. فالفئة الأولى كان لديها قدر من الالتزام الإسلامي، ووعي بمنزلة الإسلام في الفكر، والحضارة، والمجتمع... إلخ، وقد غرست نشأتها هذا الوعي من الطفولة، وظل كامنًا فترة الانبهار الأوروبي، ثم عاد ليظهر بمجرد أن سمحت الظروف، وهو ما يعطينا مؤشرًا هامًا على أهمية التنشئة سواء كان ذلك في القرية التي لابد وأن تكون بحكم كونها قرية رحمًا للإيمان... أو بالتنشئة في أسرة ملتزمة... وافتقاد هذا العنصر، كما يحدث بالنسبة لأطفال آباء وأمهات من البورجوازية التي لا يمثل الإسلام فيها جذرًا، هو الذي يجعل مآلهم معسكر البورجوازية وتكون دعوتهم للتنوير دعوة غير مؤصلة، لأن القيم الإنسانية، وهي أثمن ما يمكن أن تقدمه الحضارة الأوروبية تعود في النهاية إلى الفرد، وتذوب في بوتقة الفردية لعدم قيامها على قيم مطلقة ولا توجد القيم المطلقة إلا في الأديان. ومن هنا تأخذ القيم البورجوازية الزيف التنويري...

***

ويعترف أدعياء التنوير بأن الذين حملوا مشعل التنوير هم رفاعة الطهطاوي وعلى مبارك وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي وقاسم أمين، ثم طه

---

57 [(?)] **إن المحنة التي تعرض لها الأستاذ مصطفى أمين كشفت له بعض الجوانب التي كان بحكم نشأته البورجوازية بعيدًا عنها.**

حسين وعلي عبد الـرازق ومحمد حسـين هيكل ومنصـور فهمي، ليختمـوا بخالد محمد خالد وزكي نجيب محمـود وإحسـان عبد القـدوس... إلخ وفي الآداب والفنـون شـوقي وحافظ وأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب.

ولكنهم يتجاهلون أن منطلق هؤلاء جميعًا أو كثرتهم الكاثرة، كـان الإسـلام، وهم لا يربطون ما بين البدايات والنهايـات، أو ما بين دعـواتهم وما بين الإسـلام من اتفـاق، ولا يبرزون إلا النتائج، أو يبرزون ناحية معينة تتفق مع اتجاهاتهم..

وفقهـــاء التقليد أيضًـــا – على ما قد يبـــدو في ذلك من مفارقة – لا يرحبـــون بإسـلامية هـؤلاء الـرواد، وقد يتحفظـون عليها وأي واحد فيهم أقـرب إلى الإسـلام من الشيخ محمد عبده (المفـتي) وقد تعـرض لسـهام الأزهـريين ومـؤامرات فقهـاء التقليد سحابة حياته.

والحقيقة أن هؤلاء الرواد والـدعاة هم من الـذين تتصـافح فيهم اليـدان، ويتلاقى اليمين باليسار، لأن الإسلام المتفتح الذي ينشد الحكمة **جعلهم يبحثون عن الجديد الصالح فيأخذون به، لصلاحيته الموضوعية من ناحية ولحث الإسـلام عليه من ناحية أخرى، فهم دعاة تنوير وفقهاء اجتهاد، وهو شيء واحد**...

العنصر الإسلامي في دعاة التنوير:

يتفق الجميع – أو الأغلبية العظمى – على أن رائد التنـــــوير في مصر هو رفاعة الطهطاوي.. فمن هو رفاعة الطهطاوي؟

إنه طالب أزهـري من أقصى صـعيد مصـر، درس في الأزهر حـتى أصـبح شـيخًا فيـه، ووقع عليه اختيـار محمد علي ليكـون "إمامًـا" لإحـدى البعثـات الـتي أوفـدها إلى فرنسا، ولم يكن طالبًا معها، وكان المطلوب هو أن يؤمهم في الصلوات، ولكنه بنبوغه أصبح أبرز طلبة البعثة كلهـا، وكـان عـددهم حـوالي الأربعين.. وعنـدما عـاد جعل هدفه نشر العلم والمعرفة، وترجمة الكتب الفرنسية إلى العربيـة، وهو الـذي أسس مدرسة الألسن، وقد وضع بالإضافة إلى ما ترجمه عددًا كبيرًا من الكتب في علم الكلام والفقه والنحو وعلم الحـديث والبلاغة والأدب والسـيرة النبويـة.. فضلا عن كتبه المشـهورة و "تخليص الإبريز في تلخيص بـاريز" و"منـاهج الألبـاب المصـرية في الآداب العصـرية" و"المرشد الأمين للبنات والبنين"...

في رفاعة رافع الطهطاوي نجد التنويري/ الإسـلامي كأفضل ما يكـون.. نجد فيه الوطني من مدخل أن "حب الوطن من الإيمان" وهو الشعار الذي كـان يكـرره.. ونجد فيه المقومان البارزان اللذان يفترض أن يتوفرا في كل تنويري/ إسلامي.

الأول: الإيمـان بـالعلم والحـرص عليه والعمل على إشـاعته، وهـذه في صـميم الإسلام والآيات والأحاديث عن ذلك أكثر من أن تحصى.

الثاني: تحكيم العقل والشرع، وهما يدا الإيمـان الإسـلامي أو سـاقاه أو جناحـاه، فبهما يمسك وعليهما يرتكز ويسير، أو يحلق ويطير، ولا يتصور أن يكون هناك تعارض، وإنما تكامل وهما صورة من صور "الزوجين" التي أقام الله عليها العالم.

وبحكم الشرع فإنه يسـتنكر إلحـاد الفرنسـيين ويقـول: "ومن عقائـدهم القبيحة قولهم إن حكماءهم وطبائعييهم أعظم من عقـول الأنبيـاء وأذكى منهم، ولهم كثـير من العقائد الشنيعة كإنكار بعضهم القضاء والقـدر مع أن من الحكم أن العاقل من يصـدق بالقضاء، ويأخذ الحزم في سائر الأشياء" وهو ينتقد ضعف الحاسة الدينية عندهم "أكثر أهل هـذه المدينة (أي بـاريس) إنما لهم من دين النصـرانية الاسم فقط حيث لا ينتحل دينه، دلالة غيرة عليه، بل هو من الفرق المحسنة والمقبحة بالعقل".

وفي الـوقت نفسه فإنه لا يـدع فقه التقليد يثنيه عما قضى به العقل (والشـرع أيضًا) من أحكام تتعلق بالمرأة، فهو يستحسن الدور الـذي تقـوم به الزوجة الفرنسـية والتي يضفي وجودها على المجلس "جمالا وأنسا وبهجة وأنها تحيي الضيوف أصـالة أو نيابة عن زوجهـا، وزوجها يحـييهم بالتبعيـة" ورأى أن عمل المـرأة يصـقل شخصـيتها ويبعدها عن البطالة.. كما امتدح التمثيل وما يمكن أن يقدمه من توجيه وتهذيب.

والحق أن من أهم ما قـام به الشـيخ رفاعة هو النهضة بـالمرأة، ولما كـانت الطـرق مسـدودة أمامه فإنه بـدأ بـالخطوة الأولى (التعليم) وكـان في هـذا يعمل في مجال تخصصه وإيمانه واتجاهه العاطفي الذي اكتسبه من بـاريس، وقد يصـور تقـديره لمنزلة المرأة الوثيقة التي حررها على نفسه لزوجته، والتي تعد الأولى من نوعها فيها نعلم.. ولعله أراد أن يضرب المثل بنفسه في دعوته.

وهـذه الوثيقة المحفوظة في دار المحفوظـات والـتي كتبها الشـيخ رفاعة بخطه وختمها بخاتمه، نصها:

"التزم كـاتب هـذه الأحـرف رفاعة بـدوي رافع لبنت خاله المصـونة الحاجة كريمة بنت العلامة الشـيخ محمد الفـرغلي الأنصـاري، أنه يبقى معها وحـــدها على الزوجية دون غيرها من زوجة أخــــرى، ولا جارية أيا كـانت، وعلق عصـمتها على أخذ غيرها من نسـاء، أو تمتع بجارية أخـرى، فـإن تــزوج بزوجة أيا ما كــانت، كــانت بنت خاله بمجــرد العقد طالقة بالثلاثة، وكذلك إذا تمتع بجارية ملك يمين، ولكنه أوعدها وعـدًا صـحيحًا لا ينتقض ولا يخل أنها مــادامت معه على المحبة المعهــودة مقيمة على الأمانة والعهد لبيتها وأولادها ولخدمها ولجواريهـا، سـاكنة معه في محل سـكناه، لا يــتزوج بغيرها أصـلا، ولا يتمتع بجـوار أصـلا، ولا يخرجها من عصمته حتى يقضي الله لأحدهما بقضائه..." (انتهى).

فنحن نـرى الشـيخ رفاعة سـبق المشـرع المصـري بـأكثر من مائة سـنة عنـدما أعطى زوجته الحق في الطلاق إذا تــزوج بــأخرى، وحــرم على نفسه – ليس فحسب الزواج – بل أيضًا التمتع بجواري، وكان هذا وقتئذ فاشيًا!

وبعد رفاعة رافع الطهطــاوي، يــأتي علي مبــارك وهو مؤسس وزارة التربية والتعليم، ودار الكتب، ودار العلــوم، ومؤلف "الخطط التوفيقيـــة" وهو في كل أعماله وكتاباته يصدر عن روح إسلامية عريقة منذ أن خرج من برنبال طفلا يطلب العلم حتى آخر أيام حياته.

بعد هذين الكوكبين، يأتي دور جمال الدين الأفغـاني وتلميـذه الأثـير محمد عبـده ومنطلقهما الإسلامي لا يحتاج إلى إيضاح..

وقد كان جمال الأفغاني في الفكر كـالنجم القطـبي في السـماء.. يتجه إليه كل الملاحين، وتضبط على موقعه كل الاتجاهـات وكـانت له جاذبية آسـرة لم ينج منها أحد من مفكري عصره حتى الذين عارضـوه مثل "رينـان" وحـتى من يظن أن ليس لهم به علاقـة؛ فلطفي السـيد مثلا رائد العلمانيـة، والديمقراطية إلخ.. هـاجر إليه وتتلمذ عليه وتأثر به..

ثم يــأتي رشـيد رضا تلميذ الشـيخ محمد عبـده، وهو وإن كـان يمثل اتجاهًا نحو "السلفية" إلا أنه كـان يـذهب بها إلى آخر مـدى.. ويجب أن نـذكر أن كتـاب الكواكـبي "طبائع الاستبداد" و "مذكرات أم القرى" وهي كتب ثورية "تنويرية" نشرا في "المنار" أولا.. وأن الشيخ رشيد رضا نفسه كان قطب حزب "اللامركزية" الـذي ضم كل أحـرار سوريا ولبنان في العشرينيات.

وكل مجموعة التنوير في عهد محمد علي وإسماعيل حتى مشارف القرن من الإسلام جاءت، وعلى الإسلام ارتكزت في دعوتها التنويرية التحريرية.

بعد هؤلاء يأتي الثالوث الكبير: طه حسين – توفيق الحكيم – عباس العقاد... أما طه حسين فهو ابن الأزهر واللغة العربية، وهو لا يستشعر زهوًا بأنه يتحدث الفرنسية واليونانية كأحد أبنائها، ولكن يحق له الفخر أنه أحكم العربية حتى أصبح من شيوخها وقد ترجم ما شاء الله له أن يترجم عن الفرنسية مما لا يكاد يذكر الآن.. وإنما تذكر إسلامياته: على هامش السيرة/ الفتنة الكبرى/ الشيخان إلخ.. وحقًا أنه فتن بفرنسا، عندما تعرف عليها وتأثر بها تأثيرًا اتصل حتى بعد أن تركها لأنه احتفظ بزوجة ظلت فرنسية كاثوليكية وجعلت بيته قطعة من فرنسا، ولكن حبه الأول كان، رغم كل شيء، هو أيامه الأولى وأدبه العربي. ومع أن التوفيق قد فاته في إحدى إشاراته إلى القرآن فإنه تاب عنها وحذفها في الطبعات التالية، وهي على كل حال، كبوة الجواد التي لا تذهب بصولاته وجولاته، وليس أدل على ذلك من مواقفه، عندما تخلص من أثر الانبهار القديم بأوروبا والمستشرقين، وقد استلفت ذلك انتباه الكاتب الصحفي الأستاذ أحمد بهجت([58]) ورأى فيه "نموذجًا لباحث شرد وأخطأ ثم رده العلماء إلى الصواب فعاد إليه واعتذر عن خطئه".

لقد وعى طه حسين التجربة التي وقعت له، واستفاد من الدرس الذي صادفه في بداية حياته، وكان له رأيه الحكيم بعد ذلك وهو رأي أنضجته التجارب وأنضجه التواضع الإنساني.

وفي لجنة مشروع الدستور.. ص 81.. وفي جلسة 4/6/1953 قال له طه حسين.

إن من المقطوع به أن الأغلبية لن تقبل أن تخرج عند وضع الدستور على ما أمر به الإسلام، ولكن لابد لنا من أن نحتاط فنقول إنه ليس هناك أي نص يسمح لنا بأن نعدل عن نص القرآن.. أريد أن أقول إنه إذا وجد نص ديني صريح فالحكمة والواجب يقتضيان ألا تعارض النص، وأن نكون من الحكمة والاحتياط بحيث لا نضر الناس في شعورهم ولا في ضمائرهم ولا في دينهم.

إذا احترمت الدولة الإسلام، فلابد أن تحترمه جملة وتفصيلا، ولا يكون الإيمان إيمانا ببعض الكتاب وكفرًا ببعضه الآخر".

أين حكمة هذه الكلمات التي قالها طه حسين من حماقة الباحثين الذين يريدون تحطيم المقدسات في بحوثهم الهزيلة، فإذا حاول علماء الأزهر أن يصححوا له ارتفعت الأصوات أن حرية البحث في خطر، وأن أبناء الظلام يريدون أن يطفئوا الشمس ليسود الظلام.

إن تأمل تجربة طه حسين واستعراض حياته يقولان لنا إن العالم الحقيقي هو الذي يدرك أنه يمكن أن يخطئ، وإن الباحث الحقيقي هو القادر على أن يستمع لمن يصحح له الخطأ ويثنيه عنه.. فلا كمال إلا الله تعالى وحده".

والأمر في توفيق الحكيم أعجب، فهذا الأديب الذي نشأ في أسرة بورجوازية، وتشرد في سبيل المسرح الفرنسي، وأتقن الحوار حتى أصبح سيده، كان أشد الثلاثة عناية بالإسلام، فما الذي يجعل سيد المسرح يعنى بأن يلخص تفسير القرطبي؟ وما الذي يجعله يبدع نظرية إسلامية هي التعادلية الإسلامية، وما الذي يجعله يصدر

---

58 (?) **جريدة الأهرام ص 2 يوم 25/1/ 1994.**

(محمد) وما الذي يجعله في آخر أيامه يصدر كتاباته تحت عنوان حديث نبوي شريف هو "إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها" لقد كان الإسلام أحد الهموم الأساسية في فكر توفيق الحكيم حتى مات وحاول أن يسهم بإضافة جديدة وإلى حد ما نجح في ذلك...

أما العقاد (الجبار) فلم يبق من آثار جبروته شيء، ولكن بقيت إسلامياته، ولعله كان أبعدهم عن الإسلام بحكم مزاجه وثقافته، ومع هذا فإن ما كان يطمح إليه في أيامه الأخيرة هو أن يضع تفسيرًا للقرآن. وقد أُنْسِيَت معظم كتبه حتى كتابيه عن سعد زغلول وابن الرومي وهما أفضل ما كتب.. والذي يعرفه الناس عن العقاد هو "عبقرياته الإسلامية".

فانظر إلى أثر الإسلام على هؤلاء الذين شادوا الإسلام فترة ما فغلبهم وكسبهم وجعلهم كتابًا عنه وأنصارًا له...

وفي العدد الذي أصدرته مجلة الهلال خاصًا بالرسول (أغسطس 1978) أشار توفيق الحكيم في كلمته التي كانت بعنوان "دفاع عن محمد" إلى قصة تمثيلية لفولتير (محمد) سب فيها النبي ﷺ سبًا قبيحًا، وأهداها بهذا الإهداء الذليل إلى الباب بنوا الرابع:

"فلتستغفر قداستك لعبد خاضع من أشد الناس إعجابًا بالفضيلة إذا تجرأ، فقدم إلى رئيس الديانة الحقيقة ما كتبه ضد مؤسس ديانة كاذبة بربرية، وإلى من – غير وكيل رب السلام والحقيقة – أستطيع أن أتوجه بنقدي قسوة نبي كاذب وأغلاطه، فلتأذن لي قداستك في أن أضع عند قدميك الكتاب ومؤلفه، وأن أجرؤ على سؤالك الحماية والبركة، وإني مع الإجلال العميق أجثو وأقبل قدميك القدسيتين.. !!"[(59)].

فولتير (17 أغسطس 1745).

ويقول توفيق الحكيم.. "علمت أن روسو كان يتناول بالنقد أعمال فولتير التمثيلية، فاطلعت على ما قاله في قصة محمد علني أجد ما يرد الحق إلى نصابه فلم أر هذا المفكر الحر أيضًا يدفع عن النبي ما ألصق به كذبًا، وكأن الأمر لا يعنيه، وكأن ما قيل في النبي لا غبار عليه ولا حرج فيه، ولم يتعرض للقصة إلا من حيث هي أدب وفن".

ويستطرد توفيق الحكيم:

"من ذلك اليوم وأنا أحس كأني فجعت في شيء عزيز لدي: الإيمان بنزاهة الفكر الحر...".

وفي مقاله هذا امتدح الدكتور طه حسين والدكتور محمد حسين هيكل لكتاباتهما الإسلامية وقال:

"لقد صنع هيكل كثيرًا في هذا السبيل بأسلوبه الجديد في "حياة محمد" ولئن كان قد أثم في دنياه، فلقد اشترى بكتابه آثامه، ولسوف يتقدم يوم الدين وكتابه بيمينه يشفع له بدخول الجنة، متأبطًا ذراع طه حسين بما قدمت يمناه هو أيضًا من كتاب أدبي جميل "على هامش السيرة"، كان له ولا ريب أبلغ الأثر في حمل الناس على استمراء أخبار النبي".

ونحن نقول إن توفيق الحكيم سيصحبهما يوم العرض العظيم حاملا بيمناه روايته (محمد) وبيسراه كتابه "التعادلية الإسلامية" وستحلهم رحمة الله مكانًا عليًا...

***

59 (?) **انتبهوا أيها السادة هذا هو فولتير وثن العلمانيين وبطل الليبراليين وعدو الطغاة والحاكمين ورمز حرية الفكر، فهل يمكن أن تصل القماءة والحقارة بكاتب مبتدئ متملق إلى أكثر من هذا!؟.**

ويذكر أدعياء التنوير مع هؤلاء الثلاثة محمد حسين هيكل ومنصور فهمي، وأول هذين هو صاحب رواية "زينب" التي يعطيها البعض وصف ريادة الرواية، وكان هيكل "ليبراليا" تقليديًا رأس في العشرينات مجلة "السياسة" وكانت وقتئذ أقوى وأشهر مجلة ليبرالية، وخاض غمار السياسة الحزبية ووصل إلى أعلى مراكزها، وأنسي هذا كله الآن ولم يبق له إلا "حياة محمد" الذي كان نقطة تحول في كتابة السيرة.. وأعقبه "في منزل الوحي" و "عمر" وهذا هو ما بقي من هيكل...

أما منصور فهمي الذي – بتأثير أستاذه الفرنسي اليهودي – لمس شخصية الرسول في رسالة الدكتوراه عن المرأة في الإسلام.. فإنه أدرك خطأه، وتاب توبة نصوحًا، وأصبح فيما بعد من أئمة الفكر الإسلامي. وعندما كان عميدًا لكلية الآداب وجبن الأساتذة عن فتح "مصلى" بالكلية لشباب الإخوان المسلمين بها كان هو الذي خصص أحسن قاعة لتكون مصلى، وكتاباته الإسلامية عديدة.

ويعطي أدعياء التنوير للشيخ علي عبد الرازق وكتابه "أصول الحكم في الإسلام" والشيخ خالد محمد خالد وكتابه "من هنا نبدأ" أهمية كبرى، ويدفعان بالاسمين في كل حديث.

والشيخ على عبد الرازق شيخ من أسرة كلها شيوخ، وقد ولي أخوه مشيخة الأزهر، كما تولى هو نفسه وزارة الأوقاف، وله في كتابه اجتهاد – إذا كان يخالف الجمهور، فإنه استند على ما رآه مقنعًا من آيات وأحاديث وقيل إن الكتاب قد صدر ليفسد على مجموعة من الشيوخ دعايتهم لجعل الملك فؤاد خليفة، بعد أن قضى مصطفى كمال أتاتورك على الخلافة في تركيا.. فإذا كان هذا هو قصد الكتاب فنعما به، لأن الإسلام يبرأ من خلافة يتقلدها فؤاد وأمثاله، وعلى كل حال فإن الرجل – لعوامل عديدة – قد يعود بعضها إلى أنه غيَّر فكره، أو أنه وجد أن كتابه يستغل في غير ما استهدفه، رفض إعادة طبع كتابه، بل وأوصى بعدم طبعه، مما حمل ورثته على رفع قضية على من أعاد الطبع!

والشيخ خالد محمد خالد شيخ جليل نشأ في الجمعية الشرعية، واتصل بالإخوان المسلمين، وتضمن كتابه "من هنا نبدأ" ثورة على دولة الكهنوت ودعوة إلى تحرير المرأة، ولم يخالف في هذا كله إطار الإسلام ودوائر الاجتهاد.

وقد حاول اليساريون وأدعياء التنوير اجتذابه، فأبى واستعصم، وإن لم ينف هذا أن يكون التعبير قد خانه في إحدى المقالات "والعصمة لا تكون إلا لنبي".. والمأثرة العظمى للشيخ خالد هي أنه كان الوحيد الذي طالب الطاغية وجهًا لوجه في المؤتمر القومي للقوى الشعبية بالحرية والديمقراطية، وكان في هذا يرتكز على الإسلام وينطلق من الإسلام ويجري على تقاليد العلماء الذين كانوا يجابهون السلاطين بكلمة الحق المرة.

وهم يشيرون إلى قاسم أمين محرر المرأة، وقاسم أمين هو صديق ومريد الشيخ محمد عبده وكان في كتابه يطالب بما أعطاه الإسلام للمرأة من حقوق، ولعله لم يصل إلى كل ما يسمح به الإسلام للمرأة مراعاة منه لظروف المجتمع المصري وقتئذ.

ويشيرون إلى يحيى حقي، وقد لخص يحيى حقي رصده للحياة الاجتماعية في رائعته "قنديل أم هاشم" التي تمثل الطبيب الذي تعلم في انجلترا، وأحب إنجليزية، ثم ينتهي إلى "أم هاشم" ويتزوج قريبته. ويحيى حقي هو الذي قال في حلقة "شاهد على العصر" التي بثتها الإذاعة سنة 1983 – إن أسوأ لحظة مرت على مصر هي اللحظة التي قرر فيها محمد علي فصل التعليم المدني عن الأزهر.. ففي هذه اللحظة انقسمت الأمة، وإن هذا كان مؤامرة من محمد علي على الأزهر.

وقد ظهر كُتَّاب رزقـوا قـدرًا كبـيرًا من الأصـالة والتمكن ولكنهم لم يكتبـوا عن الإسـلام، أو يعنـوا به عناية خاصـة، فلم يكتب لهم الخلـود أو الشـهرة الجماهيريـة.. فالأستاذ المازني كـان أسـتاذًا في الأسـلوب والأدب، ولكنه لم يكتب عن الإسلام، فلم تحفظ له الجماهير شيئًا، وهو ما يمكن أن يقال عن الأستاذ أحمد الصاوي محمد الـذي أصدر "مجلتي" في الثلاثينيات وصاحب الأسلوب العاطفي الأنيق.

وقد قرأنا مقالا للدكتور محمد مندور نشره في "الرسالة" عدد 601 في 8 يناير 1945 بعنوان "اعترافـات مـؤمن" قص فيه رحلته من الشك إلى الإيمـان".. وإيمانه لا يقوم على عقل، لأن العقل يعجز عن الوصول إلى مقام الألوهية، ولكنه:

"مـؤمن تمامًا إيمانًا راسـخًا وليست لي في الحيـاة قـوة غـير هـذا الإيمـان، فقد تهب أعاصـيرها، ومن الممكن أن تتنكر لي يومًا عناصـرها ذاتها، ولكن ذلك لا أظنه ينال مني شـيئًا، وذلك لا اعـتزازًا مـني بعـروض حياة أو مواهب نفس، ولكن لأنني مؤمن بإله عـادل اطمـأنت إليه نفسي بحيث لا أذكر أنني قد اتجهت إليه يومًا فلم أجد تأييده".

وأعاد مندور هذا الإحساس إلى العلاقة التي كـانت بينه وبين أبيه الـذي كـان قد بنى بأحد الحقول (خلوة) له لا منفذ لها غير الباب، وأنه هجر زوجته وأبناءه أربعين ليلة ليقيم فيها يعبد الله آناء الليل وأطراف النهـار لا يـرى أحـدًا ولا يـراه أحـد، وإنما يحمل إليه الطعام من خصاص الباب. وأثار هذا الخبر خيال مندور فكان يلاحق أبـاه بالسـؤال ولكنه كان رجلا كتومًا فلم يحظ منه بجواب حتى علم أخيرًا أن الشباب كـان قد سـاقه في مهاويه فلم يجد عصمة خيرًا من معاهدة أحد علماء الدين على التوبة وعبادة اللـه. وكان هذا العالم نقشبندي المذهب وكـان رجلا خـيرًا فقصر توجيهه لوالـده على تجنب الإثم وعبادة الله والإحسان إلى الناس وقـراءة كتب الـدين، وحـاول منـدور أن يعـرف شيئًا من والده عن هـذا الطريـق، فـرفض ولكنه – أي منـدور – توصل بطرقه الخاصة إلى أن كلمة نقشبند تعني النقش على القلب، وأن سرها هو أن يستشـعر الفـرد دائمًا أن اسم الله منقوش على قلبه.. وأخبر والده بهذا فسر الرجل ودهش!

ويستطرد د. محمد مندور في مقاله:

"وعندما اختارتني الجامعة لبعثتها، حدث حادثان صـغيران كـان لهما في نفسي أبلغ الأثر.. أولهما أنني قبل سفري رتبت كتـبي في صـندوق كبير وبغير وعي مني وضعت "المصـحف" على قمة الكتب، ورأى والـدي ذلك عرضًا فسر سرورًا لم أقصد إليه، ولربما جاء بتوفيق من الله وحدث إخوتي عما رأى قـائلا: إن أخـاكم فلان سـيكون الله دائمًا معه وسـيوفق في كل ما يعمـل... فسـألوه: "ولم ذلـك"؟ فأجـاب: "لأنـني لاحظت أنه وضع كتاب الله فوق كل كتاب" ثم إنـني في يـوم السـفر فـوجئت بهدية من والدي أوصاني أن أحتفظ بها مدة غيبتي وأن أعـود بها إليـه، وكـانت تلك الهدية عبارة عن منديل للشيخ العالم النقشبندي الذي عاهده والدي على الهدى، ولقد أخذت المنديل واحتفظت به تسعة أعـوام الـتي مكثتها في أوروبا وعدت وهو لا يـزال إلى اليـوم بين ملابسـي، ولا أسـتطيع أن أزعم أنـني قد علقت به إيمانًا خاصًـا أو قـوة معينـة، بل ولا فكـرت في ذلك، ولكنه نوع من الاطمئنان السلمي المريح. وقد اختلطت في نفسي قيمة الهدية بمحبتي لمهديها وإيمـاني بـه، وكـان لهـذين الحـادثين فضل دائم في ردي إلى الإيمان كلما تجهمت لي الحياة.

ولقد اتخذ الإيمـــان في نفسي وجهة الإحســـان إلى الغـــير، حـــتى لأحسب أنني عاجز عجزًا أصيلا عن بغض أحد، فقد يقسو قلمي وقد يلدغ

لسـاني، ولكـني ما عـدت إلى نفسي إلا أحسست بفيض من التسـامح لا أستطيع دفعه، أكبر ظني أن هذا الاتجاه كان أيضًا لإشعاع من والـدي..." (انتهى).

فهنا نرى إيمانًا يقوم على الإيمان بالله تعالى ورحمته ورعايتـه، وعلى الإحسـان إلى الناس، وهذا وذاك هما لباب الإسلام: إيمان بالله وإحسان إلى الناس...

***

والحقيقة أن الإسلام وصل من القـوة بحيث إنه يعد الأب الشـرعي لكل الكتـاب والدعاة الذين تصدروا للعمل العام ومعالجة قضـايا الفكر والوجـود والفـرد والمجتمـع. وقد يعقه بعضـهم، كما يعق بعض الأبنـاء آبـاءهم، ولكن هـذا لا ينفي بنـوتهم، ذلك لأن الإسلام يعني القرآن والقرآن يعني العربية في أرفع وأعظم وأجمل صورها، ولابد لكل من يمسك قلما ويكتب سـطرًا أن يتتلمذ عليه وأن يتـأثر به ونجد هـذا التـأثر في كُتَّاب يتصور الإنسان أنهم أبعد ما يكونون عنه.

فما الذي يدفع بنجيب محفوظ الذي صـادر الأزهر إحـدى رواياته بـدعوى الإلحـاد لأن يقول في رسالته إلى لجنة نوبل في حفل تسليمه الجائزة عن الحضارة الإسلامية:

"لن أحدثكم عن دعوتها إلى إقامة وحدة بشـرية في رحـاب الخـالق تنهض على الحرية والمسـاواة والتسـامح ولا عن عظمة رسـولها فمن مفكـريكم من كرسه كـأعظم رجل في تـاريخ البشـرية ولا عن فتوحاتها التي غرست آلاف المآذن الداعية للعبادة في التقوى والخير على امتـداد أرض مترامية ما بين مشـارف الهند والصـين وحـدود فرنسـا، ولا عن المؤاخاة التي تحققت في حضـنها بين الأديـان والعناصر في تسـامح لم تعرفه الإنسانية من قبل ولا من بعد. ولكني سأقدمها في موقف درامي مـؤثر يلخص سـمة من أبـرز سـماتها، ففي إحـدى معاركها الظـافرة مع الدولة البيزنطية ردت الأسرى في مقابل عدد من كتب الفلسفة والطب والرياضة عن التراث الإغريقي العتيد، وهي شهادة قيمة لـروح الإنسـان في طموحه إلى العلم والمعرفة رغم أن الطـالب يعتنق دينًا سـماويًا والمطلوب ثمرة حضارية وثنية"...

وما الذي جعل الدكتور مصطفى محمود وهو العضو النابه في أسـرة تحرير روز اليوسف وصباح الخير في الخمسينيات ومؤلف لكتاب يتـابع ظهـور العقـل.. بعيـدًا عن الوجود الإلهي.. يتغير ليصبح نسيجًا فريدًا في الداعية الإسلامي، الكـاتب المثقف الـذي يكتب في الأهـرام.. المؤلف النابه الـذي ينـاقش قضـايا المجتمع والعصر من زاوية الإسلام. والمصلح الاجتماعي الذي يقيم مؤسسة علاجية وثقافية رائدة. ما الـذي حوله إلى هذا الاتجاه إلا قوة الإسلام ونصوع حجته..

وما الذي يجعل الأستاذ عادل حسـين يتحـول من المفكر الشـيوعي إلى المفكر الإسـلامي ليصـبح من أكـبر دعـاة الحركة الإسـلامية وما الـذي يجعل الأسـتاذ طـارق البشري يخترق – ببصيرة القاضي – الزيـوف والادعـاءات الظـاهرة ليصل إلى الحقيقة فيعترف بها.

أو خذ مثلا الأستاذ محمد جلال كشك (رحمه الله) الـذي بـدأ حياته بنقد الإخـوان المسـلمين، وآمن بالماركسـية وكـان من فرسـانها ثم اسـتبان له قصـورها. فعـاد إلى الإسلام، وخاض معركة طويلة مع أدعياء التنوير الذين يسـيطرون على الصـحافة. أدت به لأن يفـرغ لمعالجة قضـايا الفكر الإسـلامي. وأن يصـدر ثمـرة ذلك في كتب قـدمت إضافة منشئة ومبدعة...

أو خذ الــــــدكتور يوسف إدريس! فهو على اتجاهاته ظل يؤكد أن على من يريد التمكن من اللغة العربية وفهم أسرارها قراءة القرآن، وأن (جزء عم) وصل إلى الغاية في البلاغة والتأثير والموسيقية... إلخ.

وعندما يسأله أحد الصحفيين:

- هل حقًا كنت تهاجم الأذان؟

- وهل أنا مجنون؟ إنني لم ولن أهاجم الأذان، ولكـني هـاجمت، وسـأظل أهـاجم اســتخدام مكــبرات الصــوت.. لأن الإســلام دين متحضــر.. والإســلام ينتشر بالحكمة والموعظة الحسنة، وليس بالميكروفون!

وأضاف: إنني مسلم ابن مسـلم، وقد سـافر جـدي على أقدامه إلى الحج وظل هنـاك ثلاثة عشر عامًا كـان يصـنع هنـاك الحلـوى ليعيش منها حبًا في زيارة الرسول... (الأحرار 29/1/90 ص 3).

وفي مجال الشعر والتمثيل والسينما نجد أن شوقي وحافظ شاعران إســلاميان لحمًا ودمًا، قصائد الأول الإسلامية "نهج البردة" و "مولد الرسول".. وقصـائده العديـدة عن الخلافة والخأضأضافألفاء.. ونجد حافظ في "العمريـة" الـتي تعد من أجـود شـعره ومن أفضل ما نُظِمَ عن عمر بن الخطاب.

ونجد أن الغناء العربي والموسيقى العربية يرتبطــان ارتباطًا وثيقا بنظم القــرآن وعلم التجويد ومـدائح الرسـول، وأن كبـار الفنـانين كـانوا من القـراء، وأن محمد عبد الوهــاب وأم كلثــوم حفظا القــرآن، وأن الأول بــدأ حياته الفنية بــالأذان في جــامع الشعراني ببـاب الشـعرية والـذي حمل اسمه، والثانية بمـدائح الرسـول وظل الـوعي بالإسلام عميقًا في وجدانهما.. وقد لا يعلم معظم الناس أن عبد الوهاب لم يدخن أبدًا، وأنه كان لا يشرب الخمر، وعنـدما نصحه طـبيب بتنـاول قليل منها في مرضه رفض.. ويمكن القول أيضًا إنه كان ملتزمًا بالشعائر.

ولعلنا لسنا في حاجة للإشارة إلى ظاهرة تحول عدد كبـير من الفنانـات ممثلات ومغنيات وراقصات إلى إيمان بالإسلام حملهن على وضع الحجـاب واعـتزال نشـاطهن الفني.. وبقدر ما في هذه الظاهرة من دلالة على قوة الاتجـاه الإسـلامي في "الوسط الفني" فقد ينم عن قدر من القصـور في فهم الإسـلام.. فقد كـان يمكن لتلك الكوكبة الباهرة من الفنانات أن يخدمن الإسلام بصورة من النشاط الاجتماعي والثقـافي، بـدلا من العكوف على العبادة. وإن كان الأمر بعد أمرًا يعود إليهن ولحالتهن النفسية.

وفي الأربعينيات – أي قبل ظاهرة اتجاه الفنانات نحو الإسـلام – فضل عـدد من أكبر الفنانين أن يعتنق الإسلام مثل جورج أبيض وأسرته الفنية ومثل ليلى مراد ونجوى سالم وماري منيب، وكاد نجيب الريحاني يعتنق الإسلام لو أرجأه الأجل أسبوعًا...

***

نريد أن نختتم هذه النبذة الطويلة عن أثر الإسلام في دعاة التنوير بالإشارة إلى شخصــيتين قد يظن أنهما من أبعد النــاس عن الاتجــاه الإســلامي في حين أنهما من أقربهم إليه...

أولهمـا: الأسـتاذ إحسـان عبد القـدوس الـذي أسس دار روز اليوسف ورأسـها سحابة حياته، وكان هو (روح) صحيفتي روز اليوسف وصباح الخير.

وثانيهما: المفكر المشهور الدكتور زكي نجيب محمود.

ونحن نعتقد أن الأستاذ إحسان عبد القدوس والأسـتاذ مصـطفى أمين هما أكـبر كاتبين أثـرا على الشخصـية المصـرية البورجوازية خلال الخمسـين عامًا الأخـيرة، وأن

بصماتهما لا تزال ملموسة وأنهما يتحملان أمام التاريخ جزءًا كبيرًا من مسـئولية الزيف والضلال اللذين اكتنفا هذه الحقبة!

نقول إن إحسان عبد القدوس، كان في الاجتماع – مثلما كان ميشيل عفلق في السياسة – أمضى كل واحد منهما عمـــره في البحث عن حلـــول – ليست إســـلامية بالضرورة – لقضايا المجتمع ثم انتهى به الحـال – كما انتهى بعفلق – أن آمن بالإسـلام في النهايــة، ولو رُدَّ إلى شــبابه قبيل موته – مــرة أخــرى فلربما اختلفت مناهجه عما سلكه أولا!

ترك إحسان عبد القدوس قبل أن يموت وثيقة هامة يمكن أن نسميها:

"اعتراف كاتب مسلم" قال فيها[60]:

(1)

"لقد نشأت في بيت جـدي لأبي الشـيخ أحمد رضـوان وقد كـان من خريجي الأزهر الشريف ومن رجال القضاء الشرعي.. وكان جدي حريصًـا على تنشـئة أفـراد العائلة كلها على الإيمـان الكامل بالإسـلام وأداء كل الفروض والاسـتجابة لكل التعـاليم.. ومن قبل أن أصل إلى السـابعة من عمـري وأنا أحـاول اسـتكمال قـدرتي على أداء كل الفـروض.. كالصـلاة والصوم وحفظ آيـات القـرآن.. وربما كـان جـدي يعتـبر مغاليًا في تزمته على أداء الفـروض.. حـتى أنه كـان يحـرم علينا أن نـؤدي الصـلاة ونحن نرتـــدي ثوبًا يكشف عن ســـاقينا فـــوق الركبـــة.. وقد كنت أذهب إلى المدرسة الأولية ثم المدرسة الابتدائية وأنا أرتدي بنطلونًا قصـيرًا يكشف عن ركبتي.. فكيف أؤدي صـلاة الظهر وأنا في المدرسـة؟.. لـذلك كـانوا يضـعون في حقيبــتي الــتي أذهب بها إلى المدرسة جوربا طـويلا يرتفع على ســاقي حــتى يغطي ركبــتي حــتى ألجأ إليه كلما حل موعد صــلاة الظهر لأؤديها داخل جامع المدرسة.

وكنت لم أصل إلى عمر الســـابعة عنـــدما حفظت جـــزء "عم" من القرآن الكريم ثم بدأت أحفظ من القرآن على مدى العمر.. وإن كنت لم أحفظه كله إلا أني قرأته كله عشــرات المــرات واســتوعبت كثــيرًا من الآيــات.. لازلت إلى اليــوم أرددها دائمًا وفي كل يــوم تبركًا وتقربًا إلى الله سـبحانه وتعـالى.. وتـزودًا باسـتكمال راحـتي النفسـية وشخصـيتي المسلمة.

ولكن بعد أن نما وعـــيي وتجـــاوزت سن الخامسة عشـــرة بـــدأت تـدهمني حـيرة دينية ربما كـان سـببها أن بـدأت ألاحظ اختلاف مظـاهر الإيمان بين الأفراد المسلمين.. فكثير من مظاهر المجتمعـات الإسـلامية مختلفة في أداء ما يفرضه الإســلام.. وبــدأ فكــري يســيطر علي حــتى أقنعني بأني لا يجب أن أكتفي بأن أكـون مسـلمًا بالوراثـة.. أي مسـلم.. لأن أبي وجدي وجد جدي مسلمون.. بل يجب أن أكون مسلمًا عن اقتنـاع بالإسلام أي أن أختار الإسلام إيمانًا ولست مجرد مستسـلمًا لـه.. ولـذلك بدأت أفيض في دراسة الإسلام.. دون أن أتخصص كرجل دين إنما لمجرد إقناع نفسي بما أؤمن به.. ووصلت بي دراسته إلى حد أني بدأت أحــاول اكتشــاف أســرار تعــاليم الديانة اليهودية ثم الديانة المســيحية.. وكنت أتعمد لقـاء رجـال الـدين اليهـودي والمسـيحي لأفهم منهم وأجـادلهم.. وانتهى بي هــذا البحث الــذي اســتغرق شــهورًا طويلة إلى أن اخــترت

---

60 [?] نقلا عن "صباح الخير" – 1 رجب 1411 – 17/1/91 ص 9.

الإسلام دينًا عن إيمان قائم على اقتناع.. ولكن هذا الجهد العـنيف الـذي بذلته خلال هــذه الشــهور أدى إلى حالة معانــاة إلى حد أن رقــدت في فراشي مريضًا بمرض عجز عن شفائي منه الأطباء.

وفي فترة مرضي جاءني أبي المرحوم محمد عبد القدوس رضـوان بالمصحف الذي كـان خاصًـا بجـدي وكـانت العائلة تحتفظ به بعد أن مـات تبركًا وتكريمًا لـذكراه.. وقـال لي: أقـرأ يا بـني.. فالله هو القـادر على شفائك.

وقد قــرأت القــرآن كله وأنا راقد في فراشــي.. ولكــني أحسست بأني قرأته تبركًا وتوسلا إلى الله أن يشـفيني.. ولم يكن هـذا هو كل ما أريده.. فبدأت أقرأ القرآن مرة ثانية وأنا أحـاول أن أفهم وأفسر كل آية وكل كلمة من كلمـات اللـه.. وأسـتعين على الفهم بكتب التفسـير الـتي تزدحم بها المكتبة التي تركها جـدي.. ولكـني مع هـذا انتهيت من قـراءة القرآن كله ولا أزال قاصرًا عن فهم وتفسير بعض الآيات.. فبدأت أقرؤه مــرة ثالثــة.. وأضع بنفسي تفســيرًا لكل ما كنت عـاجزًا عن اسـتيعابه.. واسترحت.. استكملت إيمـاني على أسـاس اقتنـاعي وفهمي.. وشـفيت فعلا من مرضــي.. ومما أدهشـني أن كثـيرًا من الآيـات الـتي كنت أعتقد أني وصــلت إلى تفســيرها بنفسي ووفقًا لعقليــتي كـانت قد ســبق أن فسـرت وسـجل تفسـيرها نفس التفسـير الـذي وصـلت إليـه.. وهو ما أقنعني بـأن صـدق وعمق الإيمـان يمكن أن يصل بـالمؤمن إلى التفسـير الصحيح.. وإن كنت أتمنى وأدعو حـتى اليـوم في أن يبـذل رجـال الـدين الإسـلام مجهـودًا أكـبر في إعلان التفسـيرات المبسـطة الـتي يمكن أن تصل إلى عقــول البســطاء.. حـتى تتم وحـدة كل مظــاهر الإيمــان بين المسلمين.

(2)

إني أعيش كمسلم.. كل حيـاتي الخاصة والعامة تجـري تحت تـأثير من وحي بالإسلام فإن أصـبت في تصـرفاتي فلأن الإسـلام وفقـني إلى أن أصيب.. وأن أخطأت فلأني عجزت عن اتباع ما يفرضه الإسلام علي.

(3)

الدين هو الأساس الذي يقوم عليه كيان الإنسانية كلهـا.. الـدين هو محاولة الوصول إلى حكم القدر.. والقـدر هو ما يحكم به اللـه.. والكيـان الإنسـاني متعـدد الجبهـات بتعـدد الأديـان.. بما فيها من أديـان سـماوية وأديان أرضية.. وقد حاولت بعض جبهات هذا الكيان في الإنسان أن تنكر الأديـان.. أي تنكر وجـود اللـه.. ولكن هـذه الجبهـات مهما طـال بها زمن الوجود فمصيرها أن تعود إلى الاعتراف بالله والخشوع له وللقــدر الـذي يفرضه على خلقه.. ولن يتحقق السلام بين بني الإنسـان إلا إذا تقـاربت الأديان إلى أن تتجمع في دين واحد.. دين الإسلام.

إني أعتقد أن أي كــاتب باللغة العربية لا يســتطيع أن يجمع حــوارًا قرأه إلا إذا كان أساسًا قد استوعب قراءة القرآن.. فـالقرآن هو أسـاس أسلوب اللغة العربية.. أو هو الموسيقى للغة التي يقوم عليها أي تطــور موسيقي في اختيار أسلوب الكتابة بالعربيــة.. وحـتى الكـاتب إذا لم يكن مســلمًا لا يســتطيع أن يكتب باللغة العربية إلا إذا اســتوعب أســلوب أو رنات صياغة كلمات وآيـات القـرآن.. ومعـروف أن المرحـوم مكـرم عبيد باشا كــان عبقريًا في إلقــاء الخطب وكتابة الرســائل باللغة العربية لأنه

كان يحفظ القرآن رغم أنه قبطي الديانة.. وهكذا كل كاتب عــربي.. وأنا نفسي لا أعتقد أني اســتطعت أن أكــون كاتبًا ولي قــراء إلا لأني بــدأت باستيعاب أسلوب ورنات لغة القرآن.. أما بالنسبة للمفكرين فإن القرآن يعتــبر الأســاس الفكــري لأي محاولة في تفســير الواقع والمســتقبل الإنساني.

ولا يمكن لأي فكر سواء فكر إسلامي أو غير إسـلامي أن يسـتوعب أسس الكيان الإنساني ومصـير الإنسـان إلا باسـتيعاب ما سـجله القـرآن وهو ما يشمل كل تفاصيل الحياة وما بعد الحياة.

(5)

الهـدف الـذي يـدعو إليه الإسـلام هو أن يصل بوحـدة الإيمـان إلى وحـدة الوجـود أي أن يجمع المسـلمون أنفسـهم في قـوة موحـدة مهما تفرقـوا في دول أو في نظم إدارية أو شـعوب منتشـرة في كل نـواحي الأرض.. أي أن نصرة الإسلام تقوم على وحدة المسلمين.

(6)

الإسلام دين يحتفظ للمرأة بكامل شخصيتها وكامل حقوقهـا.. وهو دين يعــترف بواقعية طبيعة المــرأة وواقعية طبيعة الرجــل.. يجمع بين الطبيعتين ويصـونهما على أسـاس إشـهار وإعلان العلاقة بينهمـا.. ومن وسـائل الإشـهار مثلا هو عقد الـزواج.. وإذا كـان قد أبـاح للرجل الـزواج بـأربع نسـاء تحت شـروط محـددة مفروضة عليـه.. فلأنه حـريص على ألا تفرض عليه طبيعته علاقة خفية سرية بينه وبين أي امرأة.. ولكن شعوبا أخـرى لا تـدين بالإسـلام تفـرض على نفسـها علاقـات خفية سـرية بين الرجل والمـرأة.. وهو ما يرفضه الإسـلام ويعتـبر جريمة يعـاقب عليهـا.. وهي جريمة الزنا.. مهما كان الدافع إليها منطلقًا من الطبيعة التي خلق بها الرجـل.. فـالمرأة المسـلمة أقـوى في مواجهة الواقع من أي امـرأة تدين بدين آخر".

انتهى اعتراف الكاتب الكبير إحسان عبد القدوس.. رحمه الله.

وإذا كـان إحسـان عبد القـدوس قد جعل من روز اليوسف وصـباح الخـير أكـبر صحيفتين لمناهج تبدأ من التحرر، وتنتهي بالتحلل وإذا كـان قد آوى إليها أكـبر مجموعة من أدعيـاء التنـوير وقـدمت تحريـرًا وتصـويرًا عـددًا من أسـوأ الكتابـات وأبعـدها عن الموضـوعية، فـإن إحسـان عبد القـدوس نفسه الـتزم بالتقاليد الإسـلامية[61] في بعض المجالات التي كانت كتاباته توحي بالتحلل، كـالمرأة. فلم يسـمح لزوجته بـالظهور في أجهزة الإعلام وكان حريصًا على أن تظل زوجة كاتب مشهور فقط.

وتضيف زوجته السيدة لواحظ المهيلمي – رحمها الله فقد تـوفيت أخـيرًا – هـذه قاعدة كنا نسير عليها في حياته، ولا يمكن أن أخرج عنها بعد وفاته: كان محافظًا وكان إيمانه بالله قويًا، والده كانت لديه فلسـفة في الإسـلام، كـان يصـلي بإيمـان وخشـوع، وكذلك إحسان كان عنـدما يصـلي يغمض عينيه وكأنه لا يريد أن يـرى شـيئًا من العـالم الموجود حوله، طوال حياته كان حريصًا على أداء صلاة الصبح قبل أن يبدأ عمله، وفي الـ 15 سنة الأخيرة كان حريصًا على أداء الفروض الخمسة في أوقاتها.

يا ليت كتاب روز اليوسف وصباح الخير يقرءون جيدًا ما كتبه أستاذهم ويفكـرون فيه مليًا...

---

61 (?) **نقول بالتقاليد الإسلامية لأنه ليس في الإسلام ما يمنع من ظهور المــرأة في المجتمع أو تقوم بدور في النشاط العام إذا كان لديها ما تقدمه، وما يمثل إضافة.**

***

وفي سبتمبر 1993 توفي آخر "التنويريين العظام"، كما قالوا، وهو الدكتور زكي نجيب محمود صاحب الوضعية المنطقية التي تقوم على تحليل عقلي. واعتقد كثير من الإسلاميين أنه بعيد عن الفكر الإسلامي، إن لم يكن مجافيًا له. وحقيقة الحال غير ذلك؛ فقد نشأ في القرية، وتعلم في "الكتاب" ثم أصيب في شبابه، وعند ذهابه إلى أوروبا، بصدمة الانبهار التي أشرنا إليها والتي يبدو أنها كانت ضربة لازب لكل الكتاب والمفكرين في هذه الفترة عند لقائهم الغرب، وكتبه الأولى "جنة العبيط" و "شروق من الغرب" و"خرافة الميتافيزيقيا" تصور تلك المرحلة، ولكنه بعد ذلك ألم بالجانب الآخر من الفكر، وبدأ يعمل لتحقيق نوع من المصالحة بين الفكر الأوروبي والفكر الإسلامي.. بين الماضي والحاضر، دون أن يفقد الأصول الفكرية العقلانية التي آمن بها.. وكتاباته الأخيرة تصور هذا التحول.

وفي 9/12/1979 كتب زكي نجيب محمود مقالا في الأهرام بعنوان "قلم يتوب" أهداه إلى الدكتور حسين فوزي المتيم بالحضارة الأوروبية، يصور فيه تحوله من مرحلة الانبهار التي جعلته يتمنى "لو كنا نسخة من أوروبا، حتى في الكتابة من الشمال إلى اليمين، وارتدينا من الثياب ما يرتدون، وأكلنا ما يأكلون، ونفكر كما يفكرون، وننظر إلى الدنيا بمثل ما ينظرون"!

ثم دارت الأيام، وكتب "لقد تمنيت لأمتي فيما سبق أن تكون قطعة من الغرب، لكنني اليوم أريد لها أن تكون أمتي هي أمتي، وختم مقاله "رأيت القلم الذي شطح ذات يوم في تطرفه نحو الغرب قد عاد آخر الأمر إلى توبة يعتدل بها..."!

وعقب وفاته نشر أحد الصحفيين كلمة عن "اللـه" في قلب زكي نجيب فنقل ما قاله زكي نجيب محمود عن ذلك وجاء فيه[62]:

إنني ألتمس عدة طرق لكي أستشعر بأنني في حضرة الخالق، أولها وأكثرها تكرارًا هي ما دبرت عليه نفسي أثناء الصلاة فقد اعتدت أن أتأمل كل لفظ أنطقـه، وكل حركة أتحركها وأحاول أن أصل إلى المغزى البعيد لكل جزء من هذه الأجزاء وهو ما يوحي إلي بالشعور بجلالة الله وعظمته ورحمته.. وهذا الأمر أتبعه في بقية أركان الإسلام الخمسة، ويضيف: "إن هذا الأسلوب أتبعه عند قراءة القرآن الكريم أيضًا حيث وجدت نفسي – في النصف الثاني من حياتي – أمام إغراء قوي كلما قرأت شيئًا من القرآن، بأن أقف عند آية أو آيات معينة لأغوص غوصًا في مفرداتها وأسلوب تركيبها، وغالبًا ما أخرج بما لم أكن رأيته عند القراءات الأولى التي تخاطب الأذن والقلب معًا بمجرد تبيانها المعجز ونفحها الأخاذ.. ففي هذه الوقفات التحليلية المتأملة أخرج بجانب آخر يضاف إلى ما سبق أن استخرجته من أبعاد المعنى وهو الشعور بشدة قربي من الله عز وجل، لأنني وأنا غائص وراء الدر المغمور في كلمات الآية الكريمة، تنقطع الصلات الحسية أو تكاد بيني وبين ما يحيط بي من مؤثرات الصوت والضوء والحركة فأين أكون إذن إلا في رحاب ربي منزل الوحي بالكتاب؟" ويتبع مفكرنا أسلوبًا آخر ليستشعر أنه قريب من خالقه وهو اللجوء إلى أسماء الله الحسنى.. قائلا: "ولما كنت أعلم أن هذه الأسماء – باستثناء لفظ الجلالة – هي في حقيقتها صفات، إذا كانت مطلقة فهي صفات الله، فأجدني ألجأ إلى أن أمد أية صفة من هذه الصفات – من حدود وجودها في نفسي، محاولا أن

---

62 (?) **الأهرام في 17/9/1993.**

أتصورها وقد أصبحت بلا حدود، فأشـعر عندئذ بشـيء من الشـعور بـأنني في حضرة الخالق.

وكما لاحظنا في تقصينا، فإن كل الذين نشئوا نشأة ريفية عادوا إلى الإيمان بعد شفائهم من صدمة الانبهار، ولم يختلف الأمر بالنسبة للـدكتور زكي نجيب محمـود، وما يتميز به هو أنه كان "عقلانيا" أكثر من دعاه التنوير السابقين، ولـذلك فـإن اتجاهه أخذ شـكلا "أكاديميًـا" إلى حد مـا، ولكنه في النهاية إسـلامي، وهو وإن كـان "معتزليًـا" في عقلانيته فإنه كان "متصوفًا" في عواطفه، وقد أجرت إحدى الباحثات حديثًا معه نشرته في العدد الأسبوعي لجريدة الوفد تحت عنـوان "**قلبي ينبض بالتصـوف، وعقلي لا يعترف بغير العلم**" قدمت له بمقدمة جاء فيها:

يحدث أحيانًا في الحياة اليومية إذا ما رأينا إنسانًا يبـالغ في إظهـار تدينه وارتفاعه فوق الماديات والعالم الحسي، يحـدث أن تـدعونا مبالغته إلى طرح سؤال مشاكس: هل هو يطبق ما يردده باستمرار على نفسـه؟ وألا يكون في الأمر محاولة لإخفاء حقيقة مغايرة تدفعه لهذا الإفراط؟!

وفي الغالب ما تكون الإجابة مطابقة للافتراض المطروح.

وبشكل ما طرح هـذا المنهج في الفهم نفسه علي بعد أن أمضـيت فـــترة من القـــراءة المكثفة لأهم ما كتبه د. زكي نجيب محمـــود وخاصة الجانب الأدبي من إنتاجه.. تساءلت بإلحـاح وإن كـان بشـكل عكسـي: ألا تكون دعـوة الأسـتاذ الدائمة للتجريبية والمنهج الحسـي، والعقلانيـة.. ألا تكـون تلك محاولة منه للانتصـار على نفسـية عاطفيـة، ووجـدان ملتهب، ونزعة إلى التصوف؟ وكانت الإجابة أيضًا: نعم نشرتها وقتها تحت عنوان "زكي نجيب محمود يغالب تصوفه" وقد أتممت ذلك البحث بحديث مباشر مع الأسـتاذ الكبـير – لم ينشر من قبل – عن الـدين في حياتـه.. سـأقدم نصه للقارئ اليوم.

وبداية فلنلق نظـــرة ســـريعة على د. زكي نجيب محمـــود من خلال رسالته العامة..

أهم ما يميز الكاتب هو اضطلاعه برسالة معينة يعمل على تحقيقها والدعوة الدائبة لها بين قرائه ومواطنيه. وبقـدر ما تكـون هـذه الرسـالة استكمالا لنقص أو تعبيرًا عن احتياج ومحاولة لإعادة التـوازن لبنـاء ماثل بقدر ما تكون القيمة الإيجابية لهذه الرسالة فحينما ينتشر الخنوع نحتـاج لكـــاتب ثـــائر.. وحين يتفشى الجهل نحتـــاج إلى الـــداعين للعلم.. وحين يهرب الناس إلى الماضي تكون الدعوة ملحة أيضًا لمعرفة لغة العصر.

وإذا كانت بضدها تتميز الأشـياء فـإن الكتابة الحقة تنتفي رسـالتها إذا ما كـــانت محض ترديد لنغمة ســائدة.. ولا ميل مع الـــريح حيث مـــالت والمزايدة على المعاني الرائجة في سوق القراءة.

وحـتى إذا ما اتفق الكـاتب مع الفكر الأساسي السـائد في مجتمعه فـــإن دوره إذا كـــان أصـــيلا ومتعمقًا ومجتهـــدًا لابد أن يجعل كلماته في النهاية جديدة ومختلفة ومثيرة للمعـارك الذهنية يعتلي من أجل هـذا كله "رسـالة الكـاتب وكفاحه من أجلهـا" د. زكي نجيب محمـود القمة الـتي يتبوؤها في الفكر العربي المعاصر.

فقد كـانت رسـالة د. زكي نجيب محمـود في الشق الأول من حياته تركـــيزًا على النقص الـــذي رآه والحيـــاة المصـــرية والعربية حيث يغلب

الوجـدان على العقل ويـؤثر اللفظ والكلمة على حضـارة الأداء والفعـل، وهو يقول في هذا:

"لاحظت في حياتنا الثقافية جهــودًا تبــذل وحماسة لا تنطفئ نحو إخضاع العقل وعلومه لسلطان الوجد وفنونه فجعلته هـدفا أسـعى إليـه، أن أدق طبــول الحيــاة العلمية المرتكــزة على العقل وحــده وأما مجــال الوجــدان فله من الســدنة الــذين يقومــون على خدمته ما يكفيهم، وهو الموقف الــذي دافع عنه إلى أقصى حد وحــدد أركانه من "أجل فلســفة علميــة".. ثم عــاد واســتكمل بنفسه مســيرته الجديــدة من أجل إعمــال العقل في الــتراث الفكــري العــربي وتحليله بغية الإفــادة منه ومحاولة التفرقة ما بين الغث والســمين منه ولم يكتف بتســجيل نظــري لموقفه الجديد فيما يفعله الكثيرون في غيبة الإبداع والاجتهاد بل عكف ســنوات طــوالا منذ الســتينيات على دراسة الفكر العــربي، والــدكتور زكي نجيب محمود يغـالب نزعة صـوفية تلح عليه وتظهر نفسـها رغمًا عنه في أكـثر من موضع مما لا نفيض فيه الآن؛ فيقول مثلا: "لو كتبت ما يســتريح إليه قلبي صادقًا لما انقطعت يومًا واحدًا عن الكتابة في الحث على التصوف الزاهد لأن مثل هــذه الحيــاة هي حقًا ما ينبض لها القلب بين ضــلوعي كلما قــرأت عنها ولكن الــذي يحــول بيــني وبين أن أفعل ذلك هو صـوت العقل قــائلا إن تصــوف الزاهــدين لا يحقق ما نريــده لأمتنا العربية من أهداف".

وعن الجانب الديني الذي لم يركز عليه المفكر الكبير قلمه كان لي معه هذا الحديث عن الدين في عالم زكي نجيب محمود.

الدين في عالم زكي نجيب محمود

سـألت د. زكي نجيب محمـود عن موقع الـدين وصـورته عنـده عـبر المراحل الفكرية المختلفة في حياته؟

فأجاب:

منذ السن البـاكرة الـتي لم تكن تجـاوزت العاشـرة أخـذت في أداة الصلاة والصيام وهما الفريضتان الممكنتان بالنسبة للطفل حتى لو كـان والدي – على تدينه – يمنعني بالقوة من الصيام خصوصًا وقد كان الصيام (رمضان) في ذلك الحين خلال الصيف. ومع ذلك كنت أراوغه وأظل على صومي ولو لبضعة أيام، هكذا بدأت متعلقًا بأداء الفـرائض ولكن قد يقـال إن سن الطفولة الباكرة إنما تلجأ إلى المحاكاة التي لا تضـمن أن يكـون وراءها إيمــان بــالمعنى المفهــوم، ولكنــني بعد أن تقـدمت بي الأعــوام وأصــبحت على مشــارف المراهقة أعــني بين الثالثة عشــرة أو الرابعة عشرة وجدت نفسي أوغل في التزام تلك الفــروض بل إني لأنكر أشــياء كثيرة قد يكـون لها مغزاها إذ أنكر مثلا أنــني كنت أقضي إجـازة الصــيف في قريتنا بــالريف وكنت على صــغر ســني أصر أن أذهب إلى المســجد لصـلاة الفجر بل أصر على الصـعود إلى المئذنة لأشـارك في أذان الفجر وكان أمرًا يضحك الكبار عندئذ لكنهم تركوني خشية أن يكونـوا بـالوقوف في سبيلي يأتون بأمر يغضب الله.. كـذلك أذكر أنــني في تلك السن وما بعدها بقليل كنت أحرص جدًا على أن أقضي الفترة ما بين صلاة المغرب وصلاة العشاء في المسجد لأستمع للدرس الديني الذي كـان يلقيه عندئذ شـيخ أحببته وأعجبت به وكـان هو المصــدر الأساسي الــذي عـرفت منه

أمورًا كثيرة تتعلق بتفصيلات العقيدة الدينية. ظللت على هذا النحو إلى نحو الثلاثين من عمري ولكنني عندئذ أخذت بحكم تكويني الدراسي والثقافي الذي حصلته من قراءاتي الكثيرة جدًا بدأت أميل إلى أن أحتكم إلى موقف العقل فيما أقبله وما لا أقبله من التفصيلات التي كان يقولها ذلك الشيخ في دروسه أو التفصيلات التي كنت أسمعها من غيره أو أقرؤها ضمن ما أقرأ وإنني لأسأل الآن ماذا كنت أعني يومئذ بالاحتكام إلى العقل في أمور هي من الدين وليس من العلم وأجيب على ذلك بل إنني اعتقدت منذ ذلك الحين أن الدين وإن يكن شيئًا غير العلم إلا أنه يكون أقوى في نفس المؤمن عندما لا يكون متعارضًا مع ما يقوله العلم. وتقدمت بي الأعوام بعد ذلك فازددت استمساكًا بهذه الوجهة من النظر لكن التمسك بهذه النظرة كثيرًا جدًا ما توقع صاحبها في مواقف لا يعرف كيف يتخلص منها إذ كثيرًا ما يجد أشياء في تفصيلات العقيدة الدينية لا تتفق مع نتائج وصلت إليها العلوم المختلفة فعندئذ تأخذه الحيرة، أأتنكر للعلم؟ وهو ما لم أكن أستطيعه مع نفسي يومئذ.. أم أتنكر للدين وهو كذلك ما لم أكن أستطيعه بل وما لست أستطيعه في أي يوم من أيام حياتي الطويلة. ولكن هذا التصادم كان يحدث لي نوعًا من الحيرة العقلية ثم تقدمت بي الأعوام مرة أخرى وأتيح لي أن أقرأ بعض المذاهب الفكرية في الإسلام وأجد بينها مذهب المعتزلة ومذهب الأشاعرة فأجد عندئذ أن باب الخلاص قد انفتح أمامي.. ذلك لأن المعتزلة كانوا يحتكمون إلى منطق العقل في فهمهم لأركان الدين وكذلك الأشاعرة كانوا يأخذون بمبدأ أن يلجأ المسلم إلى عقله في فهم القرآن الكريم حتى آخر ما يستطيعه ذلك العقل.. فإذا بقيت بقية لا يستطيع العقل فهمها وتفسيرها على طريقته يقول المسلم عندئذ "الله أعلم بالمراد في هذه الحالة".

وجاء الشيخ محمد عبده في تاريخنا الفكري الحديث وأخذ بهذا المبدأ.. هذه الأمور كلها أدخلت في نفسي السكينة لأني عرفت كيف أقف الموقف الذي يريح عقلي وضميري الديني في آن واحد.

فأنا الآن مازلت أستمسك بما يصل إليه العقل من نتائج تقام على البرهان الصحيح.. ثم إذا ما قرأت القرآن الكريم بعد ذلك فإنني أحاول أن أفهمه على طريقة الشيخ محمد عبده بمعنى أن أفهمه الفهم الذي لا يتعارض مع نتائج العلم وفي معظم الأحيان يكون هذا التوفيق بين الطرفين أمرًا ميسورًا، إلا في الحالات التي يعجز العقل أن يجد لها الفهم فعندئذ آخذ بوصية الأشاعرة وأقول "إن الله أعلم بالمعنى المراد".

ثم يضاف د. زكي نجيب محمود موضحًا:

"إنني أعتقد أنه يستحيل على أي إنسان أن يعيش بغير دين حتى أولئك الذين قد يتصورون أنهم يستطيعون ذلك فهم لم يحللوا أنفسهم التحليل الصحيح. وأقل ما أقوله في هذا المجال هو أن الإنسان في أعمق أعماق فطرته يريد أن يرى أن للخير ثوابه وأن للشر عقابه ولما كان هذا لا يتحقق دائمًا في هذه الدنيا فكل إنسان يتمنى أن يكون هناك العالم الآخر الذي ينتقم من باعث الشر ويثيب فاعل الخير وفي هذه الأمنية بذرة الإيمان باليوم الآخر حيث يكون الحساب.

***

فهـذا الاسـتعراض لعلاقة كـاتبين (الأسـتاذ إحسـان عبد القـدوس والـدكتور زكي نجيب محمود) يعدان من أعلام التنوير ويظن البعض أنهما بمفازة من الفكر الإسلامي. يوضح أنهما كان – إيمانًا والتزامًا – من خيرة المسلمين. فهما يؤمنـان بالله في صـورة رفيعة، وبالرسول وما ينبغي له من تقدير، ويلتزمان بأداء الشعائر. ولا جدال في أنه لو وجد فكر إسلامي فوق مستوى فقه التقليد لكان لهما مشاركة إسلامية إيجابية أعظم، وهو ما يمكن أن يقال بدرجات متفاوتة بالنسبة لكل الشخصيات التي أشرنا إليها.

الفصل الثاني
مشروع للأجيـال

لكي يتحقق ما استهدفناه، وتتصافح اليدان فإن من الضروري أن يلـتزم كـلٌّ من الفقهاء ودعاة التنوير بإطار فكري يحـدد الموقف الأمثل بالنسـبة للقضـايا الكـبرى في المجتمع المصري وتتلاقى هذه المواقف بعضها مع بعض ليبدأ منها الانطلاق.

ونحن – عنـدما نضع هـذا المشـروع – لا تخالجنا أوهـام عن درجة تقبله اليـوم. فنحن نعلم حق العلم أنه من العسير أن نقتلع ما غرسـته التقاليد جيلا بعد جيـل، ولا ما أقامته المصالح من صروح ممردة ومزايا مكتسبة. ونحن نقـدر أيضًـا أن فقهـاء التقليد وأدعياء التنوير لديهم صبابة من إيمـان ما – بالإضـافة إلى التقليد والمصـلحة – يجعلهم جميعًا يتمسكون بما هم عليه.. ولا يبغون عنه حولا.

ولكننا لا نضعه لهم، وإنما لجيل آت، وربما لأجيال آتية. فنحن نغرس بذرة زيتونة لن نراها، ولن نتذوقها.. ولكننا ما لم نغرسها الآن فسيفوت الوقت على الأجيال.

والمشروع الذي نضعه يجعل من فقهـاء التقليد دعـاة تنـوير، ومن دعـاة التنـوير فقهاء تجديد، بمعنى أن اليمين لا تعارض اليسـار، ولا اليسـار ينـاقض اليمين، وإنما كل واحد يكمل الآخر..

إن "خندقـــة" كل فريق في مكانه ليس من الإســـلام، ولا هو منطق العصــــر؛ الإسلام لم يشـيد "كنيسـة" أو مؤسسة لها حق التحليل والتحـريم والتفسـير والتأويـل، وإنما قال "أهل الذكر" وكل واحد يمكن أن يكون من أهل الذكر إذا ألم بعدة ذلك. كما أن كل صـــنوف العلم والمعرفة من جيولوجيا أو هندسة تـــدخل في صـــميم العلم الإسلامي فليس هناك تعارض بين علماء وفقهـاء. وكـان العلمـاء الأول يحكمـون الفقه والموسيقى والفلسفة والرياضة والطبيعة.. فإذا كان التخصص يفرض نفسه، فليس له أن يغلق الأبواب...

إننا نـدعو الفـريقين لكي يغـيرا مواقفهما الـتي تمـزق المجتمـع، وتشل سـيره وتحول دون وحدته، ندعوهم مرارًا وتكرارًا لأن يعيدوا النظر..".

***

ها هو ذا مشروع الأجيال
أ – بالنسبة للفقهاء
-1-

الإسلام هو ختـام الأديـان السـماوية، وجماعهـا، وهو يعـترف بها وبرسـلها جميعًا ويُرجع الاختلاف ما بينها إلى التحريف والمصالح والأوضاع، وهو يـؤمن بالبشـرية كلهـا. وأن الله تعالى أراد التعدد والاختلاف لإثراء الحياة وليحدث التعارف والتبادل والتلاقح ﴿وَجَعَلْنَـاكُمْ شُـعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَـارَفُوا﴾ وهو بـريء من الأحاسـيس الدونية أو الاسـتعلاء أو الذاتية التي تثير العداوات وتقيم الحواجز ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

-2-

جعل الله تعالى الإنسان خليفة على الأرض، وعلمه الأسماء وأسجد له الملائكة، وأنزل الإسلام لهدايته... فالغاية هي الإنسان والوسيلة لهدايته هي الإسـلام.. فالإسـلام يريد الإنسان.. ولكن فقهاء التقليد يريدون الإسلام، ومعنى هذا أن تصبح الغاية وسيلة، والوسيلة غاية، ومن هنا جاء الاختلاف بين منهج الإسلام الحق، ومنهج فقهاء التقليد.

إن الإنسان المستخلف، المزود بالعقل، والمتحمل لمسئولية إعمار الأرض بالعمل، والعلم، والقيم، يجب أن يكون قاعدة المجتمع الإسلامي والفكر الإسلامي، ويجب أن نلحظ "كرامة الإنسان" عند وضع النظم وعند ممارستها.

-3-

الأساس في فهم الإسلام والتعرف على هديه واستخلاص أحكامه هو القرآن الكريم دون الالتزام – ضرورة – بما وضعه المفسرون من أحكام شلت بعض الآيات بالنسخ المزعوم وكيَّفت آيات أخرى بأسباب النزول، فضلا عن الإسرائيليات التي حشيت بها التفاسير وعلى كل حال فمن المسلم به أن النص القرآني المقدس شيء – والتفسير والتأويل شيء آخر ولا يمكن معاملتهما على قدم المساواة.

كما أن المبادئ التي وضعها الفقهاء لأصول الفقه، والمحدثون في الجرح والتعديل ومصطلح الحديث... إلخ، كلها في حاجة إلى إعادة النظر، لأن السلف ليس معصومًا، وقد كان محكومًا وهو يضع مناهجه ويصل إلى نتائجه بروح العصر وبقلة المعلومات، ونحن اليوم أقدر على فهم حكمة التشريع واستخلاص النتائج بفضل ما تيسر من وسائل الطبع والنشر والإحصاء والتصنيف مما لم يكن متاحًا للسلف، فضلا عن أننا مأمورون بالتفكير، منهيون عن التقليد واتباع الآباء والأجداد.

-4-

التعددية طابع الإسلام، لأن التوحيد صفة الله تعالى التي استأثر بها ولا يشاركه فيها أحد أن شيء. أما بقية الكائنات فإنها تكونت على الأقل من "زوجين" أو تضمنت عددًا من العناصر.

وإنما كانت التعددية طابع الإسلام لأنه منهج حياة يضم ما فيها من اقتصاد واجتماع وسياسة... إلخ ولأنه دين البشرية.. ما مضى منها وما سيأتي، ولابد في مثل هذا من التعددية. ولهذا أيضًا كان المثل الإسلامي الأعلى هو العدل، لأن العدل يفترض التعددية، ويصبح هو فضيلتها.

وتظهر التعددية في الاستخدام القرآني المعجز للكلمات والألفاظ الذي يفتح الباب أمام تأويلات عديدة ومتفاوتة أراد الله بها أن يجد كل جيل ما يتفق مع مستواه وتقدمه، ولا يجوز مصادرة آية بآية أخرى... لأن القرآن لا يضرب بعضه بعضًا، وإنما يكمل بعضه بعضًا.

كما تظهر التعددية في "انفتاح الإسلام" واستهدافه الحكمة أينما كانت، واعترافه بالأديان والاختلاف في الآراء ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.

وقد أدى عدم تعمق هذا المعنى في ذهن الآلاف إلى أخذهم بفكرة "النسخ" ومحاولتهم التقريب بين النصوص المختلفة أو استبعاد بعضها. والأمر في حقيقته غير ذلك، فتعدد النصوص وتفاوتها صورة من تعددية الإسلام أراد الله تعالى بها الفسحة والسعة في دائرة الاختيار ما بين بدائل متعددة.

-5-

إن القرآن الكريم عندما اعتمد "المعروف" و "المنكر"، أضفى غلالة إنسانية رقيقة على الشريعة، وجعل الرأي العام من مصادرها، وأي محاولة للحجر على هذين التعبيرين أو إعطائهما معنى معينًا إنما هي افتيات على النص، إذ لو أراد الله تعالى تحديدًا لوضع تعبيرًا آخر، ولكنه تعالى أراد بهذا التعبير أن يحقق المرونة والسعة في جوانب من التشريع بما يتفق مع التطور. وقد ثار احتمال تضارب النص مع مفهوم المعروف السائد عند قوم ما، أو عهد ما، والرد أن هذا لا يحدث بالنسبة للكليات والثوابت. فلن يكون الظلم والجهل والشرك والكذب معروفًا أبدًا، ولكنه يحدث

بالنسبة للتقاليد والعادات الاجتماعية، كالزي والـذوق، وعندئذ تصـبح القضـية هي "فهم النص في إطار المعروف" أو الأخذ بالمعروف باعتباره ما أمر به النص نفسه بالأخذ به في إطار التعددية التي يسمح بها الإسلام.

والمهم أن لا يكــون هنــاك اختيــان أو استســلام للهــوى عند تحديد المعــروف والمنكر، مع التسـليم بـأن الاختيـان والاستسـلام نسـبيان. فما يـدخل في إطارهما في عصر ســابق لا يــدخل في إطارهما في عصر لاحــق، يجاوزهمــا.. والقلب الســليم هو الفيصل.

-6-

حرية الفكر والاعتقاد مطلقة يكفلها الإسلام إلى آخر مدى.. فمن شـاء فليـؤمن، ومن شاء فليكفر.. ومذهب الإسلام في هـذا أن حرية الفكر هي الطريق إلى الإيمـان، فلا إيمان يقوم على جهالة، أو يفرض قسـرًا.. وإذا كـان المجتمع الإسـلامي هو مجتمع العقيدة، فإنه بالتبعية والضـرورة مجتمع الحرية فلا عقيـدة دون حريـة، ولا إيمـان دون نية.. وحرية الفكر هي الـتي تكفل الحيوية للعقيـدة وتحـول دون أن تتحـول إلى "بركة آسـنة". وإذا أردنا أن نعـزز الإيمـان فبـالمنطق والبرهـان، لا بـالقمع والسـلطان، وفي مجال المقولات لا على أشخاص القائلين!

ولا يجوز مطلقًا تكفير آخرين، أو الافتيـات على عقائـدهم.. فهـذا ما اسـتأثر الله تعالى وحده بالحكم فيه يـوم القيامـة، ولا يحاسب النـاس في الـدنيا على ما يؤمنـون، ولكن على ما يعملون...

-7-

أبرز القـرآن الكـريم قداسة العلم عنـدما أمر الملائكة أن تسـجد لآدم لأنه علمه ﴿الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ وتحدثت الآيتان 27 و 28 من سورة فـاطر عن شـموله، وأمر الرسـول بطلبه أينما كان (ولو في الصين)... [63].

من هنا يجب على الفقهـاء أن لا يقنعـوا بثقافـاتهم الدينية التقليدية لأنها لم تعد كافية، وعليهم أن يلموا ويستوعبوا بقدر ما يمكن من ثقافات العصر، ولا يصـدنهم عنها أنها أمريكية أو هندية أو أوروبيـــة.. لأنها كلها "معرفـــة" تســـهم في حل المشـــكلات والنهضة بـالمجتمع والتجـاوب مع العصـر، كلها حكمة نحن أحق بها أينما كـانت، وكيف يمكن لفقيه أن يفـتي في قضـية الربا وهو يجهل آليـات البنـوك ودورها في الاقتصـاد الحديث!؟

-8-

يعمل الإســلام على مســتويين: فهو يضع المثــال الــذي يفــترض أن يســتهدفه الإنسان، ثم هو يعترف بالواقع الذي تتحكم فيه الضرورات ويخضع لسلسلة معقدة من العوامل بعضها يعود إلى الفرد وبعضها إلى الظروف والملابسات.. إلخ. ويضع الإســلام "آليات" أو "ميكانزم" للتفاعل ما بين المثال والواقع، ومن مفردات هذه الآيات:

(1) اعتبار التيسير أصلا في الممارسة، والوسع أصلا في التكليف.

(2) المقاصة التي تقوم على مبدأ ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾.

(3) ملاحظة الأولويات....

(4) ملاحظة الضرورات...

(5) الاستغفار...

---

[63] (?) **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالـدَّوَابِّ وَالأنْعَـامِ مُخْتَلِـفٌ أَلْوَانُـهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾**

(6) التوبــة...

وهـذه الآليـات تسع كل التصـرفات الـتي لا تتفق مع المثـال ويصـدر فقهـاء التقليد أحكامًا صارمة عليها!

-9-

إن هـذا يعطينا مـدخلا إزاء المسـتجدات في المجتمـع: كالسـينما، والمسـرح، والتليفزيون، والصور المختلفة للهو والترفيه التي لم تكن معهودة في العصـور الأولى، ومجـالات الجمـال المفقـودة في المجتمع الإسـلامي، فبعضـها قد يتجـافى مع المثـال، ولكن يقبل على أسـاس الواقـع، ويُتعامل معه بالآليـات المشـار إليها آنفًـا... وقد يعد بعضها من "اللمم" الذي لم يستبعد القرآن وقوع المؤمنين فيه ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُـونَ كَبَـائِرَ الإِثْمِ وَالْفَـــوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ ولأبي هريـــرة رأي عن اللمم يجعله كل ما هو دون الزنا الصريح ([64]).

وفي الوقت الذي يقف فيه الإسلام هذا الموقف من الضعف الإنسـاني باعتبـاره جانبًا من جــوانب الطبيعة البشــرية.. فإنه يتوقع من الــذين يلمــون به أن يضــاعفوا الحسنات والعمل الصالح ليوجدوا نوعًا من الموازنة والمقاصة.

على أن الإسلام إذا تسـامح مع الضـعف البشـري بتلك الضـوابط المشـار إليهـا، فإنه لا يتسامح مع الشر كالاستغلال والظلم وإذلال الناس.

-10-

لابد من الاعتراف بأن الفكر التقليدي لـدى الفقهـاء عن المـرأة قد ظلمها ظلمًا شديدًا وجنى عليها لقرون متتالية، وكان هذا من أسباب تخلف المسلمين.

وقد حكمت التقاليـد، وليس الإسـلام، كل ما يتعلق بـالمرأة حـتى اليـوم.. وآراء بعض الفقهاء عن المرأة يجعلها اليوم متخلفة عما كانت عليه أيام الرسول ﷺ، وتعـارض معارضة حادة روح القرآن وصريح الآيات...

إن كل ما يــورده فقهــاء التقليد عن الحجــاب، والاختلاط، والــزواج، والطلاق، والزي، والزينة يحتاج إلى مراجعة شاملة حتى يعود مرة أخرى إلى روح الإسـلام الـتي عبرت عنها البنود السابقة.

***

وبالنسبة للكتاب والمفكرين و"التنـويريين" فـإن الإطـار هو:

-1-

لابد لكل من يعمل في مجـــال الفكر والإعلام والـــدعوة والسياسة أن يعلم أن مصر هي بلد الإيمان، وأن الـدين هو أبـرز مقوماتهـا.. إن الشخصـية المصـرية تكـونت تكونًا إيمانيًا على امتــداد ثلاثة آلاف سـنة متصــلة قبل أي غــزو خــارجي، فــامتزجت الشخصية بالدين، وكان الدين طوال هذه المدة هو محور المجتمع...

-2-

إن إيمان مصر بالإسـلام لم يكن مصـادفة أو اعتباطًـا، ولكنه كـان أمـرًا مقضـيًا، ولابد منه لتتم مسـيرتها الدينيـة، وليأخذ تصـورها القـديم عن الخلـود والعدالة الصـورة المثلى، والأخيرة، فقد وجدت مصر في الإسلام دينها، ووجد الإسلام في مصر وطنه.

وتجاهل إســلامية مصر هو حرمانها من الهوية والاسم والحضــارة والشخصــية المميزة لها وقطعها من تاريخها وأمجادها.

---

64 (?) **المستدرك للحاكم ص 246 ج ع وقال: "هذا حديث صحيح، ولم يخرجاه".**

-3-

لهـذا فـإن أية فكـرة عن دولة علمانيـة، ينفصل فيها التوجيه الـديني عن الحيـاة والمجتمع، أو يكون الدين مجرد علاقة خاصة بين الفرد والله دون تـأثير على الاقتصـاد والسياسة والاجتماع، فكرة مرفوضة تمامًا، ولن تقبلها مصر بحكم شخصيتها الإيمانيـة، كما سيرفضها الإسلام بحكم طبيعته... لقد كانت مصر – وستظل – دولة إسلامية.

-4-

ليس هنـاك مـبرر – على الإطلاق – للخـوف من سـوءات "الدولة الدينيـة"، فهي منتفية من الإسلام لأنه عقلاني الطبيعة يجعل معجزته كتابًا ويسـتبعد المؤسسة الدينية المحتكرة، ويقيم فكرته عن الله على الفطرة السـليمة، لا اللاهـوت الـذي لا يفهمه إلا رجال الدين.

-5-

إن الإسـلام كجـذر للمجتمع المصـري ومقـوم للشخصـية يتمحـور حـول القيم الحضـارية للإسـلام، وهي الضـمير للفـرد، والحرية للفكـر، والعدالة في الاقتصـاد، والشـورى في السياسـة.. وأن يكـون الحق هو المثل الأعلى للقيم، والعـدل هو المثل الأعلى للنظم.

والأديان بصفة عامة هي أصل الفنون والآداب واستلهام الخير والفضـيلة ومكانها مطلوب في كل مجتمع.

-6-

إن وجود أقلية 5% ـ 7% قبطية في مصر لا تغير الحقائق.. فالأقليات موجودة في كل العالم ولا يمس وجودها حقوق الأغلبية، والإسلام كحضـارة إرث لكل البشـرية، وليس للمسـلمين وحـدهم، ولغـير المسـلمين حق فيه وقيمه الحضـارية تكليل للقيم الحضارية في الأديـان جميعًـا، وقد كفل حقـوق غـير المسـلم بتقريـره حرية الاعتقـاد، وليس فيه حساسـية للآخـرين وهو يسـعهم تحت مظلة "لهم ما لنا وعليهم ما علينـا" ويمكن للأقباط أن يصلوا إلى أعلى المناصب تحت شـعار "قبطي دينا ومسـلم وطنًـا"، وهو على كل حال أفضل من العلمانية التي تضعهم تحت رحمة الأغلبية النزقة.

أما إذا آثروا التقوقع – كأقليـة- فـإن الإسـلام يكفل لهم فـوق ما تكفله القـوانين الأوروبية من حقوق وحمايات للأقليات.

-7-

لابد لدعاة التنوير أن يقلعوا عن عبـادة الآلهة الزائفـة.. إن الاشـتراكية بالصـورة التي دعا إليها ماركس وطبقها لينين، والقومية التي ظهـرت خلال القـرون الأخـيرة قد أصـبحت من سـقط المتـاع.. أما الحضـارة الأوروبية فيجب النظر إليها في مضـمون تجاوبها مع الطبيعة والقيم المصرية...

-8-

لابد لدعاة التنـوير أن يغسـلوا أيـديهم من قـاذورات الناصـرية، وأن يعـترفوا بما قـامت عليه من زيف وما أدت إليه من كـوارث على الـوطن والمواطـنين، وأن يبـدءوا بداية جديدة سليمة لا تقبل زيفًا، ولا تقوم على باطل فما قام على الباطل فهو باطل.

-9-

لابد من تضـافر الجهـود للقضـاء على السـنوات الـتي غرسـتها الناصـرية في المجتمع المصـري مثل ديكتاتورية الحـاكم وتأليهـه، وانفـراد حـزب بـالحكم، والدولة البوليسـية، وإهـدار كرامة المواطـنين، وتقييد الحريـات، وتزييف الانتخابـات، والفسـاد والتستر وراء الحصانات والمناصب والسوءات الـتي جرها الانفتـاح الطليق من تضـخم

الثروات الطفيلية والمشبوهة.. وارتفاع الأسعار ومشكلات البطالة والإسكان... إلخ والقيم الحضارية للإسلام هي خير ما يقودنا وسط متاهة النظم والمذهبيات...

-10-

نشأ معظم دعاة التنوير في أحضان الصحافة، وهي – إلى حد كبير – "مدرسة الغوغائية، والانتهازية، والسطحية، والجري وراء الإثارة والتصفيق والتهليل للحاكم.. إلخ".. وتأثروا بهذا الطابع قدر ما بعدوا عن الجد، والعمق، والإخلاص، وقد يصور هذا، الفرق بين "أخبار" أمين الرافعي في العشرينيات و"أخبار" إبراهيم سعدة اليوم، أو أن يكون الجد هو الكاتب الوطني النبيل أحمد حلمي([65]) والحفيد هو صلاح جاهين صاحب الكاريكاتير المستهجن، ولا ينفي هذا وجود صحافة جادة محدودة جدًا، وفي صف المعارضة.

ولابد للصحفيين المصريين أن يثقفوا أنفسهم ثقافة جادة وعميقة، وأن يجعلوا الصدق والحقيقة هدفهم وأن يتخلصوا من الآثار السيئة لصحافة الإثارة والصحافة الصفراء، وصحافة التبعية للحاكم وصحافة الابتزاز والارتزاق إلخ..

---

65 (?) **كان أحمد حلمي هو أحد كتاب الحزب الوطني وجريدة اللواء أيام محمد فريد، وكان مثالا للنبل والوطنية.**